الكتاب: معالم الفتن
المؤلف: سعيد أيوب
الجزء: ٢
الوفاة: معاصر
المجموعة: من مؤلفات المستبصرين
تحقيق:
الطبعة: الأولى
سنة الطبع: ١٤١٦
المطبعة: سپهر
الناشر: مجمع إحياء الثقافة الإسلامية
ردمك:
ملاحظات: التوزيع : انتشارات سعيد بن جبير – قم

معالم الفتن
نظرات في حركة الإسلام وتاريخ المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

معالم الفتن
نظرات في حركة الإسلام وتاريخ المسلمين
المعارك على التأويل
سعيد أيوب
الجزء الثاني

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
لمجمع إحياء الثقافة الإسلامية
إيران – قم المقدسة
ص. ب ٣٦٧٧ / ٣٧١٨
هوية الكتاب
اسم الكتاب: المعالم والفتن ج ٢.
تأليف: سعيد أيوب.
الناشر: مجمع إحياء الثقافة الإسلامية.
الطبعة: الأولى ١٤١٦ ه. ق.
المطبعة: سپهر.
العدد: ٢٥٠٠ نسخة.
السعر: ٧٥٠ تومان
مركز التوزيع
انتشارات سعيد بن جبير
پاساژ قدس – قم.

معارك الإمام
أولا – يوم الجمل:
تحركت أم المؤمنين عائشة ومن معها نحو البصرة. وروي أن أمير المؤمنين علي خرج على رأس قوة وهو يرجو أن يدركهم فيحول بينهم وبين الخروج. نظرا لما سيترتب على خروجهم. وبينما هو يستعد للخروج لقيه عبد الله بن سلام. فقال: " يا أمير المؤمنين لا تخرج منها – أي من المدينة – فوالله لئن خرجت منها لا ترجع إليها. ولا يعود سلطان المسلمين أبدا " (١)، وابن سلام لا يقول هذا من فراغ. ولكنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا عندما اعترض عليه أصحاب أمير المؤمنين. قال لهم الإمام: دعوا الرجل فنعم الرجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم " (٢)، ثم قال: " وأيم الله لقد أخبرني به رسول الله صلى الله عليه وسلم " (٣)، لقد عرف ابن سلام أن أمير المؤمنين باتجاهه نحو الناكثين يكون قد بدأ طريقا طويلا ينتهي بقتله. ولقد رأى أن الخطوة الأولى في اتجاه يوم الجمل تلتقي مع الخطوة الأخيرة يوم النهروان. فالأحداث ذات نسيج واحد وإن اختلفت الأعلام

---

(١) الطبري ١٧٠ / ٥، البداية والنهاية ٢٣٤ / ٧.
(٢) الطبري ١٧٠ / ٥.
(٣) رواه أبو يعلى والبزار وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٣٨ / ٩)، ورواه الحاكم وصححه (المستدرك ١٤٠ / ٣).

والأسماء. لذلك قال ابن سلام في الحديث الصحيح للإمام: " لا تقدم العراق فإني أخشى أن يصيبك بها ذباب السيف فقال: وأيم الله لقد أخبرني به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن سلام: فما رأيت كاليوم قط محاربا يخبر بذا عن نفسه – وفي رواية – ما رأيت كاليوم رجلا محاربا يحدث الناس بمثل هذا " (١)، أي ما رأيت محاربا يحدث الناس بأنه سيقتل على هذا الطريق، وقتله واقع لا محالة.

وبينما كان الإمام يتجهز لرد الناكثين جاء رجل من أهل الكوفة فقال: " ما هذا؟ فقالوا: أمير المؤمنين. قال: ما له، قالوا: غلبه طلحة والزبير فخرج يعترض لهما ليردهما. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. آتي عليا فأقاتل معه هذين الرجلين وأم المؤمنين أو أخالفه إن هذا لشديد " (٢)، وكانت هذه أول صفحة على طريق الجمل وفيها التباس الأمور عند الناس.

وروي أن الحسن بن علي رضي الله عنه كان قد أشار على والده في أمور منها: " أنه قال له أخرج من المدينة يوم حصار عثمان. ولكن الإمام عصاه في ذلك وقال له: أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان. فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به " (٣)، ويبقي سؤال: من الذي أحاط بأهل البيت وبعثمان في وقت واحد؟ لقد كان هناك حصار منظور وحصار غير منظور ولكن الإمام الخبير بالرجال يعلمه جيدا. إن الإجابة على هذا السؤال يتعذر الوقوف على علمها. ولا يعلم حقائقها إلا من شاهدها ولابسها. بل لعل الحاضرين المشاهدين لها لا يعلم الكثير منهم باطن الأمر، وروي أن الحسن بن علي كان له رأي في خروج طلحة والزبير ومن معهما. وهو أن يجلس الإمام في بيته ثم يراقب الأحداث. فقال الإمام: وأما قولك حين خرج طلحة والزبير فإن ذلك كان

---

(١) رواه أبو يعلى والبزار ورجاله ثقات والحاكم وصححه والحميدي وابن حبان في صحيحه (الزوائد ١٣٨ / ٩)، (المستدرك ١٤٠ / ٣)، (الخصائص الكبرى للسيوطي ٢٣٥ / ٢).

(٢) الطبري ١٧٠ / ٥.

(٣) الطبري ١٧٠ / ٥.

وهنا على أهل الإسلام. ووالله ما زلت مقهورا مذ وليت. منقوصا لا أصل إلى شئ مما ينبغي وأما قولك: اجلس في بيتك. فكيف لي بما قد لزمني أو من يريدني. أريد أن أكون مثل الضبع الذي يحاط بها ويقال دباب دباب ليست ههنا حتى يحل عرقوباها ثم تخرج. وإذا لم أنظر فيما لزمني من هذا الأمر ويعنيني. فمن ينظر فيه، فكف عنك أي بني " (١).

لقد كان الإمام يتصرف تصرف الحجة. فهو لم يؤمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يرفع سيفا ما دام الناس لم يلتفوا حوله باختيارهم. فإذا التفوا حوله فقد لزمه أن يسوقهم إلى ما يعرف وإلا تعطل الدين. وهذا هو شأن الحجة على امتداد التاريخ الإنساني إن تركه الناس بعد دعوته إياهم. إما أن يعتزل بمن آمن معه. وإما أن يهاجر. فإن وقع على أتباعه ما يستأصلهم من حوله فهنا يدخل فقه الدفاع والقتال ولا قتال إلا بنص. وفي جميع الحالات فإن الحجة لا يهمل من لزمه أو من يريده. وروي أن أمير المؤمنين عندما كان يتجهز لرد الناكثين كان فريق أم المؤمنين قد خطا خطوات واسعة نحو الحرب الشاملة.

١ – الناكثون في البصرة:

دخلت أم المؤمنين فناء البصرة. فلقيها عمير بن عامر التميمي فأوصاها أن تراسل وجوه البصرة قبل اقتحامها (٢). وكان على البصرة عثمان بن حنيف عاملا لأمير المؤمنين. فقالت أم المؤمنين لابن عامر: جئتني بالرأي وأنت امرؤ صالح. وكتبت السيدة عائشة إلى رجال من أهل البصرة منهم الأحنف بن قيس. ثم تحركت بقواتها لتحسين أوضاعها حتى إذا كانت بالحفير انتظرت الجواب (٣). وروى البيهقي عن الحسن البصري أن الأحنف بن قيس قال لأم المؤمنين: يا أم المؤمنين. هل عهد إليك رسول الله هذا المسير؟ قالت: اللهم لا، قال: فهل

---

(١) الطبري ١٧٠ / ٥، الكامل ١١٤ / ٣.
(٢) الطبري ١٧٣ / ٥.
(٣) الطبري ١٧٣ / ٥.

وجدته في شئ من كتاب الله جل ذكره؟ قالت: ما نقرأ إلا ما تقرأون. فقال: فهل رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعان بشئ من نسائه إذا كان في قلة والمشركين في كثرة؟ قالت: اللهم لا. فقال الأحنف: فإذن ما هو ذنبنا " (١).

وروي أن عثمان بن حنيف عندما علم برسائل السيدة عائشة إلى وجوه أهل البصرة دعا عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلي وقال: انطلقا إلى هذه المرأة، فاعلما علمها وعلم من معها، فخرجا، ودخلا على عائشة بعد أن استأذنا وأذنت وقالا: إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك. فهل أنت مخبرتنا. فقالت: أطالب بدم عثمان، فقال أبو الأسود: إنه ليس في البصرة من قتلة عثمان أحد. قالت: صدقت، ولكنهم مع علي بن أبي طالب في المدينة. وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله. أنغضب لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيوفكم؟ فقال: ما أنت من السوط والسيف إنما أنت حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم. أمرك أن تقري في بيتك وتتلي كتاب ربك، وليس على النساء قتال ولا لهن الطلب بالدماء، وإن أمير المؤمنين لأولي بعثمان منك وأحسن رحما، فإنهما أبناء عبد مناف. قالت: لست بمنصرفة حتى أمضي لما قدمت إليه. أفتظن يا أبا الأسود أن أحدا يقدم على قتالي. فقال: أما والله لنقاتلنك قتالا أهونه لشديد. ورجعا إلى عثمان بن حنيف وقال أبو الأسود إنها الحرب فتأهب لها " (٢).

ومما سبق يضاف إلى أسباب خروج السيدة عائشة. أن القوم ظنوا أن أحدا لن يجرؤ على قتالها. ويترتب على ذلك أن يقف أمير المؤمنين علي وحده في العراء ومعه قلة لا تغني عنه أمام الكثرة شيئا. وبدأ عثمان بن حنيف يتجهز لصد العدوان. وكان يعلم أن للناكثين أعوانا بالبصرة (٣). وأقبلت قوات أم المؤمنين،

---

(١) المحاسن والمساوئ / البيهقي ١ / ٣٥.
(٢) العقد الفريد ٢ / ٢٧٨، الإمامة والسياسة / ابن قتيبة ١ / ٥٧.
(٣) الطبري ١٧٥ / ٥.

حتى إذا انتهوا إلى المربد ودخلوا من أعلاه. أمسكوا ووقفوا حتى خرج ابن حنيف فيمن معه. وخرج إلى السيدة عائشة من أهل البصرة من أراد أن يخرج إليها ويكون معها (١). واصطف الفريقان. وتحدث طلحة فذكر عثمان بن عفان. ودعا إلى الطلب بدمه. وقال: إن في ذلك إعزاز دين الله عز وجل. وتكلم الزبير بمثل ذلك. وبعد حديثهما انقسم الناس. فقال البعض: صدقا وبرا، وقال البعض الآخر: فجرا وغدرا، وقالا الباطل وأمرا به. قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان " (٢)، وكان من نتيجة هذا الانقسام أن تحاتى الناس وتحاصبوا وأرهجوا (٣). وعندئذ تكلمت أم المؤمنين. وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة كأن صوت امرأة جليلة (٤)، فقالت: كان الناس يتجنون على عثمان بن عفان ويزرون على عماله ويأتوننا بالمدينة فيستشيرونا فيما يخبروننا عنهم، ويرون حسنا من كلامنا في صلاح بينهم. ثم قالت: ألا إن مما ينبغي لا ينبغي لكم غيره. أخذ قتلة عثمان وإقامة كتاب الله عز وجل " (٥)، وترتب على بيان السيدة عائشة. افتراق أصحاب عثمان بن حنيف أمير علي فرقتين. فرقة قالت: صدقت والله وجاءت والله بالمعروف. وقال الآخرون: كذبتم والله ما نعرف ما تقولون، فتحاتوا وتحاصبوا وأرهجوا (٦)... ومال بعضهم إلى عائشة وبقي بعضهم مع عثمان.

وبينما يضرب الناس بعضهم بعضا بالحجارة. أقبل جارية بن قدامة السعدي وقال: يا أم المؤمنين. والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح. إنه كان لك من الله ستر وحرمة. فهتكت سترك وأبحت حرمتك. إنه من رأي قتالك فإنه يرى قتلك. إن كنت أتيتنا

---

(١) الطبري ١٧٥ / ٥.
(٢) الطبري ١٧٥ / ٥.
(٣) الطبري ١٧٥ / ٥.
(٤) الطبري ١٧٥ / ٥ البداية والنهاية ٣٣٣ / ٧.
(٥) الطبري ١٧٥ / ٥ البداية والنهاية ٣٣٣ / ٧.
(٦) الطبري ١٧٥ / ٥ البداية والنهاية ٣٣٣ / ٧.

طائعة فارجعي إلى منزلك. وإن كنت أتيتنا مستكرهة. فاستعيني بالناس " (١)، ولكن فوات أم المؤمنين قامت بتنفيذ أمر القتال الأول الذي سمعه أبو الأسود الدؤلي حين بعثه ابن حنيف إلى السيدة عائشة. وهذا الأمر " لست بمنصرفة حتى أمضي لما قدمت إليه (٢)، ودار قتال شديد وكثر عدد القتلى في أصحاب ابن حنيف (٣)، وتدخلت أطراف لإنهاء هذا النزاع ولكن الأمور كانت تجري بسرعة نحو يوم الجمل. ففي نهاية المطاف تم الاستيلاء على البصرة. وأخرجوا عثمان بن حنيف، من قصره. وروى الطبري: أنهم أرسلوا إلى عائشة يستشيرونها في أمر ابن حنيف فقالت: إقتلوه. فقالت لها امرأة: نشدتك بالله يا أم المؤمنين في عثمان وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت عائشة: احبسوه ولا تقتلوه " (٤).

وأمر مجاشع بن مسعود وكان أحد جنود أم المؤمنين بضرب عثمان ونتف شعر لحيته: فضربوه أربعين سوطا ونتفوا شعر لحيته ورأسه وحاجبيه وأشفار عينيه وحبسوه (٥) وخطبت أم المؤمنين: أيها الناس، إنه ما بلغ من ذنب عثمان ما يستحل به دمه. مصتموه كما يماص الثوب الرخيص. ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه وبايعتم ابن أبي طالب بغير مشورة من الجماعة ابتزازا وغصبا أتروني أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه. ولا أغضب لعثمان من سيوفكم. ألا إن عثمان قتل مظلوما فاطلبوا قتلته. فإذا ظفرتم بهم فاقتلوهم. ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان " (٦).

وهكذا خرج علي بن أبي طالب من الخلافة عند أول خطوة داخل البصرة

---

(١) الطبري ١٧٦ / ٥، البداية والنهاية ٢٣٣ / ٧، الكامل ١٠٩ / ٣.
(٢) العقد الفريد ٢ / ٢٧٨، الإمام والسياسة ١ / ٥٧.
(٣) الطبري ١٧٧ / ٥، البداية ٣٣٣ / ٧.
(٤) الطبري ١٧٨ / ٥، البداية والنهاية ٢٣٣ / ٧.
(٥) الطبري ١٧٨ / ٥، البداية والنهاية ٢٣٣ / ٧.
(٦) الإمامة والسياسة ٦٤، ٦٥ / ١، ابن أبي الحديد ٣٥٧ / ٣.

لأنه عندهم من الذين اشتركوا في دم عثمان. وروى اليعقوبي أنهم بعد استيلائهم على البصرة. انتهبوا بيت المال وأخذوا ما فيه. فلما حضر وقت الصلاة تنازع طلحة والزبير وجذب كل منهما صاحبه حتى فات وقت الصلاة. وصاح الناس: الصلاة الصلاة يا أصحاب محمد، فقالت أم المؤمنين رضي الله عنها: يصلي محمد بن طلحة يوما وعبد الله بن الزبير يوما. وروى ابن الأثير: لما بايع أهل البصرة طلحة والزبير قال الزبير: أريد ألف فارس أسير بهم إلى علي بن أبي طالب أقتله بياتا أو صباحا قبل أن يصل إلينا. فلم يجبه أحد. فقال: إن هذه للفتنة التي كنا نحدث عنها. فقال له مولاه: أتسميها فتنة وتقاتل فيها؟ قال: ويلك إنا نبصر ولا تبصر. ما كان أمر قط إلا وأنا أعلم موضع قدمي فيه. غير هذا الأمر. فإني لا أدري أمقبل أنا فيه أم مدبر " " (١)، وعندما لم يجب الزبير أحد. قال طلحة والزبير: إن قدم علينا علي ونحن على هذا الحال من القلة والضعف ليأخذن بأعناقنا. فأجمعا على مراسلة القبائل واستمالة العرب، فبايعهم. على ذلك الأزد وضبة وقيس غيلان.

وبعث طلحة والزبير إلى أهل الشام بما صنعوا وصاروا إليه وقالا: " وإنا نناشدكم الله في أنفسكم. ألا نهضتم بمثل ما نهضنا به " (٢)، وكتبت أم المؤمنين إلى أهل الكوفة بما كان منهم وأمرتهم أن يثبطوا الناس عن علي بن أبي طالب وتحثهم على طلب قتلة عثمان وكتبت إلى أهل اليمامة وإلى أهل المدينة بما كان منهم أيضا وسيرت الكتب (٣) وروى ابن الأثير أن أم المؤمنين بعثت إلى أبي موسى الأشعري بكتاب تأمره فيه بملازمة بيته أو نصرتها (٤). وكانت سيرة أبي موسى بعد ذلك هي نصره أم المؤمنين على امتداد الطريق. وكتبت عائشة إلى زيد بن صوحان (٥) تقول له: " من عائشة ابنة أبي

---

(١) الكامل ١١٣ / ٣، الطبري ١٨٣ / ٥.
(٢) الطبري ١٨١ / ٥، الكامل ١١٢ / ٣.
(٣) الكامل ١١٢ / ٣.
(٤) الكامل ١١٧ / ٣.
(٥) كان من الذين سيرهم عثمان وقال النبي فيه: زيد وما زيد وأخبر بأنه في الجنة.

بكر أم المؤمنين حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان. أما بعد: فإذا أتاك كتابي هذا. فأقدم فانصرنا على أمرنا هذا. فإن لم تفعل فخذل الناس عن علي بن أبي طالب " (١)، فكتب إليها. من زيد بن صوحان إلى عائشة ابنة أبي بكر حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما بعد. فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت هذا الأمر ورجعت إلى بيتك. وإلا فأنا أول من نابذك، وقال زيد رضي الله عنه: " رحم الله أم المؤمنين أمرت أن تلزم بيتها. وأمرنا أن نقاتل فتركت ما أمرت به وأمرتنا به. وصنعت ما أمرنا به ونهتنا عنه " (٢).

وروى ابن كثير أن أبا موسى وهو يثبط الناس عن علي. قام زيد بن صوحان وقال للناس: أيها الناس سيروا إلى أمير المؤمنين وسيد المسلمين. سيروا إليه أجمعين " (٣)، وإذا سبقنا الأحداث بخطوتين سنجد زيدا على أرض معركة الجمل شهيدا. وروي عنه أنه قال: لا تنزعوا عني ثوبا ولا تغسلوا عني دما فإني رجل مخاصم " (٤).

٢ – مسير الإمام علي:

لم يترك الإمام طريقا إلا أقام فيه حجة على القوم، فلقد بعث إليهم بالرسائل وبأصحابه وطالب بالتحكيم بينه وبينهم بواسطة أطراف تخلفت عنه وعنهم. ولكن القوم أبوا إلا المضي في طريقهم الذي خرجوا من أجله. فعندما علم الإمام بهياج المعارضين من مكة وجاءته رسالة من أم المؤمنين أم سلمة وفيها: أما بعد فإن طلحة والزبير وأشياعهم. أشياع الضلالة يريدون أن يخرجوا بعائشة ومعهم عبد الله بن عامر. يذكرون أن عثمان قتل مظلوما والله كافيهم

---

(١) الطبري ١٨٤ / ٥، البداية والنهاية ٢٣٤ / ٧، الإمامة والسياسة ١ / ٦٠.
(٢) الطبري ١٨٤ / ٥، البداية والنهاية ٢٣٤ / ٧، الإمامة والسياسة ١ / ٦٠.
(٣) البداية والنهاية ٢٣٧ / ٧.
(٤) رواه البخاري ويعقوب بن سفيان في تاريخهما (الإصابة ٥٨٣ / ١)، (الإستيعاب ٥٦٠ / ١).

بحوله وقوته. ولولا ما نهانا الله عن الخروج وأنت لم ترض به. لم أدع الخروج إليك والنصرة لك. ولكني باعثة إليك بابني وهو عدل نفسي عمر بن سلمة، يشهد شاهدك فاستوص به يا أمير المؤمنين خيرا " (١). وكانت عائشة قد كتبت إلى أم المؤمنين أم سلمة تريد. منها الخروج للطلب بدم عثمان. ولكن أم سلمة وعظتها موعظة بليغة رواها ابن قتيبة في كتابه غريب الحديث فقالت: إن عمود الإسلام لا يثأب بالنساء. ولا يرأب بهن إن صدع... ما كنت قائلة لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عارضك في بعض هذه الفلوات... والله لو سرت سيرك هذا ثم قيل لي ادخلي الفردوس. لاستحييت أن ألقى محمدا هاتكة حجابا ضربه علي ".

وروي أن الإمام خطب يومئذ فقال: إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله. فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم. فقام أبو قتادة الأنصاري وقال: يا أمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلدني هذا السيف وقد أغمدته زمانا. وقد حان تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذين لم يألوا الأمة غشا " (٢)، وتحرك الإمام من المدينة إلى الربذة فأقام فيها أياما بمن معه من قوات. وفي أثناء مسيره بعث إلى أهل الكوفة وغيرهم. للإصلاح فقال: " أما بعد فإني خرجت من حيي هذا إما ظالما وإما مظلوما وإما باغيا وإما مبغيا عليه. وإني أذكر الله من بلغه كتابي هذا. لما نفر إلى. فإن كنت محسنا أعانني وإن كنت مسيئا استعتبني " (٣) إنه صوت الحجة - فالإمام يخاطب الحاضر وفقا لما يعلم عن المستقبل الذي كشف عنه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخبر بالغيب عن ربه عز وجل. والإمام يخبر الحاضر قبل أن يأتي المستقبل وهذا عين العدل في الشريعة الغراء وروي أنه كتب إلى الأمصار لما قدم إلى الربذة؟ كونوا لدين الله أعوانا وأنصارا وأيدونا وانهضوا إلينا فالإصلاح ما نريد لتعود الأمة

---

(١) الطبري ٥ / ١٦٧، الكامل ٣ / ١١٣، الحاكم (المستدرك ١١٩ / ٣) ابن أبي الحديد ٤١١ / ٢.

(٢) الكامل ١١٣ / ٣، الطبري ١٦٧ / ٥.

(٣) ابن أبي الحديد.

إخوانا. ومن أحب ذلك وآثره فقد أحب الحق وآثره، ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحق وغمضه "، وقال: " لقد أصيب هذا الرجل.. يعني عثمان - بأيدي هؤلاء القوم. الذين نزغهم الشيطان لينزغ بين هذه الأمة. ألا إن هذه الأمة لا بد مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم فنعوذ بالله من شر ما هو كائن "، ثم قال: " إنه لا بد مما هو كائن أن يكون. ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة. وشرها فرقة تنتحلني ولا تعمل بعملي. فقد أدركتم ورأيتم. فالزموا دينكم واهدوا بهدي نبيكم صلى الله عليه وسلم. واتبعوا سنته. واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن. فما عرفه القرآن فالزموه وما أنكره فردوه. وارضوا بالله جل وعز ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وبالقرآن حكما وإماما " (١) - فالإمام كان يتحرك تحرك الدعوة، يخاطب الحاضر بزاد الماضي الطاهر المطهر. ليعبر الحاضر إلى المستقبل في أمان، وفي علم الله المطلق أن كل حاضر فيه غثاء لا يسمع ولا يبصر - وهذا الغثاء يسير بزاد الآباء والأهواء، لذا فهو عدو لكل حاضر ولكل مستقبل فيه من الله برهان، وهنا كانت الحجة مهمة يقوم بها الهداة إلى الله حتى لا يكون للغثاء على الله حجة يوم لا ينفع مال ولا بنون. وروي أن الإمام عندما بعث إلى الأمصار للإصلاح. كتب أيضا إلى طلحة والزبير وأرسل كتابه مع عمران بن حصين وفيه: أما بعد: فقد علمتما وإن كتمتما أني لم أرد الناس حتى أرادوني. ولم أبايعهم حتى بايعوني. وإنكما ممن أرادني وبايعني، وإن العامة لم تبايعني لسلطان غالب. ولا لحرص حاضر. فإن كنتما بايعتماني طائعين فارجعا وتوبا إلى الله من قريب. وإن كنتما بايعتماني كارهين. فقد جعلتما لي عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية. ولعمري ما كنتما بأحق المهاجرين بالتقية والكتمان، وإن دفعكما هذا الأمر قبل أن تدخلا فيه. كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد إقراركما به. وقد زعمتما أني قتلت عثمان. فبيني وبينكما من تخلف عني وعنكما من أهل

---

(١) الطبري ١٨٥ / ٥، الكامل ١١٥ / ٣.

المدينة. ثم يلزم كل امرئ بقدر ما احتمل. فارجعا أيها الشيخان عن رأيكما. فإن الآن أعظم أمركما بالعار. من قبل أن يجتمع العار والنار. والسلام " (١).

وبينما الإمام يبعث برسائله، علم وهو في الربذة بما حدث لعامله عثمان بن حنيفة في البصرة وبالقتلى الذين قتلوا ظلما وعدوانا (٢)، كما علم أن أبا موسى الأشعري يثبط الناس عنه بالكوفة. وتحرك الإمام إلى ذي قار، يقول ابن عباس عندما دخل عليه: فأتيته فوجدته يخصف نعلا (٣). فقلت له: نحن إلى أن تصلح من أمورنا أحوج منا إلى ما تصنع. فلم يكلمني حتى فرغ من نعله. ثم ضمها إلى صاحبتها وقال لي: قومهما. فقلت: ليس لهما قيمة، قال: ذاك! قلت: كسر درهمه، قال: والله أيهما أحب إلى من أمركم هذا إلا أن أقيم حقا أو أدفع باطلا. ثم خرج فخطب الناس فقال:

إن الله سبحانه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم، وليس أحد من العرب يقرأ كتابا، ولا يدعي نبوة. فساق الناس حتى بوأهم محلتهم (٤) وبلغهم منجاتهم. فاستقامت قناتهم (٥). واطمأنت صفاتهم (٦). أما والله إن كنت لفي ساقتها. حتى تولت بحذافيرها. ما عجزت ولا جبنت وإن مسيري هذا لمثلها. فلأنقبن الباطل حتى يخرج الحق من جنبه. ما لي ولقريش! والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلنهم مفتونين، وإني لصاحبهم بالأمس. كما أنا صاحبهم اليوم والله ما تنقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم. فأدخلناهم في حيزنا " (٧).

فالإمام في كلامه. كأنه جعل الباطل كشئ قد اشتمل على الحق. واحتوى عليه. وصار الحق في طيه. كالشئ الكامن المستتر فيه. فأقسم لينقبن ذلك.

---

(١) ابن أبي الحديد ٩٥ / ٥.
(٢) الطبري ١٨٦ / ٥.
(٣) يخصف بغله / أي يخرزها.
(٤) أي أسكنهم منزلهم، أي ضرب الناس على الإسلام حتى أوصلهم إليه.
(٥) أي كانت قناتهم معوجة فاستقامت.
(٦) أي كانت تزلزله فاستقرت.
(٧) ابن أبي الحديد ٤٠٤ / ١.

الباطل إلى أن يخرج الحق من جنبه. ثم قال: ما لي ولقريش، ولم يقل: ما لي وطلحة والزبير. وذلك لأن الإمام ينظر إلى مساحة طويلة وعريضة. بصفته خبير بمعرفة الرجال، ثم أخبر عن هذه المساحة الطويلة العريضة فقال: لقد قاتلتهم كافرين. ثم قال خاصف النعل الأول. أي نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ولأقاتلنهم مفتونين. يقول ابن أبي الحديد: لأن الباقي على الإمام مفتون فاسق (١). ثم ربط الإمام بين ماضي المساحة وحاضرها برباط واحد، فقال: وإني لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم، ثم اختصر أسباب النزاع كله فقال: والله ما تنتقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم. فأدخلناهم في حيزنا. هكذا تحدث الإمام بعد إن خصف نعله.

وروي أن الإمام علي بعث إلى أبي موسى بعد أن علم خبره. أنه اختار الكوفة للنزول بين أظهرهم. وإنه اختارهم على الأمصار. لأنهم أشد الناس حبا له. فلما دخل مبعوثا علي قال أبو موسى: أما والله إن بيعة عثمان بن عفان في عنقي وعنق صاحبكما الذي أرسلكما. إن أردنا أن تقاتل لا نقاتل حتى لا يبقى أحد من قتلة عثمان إلا قتل حيث كان " (٢)، فانطلق المبعوثان إلى علي بن أبي طالب بذي قار وأخبراه الخبر (٣)، فأرسل الإمام علي مبعوثا آخر هو عبد الله بن عباس ومعه الأشتر (٤)، وعندما لم تفلح هذه المحاولة أيضا مع أبي موسى. بعث الإمام بالحسن بن علي وعمار بن ياسر، وروى ابن الأثير. أن عبد الخير الحيواني قال: يا أبا موسى. هل بايع طلحة والزبير؟ قال: نعم، قال: هل أحدث علي بن أبي طالب ما يحل به نقض بيعته. قال: لا أدري، فقال: لا دريت، نحن نتركك حتى تدري، هل تعلم أحدا خارجا من هذه الفتنة، إنما الناس أربع فرق، علي بظهر الكوفة، وطلحة والزبير بالبصرة. ومعاوية بالشام، وفرقة بالحجاز لا غناء بها ولا يقاتل بها عدو، قال أبو موسى: أولئك خير

---

(١) ابن أبي الحديد ٤٠٥ / ١.
(٢) الطبري ١٨٤ / ٥.
(٣) الطبري ١٨٧ / ١.
(٤) الطبري ١٨٧ / ٥.

الناس وهي فتنة. فقال عبد الخير: غلب عليك غشك يا أبا موسى " (١).
وعندما قدم الحسن بن علي وعمار بن ياسر إلى الكوفة. صعدا المنبر
فكان الحسن فوق المنبر في أعلاه وقام عمار أسفل من الحسن (٢)، قال في فتح الباري: فقال الحسن: إن عليا يقول: إني أذكركم الله رجلا رعي لله حقا إلا نفر فإن كنت مظلوما أعانني، وإن كنت ظالما خذلني. والله إن طلحة والزبير لأول من بايعني ثم نكثا. ولم أستأثر بمال. ولا بدلت حكما " (٣)، والبخاري لم يرو شيئا من كلمة الحسن. علما بأنه ذكر أن الحسن كان في أعلى المنبر. وروى البخاري ما قاله عمار. فقال: قال عمار: إن عائشة قد سارت إلى البصرة ووالله إنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة، ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي " (٤)، وقال في فتح الباري: قال بعض الشراح: الضمير في إياه. لعلي بن أبي طالب، والظاهر خلافه وإنه لله تعالى (٥)، وأقول: إن الكتاب وأهل البيت في حبل واحد كما روى مسلم وغيره. وروي أن أبا موسى قال لعمار: يا أبا اليقظان أعدوت فيمن عدا على عثمان أمير المؤمنين فأحللت نفسك مع الفجار. فقال عمار: لم أفعل ولم يسوءني (٦)، قال الحسن،: يا أبا موسى لم تثبط الناس عنا. فوالله ما أردنا إلا الاصلاح، ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شئ. فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي والماشي خير من الراكب فقال عمار: يا أيها الناس. إنما قال له خاصة: أنت فيها
قاعدا خير منك قائما. فقام رجل فقال لعمار: اسكت أيها العبد أنت أمس مع الغوغاء واليوم تسافه أميرنا. وثار زيد بن صوحان وطبقته وثار

---

(١) الكامل ١١٧ / ٣، الطبري ١٩٠ / ٥.
(٢) البخاري (الصحيح ٢٢٩ / ٤) أحمد (الفتح الرباني ١٤٠ / ٢٣).
(٣) رواه أبو يعلى (فتح الباري ٥٨ / ١٣).
(٤) البخاري ك الفتن (الصحيح ٢٢٩ / ٤) أحمد (الفتح الرباني ١٤٠ / ٢٣).
(٥) فتح الباري / ابن حجر ٥٨ / ١٣.
(٦) الطبري ١٨٧ / ٥، البداية والنهاية ٢٣٦ / ٧.

الناس " (١).
ثم ألقى زيد بالمفاجأة. جاء ومعه كتابان من عائشة إلى أهل الكوفة كتاب للخاصة وآخر للعامة وفيهما: أما بعد فثبطوا أيها الناس واجلسوا في بيوتكم إلا عن قتلة عثمان بن عفان. فلما فرغ زيد من قراءة الكتاب في المسجد قال: أمرت بأمر وأمرنا بأمر. أمرت أن تقر في بيتها وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة. فأمرتنا بما أمرت به. وركبت ما أمرنا به (٢). وبعد أن فرغ زيد من كلامه. انقسم الناس. فريق هنا وفريق هناك. وقام الحسن بن علي فقال: أيها الناس أجيبوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم. فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يليه أولو النهى. أمثل في العاجلة وخير في العاقبة. فأجيبوا دعوتنا. وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم (٣)، وقام حجر بن عدي فقال: أيها الناس أجيبوا أمير المؤمنين. وانفروا خفافا وثقالا. وأنا أولكم (٤)، وقام زيد بن صوحان وقال: أيها الناس. سيروا إلى أمير المؤمنين وسيد المسلمين. سيروا إليه أجمعين " (٥).
ثم جاءت المفاجأة الأخرى على يد عمار بن ياسر، قال عمار: يا أبا موسى أنشدك الله. ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، وأنا سائلك عن حديث. فإن صدقت وإلا بعثت عليك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من يقررك به. أنشدك الله. أليس إنما عناك رسول الله أنت نفسك فقال: إنها ستكون فتنة بين أمتي أنت يا أبا موسى فيه نائما خير منك قاعدا. وقاعدا خير منك قائما. وقائما خير منك ماشيا. فخصك رسول الله ولم يعم الناس. فخرج أبو موسى ولم يرد عليه شيئا " (٦)، وعن أبي نجاء قال: كنت جالسا مع عمار، فجاء أبو موسى

---

(١) الطبري ١٨٨ / ٥.
(٢) الطبري ١٨٨ / ٥.
(٣) الطبري ١٨٩ / ٥، الكامل ١١٨ / ٣.
(٤) الطبري ١٨٩ / ٥، البداية والنهاية ٢٣٧ / ٧.
(٥) البداية والنهاية ٢٣٧ / ٧.
(٦) رواه ابن عساكر (كنز العمال ٢٧٤ / ١١)، وأبو يعلى (كنز ٢٤٦ / ٧) وحديث الفتنة التي يكون فيها القاعد خير من القائم رواه أبو داوود حديث ٤٢٦٢ ولكنه لم يخص فيه أبو موسى.

قال: ما لي وما لك، ألست أخاك. فقال عمار: ما أدري ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلعنك ليلة الجبل!!؟ قال أبو موسى: قد استغفر لي.
فقال عمار: قد شهدت اللعن ولم أشهد الاستغفار (١)، وإذا أخذنا خطوتين إلى الإمام نحو الأحداث. نجد أن الإمام عليا كان يرفض اشتراك أبي موسى في التحكيم بعد صفين (٢). ولكن القوم أصروا على اشتراكه. فقال الإمام: إنه ليس لي بثقة قد فارقني. وخذل الناس عني ثم هرب مني (٣). وعندما أصروا قال الإمام: لقد كنت بالأمس أميرا. فأصبحت اليوم مأمورا. وكنت بالأمس ناهيا فأصبحت اليوم منهيا. وسيأتي هذا في موضعه.
وروي أن أبا موسى لم يكف عن تثبيط الناس. فبعث الإمام علي قرظة بن كعب الأنصاري أميرا على الكوفة. وكتب معه إلى أبي موسى: إني قد بعثت الحسن وعمارا يستنفران الناس. وبعثت قرظة بن كعب واليا على الكوفة. فاعتزل عملنا مذموما مدحورا. وإن لم تفعل فإني قد أمرته أن ينابذك. فإن نابذته فظفر بك يقطعك إربا إربا (٤) ثم بعث الأشتر فجاء وكان لا يمر بقبيلة فيها جماعة إلا دعاهم ويقول:
اتبعوني إلى القصر. فانتهى إلى القصر في جماعة من الناس فدخله. وأخرج الأشتر غلمان أبي موسى من القصر. فخرجوا ينادون: يا أبا موسى هذا الأشتر قد دخل القصر. فضربنا وأخرجنا. فنزل أبو موسى فدخل القصر. فصاح به الأشتر: أخرج لا أم لك. أخرج الله نفسك. فقال: أجلني هذه العشية، فقال: هي لك (٥) فلما قدم الكتاب على أبي موسى اعتزل (٦) واستجاب

---

(١) رواه ابن عساكر (كنز العمال ٦٠٨ / ١٣).
(٢) الطبري ٢٨ / ٦، مروج الذهب ٤٠٦ / ٢.
(٣) الطبري ٢٨ / ٦.
(٤) الكامل ١٣٣ / ٣.
(٥) الكامل ١١٨ / ٣، البداية ٢٣٧ / ٧.
(٦) الكامل ١٣٣ / ٣.

الناس للنفير (١).
وروي عن زيد بن علي عن ابن عباس قال: لما نزلنا مع علي ذي قار، قلت: يا أمير المؤمنين ما أقل من يأتيك من أهل الكوفة فيما أظن. فقال: والله ليأتيني منهم ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلا. لا يزيدون ولا ينقصون. قال ابن عباس: فدخلني والله من ذلك شك شديد في قوله. وقلت في نفسي: والله إن قدموا لأعدنهم. وروى ابن إسحاق عن عمه بن يسار قال: نفر إلى علي إلى ذي قار من الكوفة في البحر والبر ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلا حتى سمع صهيل الخيل وشحيح البغال حوله - فلما سار بهم منقلة (٢) قال ابن عباس: والله لأعدنهم فإن كانوا كما قال: وإلا أتممتهم من غيرهم. فإن الناس قد كانوا سمعوا قوله: قال: فعرضتهم فوالله ما وجدتهم يزيدون رجلا ولا ينقصون رجلا. فقلت: الله أكبر. صدق الله ورسوله. ثم سرنا (٣)، وقبل أن يأخذ الإمام على الخطوة التالية بعث عبد الله بن عباس وزيد بن صوحان إلى عائشة وقال لهما: إذهبا إلى عائشة وقولا لها إن الله أمرك أن تقري في بيتك وألا تخرجني منه. وإنك لتعلمين ذلك، غير أن جماعة قد أغروك فخرجت من بيتك. فوقع الناس لاتفاقك معهم في البلاء والعناء. وخير لك أن تعودي إلى بيتك. ولا تحومي حول الخصام والقتال. وإن لم تعودي ولم تطفئي هذه النائرة فإنها سوف يعقب القتال. ويقتل فيها خلق كثير. فاتقي الله يا عائشة وتوبي إلى الله فإن الله يقبل التوبة من عباده ويعفو. وإياك أن يدفعك حب عبد الله بن الزبير وقرابة طلحة إلى أمر تعقبه النار. فجاءا إلى عائشة وبلغا رسالة علي إليها. فقالت: إني لا أرد علي بن أبي طالب بالكلام لأني لا أبلغه في الحجاج. فرجعا إليه وأخبراه بما قالت (٤)، ثم بعث عبد الله بن عباس إلى الزبير قبل وقوع الحرب ليستفيئه إلى

---

(١) البداية والنهاية ٢٣٧ / ٧.
(٢) مرحلة السفر.
(٣) ابن أبي الحديد ٤٠٦ / ١، البداية والنهاية وقال ابن كثير رواه الطبراني ٢١٢ / ٦.
(٤) تاريخ ابن أعثم ص ١٧٥.

طاعته (١) وقال له: " لا تلقين طلحة. فإنك إن تلقه تجده كالثور عاقصا قرنه (٢). يركب الصعب (٣) ويقول: هو الذلول، ولكن الق الزبير فإنه ألين عريكة (٤) فقل له: يقول لك ابن خالك. عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق. فما عدا مما بدا " (٥).

ورجع رسل الإمام يؤذونه بالحرب، فقام فحمد الله وأثني عليه وصلى على رسول الله ثم قال: أيها الناس إني راقبت هؤلاء القوم كي يرعووا أن يرجعوا ووبختهم بنكثهم. وعرفتهم بغيهم فلم يستجيبوا. وقد بعثوا إلى أن أبرز للطعان. وأصبر للجلاد. وإنما تمنيك نفسك أماني الباطل. وتعدك الغرور. ألا هبلتهم. الهبول. لقد كنت وما أهدد بالحرب. ولا أرهب بالضرب. ولقد أنصف القارة من رماها فليرعدوا وليبرقوا. فقد رأوني قديما. وعرفوا نكايتي. فكيف رأوني. أنا أبو الحسن. الذي فللت حد المشركين. وفرقت جماعتهم. وبذلك القلب ألقى عدوي اليوم. وإني لعلى ما وعدني ربي من النصر والتأييد. وعلى يقين من أمري. وفي غير شبهة من ديني أيها الناس. إن الموت لا يفوته المقيم. ولا يعجزه الهارب. ليس عن الموت محيد ولا محيص. من لم يقتل. مات، إن أفضل الموت القتل. والذي نفس علي بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موتة واحدة على الفراش. الله إن طلحة نكث بيعتي وألب على عثمان حتى قتله. ثم عضهني (٦) به ورماني. اللهم فلا تمهله. اللهم إن الزبير قطع رحمي ونكث بيعتي، وظاهر علي عدوي. فاكفينه اليوم بما شئت... ثم نزل (٧).

---

(١) ليستفيئه / أي يسترجعه.
(٢) عاقصا قرنه / أي قد التوى قرناه على أذنيه.
(٣) يركب الصعب / أي يستهين بالمستصعب من الأمور.
(٤) العريكة / أي الطبيعة.
(٥) ابن أبي الحديد ٣٨٨ / ١.
(٦) عضهه / قال فيه ما لم يكن.
(٧) ابن أبي الحديد ٢٤٧ / ١.

٣ – على أعتاب الحرب:
واجه الإمام علي صعوبات كثيرة على طريق الحرب وكان تفادي هذه الصعوبات ليس بالأمر اليسير. فهي ستدور بين أهل القبلة وفي كل طرف من الأطراف يوجد رجال من أهل بدر. وعلى رأس هذه الأطراف أعلام لا يمكن تجاهلها. والحرب ستدور بعد أن غاب عن ذهن الغالب الأعم أحاديث كثيرة كان النبي صلى الله عليه وسلم يحذر فيها من أمور ويسمى فيها رؤوس الفتن بأسمائهم وأسماء آبائهم كما في حديث حذيفة وغيره. وعندما أمر الإمام برواية الحديث لم يعط الوقت الكافي لغربلة هذه الأحاديث وبيان مقاصد الصحيح منها. فعندما أصبحت الحرب على الأبواب ظهرت أحاديث الاعتزال والتماس سيوف من خشب والقاتل والمقتول في النار. وأحاديث في أعماقها سلب مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كي تصبح الأمة بلا مهمة وتمهد الطريق لأغيلمة قريش، وكان الإمام علي وسط هذه الأمواج المتلاطمة حجة بذاته ومن حوله نجوم ساطعة كعمار وزيد وحذيفة وغيرهم، وفي هؤلاء نصوص من النبي صلى الله عليه وسلم تدعو للالتفاف حول علي. وعلى الرغم من هذا فإن الإنسان هو الإنسان. فالإنسان الذي ارتدي ثياب النفاق بينما كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من السهل عليه أن يشق طريقه في عهود ما بعد النبي وإن كان في هذه العهود من هو خبير بمعرفة الرجال، ولأن الساحة بها الحق والباطل وبها باطل ابتلع الحق في بطنه ليتكلم على لسانه. كان الإمام علي يحشد الناس من حوله متفاديا لكل جدل عقيم يكون في صالح التيارات المعادية. كان يسأل فيجب إجابة الخبير، وكان يعرض عن كل إنسان لا يريد أن ينتظم في جيشه. وذلك لأنه يعرف نتيجة الحرب مقدما وفقا لما كان النبي صلى الله عليه وسلم يخبره. ومن كان هذا شأنه فهو في دائرة الحجة وليس في دائرة الحشد من أجل الأموال والغنائم. ونحن هنا سنلقي ضوءا على بعض ما كان يجري على أعتاب الحرب، لنري حجم الصعوبات التي كان الإمام يواجهها وهو يأخذ بالأسباب ليصل إلى نتيجة وهو يعرفها مقدما. وكان يسير في اتجاهها على الرغم من معرفته أنه مقتول في نهاية طريقها. لأنه كان

يعلم أن الاختبار سنة إلهية جارية، وأن جيله يختبر بأحداث يمثل الإمام نفسه الحق فيها، وأن نتائج هذه الأحداث سوف تمتد إلى أجيال قادمة.

وأول ضوء نلقيه هنا سيكون على ما برز من طروحات فكرية في هذه الآونة، روي أن الحارث الليثي دخل على أمير المؤمنين فقال: يا أمير المؤمنين. أي فتنة أعظم من هذه، إن أصحاب بدر يمشون بعضهم إلى بعض بالسيف، فقال الإمام: ويحك أتكون فتنة أنا أميرها وقائدها. والذي بعث محمدا بالحق وكرم وجهه. ما كذبت ولا كذبت. ولا ضللت ولا ضل بي. ولا زللت ولا زل بي. وإني لعلى بينة من ربي. بينها الله لرسوله. وبينها رسوله لي. وسأدعى يوم القيامة ولا ذنب لي. ولو كان لي ذنب لكفر عني ذنوبي ما أنا فيه من قتالهم " (١).

وروي أن الإمام خطب الناس فقال عن الفتن: إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع. وأحكام تبتدع. يخالف فيها كتاب الله. ويتولى عليها رجال رجالا... " (٢)، وذكر ابن أبي الحديد: إن الإمام تكلم عن الفتنة. فقال: " عليكم بكتاب الله " أي إذا وقع الأمر واختلط الناس. فعليكم بكتاب الله. وقد قام إليه من سأله عن الفتنة فقال: أخبرنا عن الفتنة وهل سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وقد روى كثير من المحدثين عن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: إن الله قد كتب عليك جهاد المفتونين. كما كتب علي جهاد المشركين. فقال علي: يا رسول الله. ما هذه الفتنة التي كتب علي فيها الجهاد؟ قال: قوم يشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. وهم مخالفون للسنة. فقلت: يا رسول الله، فعلام أقاتلهم وهم يشهدون كما أشهد؟ قال: علي الإحداث في الدين. ومخالفة الأمر. فقلت: يا رسول الله. إنك كنت وعدتني الشهادة. فأسأل أن يجعلها لي بين يديك. قال: فمن يقاتل الناكثين

---

(١) ابن أبي الحديد.

(٢) ابن أبي الحديد ٦٦٧ / ١.

والقاسطين والمارقين. أما إني وعدتك الشهادة وتستشهد. تضرب على هذه. يعني رأسك. فتخضب هذه - يعني لحيتك. فكيف صبرك إذن؟ قلت: يا رسول الله ليس ذا بموطن صبر. هذا موطن شكر. قال: أجل. فأعد للخصومة فإنك مخاصم. فقلت: يا رسول الله. لو بينت لي قليلا. فقال: إن أمتي ستفتتن من بعدي. فتتأول القرآن وتعمل بالرأي. وتستحل الخمر بالنبيذ. والسحت بالهدية. والربا بالبيع... فكن جليس بيتك حتى تقلدها. فإذا قلدتها جاشت عليك الصدور. وقلبت لك الأمور. تقاتل حينئذ على تأويل القرآن. كما قاتلت على تنزيله... فقلت يا رسول الله: فبأي المنازل أنزل هؤلاء المفتونين من بعدك أبمنزلة فتنة أم بمنزلة ردة؟ فقال: بمنزلة فتنة يعمهون فيها إلى أن يدركهم العدل. فقلت: يا رسول الله. أيدركهم العدل منا أم من غيرنا؟ قال: بل منا. بنا فتح الله وبنا يختم. وبنا ألف الله القلوب بعد الشرك. وبنا يؤلف بين القلوب بعد الفتنة " (١).

وقتال المفتونين وشدته وضع في دائرة الذهن. وكان أبو ذر رضي الله عنه يحدث به. قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، " والذي نفسي بيده. إن فيكم لرجلا يقاتل الناس من بعدي على تأويل القرآن كما قاتلت المشركين على تنزيله. وهم يشهدون أن لا إله إلا الله. فيكبر قتلهم على الناس. حتى يطعنون على ولي الله ويسخطون عمله كما سخط موسى أمر السفينة والغلام والجدار. فكان ذلك كله رضي الله تعالى " (٢)، ورغم أن أبا ذر كان يحدث بقتال المفتونين قبل أن يأتي زمانه. إلا أن زمانه عندما جاء، قال من قال: يا أمير المؤمنين أي فتنة أعظم من هذه. ولقد رأينا كيف أجاب الإمام على هذا. ولم تكن هذه العقبة الوحيدة التي أزاحها الإمام. وإنما كانت هناك عقبات وعقبات أوجدتها ثقافات متعددة، وروي أن الحارث بن حوط الليثي دخل على أمير المؤمنين. فقال: يا أمير المؤمنين ما أري طلحة والزبير وعائشة: أضحوا إلا

---

(١) ابن أبي الحديد ٢٧٧ / ٣، ورواه وكيع (كنز المال ١٨٣ / ١٦).
(٢) رواه الديلمي (كنزل العمال ٦٠٦ / ١١).

على الحق، والحارث ما قال ذلك إلا من بريق العناوين التي يحملها هؤلاء. ولكن الإمام في إجابته أخذ الحارث بعيدا عن البريق والزخرف. فقال: يا حارث. إنك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك: إن الحق والباطل لا يعرفان بالناس. ولكن اعرف الحق باتباع من اتبعه. والباطل باجتناب من اجتنبه (١). وعلق الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال على هذا القول فقال: العاقل من يقتدي بسيد العقلاء علي كرم الله وجهه حيث قال: " لا يعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله ".

وإذا كانت هناك عقبات فكرية قد واجهت الإمام. فلقد رأينا كيف تعامل الإمام مع أصحاب هذا الفكر بالمنطق وإقامة الحجة. وبنفس المنطق واجه الإمام العقبات التي واجهته عند التعبئة العامة قبل الحرب، وكما ذكرنا أن بعض الأحاديث قد ظهرت على السطح ويكمن فيها الاعتزال في غير موضعه. ومن هذه الأحاديث ما روي عن الأحنف أنه قال: خرجت وأنا أريد نصر ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيني أبو بكرة فقال: يا أحنف ارجع فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. فقلت: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه قد أراد قتل صاحبه " (٢)، يقول سعيد حوي وهو يعقب على هذا الحديث: إن القتال مع علي بن أبي طالب كان حقا وصوابا. ولكن أبو بكرة حمل حديثا ورد في غير الحالة التي قاتل فيها علي. على حالة قتال علي للباغين. وهو فهم من أبي بكرة. ولكنه فهم في غير محله. ومن هذه الروايات ندرك أن عقبات متعددة واجهت عليا في معركته مع الآخرين. منها أمثال هذه الفتوى التي هي أثر من الورع أكثر منها أثر عند فتوى تصيب محلها " (٣).

وورد عن الإمام علي قد حث الناس أن يعقلوا الخبر فقال: " إعقلوا الخبر

---

(١) البيان والتبين / الجاحظ ١١٢ / ٢، تاريخ اليعقوبي ١٥٢ / ٢.
(٢) رواه مسلم (الصحيح ١١ / ١٨).
(٣) الأساس في السنة ١٧١١ / ٤.

إذا سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواية. فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل " (١).
وقال: " ما اختلفت دعوتان إلا كانت إحداهما ضلالة " (٢)، وروي أنه لما بلغه حديث أبو بكرة قال: القاتل والمقتول منهم... ونحن إذا نظرنا في جانب آخر. نجد أن أبا بكرة كان يرجح أن أهل الجمل لن يفلحوا. ووفقا على ترجيحه هذا حدد خطوات نفسه. ولم يحدد خطواته على حديث القاتل والمقتول في النار.
روى البخاري عنه أنه قال: " لقد نفعني الله بكلمة أيام الجمل لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن فارسا ملكوا ابنة كسرى قال: " لن يفلح قوم ولوا. أمرهم امرأة " (٣)، وقال في فتح الباري: زاد الإسماعيلي عن طريق عوف " قال أبو بكرة: فعرفت أن أصحاب الجمل لن يفلحوا "، ونقل ابن بطال عن المهلب أن ظاهر حديث أبي بكرة يوهم توهين رأي عائشة فيما فعلت (٤)، وروى الترمذي أن أبا بكرة بعد أن ساق الحديث قال: " فلما قدمت عائشة ذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فعصمني الله " (٥).
مما سبق نعلم أن أبا بكرة كان يرجح أن الهزيمة ستصب على أهل الجمل. لكنه قال لمن أراد أن يلتحق بجيش علي " القاتل والمقتول في النار " وهذا من خوفه على الأحنف من شدة القتال. وترتب على هذا اعتزال الأحنف بأتباعه وكان معه زهاء ستة آلاف مقاتل (٦). وفي موقف آخر التبست فيها الأمور عند عملية حشد القوات. روي أن الإمام علي ذهب إلى لاهيان بن صيفي. وكان له صحبة. فقام الإمام على باب حجرته وقال له: كيف أنت يا أبا مسلم. قال: بخير. فقال الإمام: ألا تخرج معي إلى هؤلاء القوم فتعينني. قال: إن خليلي عليه الصلاة والسلام وابن عمك. عهد إلى إذا كانت فتنة بين المسلمين أن اتخذ

---

(١) ابن أبي الحديد ٣٧٤ / ٥.
(٢) ابن أبي الحديد ٤٤٩ / ٥.
(٣) البخاري ك الفتن (الصحيح ٢٢٨ / ٤).
(٤) فتح الباري ٥٦ / ١٣.
(٥) الترمذي وصححه (الجامع ٥٢٨ / ٤)، والحاكم وأقره الذهبي (المستدرك ١١٩ / ٣).
(٦) الكامل ١٢٢ / ٣، الطبري ١٩٨ / ٥).

سيفا من خشب، فهذا سيفي فإن شئت خرجت به معك، فقال الإمام: لا حاجة لنا فيك ولا في سيفك. ورجع من باب الحجرة ولم يدخل " (١).
لقد رجع الإمام دون أن يوجه أي اتهام إلى أن أحد. فكما ذكرنا أن المقام مقام حجة، والاختيار مفتوح. وهو يأخذ بالأسباب ويكدح من أجل نهاية سيقتل عندها. والله يفعل ما يريد. ليبتلي الحاضرين وينظر كيف يعملون ويبتلي الذين من بعدهم في مواقفهم من هذه الأحداث. والإمام قبل اتخاذه قرار الحرب في جميع معاركه. كان يشاور ثم يضع الجميع أمام قراره وفي قراره لا تجد إلا مصلحة الدعوة فعن طارق بن شهاب قال: رأيت عليا عليه رحل رث بالربذة وهو يقول للحسن والحسين: ما لكما تحنان حنين الجارية. والله لقد ضربت هذا الأمر ظهرا لبطن. فما وجدت بدا من قتال القوم أو الكفر بما أنزل على محمد " (٢)، إن الإمام إذا رفض القتال فلا معنى لعهد النبي له بقتال الناكثين والفاسقين والمارقين. لذا فهو يخوض الصعب. ولا يخوض الصعب أحد سواه. وعلى طريق الصعب كان يخفف عن اتباعه فيخبرهم قبل كل معركة خاضها بنتيجتها وأهم معالمها. قال ذلك يوم الجمل وأيام صفين وفي قتال الخوارج.
وروي عن ابن عباس قال: لما بلغ أصحاب علي حين ساروا إلى البصرة. أن أهل البصرة وليقتلن طلحة والزبير. وليخرجن إليكم من الكوفة ستة آلاف وخمسمائة رجلا... " (٣)، ولقد تحدثنا من قبل أن ابن عباس وجد أن العدد كما ذكر الإمام وذلك لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره.
والخلاصة: أن مجمل الصعوبات التي واجهت الإمام كانت نتيجة لعدم الرواية بعد رسول الله. فهناك أحاديث تحذير فيها أسماء رؤوس الفتن كل ذلك على امتداد ربع قرن كان قد ضاع من ذاكرة البعض أو تناسوه كما في حديث حذيفة. ومن الأسباب أيضا تعدد مصادر الفتوى ومنها من لا يصل بالإنسان إلى حقيقة.

---

(١) رواه أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجة ونعيم ابن حماد وأورده ابن حجر في الإصابة وابن كثير في البداية (الفتح الرباني ١٣٨ / ٢٣)، (جامع الترمذي ٤٩٠ / ٤).
(٢) رواه الحاكم (المستدرك ١١٥ / ٣)، (كنز العمال ٣٤٩ / ١١).
(٣) رواه الطبراني، وابن كثير في البداية (البداية ٢١٢ / ٦).

٤ – الحرب:
فشلت جميع محاولات أمير المؤمنين لتجنب القتال وأبى الناكثون إلا المواجهة. وكان الأحنف بن قيس عندما سمع ومن معه فتوى أبي بكرة قد اعتزل القتال. وأعلن هذا أمام معسكر أمير المؤمنين. وعلى الرغم من هذا إلا أن وجد أن الأحنف كان مع علي. فأرسل إليه. إن شئت أتيتك وإن شئت كففت عنك عشرة آلاف سيف. وكان علي قد علم أن الأحنف قد أعلن الاعتزال أمام المعسكر الآخر. وفي هذا الوقت العصيب لم يقل له الإمام: تعال إلي وأعني. وإنما قال له: كيف بما أعطيت أصحابك من الاعتزال، فقال الأحنف: إن من الوفاء الله عز وجل قتالهم.
لقد كان للفتوى أثر سئ. لأنه قد ترتب عليها عهود، والإمام يحترم عهود الناس حتى في أحلك الأوقات. ولذا قال له: كف من قدرت على كفه " (١)، وفي ميدان القتال وقف الإمام علي في مواجهة الناكثين على أول طريق البغي الطويل. كان الإمام يركب بغلة النبي صلى الله عليه وسلم (٢).
وروى البلاذري أنها بقيت إلى زمن معاوية (٣). وكان محمد بن الحنفية يرفع راية رسول الله السوداء وتعرف بالعقاب. وروي أن أم المؤمنين عائشة كانت على جمل يدعى عسكر اشتراه لها يعلى بن أمية. وكان الجمل لواء القوم (٤) وألبسوا هودج أم المؤمنين الأدرع (٥) ووضعوا عليه جلود البقر (٦)، وفي لحظات السكون قبل بدء المعركة خرج طلحة والزبير. فخرج إليها الإمام علي،

---
(١) الكامل ١٢٢ / ٣، الطبري ١٩٩ / ٥.
(٢) البداية والنهاية ٢٤٢ / ٧، مروج الذهب ٣٩٠ / ٢.
(٣) أنساب الأشراف ٥١١ / ١.
(٤) ابن أبي الحديد ٤١٦ / ٢.
(٥) الطبري ٢٠٣ / ٥.
(٦) مروج الذهب ٤٠٠ / ٢.

حتى اختلفت أعناق دوابهم فقال الإمام: لعمري قد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا. فهلا أعددتما عذرا يوم القيامة فاتقيا الله. ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا. ألم أكن حاكما في دمكما. تحرمان دمي وأحرم دمكما فهل من حدث أحل لكم ذمي؟ قال طلحة: ألبت الناس على عثمان. فقال الإمام: يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق. يا طلحة، تطلب بدم عثمان! فلعن الله قاتل عثمان! يا طلحة أجئت بعرس رسول الله تقاتل بها وخبأت عرسك في البيت، أما بايعتني؟ قال: بايعتك والسيف على عنقي!! ثم قال الإمام: يا زبير ما أخرجك؟ قال: أنت! ولا أراك لهذا الأمر أهلا ولا أولى به مني!!؟ فقال الإمام: ألست له أهلا بعد عثمان. قد كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا " (١).

لقد كان الزبير أكثر صراحة. فعندما سأله الإمام عن سبب الخروج. حدثه عن الحكم والكرسي. وبعد هذا الحديث عادت الخيول إلى مواقعها. ثم وقف الإمام علي بين الصفين ودعا الزبير وقال: أنت آمن. تعالى حتى أعلمك. فأتاه. فقال له الإمام: أنشدك الله؟ أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنك تقاتل عليا وأنت له ظالم؟ قال: نعم ولم أذكر ذاك إلا في مقامي هذا. ثم انصرف (٢). وفي رواية: لتقاتلنه وأنت له ظالم ثم لينصرن عليك. قال: قد سمعت لا جرم. لا أقاتلك (٣) وعندما انصرف قال له ابنه: ما لك؟ فقال: ذكرني علي حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقول: لتقاتلنه وأنت له ظالم. فقال عبد الله ابنه: وللقتال جئت! إنما جئت تصلح بين الناس. ويصلح الله هذا الأمر. قال: لقد حلفت أن لا أقاتله فقال: فاعتق غلامك وقف.

---

(١) الكامل ١٢٢ / ٣، البداية والنهاية ٢٤١، ٢٦٣ / ٧.

(٢) رواه أبو يعلى والبيهقي وابن عساكر (كنز العمال ٣٤٠ / ١١) والبداية والنهاية ٢٤١ / ٧، أسد الغابة ٢٥٢ / ٢، الكامل ١٢٢ / ٣، مروج الذهب ٤٠١ / ٢، الطبري ٢٠٠ / ٥، ابن أبي الحديد ٢٠٧ / ٣.

(٣) فتح الباري ٥٥ / ١٣.

فأعتق غلامه ووقف (١) وفي بداية القتال انطلق الزبير بفرسه وخرج من أرض المعركة. فنزل بوادي السباع وقام يصلي فأتاه ابن جرموز فقتله (٢).
وبعد أن أقام الإمام الحجة على طلحة والزبير مرة وعلى الزبير وحده مرة. بعث إلى طلحة. أن القني. فلقيه فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من ولاه وعاد من عاداه. قال: نعم، فقال: فلم تقاتلني!! (٣) وانطلق طلحة للقتال ولم يفعل ما فعل الزبير. ولم يبق غير أم المؤمنين لم تسمع من أمير المؤمنين كما سمع طلحة والزبير. وشاء الله أن تخاطب أم المؤمنين علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر قبل المعركة، روي أن عمارا دنا من موضع أم المؤمنين وقال: ماذا تدعين؟ قالت: الطلب بدم عثمان. فقال: قاتل الله في هذا اليوم الباغي والطالب بغير الحق. ثم قال: أيها الناس إنكم لتعلمون أينا الممالئ في قتل عثمان (٤). وما أن انتهى عمار حتى جاء في اتجاه أم المؤمنين فوارس أربعة. فهتفت: فيهم رجل عرفته. ابن أبي طالب ورب الكعبة. سلوه ما يريد فقال لها أمير المؤمنين: أنشدك بالله الذي أنزل الكتاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك. أتعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلني وصيا على أهله وفي أهله، قالت: اللهم نعم. قال: فما لك؟ قالت: أطلب بدم أمير المؤمنين عثمان قال: أريني قتلة عثمان، ثم انصرف (٥).
مما سبق علمنا أن عمارا ذكر أم المؤمنين بقتال البغاة وذلك في قوله: " قاتل الله في هذا اليوم الباغي " أما أمير المؤمنين لقد تحدث على في أمر لا نعلم باطنه. لقد كشف أنه وصي على أهل النبي صلى الله عليه وسلم وفيهم.

---

(١) الكامل ١٢٢ / ٣، البيهقي وابن عساكر (كنز العمال ٣٣٠ / ١١).
(٢) أسد الغابة ٢٥٢ / ٥٢، الطبري ٢١٩ / ٥.
(٣) رواه الحاكم (المستدرك ٣٧١ / ٣)، وابن عساكر (كنز العمال ٣٣٣ / ١١) مروج الذهب ٤٠٣ / ٢، الطبري ٣٠٤ / ٥.
(٤) مروج الذهب ٣٧١ / ٢.
(٥) رواه الطبراني (كنز العمال ٢٣٨ / ٧)، (الزوائد ٢٣٨ / ٧).

ومن المعروف أن لقب أمهات المؤمنين لا ينزع عنهن بوفاة الرسول، وإنما هو لقب ملاصق لهن حتى قيام الساعة. ولحاملة اللقب حقوق وواجبات حددها الشرع الحكيم. وهذا الامتداد لا بد له من عين تحرسه. ولقد ورد أنه لا يؤدي عن النبي في حياته إلا علي وبما أن اسم النبي تحمله أمهات المؤمنين ولا ينزع بوفاة النبي فإن الذي يسهر على مصلحة أمهات المؤمنين حتى لا يطمع الذي في قلبه مرض أو أصحاب المخططات، لا يكون غير رأس الدولة. وهذا على أي حال تفسير لقول الإمام بأن النبي جعله وصيا على أهله وفي أهله. فالسؤال طرح أثناء معركة. وعندما وافقت أم المؤمنين على قول أمير المؤمنين قال: فما لك؟ والله أعلم بمراده. ولقد روى أن أم المؤمنين صفية قالت للنبي لما حضر: فإن حدث حدث فإلي من؟ قال: إلى علي بن أبي طالب " (١)، وبعد أن بين الإمام وصايته. سألها عن قتلة عثمان فقال: أريني قتلة عثمان. فإذا كانت قد جاءت بالقوات من أجل هذا. فعليها إن كانت تعرفهم أن تدل الإمام عليهم كي تجري محاكمتهم وتحقن دماء المقاتلين، وإن كانت لا تعرفهم فما فائدة الحشد – فلقد كان من الواجب أن تعطي للإمام فرصة ليجمع أطراف القضية. وبعد أن قال الإمام هذا انصرف.

وصدر أمر القتال. قال الإمام: عباد الله، اتقوا الله، وغضوا الأبصار. واخفضوا الأصوات، وأقلوا الكلام، ووطئوا أنفسكم على المنازلة والمجادلة والمبارزة والمناضلة والمبادلة والمعانقة والمكادمة والملازمة فاثبتوا. واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون. ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم. واصبروا إن الله مع الصابرين. اللهم ألهمهم الصبر وأنزل عليهم النصر وأعظم لهم الأجر (٢)، ثم نادي مناديه: لا يتبع مدبر. ولا يذفف على جريح، ولا يقتل أسير ومن أغلق بابه فهو آمن ومن ألقى سلاحه فهو آمن (٣)، ثم نادي المنادي: لا تبدأوا القوم

---

(١) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (الزوائد ١١٢ / ٩).
(٢) الطبري ٦ / ٦.
(٣) رواه ابن أبي شيبة والبيهقي (كنز العمال ٣٣٥ / ١١).

بالقتال وكلموهم بألطف الكلام. فإن هذا مقام من فلج فيه فلج يوم القيامة. فنادي معسكر عائشة: يا ثأرات عثمان. فقال الإمام: ما يقولون؟ فقال محمد بن الحنفية: يقولون يا ثأرات عثمان فرفع الإمام يديه وقال: اللهم كب اليوم قتلة عثمان لوجوههم (١) اللهم خذ أيديهم وأقدامهم (٢)، ثم قال الإمام لأصحابه: أيكم يعرض عليهم هذا المصحف. فإن قطع يده أخذه بيده الأخرى. فقال له فتى شاب: أنا، قال: اعرض عليهم هذا، وقل هو بيننا وبينكم من أوله إلى آخره. والله الله في دمائنا ودمائكم. فلما جاءهم الفتى حملوا عليه حتى قتل. فقال الإمام: قد طاب لكم الضراب فقاتلوهم (٣).

وما إن بدأت المعركة حتى لاحت هزيمة أصحاب الجمل، يقول ابن كثير. تقدم علي بالراية. وقتل خلق كثير وجم غفير ولم تر واقعة أكثر من قطع الأيدي والأرجل فيها من هذه الواقعة (٤). وقال عبد الله الكاهلي: لما كان يوم الجمل ترامينا بالنبل حتى فنيت وتطاعنا الرماح حتى تكسرت. وتشبكت صدورنا وصدورهم حتى لو سيرت الخيل عليها لسارت. وعلم أهل المدينة بالواقعة يوم الحرب قبل أن تغرب الشمس من نسر مر بماء حول المدينة ومعه شئ معلق فسقط معه. فإذا أكف فيه خاتم نقشه عبد الرحمن بن عتاب وعلم من بين مكة والمدينة والبصرة بالوقعة بما نقل إليهم النسور من الأيدي والأقدام (٥)، وكان هدف قوات أم المؤمنين الحفاظ على الجمل. فكان لا يأخذ بالراية ولا بخطام الجمل إلا شجاع معروف (٦)، ومن حرص الرجال على الجمل وحبهم له. روي أن رجالا من الأزد كانوا يأخذون بعر الجمل فيفتتونه ويشمونه ويقولون بعر جمل

---

(١) رواه البيهقي (كنز العمال ٣٣٨ / ١١).
(٢) البداية والنهاية ٧ / ٨.
(٣) الطبري ٣٠٤، ٣٠٥ / ٥، مروج الذهب ٣٩٩ / ٢، ابن أبي الحديد ٢٠٨ / ٣، كنز العمال ٣٣٨ / ١١، الكامل ١٣٣ / ٣.
(٤) البداية ٢٤٣ / ٧.
(٥) الكامل ١٣٣ / ٣، البداية ٢٤٧ / ٧، الطبري ٢١٨ / ٥.
(٦) البداية ٢٤٤ / ٧.

أما ريحه مسك (١). وكان معسكر علي يقولون: لا تزال الحرب قائمة ما دام هذا الجمل واقفا. وذلك لأن معسكر عائشة يدافعون عنه ويعملون على رفع رأسه وكلما قتل منهم أحد سارع الآخر ليمسك بزمام الجمل. وعندما فنى بنو ضبة. أخذ الخطام سبعون رجلا من قريش. وكل واحد يقتل بعد صاحبه. وكان محمد بن طلحة منهم قال لعائشة: مريني بأمرك يا أمه، فقالت: أمرك أن تكون كخير ابني آدم. فثبت في مكانه يقول: حم لا ينصرون. فتقدم إليه نفر فحملوا عليه فقتلوه (٢).

وأمر الإمام بقتل الجمل (٣)، ولما سقط البعير على الأرض انهزم من حوله من الناس. وحمل هودج عائشة، وإنه كالقنفذ من السهام. ونادي منادي علي في الناس: أنه لا يتبع مدبر ولا يذفف على جريح (٤)، وبعد أن هدأ غبار المعركة. ظهر على أرض القتال عشرة آلاف قتيل (٥). أما الجرحى فلا يحصون (٦).

وكان من بين القتلى طلحة بن عبيد الله. قتله مروان بن الحكم وكان معه في معسكر واحد وتحت قيادة واحدة. ولكن مروان كانت له مهمة تختلف عن مهمة طلحة. وهي قتل طلحة (٧). ولم تعلم أم المؤمنين بقتل طلحة والزبير إلا عندما علمت بهزيمة قواتها. فلقد علمت رضي الله عنها بالأمور الثلاثة في وقت واحد. كما علمت في نفس الوقت بمقتل زيد بن صوحان الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من سره أن ينظر إلى من يسبقه بعض أعضائه إلى

---

(١) الطبري ٢٦٣ / ٥.
(٢) البداية ٢٤٤ / ٧، الطبري ٢١٤ / ٥.
(٣) البداية ٢٦٦ / ٧، الطبري ٢١٠ / ٥.
(٤) البداية ٢٤٥ / ٧، الطبري ٢٠٨ / ٥.
(٥) الكامل ١٣١ / ٣، البداية ٢٤٧ / ٧، الطبري ٢٢٢ / ٥، وقيل قتل فيها من أصحاب الجمل ثلاثة عشر ألفا ومن أصحاب علي خمسة آلاف (مروج الذهب ٣٨٧ / ٢).
(٦) البداية ٢٤٧ / ٧.
(٧) لا خلاف بين أهل العلم على أن مروان بن الحكم هو الذي قتل طلحة راجع (البداية والنهاية ٢٧٨ / ٨)، (أسد الغابة ٨٨ / ٣).

الجنة فلينظر إلى زيد بن صوحان " (١). روي أن عائشة قالت يوم الجمل لخالد بن الواشمة: أنشدك الله أصادقي أنت إن سألتك. قال: نعم، قالت: ما فعل طلحة؟ قال، قتل! فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم قالت: ما فعل الزبير؟ قال: قتل! قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون. فقال لها: بل نحن لله ونحن إليه راجعون. على زيد وأصحاب زيد قالت: زيد بن صوحان، فقال: نعم، قالت: خيرا، فقال لها: والله لا يجمع الله بينه وبينهما في الجنة أبدا. قالت: لا تقل ذاك فإن رحمته واسعة وهو على كل شئ قدير " (٢).

وروي عن زيد من وجوه أنه قال: " شدوا علي ثيابي ولا تنزعوا عني ثوبا. ولا تغسلوا عني دما. فإني رجل مخاصم - أو قال - فإنا قوم مخاصمون " (٣).

وانتهت حرب الجمل وهرب رؤوس بني أمية الذين وقفوا بالأموال والعتاد وراء طلحة والزبير (٤). وروي أن الإمام علي وقف عند عائشة فضرب الهودج بقضيب وقال: يا حميراء رسول الله أمرك بهذا. ألم يأمرك أن تقري في بيتك. والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذا صانوا عقائلهم وأبرزوك. وأمر أخاها محمد فأنزلها في دار صفية بنت الحارث (٥)، وروي أن عمارا قال لعائشة لما فرغوا من الجمل: " ما أبعد هذا المسير من العهد الذي عهد إليكم - يشير إلى قوله تعالى: " وقرن في بيوتكن - فقالت: أبو اليقظان؟ قال: نعم، قالت، والله إنك ما علمت لقوال بالحق، قال: الحمد لله الذي قضى لي على لسانك " (٦).

وروي عن أبي البحتري أنه قال: لما انهزم أهل الجمل قال علي: لا يطلبن عبد خارج المعسكر وما كان من دابة أو سلاح فهو لكم. وليس لكم أم ولد:

---

(١) رواه أبو يعلى وابن مندة (الإصابة ٥٨٢ / ١)، والبيهقي (٢١٤ / ٦).
(٢) رواه ابن منده والبيهقي (الإستيعاب ٥٦٠ / ١).
(٣) رواه البخاري ويعقوب بن سفيان في تاريخهما. وابن منده (الإصابة ٥٨٣ / ١)، (الإستيعاب ٥٦٠ / ١).
(٤) الطبري ٢٢٠ / ٥.
(٥) مروج الذهب ٣١٧٦ / ٢.
(٦) الطبراني بسند صحيح (فتح الباري ٥٨ / ١٣)، الكامل ١٣٣ / ٣، الطبري ٢٢٥ / ٥.

والمواريث على فرائض الله. وأي امرأة قتل زوجها. فلتعتد أربعة أشهر وعشرا. قالوا: يا أمير المؤمنين تحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا نساؤهم. فقال: كذلك السيرة في أهل القبلة. فخاصموه. فقال: فهاتوا سهامكم واقرعوا على عائشة. فهي رأس الأمر وقائدهم. قال: ففرقوا وقالوا: نستغفر الله فخصمهم أمير المؤمنين " (١).

وانتقلت أم المؤمنين إلى دار صفية زوجة عبد الله بن خلف الذي قتله الإمام يوم الجمل. وروي أن أمير المؤمنين أقبل إلى منزل عائشة. فإذا عائشة جالسة حولها نسوة من نساء أهل البصرة. وهي تبكي وهن يبكين معها. فنظرت صفية بنت الحارث فرأت عليا. فصاحت هي ومن كان معها هناك من النسوة وقلن: يا قاتل الأحبة. يا مفرق بين الجميع، أيتم الله بنيك كما أيتمت ولد عبد الله بن خلف. فنظر إليها علي فعرفها فقال: أما إني لا ألومك أن تبغضيني. وقد قتلت جدك يوم بدر. وقتلت عمك يوم أحد. وقتلت زوجك الآن. ولو كنت قاتل الأحبة كما تقولين. لقتلت من في هذا البيت ومن في هذه الدار. ثم أقبل على عائشة فقال: ألا تنحين كلابك هؤلاء عني. أما إني قد هممت أن أفتح باب هذا البيت فأقتل من فيه. ولولا حبي للعافية. لأخرجتهم الساعة فضربت أعناقهم صبرا. فسكتت عائشة وسكتت النسوة فلم تنطق واحدة منهن (٢). وروي أن الأبواب التي هدد علي بفتحها كان من ورائها أناس من الجرحى قد لجأوا إلى عائشة (٣). وتغافل عنهم علي لأن مذهبه كان لا يقتل مدبرا ولا يذفف على جريح ولا يكشف سترا ولا يأخذ مالا (٤).

وروي أن ابن عباس دخل على عائشة في دار صفية بغير إذنها. واجتذب

---

(١) ابن أبي شيبة (كنز ٣٣٦ / ١١).
(٢) فتوح ابن أعثم (٣٣٩ / ٢، الطبري ٢٢٤ / ٥، الكامل ١٣١ / ٣. واللغط لابن أعثم، مروج الذهب ٢ / ٤٠٨.
(٣) الطبري ٢٢٢ / ٥، الكامل ١٣١ / ٣.
(٤) الكامل ١٣١ / ٣.

وسادة فجلس عليها. فقالت: يا ابن عباس أخطأت السنة المأمور بها. ودخلت إلينا بغير إذننا. وجلست على رحلنا بغير أمرنا. فقال: لو كنت في البيت الذي خلفك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ما دخلت إلا بإذنك. وما جلسنا على رحلك إلا بأمرك. وإن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يأمرك بسرعة الأوبة والتأهب للخروج إلى المدينة " (١)، وعندما كانت أم المؤمنين تستعد للذهاب إلى المدينة. كان قد سبقها بعض الذين يبحثون عن الحقيقة. روي عن ثابت مولى أبي ذر أنه قال: كنت مع علي يوم الجمل. فلما رأيت عائشة واقفة دخلني بعض ما يدخل الناس (٢)، فكشف الله عني ذلك عند صلاة الظهر. فقاتلت مع أمير المؤمنين. فلما فرغ ذهبت إلى المدينة. فأتيت أم سلمة. فقلت: إني والله ما جئت أسأل طعاما ولا شرابا، ولكني مولى لأبي ذر. فقالت مرحبا، فقصصت عليها قصتي. فقالت: أين كنت حين طارت القلوب سطائرها. قلت: إلى حيث كشف الله عني عند زوال الشمس. قالت: أحسنت. سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: علي مع القرآن والقرآن مع علي. لن يتفرقا حتى يردا على الحوض " (٣) وعن حري بن سمرة قال: لما كان من أهل البصرة ما كان بينهم وبين علي بن أبي طالب انطلقت حتى أتيت المدينة، فأتيت ميمونة بنت الحارث فقالت: ما جاء بك، قال: كان بين علي وطلحة الذي كان فأقبلت فبايعت عليا. قالت: فالحق به فوالله ما ضل ولا ضل - قالتها ثلاث مرات " (٤). كان هذا في المدينة أما في البصرة، فلقد روي أن الإمام عندما دخلها منتصرا خطب في الناس خطبة طويلة جاء فيها: " يا أهل السبخة (٥) يا أهل المؤتفكة. أئتفكت بأهلك من الدهر ثلاثا. وعلى الله تمام الرابعة يا جند المرأة.

---

(١) مروج الذهب ٣٧٧ / ٢.
(٢) أي أنه استصعب قتالها.
(٣) رواه الحاكم وصححه وأقره الذهبي (المستدرك ١٢٤ / ٣).
(٤) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٩ / ١٣٥)، والحاكم وصححه (المستدرك ١٤١ / ٣).
(٥) موضع يعلوه الملوحة.

يا أتباع البهيمة. رغا فأجبتم، وعقر فانهزمتم، أخلاقكم رقاق. وأعمالكم نفاق. ودينكم زيغ وشقاق، وماؤكم أجاج وزعاق " (١).

وقوله رضي الله عنه: " يا أهل السبخة " إشارة إلى حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " إن الناس يمصرون أمصارا وإن مصرا منها يقال لها البصرة. فإن أنت مررت بها أو دخلتها فإياك وسباخها وكلاءها وسوقها وباب أمرائها وعليك بضواحيها. فإنه يكون بها خسف وقذف ورجف وقوم يبيتون فيصبحون قردة وخنازير " (٢)، فلقد وصفها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بفساد العقول وكثرة الظلم الواقع بها، والبصرة كما ذكرنا من قبل أن يمصرها مصرها عمر بن الخطاب وسكنتها أجناس مختلفة كان لهم تأثير بالغ على ثقافتها. وأبرز معالم هذه الثقافة هي القردية والخنزيرة. أي تلجيم العقل كل تافه ورخيص والسير في طريق المادة لاتهام غذاء الدنس والعار.

وروي أن رجلا قال للإمام بعد الفراغ من يوم الجمل: يا أمير المؤمنين. وددت أن أخي فلانا كان شاهدنا. ليري ما نصرك الله به على أعدائك. فقال الإمام: أهوى أخيك معنا؟ قال: نعم، فقال: فقد شهدنا. ولقد شهدنا في عسكرنا هذا، أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء. سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان " (٣)، وفي كلام الإمام إشارة إلى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " المرء مع من أحب " (٤)، وقوله: " إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها. كمن غاب عنها. ومن غاب عنها فرضيها كان كمن

---

(١) مروج الذهب ٤٠٧ / ٢.

(٢) رواه أبو داود حديث رقم ٤٢٨٥، والطبراني (عون المعبود ٤٢٠ / ١١)، وقال السيوطي: هذا الحديث أورده ابن الجوزي في الموضوعات من غير الطريق الذي أخرجه منها المصنف، وغفل عن هذا الطريق. وقد تعقبته فيما كتبت على كتابه (عون المعبود ٤٢٠ / ١١).

(٣) ابن أبي الحديد.

(٤) البخاري (الصحيح ٧٧ / ٤).

شهدها " (١).
وانتهى يوم الذي نادى الإمام في بداية طريقه بالمصالحة. ولكن أحدا لم يتقدم ليصلح بين الطائفتين. ولم ينصت أصحاب الجمل إلى رسائل الإمام ورسله إليهم. ولو قام الذين اعتزلوا القتال وغيرهم بالوساطة من أجل المصالحة. لعلمنا بكل يسر من هم البغاة. ولكنهم لم يفعلوا ذلك. وترتب على هذا أن البحث عن الحقيقة كان لا بد أن يتم على طريق شاق نظرا لوجود رايات متعددة الأسماء.

---

(١) رواه أبو داوود حديث ٤٣٤٥.

ثانيا – أيام صفين

في سنة ست وثلاثين قامت موقعة الجمل وانتهت. وقيل: إنه كان بين خلافة علي إلى وقعة الجمل خمسة أشهر وإحدى وعشرون يوما. وقتل في هذه الوقعة ما يقرب من عشرين ألفا منهم خمسة آلاف من قوات أمير المؤمنين. وبينما الدماء لم تجف بعد، وإذا بمعاوية بن أبي سفيان يخرج على رأس أهل الشام في خمس وثمانين ألف مقاتل، ليقابل جيش أمير المؤمنين بعد فراغه من يوم الجمل بحوالي أربعة أشهر. وبقراءة سريعة لخلفية معاوية نجد أن عمر بن الخطاب ولاه الشام بعد موت أخيه يزيد. وكانت وصية هند لولدها معاوية " إن هذا الرجل استنهضك في هذا الأمر. فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت " (١)، ووصاه والده أبو سفيان: " وقد ولوك جسيما من أمورهم فلا تخالفهم. فإنك تجري إلى أمد. فنافس فإن بلغته أورثته عقبك " (٢)، وكان معاوية يقول لعمر: " مرني يا أمير المؤمنين بما شئت. فيقول له: لا آمرك ولا أنهاك " (٣)، وكان عمر لا يذكر معاوية إلا بخير. كان يقول للناس: " تذكرون كسرى وعندكم

---

(١) البداية والنهاية ١١٨ / ٨.

(٢) البداية والنهاية ١١٨ / ٥.

(٣) البداية والنهاية ١٢٥ / ٨، الطبري ١٨٤ / ٦.

معاوية " (١)، ويقول: " دعوا فتى قريش وابن سيدها " (٢)، وكان يدخر قوات الشام للحفاظ على حدود الدولة ولذا أطلق عمر صيحة: " يا أهل الشام استعدوا لأهل العراق. فإن الشيطان قد باض فيهم " (٣)، وفي عهد عثمان كان معاوية يتفاخر بأبيه ويقول: " قد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها... ولا أظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازما " (٤)، وفي نفس العهد بدأ كعب الأحبار يلقي في نفس معاوية طلب الخلافة. فقال له: أنت الأمير بعد عثمان (٥). وعندما استنجد عثمان بقوات الشام أثناء محنته تباطأ معاوية (٦). كانت هذه خلفية معاوية وقد بينا هذا في موضعه من الأحداث فيما ذكرنا.

وهناك شخصية أخرى وهو عمرو بن العاص سنلقي ضوءا على خليفته نظرا لأهمية دوره في أحداث صفين. وعمرو استخدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخدام الرسول لأنماط عديدة من الناس يخضع في المقام الأول لحركة الدعوة وهذه الحركة كانت تقتفي التأليف بين القلوب. وكان جميع العاملين على طريقها. يخضعون لكشف سرائرهم بواسطة الوحي فتحت الوحي يعلم النبي صلى الله عليه وسلم حقائقهم، ولهذا كان استخدام الرسول الإنسان ما يختلف عن استخدام غيره لهذا الإنسان. ففي عهد عمر بن الخطاب لمع نجم عمرو بن العاص حتى أن عمر كان يقول: ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرا " (٧)، وولاه فلسطين والأردن ثم مصر. فلم يزل واليا عليها حتى مات عمر. وأقره عثمان عليها أربع سنين أو نحوها ثم عزله عنها وولاها عبد الله بن أبي السرح. وعندما عزله عثمان جعل يطعن عليه ويسعى في إفساد

---

(١) الطبري ١٨٤ / ٦.
(٢) البداية والنهاية ١٢٤ / ٨، الديلمي (كنز العمال ٥٨٧ / ١٣).
(٣) ابن سعد (كنز العمال ٣٥٤ / ١٢).
(٤) الطبري ٨٩ / ٥.
(٥) الطبري ١٠٠ / ٥، البداية والنهاية ٨٥ / ٥.
(٦) الطبري ١١٥ / ٥.
(٧) الإصابة ١١٣ / ٦ ترجمة عمرو.

أمره. فلما بلغه قتل عثمان وكان معتزلا بفلسطين قال: إني إذا أنكأت قرحة أدميتها " (١).
وروى الطبري وغيره: عندما قتل عثمان وعلم بمبايعة الناس لعلي وما وقع لأهل الجمل. ارتحل يبكي كما تبكي المرأة ويقول: وا عثماناه، أنعي الحياء والدين حتى قدم دمشق (٢)، فوجد أهل الشام يحضون معاوية على الطلب بدم عثمان، فقال عمرو: أنتم على الحق اطلبوا بدم الخليفة المظلوم (٣). وقال معاوية لعمرو: بايعني فقال: لا والله لا أعطيك من ديني حتى أنال من دنياك قال: سل، فقال: مصر طعمة. فأجابه إلى ذلك وكتب له به كتابا (٤). وكانت مصر في نفس عمرو بن العاص. لأنه هو الذي فتحها. ويقول الجاحظ: فكان لعظمها في نفسه وجلالتها في صدره، وما قد عرفه من أموالها وسعة الدنيا، لا يستعظم أن يجعلها ثمنا من دينه (٥). وروي أنه عندما خرج عمرو من عند معاوية. قال له ابناه: ما صنعت؟ قال: أعطانا مصر طعمة. قالا: وما مصر في ملك العرب! فقال: لا أشبع الله بطونكما إن لم تشبعكما مصر " (٦).
فوفقا لخليفة هذا وذاك نرى أن الأول هدفه الخلافة. والثاني هدفه الإمارة وبالتحديد أن تكون له مصر ما بقي حيا، وهذه الأهداف تسير في طريق البغاة وعليها قميص عثمان. ذلك الشعار البراق الذي يلتف من حوله العامة. وهذه الفئة على طريق البغاة تعرف باسم " القاسطين " وليس معنى القاسط: أنه المطالب بدم عثمان، وإنما معناه: " الجائر عن الحق الناكب عنه " فاللفظ والمعنى يتحدثان عن حقيقة الهدف وليس عن بريق الشعار. وقول أمير المؤمنين " أمرني رسول الله

---

(١) الإستيعاب ٣٧٦ / ٢.
(٢) الطبري ٢٣٣ / ٥، الكامل ١٤٠ / ٣.
(٣) الطبري ٢٣٤ / ٥، الكامل ١٤١ / ٣.
(٤) مروج الذهب ٣٩٠ / ٢، الكامل ١٧٩ / ٣ الطبري ٥٦ / ٦.
(٥) ابن أبي الحديد ٣٢١ / ١.
(٦) ابن أبي الحديد ٣٢٢ / ١.

صلى الله عليه وسلم بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين " يعني أن هذا القتال لا علاقة له بالشعارات المرفوعة. وإنما علاقته بالأهداف الحقيقية التي تخفيها الجلود الآدمية. ولقد عبر الإمام علي عن مبايعة عمرو لمعاوية بأنها مبايعة مبتورة ومشلولة وفقا لميزان الحقيقة الذي يقر الزيف. فقال: قد بلغني أن عمرو بن العاص الأبتر بن الأبتر (١) بايع معاوية على الطلب بدم عثمان وحضهم عليه. فالعضد والله الشلاء عمرو ونصرته " (٢).

١ - إقامة الحجة:

بعد مقتل عثمان بدأ الإمام علي يجري تغييرات تستقيم مع سياسته. ولكن معاوية رفض هذه التغييرات والتي كان من بينها عزله عن الشام. وبينما كان الإمام يستعد للذهاب إلى الشام لإزالة هذه العقبة التي على أرض الدولة. خرج عليه أصحاب الجمل. وما أن فرغ من أهل الجمل حتى بلغه أن أهل الشام يتجهزون للقتال. وأن عمرو بن العاص يذيع عليهم " أن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم وفلوا حدهم. وأن أهل البصرة مخالفون لعلي بعد أن وترهم وقتلهم. وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل. وأن عليا قد سار في شرذمة قليلة منهم وقد قتل خليفتكم. فالله الله في حقكم أن تضيعوه وفي دمكم أن تبطلوه " (٣)، وعمرو في بيانه لم يهمل موقف خصمه القتالي. وإنما أخبرهم بأن الصناديد قد قتلوا إشارة إلى أن المهملة لن تكون عسيرة بعد أن نضجت الثمرة. وبينما أهل الشام يشقون طريقهم بمراكب الدهاء والكيد. كان الإمام علي يشق طريقه إليهم بمراكب الحجة. حتى لا تكون لهم حجة في يوم لا يغني فيه الندم. فبعث إليهم جرير بن عبد الله البجلي يدعوه إلى البيعة. ولكن معاوية ركب الصعب. ثم بعث إليه الإمام برسالة جاء فيها: إن الله

---

(١) روى ابن كثير أن قوله تعالى: (إن شانئك هو الأبتر) نزلت في العاص بن وائل (تفسير ابن كثير ٥٥٩ / ٤).

(٢) الطبقات الكبرى ٢٥٤ / ٤.

(٣) البداية والنهاية ٢٥٥ / ٧، الطبري ٢٣٦ / ٥.

سبحانه جعل الدنيا لما بعدها. وابتلى فيها أهلها. ليعلم أيهم أحسن عملا. ولسنا للدنيا خلقنا. ولا بالسعي فيها أمرنا. وإنما وضعنا فيها لنبتلي بها. وقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي. فجعل أحدنا حجة على الآخر. فغدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن. وطلبتني بما لم تجن يدي ولا لساني. وعصبته أنت وأهل الشام بي. وألب عالمكم جاهلكم. وقائمكم قاعدكم. فاتق الله في نفسك. ونازع الشيطان قيادك. واصرف إلى الآخرة وجهك. فهي طريقنا وطريقك. واحذر أن يصيبك الله منه بعاجل قارعة تمس الأصل. وتقطع الدابر. فإني أولى لك بالله ألية غير فاجرة. لئن جمعتني وإياك جوامع الأقدار لا أزال بباحتك " حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين " (١).

لقد أخبره أن الله جعل الدنيا طريقا إلى الآخرة. وابتلى فيها أهلها أي اختبرهم ليعلم أيهم أحسن عملا، وأخبره بأن الإنسان لم يؤمر بالسعي في الدنيا لها. بل أمر بالسعي فيها لغيرها. وكشف له الحقيقة التي يدثرها شعار قميص عثمان فقال: " فغدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن " أي تعديت وظلمت ومن هذا الظلم قولك: " أنا ولي عثمان ". وعلى طريق الظلم ألزمتني بما لم تجن يدي ولا لساني. وحرضتم الناس على هذا. ولم يلتفت معاوية إلى الحجة. وظل يتاجر بقميص عثمان فأرسل إليه الإمام رسالة قال فيها: فسبحان الله. ما أشد لزومك للأهواء المبتدعة، والحيرة المتبعة. مع تضييع الحقائق واطراح الوثائق: التي هي لله تعالى طلبة. وعلى عباده حجة. فأما إكثارك الحجاج على عثمان وقتلته. فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك. وخذلته حيث كان النصر له، والسلام " (٢).

ولقد رأينا كيف تثاقل معاوية عن نصرة عثمان، وفي هذا التخاذل والتثاقل يقول البلاذري وهو المعروف بالثقة والضبط " وإنما صنع ذلك معاوية ليقتل

---

(١) ابن أبي الحديد ٩٨ / ٥.
(٢) ابن أبي الحديد ٧٨٤ / ٤.

عثمان فيدعوا إلى نفسه " (١)، ولم يكتف الإمام بإرسال الرسائل. وإنما بعث إليه بالصحابة ليقيموا عليه الحجة على امتداد الطريق إلى صفين. روي أن الإمام بعث إليه عدي بن حاتم... فقال عدي لمعاوية: إنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ونصلح ذات البين، إن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة وأحسنها في الإسلام أثرا. وقد استجمع له الناس. ولم يبق أحد غيرك وغير من معك. فاحذر يا معاوية أن يصيبك وأصحابك مثل يوم الجمل. فقال له معاوية: كأنك إنما جئت متهددا لم تأت مصلحا. هيهات يا عدي. كلا والله إني لابن حرب لا يقعقع له بالسنان. وإنك والله من المجلبين على عثمان وإنك من قتلته وإني لأرجو أن تكون ممن يقتله الله به. فقال شبث وزياد بن خصفة: يا معاوية. جوابا واحدا، أتيناك فيما يصلحنا وإياك. فأقبلت تضرب لنا الأمثال. دع ما لا ينفع وأجبنا فيما يعم نفعه. وقال له يزيد بن قيس: إنا لم نأت إلا لنبلغك ما أرسلنا به إليك. ونؤدي عنك ما سمعنا منك. ولن ندع أن ننصح لك وأن نذكر ما يكون به الحجة عليك ويرجع إلى الألفة والجماعة. إن صاحبنا من قد عرف المسلمون فضله ولا يخفى عليك. فاتق الله يا معاوية ولا تخالف. فإنا والله ما رأينا في الناس رجلا قط أعمل بالتقوى ولا أزهد في الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه. فقال لهم معاوية: إنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة. فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا هي. وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها " (٢)

وبعد بعث عدي بن حاتم ثم بعث إليه إليه أبا عمر وبشير بن عمرو بن. محصن وسعيد بن قيس... وعندما دخلوا عليه قال بشير: يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة. وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك عليه، وإني أنشدك الله ألا تفرق جماعة هذه الأمة وألا تسفك دماءها بينها. فقطع عليه معاوية الكلام وقال: هلا أوصيت بذلك صاحبك؟ فقال أبو عمر: إن صاحبي ليس مثلك. إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في

---

(١) ابن أبي الحديد ٧٨٥ / ٤.
(٢) الكامل ١٤٨ / ٣، الطبري ٢ / ٦.

الإسلام والقرابة بالرسول صلى الله عليه وسلم قال معاوية: فماذا يقول؟ فقال أبو عمر: يأمرك بتقوى الله وأن تجيب ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق. فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمرك. قال: ونترك دم ابن عفان لا والله لا أفعل ذلك أبدا. فبادره شبث بن ربعي وقال: يا معاوية إنك لم تجد شيئا تستغوي به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك: (قتل إمامكم مظلوما فنحن نطلب بدمه) فاستجاب لك سفهاء طغام. وقد علمنا أنك أبطأت عنه بالنصر. وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب. ورب متمن أمر وطالبه يحول الله دونه. وبما أوتي المتمني أمنيته وفوق أمنيته. ووالله ما لك في واحدة منهما خير. والله إن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالا. ولئن أحببت ما تتمناه لا تصيبه حتى تستحق من ربك صلى النار. فاتق الله يا معاوية. ودع ما أنت عليه. ولا تنازع الأمر أهله فقال له معاوية: لقد كذبت ولؤمت أيها الأعرابي الجلف الجافي في كل ما ذكرت ووصفت. انصرفوا من عندي وليس بيني وبينكم إلا السيف " (١).

لم ينصت معاوية لصوت الحجة. لأن وصية أمه وأبيه وفتوى كعب الأحبار. كل ذلك كان قد استولى عليه. وما استولى عليه هذا إلا لأنه يوافق هواه الذي تحت جلده.

٢ - معاوية وسياسة التشكيك:

سارت سياسة تعبئة الناس تحت لافتة " قميص عثمان " جنبا إلى جنب مع سياسة التشكيك في الأحاديث التي رويت في فضل أهل البيت ومناقب علي بن أبي طالب فمعاوية كان يدرك خطورة هذه الأحاديث وغيرها من الأحاديث التي حذر فيها النبي صلى الله عليه وسلم من الفتن. ولعن فيها قبائل وبيوتا نظرا لخطورتها على الدعوة. لهذا رفع معاوية أمام هذه الأحاديث لافتة " أساطير الأولين " ولم يكتف معاوية بهذه اللافتة وإنما تاجر بقتل طلحة والزبير وهزيمة

---

(١) الكامل ١٤٦ / ٣، الطبري ٢٤٣ / ٥.

عائشة. وحاول أن يجذب علي بن أبي طالب إلى معركة كلامية. حول الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن دخول الإمام في هذه الدائرة سيجعله من وجهة نظر معاوية يفقد أصوات العامة في الأمصار مما يسهل على معاوية اختراق الساحة بعد ذلك. وبالجملة: لم يترك معاوية طريقا فيه هواه إلا وطرقه ووضع فيه العوائق.

وسياسة شكيك في الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ظهرت معالمها في رسالة أرسلها معاوية إلى أمير المؤمنين علي يقول له فيها: أما بعد. فدعني من أساطيرك. واكفف عني من أحاديث. وأقصر عن تقولك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وافترائك من الكذب ما لم يقل. وغرور من معك والخداع لهم. فقد استغويتهم. ويوشك أمرك أن ينكشف لهم فيعتزلوك. ويعلموا أن ما جئت به باطل مضمحل. والسلام " (١).

فكتب إليه أمير المؤمنين: أما بعد. فطالما دعوت أنت وأولياؤك أولياء الشيطان الرجيم الحق أساطير الأولين ونبذتموه وراء ظهوركم. وجهدتم بإطفاء نورا الله بأيديكم وأفواهكم. والله متم نوره ولو كره الكافرون. ولعمري ليتمن النور على كرهك. ولينفذن العلم بصغارك. ولتجازين بعملك. فعث في دنياك المنقطعة عنك ما طاب لك. فكأنك بباطلك وقد انقضى. وبعملك وقد هوى. ثم تصير إلى لظى. لم يظلمك الله شيئا. وما ربك بظلام للعبيد.

ولم تكتف الحملة الإعلامية للقاسطين على رفع لافتة " أساطير الأولين " وإنما قامت بتغذية الساحة بمادة إعلامية هدفها التقليل من شأن أمير المؤمنين في أول الطريق ليتمكنوا من سبه في نهاية الطريق. يقول معاوية في رسالة له إلى أمير المؤمنين: أما بعد فما أعظم الدين على قلبك. والغطاء على بصرك. الشره من شيمتك. والحسد من خليقتك. فشمر للحرب واصبر إلى الضرب. فوالله ليرجعن الأمر إلى ما علمت. والعاقبة للمتقين!!... " (٢)

---

(١) ابن أبي الحديد ٧٦٩ / ٤.

(٢) المصدر السابق ٧٦٩ / ٤.

يقول ابن أبي الحديد: وأعجب وأطرب ما جاء به الدهر، وإن كانت عجائبه وبدائعه جمة - أن يفضي أمر علي كرم لله وجهه إلى أن يصير معاوية ندا له ونظيرا مماثلا. يتعارضان الكتاب والجواب. ويتساويان فيما يواجه به أحدهما صاحبه. ولا يقول له علي كرم الله وجهه كلمة إلا قال مثلها. وأخشن مسا منها. فليت محمد صلى الله عليه وسلم كان شاهد ذلك ليرى عيانا لا خبرا أن الدعوة التي قام بها. وقاسي أعظم المشاق في تحملها. وكابد الأهوال في الذب عنها. وضرب بالسيوف عليها لتأييد دولتها. وشيد أركانها. وملأ الآفاق بها. خلصت صفوا عفوا لا عدائه الذين كذبوه لما دعا إليها. وأخرجه عن أوطانه لما حصن عليها. وأدموا وجهه وقتلوا عمه وأهله. فكأنه كان يسعى لهم ويدأب لراحتهم، كما قال أبو سفيان في أيام عثمان.

وقد مر بقبر حمزة. وضربه برجله وقال: يا أبا عمارة: إن الأمر الذي اختلفنا عليه بالسيف أمسي في يد غلماننا اليوم يتلعبون به ثم آل الأمر أن يفاخر معاوية عليا. كما يتفاخر الأكفاء والنظراء! ثم أقول ثانيا لأمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ليت شعري. لماذا فتح باب الكتاب والجواب بينه وبين معاوية؟ وإذا كانت الضرورة قد قادت إلى ذلك فهلا اقتصر في الكتاب إليه على الموعظة من غير تعرض للمفاخرة (١) والمنافرة. وإذا كان لا بد منهما. فهلا اكتفى بهما من غير تعرض لأمر آخر يوجب المقابلة والمعارضة بمثله. وبأشد منه (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) (٢)، وهلا دفع هذا الرحل العظيم الجليل نفسه عن سباب هذا السفيه الأحمق. هذا مع أنه القائل: من واجه الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون. أي افتروا عليه

---

(١) المصدر السابق ٧٦٩ / ٤.

(٢) كان الإمام قد تفاخر في رسالة وقال: إن كنت صادقا فيما تسطر.. فدع الناس جانبا. وتيسر لما دعوتني إليه من الحرب... واعف الفريقين من القتال. ليعلم أينا المرين على قلبه. المغطي على بصره، فأنا أبو الحسن، قاتل جدك وأخيك وخالك. (ابن أبي الحديد ٧٧٠ / ٤).

وقالوا فيه الباطل " (١).
وأقول: شاء الله أن يرد الإمام ردا يوجب المقابلة والمعارضة. وشاء الله أن نجد هذه الرسائل في أكثر من مصدر لتعلم منها أصول الحقيقة الغائبة. والإمام لا يضره سباب ألف سفيه أحمق. لأن هؤلاء لا يكتب لسبابهم وعروشهم الخلود. فانظر إلى الوراء منذ عهد آدم عليه السلام كم من كلاب نبحت على قافلة الأنبياء. لقد ذهب النباح كهباء ضائع في خلاء يصلي أصحابه لظى. وكتب الخلود لدعوة الرسل والأنبياء. وكذلك ترى سيرة الأئمة والهداة لقد رصدتهم ألسنة أصحاب السوء وشوهتهم الأقلام المأجورة. وفي النهاية ذهب أهل السوء والباطل ولم يكتب لأقوالهم الخلود ولم يبق إلا السائرون على طريق الفطرة.
وبعد التكذيب بالحديث بدأ إعلام معاوية يتاجر بمقتل طلحة والزبير وهزيمة عائشة. روي أن عمرو بن العاص قال لعائشة: لوددت أنك كنت قتلت يوم الجمل. فقالت: ولم لا أبا لك؟ فقال: تموتين بأجلك وتدخلين الجنة ونجعلك أكبر التشنيع على علي بن أبي طالب " (٢)، ومن هذا نعلم أن المتاجرة بأهل الجمل لها جذور وأصول. وفي رسالة من معاوية إلى أمير المؤمنين علي يقول: معاوية:... دعوت الناس إلى نفسك. وأكرهت أعيان المسلمين على بيعتك. ثم كان منك بعدما كان من قتلك شيخي المسلمين أبا محمد طلحة وأبا عبد الله الزبير. وهما من الموعودين بالجنة. والمبشر قاتل أحدهما بالنار في الآخرة هذا إلى تشريدك بأم المؤمنين عائشة. وإحلالها محل الهون. مبتذلة بين أيدي الأعراب وفسقة أهل الكوفة. فمن بين مشهر لها، وبين شامت بها. وبين ساخر منها. ترى ابن عمك كان بهذا لو رآه راضيا. أم يكون عليك ساخطة. ولك عنه زاجرا. أن تؤذي أهله وتشرد بحليلته. وتسفك دماء أهل ملته. ثم تركك دار الهجرة التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها: " إن المدينة لتنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد " فلعمري قد صح وعده وصدق قوله.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٨.
(٢) ابن أبي الحديد ٧٧٠ / ٤.

ولقد نفت خبثها. وطردت عنها من ليس بأهل أن يستوطنها. فأقمت بين المصرين. وبعدت عن بركة الحرمين. ورضيت بالكوفة بدلا من المدينة. وبمجاورة الخورنق والحيرة. عوضا عن مجاورة خاتم النبوة... " (١).

ورد أمير المؤمنين عليه في رسالة طويلة منها:... فرق بيننا وبينكم أمس أنا آمنا وكفرتم. واليوم أنا استقمنا وفتنتم. وما أسلم مسلمكم إلا كرها. وبعد أن كان أنف الإسلام كله لرسول الله صلى الله عليه وسلم حربا. وذكرت أني قتلت طلحة والزبير. وشردت بعائشة. ونزلت بين المصرين. وذلك أمر غبت عنه - فلا عليك. ولا العذر فيه إليك... " (٢).

وقال ابن أبي الحديد: فأما الجواب المفصل فأن يقال: إن طلحة والزبير قتلا أنفسهما ببغيهما ونكثهما. ولو استقاما على الطريقة لسلما ومن قتله الحق فدمه هدر... وأصحابنا يذهبون إلى أنهما تابا وفارقا الدنيا نادمين على ما صنعا. وكذلك نقول نحن... فهما من أهل الجنة لتوبتهما. ولولا توبتهما لكانا هالكين كما هلك غيرهما. فإن الله تعالى لا يحابي أحدا في الطاعة والتقوى. (ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة) (٣)، وأما الوعد لهما بالجنة فمشروط بسلامة العاقبة. والكلام في سلامتهما. وإذا ثبتت توبتهما فقد صح الوعد لهما وتحقق... أما أم المؤمنين عائشة فقد صحت توبتها. والأخبار الواردة في توبتها أكثر من الأخبار الواردة في توبة طلحة والزبير. لأنها عاشت زمانا طويلا. وهما لم يبقيا. والذي جرى لها كان خطأ منها. فأي ذنب لأمير المؤمنين كرم الله وجهه في ذلك؟ ولو أقامت في منزلها لم تبتذل بين الأعراب وأهل الكوفة، على أن أمير المؤمنين كرم الله وجهه أكرمها وصانها وعظم من شأنها... ولو كانت فعلت بعمر بن الخطاب ما فعلت به. وشقت عصا الأمة عليه. ثم ظفر بها. لقتلها وفرقها إربا إربا. ولكن عليا كان حليما كريما.

---

(١) الكامل / للمبرد ط ليدن ص ١٥١ / ١.
(٢) ابن أبي الحديد ١٧٨ / ٥.
(٣) ابن أبي الحديد ١٧٧ / ٥.

وأما قوله: " لو عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم. فبربك هل كان يرضي لك أن تؤذي حليلته ". فلعلي كرم الله وجهه أن يقلب الكلام عليه. فيقول: " افتراه لو عاش. أكان يرضي لحليلته أن تؤذي أخاه ووصيه. وأيضا أتراه لو عاش أكان يرضي لك يا ابن أبي سفيان أن تنازع عليا الخلافة، وتفرق جماعة هذه الأمة. وأيضا أتراه لو عاش أكان يرضي لطلحة والزبير أن يبايعا. ثم ينكثا لا لسبب. بل قالا: جئنا تطلب الدراهم. فقد قيل لنا: إن بالبصرة أموالا كثيرة هذا الكلام يقوله لمثلهما.

فأما قوله: " تركت دار الهجرة " فلا عيب عليه إذا انتقضت عليه أطراف الإسلام بالبغي والفساد أن يخرج من المدينة إليها، ويهذب أهلها، وليس كل من خرج من المدينة كان خبثا. فقد خرج عنها عمر مرارا إلى الشام. ثم لعلي كرم الله وجهه أن يقلب عليه الكلام فيقول له: وأنت يا معاوية قد نفتك المدينة أيضا عنها. فأنت إذن خبث. وكذلك طلحة والزبير وعائشة الذين تتعصب لهم وتحتج على الناس بهم، وقد خرج من المدينة الصالحون. كابن مسعود وأبي ذر وغيرهما وماتوا في بلاد نائية عنها.

وأما قوله: " بعدت عن حرمة الحرمين، ومجاورة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم "، فكلام إقناعي ضعيف، والواجب على الإمام أن يقدم الأهم فالأهم من مصالح الإسلام. وتقديم قتال أهل البغي على المقام بين الحرمين أولى... (١).

إن خطاب معاوية ليس فيه علم يرى. وهو خطاب إعلامي في المقام الأول يخاطب به غوغاء الشام ومن على شاكلتهم على الرغم من أن الرسالة موجهة إلى أمير المؤمنين علي: وعلى هذا المنوال بعث معاوية برسالة أخرى إلى أمير المؤمنين علي يقول له فيها: أما بعد، يقول الله تعالى في محكم كتابه (ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٢.

الخاسرين) (١)، وإني أحذرك الله أن تحبط عملك وسابقتك بشق عصا هذه الأمة وتفريق جماعتها. فاتق الله واذكر موقف القيامة. وأقلع عما أسرفت فيه من الخوض في دماء المسلمين. وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لو تمالا أهل صنعاء وعدن على قتل رجل واحد من المسلمين. لأكبهم الله على مناخرهم في النار " فكيف يكون حال من قتل أعلام المسلمين وسادات المهاجرين. بل ما طحنت رحا حربه من أهل القرآن. وذي العبادة والإيمان. من شيخ كبير. وشاب غرير. كلهم بالله تعالى مؤمن. وله مخلص وبرسوله مقر عارف. فإن كنت أبا الحسن أنما تحارب على الإمرة والخلافة. فلعمري لو صحت خلافتك لكنت قريبا من أن تعذر في حرب المسلمين. ولكنها ما صحت لك. أني بصحتها وأهل الشام لم يدخلوا فيها. ولم يرتضوا بها؟ وخف الله وسطوته. واتق بأسه ونكاله. وأغمد سيفك عن الناس. فقد والله أكلتهم الحرب... " (٢).

وهذا أيضا خطاب إعلامي كتبه معاوية لتبدأ إذاعته في بثه بمجرد أن يتحرك حامل الرسالة في اتجاه أمير المؤمنين. ولقد رد أمير المؤمنين علي على هذه الرسالة وغيرها من باب إقامة الحجة.

فقال: أما بعد. فقد أتتني منك موعظة موصلة. ورسالة محبرة. فمقتها بضلالك. وأمضيتها بسوء رأيك. وكتاب امرئ ليس له بصر يهديه. ولا قائد يرشده. دعاه الهوى فأجابه. وقاده الضلال فاتبعه. فهجر لا غطا. وضل خابطا. فأما أمرك لي بالتقوى فأرجو أن أكون من أهلها، واستعيذ بالله من أن أكون من الذين إذا أمروا بها أخذتهم العزة بالإثم. وأما تحذيرك إياي أن يحيط عملي وسابقتي في الإسلام. فلعمري لو كنت الباغي عليك. لكان لك أن تحذرني ذلك. ولكني وجدت الله تعالى يقول: (فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر

---

(١) ابن أبي الحديد ١٨٠ / ٥.
(٢) سورة الزمر: الآية ٦٥.

الله) (١)، فنظرنا إلى الفئتين. أما الفئة الباغية فوجدناها الفئة التي أنت فيها. لأن بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام. كما لزمتك بيعة عثمان بالمدينة. وأنت أمير لعمر على الشام. وكما لزمت يزيد أخاك بيعة عمر وهو أمير لأبي بكر على الشام. وأما شق عصا هذه الأمة. فأنا أحق أن أنهاك عنه. فأما تخويفك لي من قتال أهل البغي. فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني بقتالهم وقتلهم. وقال لأصحابه: " إن فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله "، وأشار إلي وأنا أولى من اتبع أمره. وأما قولك: إن بيعتي لم تصح لأن أهل الشام لم يدخلوا فيها. كيف وإنما هي بيعة واحدة. تلزم الحاضر والغائب. لا يثني فيها النظر. ولا يستأنف فيها الخيار. الخارج منها طاعن. والمروي فيها مداهن. فأربع على ظلعك، وانزع سربال غيك... (٢).

لقد خاطبه، وفقا لثقافته وما سارت عليه الأمور بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ليحاكمه بما ارتضوه واتفقوا عليه وهو أن الاختيار طريق الخلافة. فبين له أن الخلافة ليس بعد عقدها خيار لمن عقدها ولا لغيرهم. لأنها تلزم غير العاقدين كما تلزم العاقدين. فيسقط الخيار فيها. ووفقا لهذا التعريف فقد لزمت أمراء الشام من قبل. وعليه فهي تلزم معاوية.

كان هذا بعضا من سياسة التشكيك في الحديث حتى يتم التعتيم مرة أخرى على مناقب أمير المؤمنين، وسارت سياسة التقليل من شأن أمير المؤمنين جنبا إلى جنب مع سياسة التشكيك في الحديث. ووصف بأن يفرق الكلمة ويقتل المتقين ويفارق المدينة. وكان هذا لهدف لا يخفي على الباحث عن الحقيقة.

وفي حياة أمير المؤمنين عتموا على مناقبه مرة، ثم أرادوا أن يعتموا عليها ويشوهوه مرة... وبعد وفاته سبوه على المنابر. وكما زج معاوية بأصحاب الجمل في حربه الإعلامية. زج أيضا بقضية الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد كان يريد من وراء هذا أن يقول أمير المؤمنين في أبي بكر.

---

(١) ابن أبي الحديد ٣١٦ / ٤.

(٢) سورة الحجرات: الآية ٩.

وعمر، بما لا يرضي الرأي العام لأن الغالب الأعم في الأمصار كانوا يعتقدون إمامة الشيخين إلا القليل... من خواص أمير المؤمنين، كان معاوية يريد أن يسجل عليه قوله أنهما غصباه حقه. فيجعل ذلك حجة عليه عند أهل الشام ويضيفه إلى ما وضعه في عقولهم من انتقاص علي كما زعم. كان يريد أن وينسبهما إلى الظلم ومخالفة الرسول في أمر الخلافة. فالحصول على تسجيل مثل هذا كفيل بأن يفسد عليه أهل العراق أيضا وهم جنده وبطانته وأنصاره. لأن الغالب الأعم فيهم كانوا يعتقدون إمامة الشيخين. لهذا لم يدخر معاوية جهدا من أجل فتح هذا الباب. فأرسل كتابا مع أبي مسلم الخولاني قصد أن يغضب عليا ويجرحه إذا قرأ ذكر أبي بكر وأنه أفضل المسلمين إلى أن يخلط خطة في الجواب بكلمة تقتضي طعنا في أبي بكر. فجاءه الرد من علي غير واضح غير بين. ليس فيه تصريح بالتظلم لهما وتارة يترحم عليهما. وتارة يقول: أخذا حقي وقد تركته لهما. فأشار عمرو به العاص مع معاوية أن يكتب كتابا ثانيا للكتاب الأول ليستفزا فيه عليا. ويحمله الغضب أن يكتب كلاما يتعلقان به في تقبيح حاله. فكتب معاوية إلى أمير المؤمنين كتابا أنفذه مع أبي أمامة الباهلي ومما جاء فيه: " لقد حسدت أبا بكر والتويت عليه. ورمت إفساد أمره. وقعدت في بيتك واستغويت عصابة من الناس حتى تأخروا عن بيعته. ثم كرهت خلافة عمر. وحسدته واستطلت مدته. وسررت لقتله. وأظهرت الشماتة بمصابه. حتى أنك حاولت قتل ولده لأنه قتل قاتل أبيه. ثم لم تكن أشد منك حسدا لابن عمك عثمان نشرت مقابحه. وطعنت في فقهه. ثم في دينه. ثم في سيرته ثم في عقله. وأغريت به السفهاء من أصحابك وشيعتك. حتى قتلوه بمحضر منك " وجاء فيها: " فدع اللجاج، والعبث جانبا، وادفع إلينا قتلة عثمان، وأعد الأمر شوري بين المسلمين ليتفقوا على من هو لله رضا. فلا بيعة لك في أعناقنا. ولا طاعة لك علينا ولا عتبي لك عندنا. وليس لك ولأصحابك عندي إلا السيف "، وجاء فيها: " فأما ما لا تزال تمن به من سابقتك وجهادك. فإني وجدت الله سبحانه يقول: " يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم

صادقين) (١)، ولو نظرت في حال نفسك لوجدتها أشد الأنفس امتنانا على الله بعملها، وإذا كان الامتنان على السائل يبطل أجر الصدقة. فالامتنان على الله يبطل أمر الجهاد، ويجعله (كمثل صفوان عليه تراب...) الآية (٢)، فهكذا نسج معاوية وابن العاص شباك الصيد التي تخدم أهواءهما كي يركبا على أعناق الأمة. ورد أمير المؤمنين وكان رده من محاسن الكتب. وجاء فيه: " أما بعد فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمدا صلى الله عليه وسلم لدينه. وتأييده إياه لمن أيده من الصحابة. فلقد خبأ لنا الدهر منك عجبا، إذ طفقت تخبرنا ببلاء الله تعالى عندنا. ونعمته علينا في نبينا. فكنت في ذلك كناقل التمر إلى هجر أو داعي مسدده إلى النضال.

والمعنى: " فلقد خبأ لنا الدهر منك عجبا " موضع التعجب أن معاوية يخبر عليا كرم الله وجهه باصطفاء الله تعالى محمدا وتشريفه له. وتأييده له. وهذا ظريف لأنه يجري كإخبار زيد عمرا عن حال عمرو. إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم وعلي كرم الله وجهه كالشئ الواحد وقوله: " فكنت في ذلك كناقل التمر إلى هجر " وهجر اسم مدينة. وهي بلدة كثيرة النخل يحمل منها التمر إلى غيرها (٣). ثم قال الإمام في خطابه: " وزعمت أن أفضل الناس في الإسلام فلان وفلان، فذكرت أمرا إن تم اعتزلك كله. وإن نقص لم يلحقك ثلمه. وما أنت والفاضل والمفضول. والسائس والمسوس، وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الأولين وترتيب درجاتهم. هيهات لقد جن قدح ليس منها (٤). وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها (٥). ألا تربع أيها الإنسان على ظلعك (٦).

---

(١) ابن أبي الحديد ٣١٦ / ٤.
(٢) سورة الحجرات: الآية ١٧.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٦٤.
(٤) ابن أبي الحديد ٦٠٥ / ٤.
(٥) هذا مثل يضرب لمن يدخل نفسه بين قوم ليس له أن يدخل بينهم.
(٦) أي وطفق يحكم في هذه القصة أو في القضية من يجب أن يكون الحكم لها عليه لا له فيها.

وتعرف قصور ذرعك. وتتأخر حيث أخرك القدر (١) فما عليك غلبة المغلوب ولا ظفر الظافر (٢). فإنك لذهاب في التيه. رواغ عن القصد " (٣)، ثم كشف له أمير المؤمنين عن أمور يعرفونها فقال: " ومنا النبي ومنكم المكذب ومنا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف، ومنا سيد شباب أهل الجنة ومنكم صبية النار. ومناخير نساء العالمين، ومنكم حمالة الحطب، في كثير مما لنا وعليكم. فإسلامنا ما قد سمع. وجاهليتنا لا تدفع. وكتاب الله يجمع لنا ما شذ عنا. وهو قوله سبحانه وتعالى: (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) (٤)، وقوله تعالى: (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين) (٥). فنحن مرة أولى بالقرابة، وتارة أخرى أولى بالطاعة، ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فلجوا عليهم – فإن يكن الفلج به. فالحق لنا دونكم. وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم. وزعمت أنى لكل الخلفاء حسدت، وعلى كلهم بغيت. فإن يكن ذلك كذلك. فليست الجناية عليك. فيكون العذر إليك. وقلت: إني كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أبايع، ولعمر الله لقد أردت أن تذم فمدحت. وأن تفضح فافتضحت. وما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوما ما لم يكن شاكا في دينه. ولا مرتابا ببقينه. وهذه حجتي إلى غيرك قصدا. ولكني أطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذكرها. ثم ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان، فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه. فأينا كان أعدي له وأهدي إلى مقاتله؟ أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفه، أمن استنصره فتراخي عنه وبث

---

(١) أي ألا ترفق بنفسك وتكف ولا تحمل عليها ما لا تطيقه.

(٢) مثل قولك: ضع نفسك حيث وضعها الله.

(٣) أي ما الذي أدخلك بيني وبين أبي بكر وعمر وأنت من بني أمية لست هاشميا ولا تيميا ولا عدويا، ولست مهاجرا.

(٤) أي تترك ما يلزمك فعله وتتحدث عن الصحابة وما جرى بعد موت النبي. ونحن إلى الكلام في غير هذا أحوج منا إلى الكلام في البيعة وحقن الدماء والدخول تحت طاعة الإمام

(٥) سورة الأنفال: الآية ٧٥.

المنون إليه حتى أتى قدره عليه... " (١).
لقد فتح معاوية بابا فيه من الحجج الكثير. وكان الإمام لا يريد لهذا الباب أن يفتح على مصراعيه. لأنه كان في حاجة لحقن الدماء بالدخول تحت بيعته. وعندما أصر معاوية قال الإمام في رسالته: " ألا ترى غير مخير لك. ولكن بنعمة الله أحدث " أي لست عندي أهلا لأن أخبرك بذلك. فإنك تعلمه. ومن يعلم الشئ لا يجوز أن يخبر به. ولكن أذكر ذلك. لأنه تحدث بنعمة الله علينا. وقد أمرنا بأن نتحدث بنعمته سبحانه (٢).
ويبدو أن حديث معاوية في هذا الباب الذي يعلمه. دفع بآخرين كي يذكروه إن كان قد نسي رغبة منهم في حقن الدماء. ومن هؤلاء محمد بن أبي بكر. فلقد بعث برسالة إلى معاوية ومما جاء فيها " إن الله بجلاله وعظمته وسلطانه وقدرته خلق خلقا بلا عبث ولا ضعف في قوة: لا حاجة به إلى خلقهم. ولكنه خلقهم عبيدا وجعل منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا. ثم اختارهم على علمه. فاصطفى منهم محمدا صلى الله عليه وسلم. فاختصه برسالته. واختاره لوحيه. وائتمنه على أمره. وبعثه رسولا مصدقا لما بين يديه من الكتب. ودليلا على الشرائع. فدعا إلى سبيل أمره بالحكمة والموعظة الحسنة. فكان أول من أجاب وأناب، وصدق ووافق فأسلم وسلم. أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب. فصدقه بالغيب المكتوم وآثره على كل حميم - ووقاه كل هول، وواساه بنفسه في كل خوف. فحارب حربه، وسالم سلمه " (٣)، وقال محمد بن أبي بكر في رسالته: " وقد رأيتك تساميه وأنت أنت.. وهو هو السابق المبرز في كل خير... وأنت اللعين ابن اللعين. لم تزل أنت وأبوك تبغيان لدين الله الغوائل وتجتهدان على إطفاء نور الله. وتجمعان على ذلك الجموع وتبذلان فيه المال. وتحالفان في ذلك القبائل. على هذا مات أبوك. وعلى ذلك

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٨.
(٢) ابن أبي الحديد ٥٩٩ / ٤.
(٣) ابن أبي الحديد ٦٠٧ / ٤.

خلفته. والشاهد عليك بذلك من يأوي ويلجأ إليك من بقية الأحزاب ورؤوس النفاق والشقاق لرسول الله صلى الله عليه وسلم. والشاهد لعلي مع فضله وسابقته القديمة أنصاره الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن. ففضلهم وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار. فهم معه كتائب وعصائب. يجالدون حوله بأسيافهم ويهرقون دماءهم دونه. يرون الفضل في اتباعه والشقاق والعصيان في خلافه. فكيف يا لك الويل تعدل نفسك بعلي. وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصيه وأبو ولده، وأول الناس له اتباعا وآخرهم به عهدا بخبره بسره ويشركه في أمره. وأنت عدوه وابن عدوه. فتمتع ما استطعت بباطلك وليمددك ابن العاص في غوايتك. فكأن أجلك قد انقضى وكيدك قد وهى. وسوف تستبين لمن تكون العاقبة العليا. واعلم أنك إنما تكابد ربك الذي قد أمنت كيده وأيست من روحه وهو لك بالمرصاد. وأنت منه في غرور بالله. وبالله وأهل رسوله عنك الغناء. والسلام على من اتبع الهدى " (١).

لقد أراد محمد بن أبي بكر أن يذكر معاوية لعله يعقل الأمور. وإذا كانت لهجة الخطاب بها قوة فإن هذه القوة دعوة ليتخطى معاوية حواجز النفس الأمارة بالسوء. وينتصر على نفسه فيدخل فيما دخل فيه الناس. لتحقن دماء المسلمين ويفوز برضا رب العالمين. فماذا كان جواب معاوية؟ لقد كتب إلى محمد بن أبي بكر: من معاوية بن أبي سفيان إلى الزاري على أبيه محمد بن أبي بكر. سلام على أهل طاعة الله. أما بعد. فقد أتاني كتابك تذكر فيه ما الله أهله في قدرته وسلطانه. وما اصطفى به نبيه. مع كلام ألفته ووضعته. لرأيك فيه تضعيف ولأبيك فيه تعنيف. ذكرت حق ابن أبي طالب وقديم سابقته وقرابته من نبي الله ونصرته له ومواساته إياه في كل خوف وهول. واحتجاجك علي وفخرك يفضل غيرك لا بفضلك.. فأحمد إلها صرف ذاك الفضل عنك. وجعله لغيرك. فقد كنا وأبوك معنا في حياة نبينا نرى حق ابن أبي طالب لازما لنا وفضله مبرزا علينا، فلما اختار الله لنبيه ما عنده وأتم له ما وعده، وأظهر دعوته. وأفلج

---

(١) ابن أبي الحديد ٦٣٢ / ١.

حجته (١). قبضه الله إليه فكان أبوك وفاروقه أول من ابتزه وخالفه. على ذلك اتفقا واتسقا. ثم دعواه إلى أنفسهما فأبطأ عنهما وتلكأ عليهما. فهما به الهجوم وأرادا به العظيم - فبايعهما وسلم لهما. لا يشركانه في أمرهما. ولا يطلعانه على سرهما حتى قبضا وانقضى أمرهما. ثم أقاما بعدهما ثالثهما عثمان بن عفان. يهتدي بهديهما ويسير بسيرتهما. فعبته أنت وصاحبك حتى طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي. وبطنتما له وظهرتما وكشفتما له عداوتكما وغلكما حتى بلغتما منه مناكما. فخذ حذرك يا ابن أبي بكر فستري وبال أمرك. وقس شبرك بفترك كقصر عن أن تساوي أن توازي من يزن الجبال بحلمه. ولا تلين على قسر قناته. ولا يدرك ذو مدى أناته. أبوك مهد له مهاده وبنى ملكه وشاده. فإن يكن ما نحن فيه صوابا فأبوك أولى. وإن يكن جورا فأبوك أسه ونحن شركاؤه. فبهديه أخذنا وبفعله اقتدينا ورأينا أباك فعل ما فعل فاحتذينا مثاله واقتدينا بفعاله. فعتب أباك بما بدا لك. أو دع. والسلام على من أناب ورجع من غوايته وناب " (٢).

إن سياسة معاوية التي اعتمدها ليشكك بها في مناقب أمير المؤمنين علي. لم تقف عند التشكيك والمتاجرة بحرب الجمل وإنما اندفعت نحو الخلافة لتسجل على أمير المؤمنين أي اعتراض يخدم القاسطين في بلوغ أهدافهم.

وعندما أدلى محمد بن أبي بكر بدلوه رغبة منه في الاصلاح. كانت رسالة معاوية التهديدية إليه. فمعنى الرسالة: أنك إذا تكلمت مس جذورك ما تقول. وما تقوله لن يبطل دم عثمان وستهتف الجماهير بالقصاص تكلمت أو صمت، ولن تجد الجماهير بديلا عن اختيار المسلمين لأنفسهم.

ولكن محمد بن أبي بكر تكلم بدليل أن خطابه وخطاب معاوية إليه بين أيدينا في أكثر من مصدر. ولقد ظهرت في الساحة قبل وبعد صفين أحاديث وأسئله حائرة. جاءت نتيجة لسياسة معاوية الإعلامية في هذا الباب. وما كان لهذه الأسئلة أن تطرح في هذا الوقت العصيب الذي يبحث فيه الإمام عن وحدة

---

(١) أي قومها وأظهرها.

(٢) ابن أبي الحديد ٦٣٢ / ١.

الأمة. لولا أن معاوية فتح لها الباب بغية أن تصب نتائجها المرجوة في سلته. ولكن الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن. صحيح أن هناك من هاجر إلى معاوية وكان الدافع إلى هجرتهم الحصول على الأموال. وليس الاقتناع بما يقول، ولكن الأهم أن أهل البصائر فارقوه بعد أن عرفوه. يقول أمير المؤمنين له في رسالة أثناء تلك الحملة الإعلامية: وأرديت (١) جيلا من الناس كثيرا (٢). خدعتهم بغيك (٣). وألقيتهم في موج بحرك تغشاهم الظلمات. وتتلاطم بهم الشبهات. فجاروا (٤). عن وجهتهم (٥). ونكصوا على أعقابهم. وتولوا على أدبارهم. وعولوا على أحسابهم (٦). إلا من فاء من أهل البصائر. فإنهم فارقوك بعد معرفتك. وهربوا إلى الله من موازرتك. إذ حملتهم على الصعب. وعدلت بهم عن القصد، فاتق الله يا معاوية في نفسك. وجاذب الشيطان قيادك. فإن الدنيا منقطعة عنك. والآخرة قريبة منك " (٧).

٣ - الإعلام العلوي:

كان من نتائج التشكيك الأموي بروز أسئلة لا بد أن يجيب عليها الإمام وحده وليس أحدا غيره. سأله بعض أصحابه: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به؟ فقال: أما الاستبداد (٨) علينا بهذا المقام. ونحن الأعلون نسبا والأشدون بالرسول صلى الله عليه وسلم نوطا (٩). فإنها كانت

---

(١) أرديتهم / أهلكتهم.
(٢) جيلا من الناس / أي صنفا من الناس.
(٣) الغي / الضلال.
(٤) وجاروا / أي عدلوا عن القصد.
(٥) ووجهتهم / يقال: هذا وجهه الرأي، أي هو الرأي بنفسه.
(٦) أي لم يعتمدوا على الدين وإنما أردتهم الحمية ونخوة الجاهلية فأخلدوا إليها وتركوا الدين.
(٧) ابن أبي الحديد ٧٦٧ / ٤.
(٨) الاستبداد بالشئ / التفرد به.
(٩) النوط / الالتصاق.

أثرة (١) شحت (٢) عليها نفوس قوم. وسخت (٣) عنها نفوس آخرين. والحكم الله والمعود إليه يوم القيامة.

ودع عنك نهبا صيح في حجراته * ولكن حديثا ما حديث الرواحل

وهلم الخطب في ابن أبي سفيان. فلقد أضحكني الدهر بعد إبكائه (٤).

ولا غرر والله. فيا له خطبا يستفرغ العجب. ويكثر الأود (٥). حاول القوم إطفاء نور الله من مصباحه. وسد فواره من ينبوعه. وجد جوا بيني وبينهم شربا وبيئا. فإن ترتفع عنا وعنهم محن البلوي، أحملهم من الحق. وإن تكن الأخرى " فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليهم بما يصنعون " (٦).

وقال الإمام ردا على ما يشاع في الساحة، وقد قال قائل: إنك على هذا الأمر يا ابن أبي طالب لحريص. فقلت: بل أنتم والله لأحرص وأبعد. وأنا أخص وأقرب. وإنما طلبت حقا لي وأنتم تحولون بيني وبينه. وتضربون وجهي دونه. فلما قرعته بالحجة في الملأ الحاضرين. هب كأنه بهت لا يدري ما يجيبني به. اللهم إني أستعديك (٧) على قريش ومن أعانهم. فإنهم قطعوا رحمي (٨). وصغروا عظيم منزلتي (٩)، وأجمعوا على منازعتي أمرا هو لي. ثم قالوا: إلا إن في الحق أن تأخذه. وفي الحق أن تتركه " (١٠).

كان الإمام يجيب على أسئلة الحاضر بوقائع حدثت في الماضي فبين أنهم

---

(١) أي استئثار بالأمر واستبدادا به.
(٢) شحت / نحلت.
(٣) سخت / جادت.
(٤) يشير إلى ما كان عنده من الكآبة لتقدم من سلف عليه، ثم جاء معاوية نظيرا له.
(٥) الأود / العوج.
(٦) ابن بي الحديد ٣٠٣ / ٣.
(٧) أي أطلب أن تساعدني عليهم.
(٨) لم يرعوا قربه من النبي.
(٩) أي لم يقفوا مع النصوص الواردة فيه.
(١٠) ابن أبي الحديد ٣٥٠ / ٣.

لم يقتصروا على أخذ حقه ساكتين عن الدعوى. ولكنهم أخذوه وادعوا أن الحق لهم وأنه يجب عليه أن يترك المنازعة فيه. فيا ليتهم أخذوه معترفين بأنه حقه. فكانت المصيبة به أخف وأهون (١).

ولقد ذكرنا في هذا الكتاب أن الساحة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كان بها العديد من التيارات التي تصد عن سبيل الله. وذكرنا أن الصحابة الكبار أرادوا أن يحيدوا هذه التيارات حتى لا تبطش بالدعوة فكان ما جرى في السقيفة. والإمام هنا لا يخص إنسانا بعينه نازعه الأمر. وإنما يذكر قريشا إذ تحدث عن الذين قطعوا رحمه وصغروا منزلته وأجمعوا على منازعته. وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه في أن قريشا دبرت أمرا. وبعضي قريش هموا بعمل كان في رأيهم إنقاذا للدعوة. وبعد السقيفة اعتزل الإمام علي وكانت له مكانته بين القوم حتى كان يوم الشورى وفيه رفعت أعلام " إنك على هذا الأمر يا ابن أبي طالب لحريص ".

وبعد أن وضع الإعلام العلوي النقاط فوق الحروف في قضية طرحها الإعلام الأموي الذي يبتغي التشكيك والمتاجرة بكل شئ.

طالب الإمام أتباعه إذا سألوا أن يسألوا تفقها فقال: سل تفقها. ولا تسأل تعنتا، فإن الجاهل المتعلم شبيه بالعالم. وإن العالم المتعنت شبيه بالجاهل " (٢).

وقال: " لا تجعلوا علمكم جهلا ويقينكم شكا. إذا علمتم فاعملوا. وإذا تيقنتم فأقدموا " (٣)، وقال: " اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية. لا عقل رواية. فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل " (٤)، ثم طالب الإمام بكتابة العلم ليكون حجة على امتداد الزمان فقال: " الق دواتك. وأطل جلفة قلمك. وفرج بين السطور. وقرمط بين الحروف فأن ذلك أجدر بصباحة

---

(١) ابن أبي الحديد ٣٥١ / ٣.
(٢) ابن أبي الحديد ٦٢٠ / ٥.
(٣) ابن أبي الحديد ٥٧٩ / ٥.
(٤) ابن أبي الحديد ٣٧٤ / ٥.

الخط " (١)، وقال، " العلم علمان. مطبوع ومسموع. ولا ينفع المسموع إذا لم يكن المطبوع " (٢) وجبت الناس في العلم فقال: " كل وعاء يضيق بما جعل فيه: إلا وعاء العلم فإنه يتسع " (٣)، وساق الناس إلى طريق الفكر فقيل له: صف لنا العاقل، فقال: هو الذي يضع الشئ في مواضعه فقيل: فصف لنا الجاهل، قال: قد فعلت (٤). وقيل له: ما هو الخير؟ فقال: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك. ولكن الخير أن يكثر علمك. وأن يعظم حلمك " (٥).

لقد كان الإعلام العلوي يدق أوتاد العلم في كل مكان ويعمل على دوام العلم ليكون حجه على كل زمان. قال الإمام حين سأله رجل أن يعرفه ما الإيمان قال له: إذا كان غدا فأتني حتى أخبرك على أسماع الناس، فإن نسيت مقالتي حفظها عليك غيرك فإن الكلام كالشاردة يثقفها هذا ويخطئها هذا " (٦).

وبينما كان الإعلام الأموي يدق أوتاد البدعة والفرقة كان الإعلام العلوي يدق أوتاد السنة والجماعة. عن يحيى بن عبد الله بن الحسن عن أبيه، قال: كان علي يخطب فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين. أخبرني من أهل الجماعة ومن أهل الفرقة. ومن أهل السنة ومن أهل البدعة؟ فقال: ويحك أما إذا سألتني فافهم عني، ولا عليك أن تسأل عنها أحدا بعدي. فأما أهل الجماعة فأنا ومن تبعني وإن قلوا. ذلك الحق من أمر الله وأمر رسوله. فأما أهل الفرقة فالمخالفون لي ومن اتبعني وإن كثروا. وأما أهل السنة المتمسكون بما سنه الله لهم ورسوله وإن قلوا، وأما أهل البدعة. فالمخالفون لأمر الله ولكتابه ورسوله العاملون برأيهم وأهوائهم وإن كثروا. وقد مضى الفوج الأول وبقيت أفواج. وعلى الله

---

(١) ابن أبي الحديد ٦١٤ / ٥.
(٢) المصدر السابق ٦٣١ / ٥.
(٣) المصدر السابق ٤٩٠ / ٥.
(٤) المصدر السابق ٥١٧ / ٥.
(٥) المصدر السابق ٣٧٢ / ٥.
(٦) المصدر السابق ٥٧٢ / ٥.

قصهما واستئصالها عن حدبة الأرض " (١).
وقال له رجل: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الفتنة؟ فقال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كيف صبرك إذا خضبت هذه من هذا. وأهوي بيده إلى لحيتي ورأسي؟ فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله ليس ذلك من مواطن الصبر ولكن من مواطن البشري والكشر. فقال لي: أجل. ثم قال لي: يا علي إنك باق بعدي ومبتلي بأمتي. ومخاصمهم يوم القيامة بين يدي الله تعالى. فأعدد جوابا فقلت: بأبي أنت وأمي. بين لي ما هذه الفتنة التي يبتلون بها، وعلى ما أجاهدهم بعدك؟ فقال: إنك ستقاتل بعدي الناكثة والقاسطة والمارقة. وجلاهم وسماهم رجلا رجلا!!. ثم قال لي: وتجاهد أمتي على كل من خالف القرآن ممن يعمل في الدين بالرأي. ولا رأي في الدين. إنما هو أمر من الرب ونهيه فقلت: يا رسول الله فأرشدني إلى الفلج عند الخصومة يوم القيامة، فقال: نعم. إذا كان ذلك فاعتصر على الهدى. إذا قومك عطفوا الهدى على العمى. وعطفوا القرآن على الرأي فتأولوه برأيهم. تتبع الحجج من القرآن بمشتبهات الأشياء الكاذبة عند الطمأنينة إلى الدنيا والتهالك والتكاثر. فأعطف أنت الرأي على القرآن إذا قومك حرفوا الكلم عن مواضعه عند الأهواء الساهية والهرج الآثم والقادة الناكثة والفرقة القاسطة والأخرى المارقة. أهل الإفك المردى والهوى المطغى والشبهة الحالقة. فلا تتكلن عن فضل العاقبة فإن العاقبة للمتقين... " (٢)، والحديث طويل ويشهد بصحته فضلا عن أنه حديث صحيح ما رواه حذيفة وعمار وأبو أيوب الأنصاري حين تحدث عن قتال علي للبغاة وسيأتي في موضعه.
ثم قال إمام المتقين. وقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: وإياك يا علي أن يكون خصمك أولى بالعدل والإحسان والتواضع لله والاقتداء بسنتي والعمل بالقرآن منك. فإن من فلج الرب على العبد يوم القيامة، أن يخالف

---

(١) رواه وكيع (كنز العمال ١٨٣ / ١٦).
(٢) رواه وكيع في الغرر (كنز العمال ١٨٣ / ١٦.

فرض الله أو سنة سنها نبي أو يعدل عن الحق ويعمل بالباطل. فعند ذلك يملي لهم فيزدادوا إثما قال تعالى: (إنما نملي لهم ليزدادوا إثما)، يا علي إن القوم سيفتنون ويفتخرون بأحسابهم وأموالهم ويزكون أنفسهم، ويمنون دينهم على ربهم. ويتمنون رحمته ويأمنون عقابه. ويستحلون حرامه بالمشتبهات الكاذبة. فيستحلون الخمر بالنبيذ والسحت بالهدية والربا بالبيع ويمنعون الزكاة ويطلب البر. ويتخذون فيما بين ذلك أشياء من الفسق لا توصف صفتها. ويلي أمرهم السفهاء ويكثر تتبعهم على الجور والخطأ، فيصير الحق عندهم باطلا والباطل حقا. ويتعاونون عليه ويرمونه بألسنتهم، ويعيبون العلماء ويتخذونهم سخريا. قلت: يا رسول الله فبأية المنازل هم إذا فعلوا ذلك. بمنزلة فتنة أو بمنزلة ردة؟ قال: بمنزلة فتنة. ينقذهم الله بنا أهل البيت عند ظهورنا (١)... (يوجد بياض في المتن) ثم تحدث عن الفتن فبين أن الله فتح بأهل البيت وبهم يختم وبهم يقصم كل جبار وكل منافق. ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي: يا علي إنما مثل هذه الأمة كمثل الغيث لا يدري أوله خير أم أخره. وبين ذلك نهج أعوج لست منه وليس مني " (٢)، وهذا حديث رواه أيضا الإمام أحمد والرامهرمزي.

وفي الفترة بين موقعة الجمل وبين صفين. كان الإعلام العلوي يسوق الناس إلى صراط الله العزير الحميد ولم يترك الإمام موقفا إلا وأقام عليه حجة. ولم يترك باطلا إلا وضربه ليخرج الحق من جنبه. لقد كان الإمام يعرف المنافقين. نظرا لأن النبي صلى الله عليه وسلم وضع عنده أصول الأحداث في المستقبل. فوفقا لهذه الأصول ترى النفاق يشع بدون تدخل من أحد. لذا كان الإمام يسوق الناس إليه في عالم ترك بنو أمية بصماتهم على امتداد طريقه فكان يقول: " أنا يعسوب المؤمنين والمال يعسوب الفجار "، وقال: معنى ذلك أن المؤمنين يتبعوني. والفجار يتبعون المال. كما تتبع النحل يعسوبها. وهو

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.

رئيسها (١)، وقال الإمام: لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني. ولو صببت الدنيا بجماتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني وذلك أنه قضى فانقضى على لسان النبي الأمي صلى الله عليه وسلم أنه قال: يا علي. لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق (٢)، وفي وصف المنافقين يقول الإمام:

" أوصيكم عباد الله بتقوى الله. وأحذركم أهل النفاق. فإنهم الضالون المضلون. والزالون المزلون. يتلونون ألوانا. ويفتنون افتنانا (٣). ويعمدونكم بكل عماد (٤). ويرصدونكم بكل مرصاد (٥). قلوبهم دوية (٦). وصفاحهم نقية (٧). يمشون الخفاء. ويدبون الضراء. وصفهم دواء. وقولهم شفاء وفعلهم الداء العياء (٨)، حسدة الرخاء (٩). وموكدو البلاء (١٠)، ومقنطوا الرجاء (١١). لهم
بكل طريق صريع. وإلى كل قلب شفيع (١٢). ولكل شجو دموع (١٣). يتقارضون الثناء (١٤). ويتراقبون الجزاء (١٥). إن سألوا الحفوا (١٦). وإن عذلوا

---

(١) ابن أبي الحديد ٦١٤ / ٥.
(٢) ابن أبي الحديد ٣٢٤ / ٥ والحديث روى شطره الأخير مسلم والترمذي وغيرهم.
(٣) أي يتشعبون فنونا أي ضروبا.
(٤) يعمدونكم / يهدونكم ويفدحونكم. عماد / بأمر فادح.
(٥) أي يعدون المكايد لكم.
(٦) قلب دو / أي فاسد.
(٧) جمع صفحة الوجه.
(٨) أي أقوالهم أقوال الزاهدين وأفعالهم أفعال الفاسقين الفاجرين.
(٩) أي يحسدون كل النعم.
(١٠) أي إذا وقع واحد من الناس في البلاء أكدوه عليه بالسعايات وإغراء السلطان عليه.
(١١) أي يبدلون بشرورهم رجاء الراجي قنوطا.
(١٢) أي يستحوذوا على قلوب الناس بالرياء والتصنع.
(١٣) أي يبكون عند أهل كل حزن ومصاب.
(١٤) أي يثني زيد على عمرو، ليثني عمرو عليه في ذلك المجلس.
(١٥) أي يرتقب كل واحد منهم على ثنائه ومدحه لصاحبه جزاء منه إما بالمال أو بأمر آخر.
(١٦) الالحاف في السؤال: الاستقصاء فيه. وهو مذموم.

كشفوا (١)، وإن حكموا أسرفوا (٢). قد أعدوا لكل حق باطلا (٣)، ولكل قائم مائلا. ولكن حي قاتلا، ولكل باب مفتاحا (٤)، ولكل ليل مصباحا (٥).
يتوصلون إلى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم (٦). وينفقوا به أعلاقهم (٧).
يقولون فيشبهون. ويصفون فيموهون. قد هونوا الطريق، وأضلعوا المضيق (٨).
فهم لمة الشيطان. وحمة النيران (٩)، (أولئك حزب الشيطان ألا أن حزب الشيطان هم الخاسرون) (١٠).
وبعد أن وصف أمير المؤمنين مربع النفاق وصفا جامعا شاملا سئل عن الإيمان فقال: الإيمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين. والعدل والجهاد.
والصبر منها على أربع شعب: على الشوق، والشفق، والزهد، والترقب، فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات، ومن زهد في الدنيا استهان بالمصيبات. ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات.
واليقين منها على أربع شعب: على تبصرة الفطنة، وتأول الحكمة، وموعظة العبرة، وسنة الأولين، فمن تبصر في الفطنة، تبينت له الحكمة، ومن تبينت له الحكمة، عرف العبرة، ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين.
والعدل منها على أربع شعب: على غائض الفهم. وغور العلم. وزهرة الحكم، ورساخة الحلم، فمن فهم علم غور العلم. ومن علم غور العلم صدر.

---

(١) أي إذا عزلك أحدهم كشف عيوبك في ذلك اللوم والعذل. وربما كشفها لك بمختصر ممن لا تحب ذكرها بحضرته.
(٢) إذا سأل أحدهم ففوضته في مالك أسرف ولم يقنع بشئ.
(٣) يقيمون الباطل في معارضة الحق.
(٤) أي ألسنتهم ذلقة قادرة على فتح المغلقات.
(٥) أي كل أمر مظلم فقد أعدوا له كلاما ينيره ويضيئه.
(٦) أي لتنفق سلعتهم.
(٧) الإعلاق / السلعة الثمينة.
(٨) أضلعوا الطريق / أي أمالوه.
(٩) ابن أبي الحديد ٤٨٢ / ٣.
(١٠) سورة المجادلة: الآية ١٩.

عن شرائح الحلم. ومن حلم لم يفرط في أمره. وعاش في الناس حميدا، والجهاد منها على أربع شعب: على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنآن الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف المنافقين، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه. ومن شنأ الفاسقين وغضب لله غضب الله له وأرضاه يوم القيامة. والكفر على أربع دعائم: على التعمق، والتنازع، والزيغ، والشقاق، فمن تعمق لم ينب إلى الحق، ومن كثر نزاعه بالجهل دام عماه عن الحق.. ومن زاغ ساءت عنده الحسنة، وحسنت عنده السيئة. وسكر سكر الضلالة، ومن شاق وعرت عليه طرقه. وأعضل عليه أمره. وضاق عليه مخرجه.

والشك على أربع شعب: على التمادي، والهول، والتردد والاستسلام، فمن جعل المراء ديدنا لم يصبح ليلة، ومن هاله ما بين يديه نكص على عقبيه. ومن تردد في الريب. وطئته سنابك الشيطان. ومن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة هلك فيهما " (١).

وبعد أن تحدث الإمام عن النفاق والإيمان. تحدث عن الإسلام فقال: " لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي. الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين. واليقين هو التصديق، والتصديق هو الاقرار، والإقرار هو الأداء والأداء هو العمل " (٢)، وقال إمام المتقين: " غدا ترون أيامي ويكشف لكم عن سرائري. وتعرفونني بعد خلو مكاني وقيام غيري مقامي " (٣)، وقال الإمام: إن أمرنا صعب مستصعب لا يحمله إلا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان ولا يعي حديثنا إلا صدور أمينة، وأحلام رزينة، أيها الناس: سلوني قبل أن تفقدوني! (٤)، الله أكبر

---

(١) ابن أبي الحديد ٣٠٢ / ٥، ووكيع وابن عساكر وابن أبي الدنيا (كنز العمال ١٨٣ / ١٦، ٢٠٦ / ٩٦).

(٢) ابن أبي الحديد ٤١٣ / ٥.

(٣) المصدر السابق ٢١٢ / ٣٠.

(٤) ابن أبي الحديد ١٣٥ / ٤، وروى ابن سعد " سلوني عن كتاب الله... "، الطبقات. ٣٣٨ / ٢.

يا أمير المؤمنين!! إنه قول باب مدينة العلم الذي يجلس على ذروتها أحمد صلى الله عليه وسلم:. أيها الناس: سلوني قبل أن تفقدوني. فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض، قبل أن تشغر برجلها فتنة تطأ في خطامها. وتذهب بأحلام قومها " (١).

يقول ابن أبي الحديد: أجمع الناس كلهم على أنه لم يقل أحد من الصحابة، ولا أحد من العلماء " سلوني " غير علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ذكر ذلك ابن عبد البر المحدث في كتاب " الإستيعاب " والمراد بقوله: " فلأنا أعلم بطرق السماء مني بطرق الأرض "، ما اختص به من العلم بمستقبل الأمور. ولا سيما في الملاحم والدول. وقد صدق هذا القول عنه ما تواتر عنه من الأخبار بالغيوب المتكررة. لا مرة ولا مائة مرة. حتى زال الشك والريب في أنه إخبار عن علم. وأنه ليس عن طريق الاتفاق. وقد تأول قوم على وجه آخر قالوا: أراد أنا بالأحكام الشرعية والفتاوى الفقهية أعلم مني بالأمور الدنيوية، فعبر عن تلك بطرق السماء، لأنها أحكام إلهية، وعبر عن هذه بطرق الأرض لأنها من الأمور الأرضية (٢).

وقال ابن أبي الحديد فيقول الإمام: " إن أمرنا هذا صعب مستصعب، ولا يحمله إلا عبد مؤمن امتحن الله قلبه بالإيمان "، قال: هذه الكلمة قد قالها كرم الله وجهه مرارا. ووقفت في بعض الكتب على خطب من جملتها: إن قريشا طلبت السعادة فشقيت، وطلب النجاة فهلكت. وطلبت الهدى فضلت، ألم يسمعوا ويحهم قوله تعالى: " والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) (٣)، فأين المعدل المنزع عن ذرية الرسول، الذين شيد الله بنيانهم فوق بنيانهم. وأعلى رؤوسهم فوق رؤوسهم، واختارهم عليهم، ألا إن الذرية أفنان

---

(١) ابن أبي الحديد ١٣٥ / ٤.
(٢) ابن أبي الحديد ١٣٨ / ٤.
(٣) سورة الطور: الآية ٢١.

أنا شجرتها. ودوحة أنا ساقها. وإني من أحمد بمنزلة الضوء من الضوء... إن أمرنا صعب مستصعب. لا يعرف كنهه إلا ثلاثة: ملك مقرب. أو نبي مرسل. أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان. فإذا انكشف لكم سر. أو وضح لكم أمر فاقبلوه. وإلا فاسكتوا تسلموا وردوا علمنا إلى الله. فإنكم في أوسع مما بين السماء والأرض " (١).

ودائرة الملك المقرب أو النبي المرسل. هي دائرة الوحي حيث يوجد النبي صلى الله عليه وسلم ودائرة العبد الذي امتحن الله قلبه للإيمان هي دائرة أهل البيت. والدائرة الأولى تعطي الثانية، حيث طهر على طهر ويقول ابن أبي الحديد: إعلم أن أمير المؤمنين كرم الله وجهه لو فخر بنفسه. وبالغ في تعديد مناقبه وفضائله بفصاحته التي آتاه الله تعالى إياها. واختصه بها، وساعده على ذلك فصحاء العرب كافة لم يبلغوا إلى معشار ما نطق به الرسول الصادق صلوات الله عليه في أمره. ولست أعني بذلك الأخبار العامة الشائعة التي يحتج بها الإمامية على إمامته كخبر الغدير والمنزلة وقصة براءة، وخبر المناجاة وقصة خيبر وخبر الدار بمكة في ابتداء الدعوة ونحو ذلك. بل الأخبار الخاصة التي رواها فيه أئمة الحديث التي لم يحصل أقل القليل منها لغيره " (٢).

ومما سبق علمنا أن أهل الشام رفضوا كل نصيحة وشككوا في كل حقيقة، واستغلوا كل حادثة وكل حركة فشقوا طورا فيها. على أمل أن يصلوا إلى غايتهم حيث كرسي الحكم. وعلمنا كيف واجه الإمام هذا الإعلام وهذه المخططات. وكيف أمر بالعلم وتدوينه نظرا لما سيترتب فيما بعد على هذه الأحداث. وما ترك الإمام دربا من الدروب إلا وأقام عليه الحجة وحدد الحركة فيه تحديدا دقيقا. ومما سبق يمكن بوضوح معرفة أي دائرة من الدوائر هي التي تقاتل لتكون كلمة الله هي العليا. وأبن يوجد لواء الضلالة والأمراء الذين سيتمنون يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقة بالثريا. يتذبذبون بين السماء والأرض ولم يكونوا عملوا.

---

(١) ابن أبي الحديد ١٣٨ / ٤.

(٢) ابن أبي الحديد ٢٤٩ / ٣.

على شئ أو أنهم لم يولوا شيئا. كما ورد في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخبر بالغيب عن ربه جل وعلا.

٤ – الاصطفاف للقتال:

على أرض صفين رفعت رايتان لا ثالث لهما. راية النبي صلى الله عليه وسلم بمودة أهلها وأعلن أن حربهم حربه وسلمهم سلمة.. وبين أنهم يؤدون عنه وأنهم يدورون مع الكتاب ولن يفترقا حتى يردا على الحوض. وأخبر أن الأمة ممتحنة بأصحاب هذه الراية ولذلك أوصي بهم في كل موضع من المواضع وقال: " أوصيكم الله في أهل بيتي ".

وراية حذر النبي صلى الله عليه وسلم من فتح الطريق لها. وحدد أسماء وبين معالم للفتن. كيف يقف الصحابة عند الأبواب ويمنعوا الناس من الدخول فيها. لأن الدخول يعني فتح طريق آخر على امتداده ترفع رايات أكثر من سبعين فرقة ويرى على امتداده الأئمة المضلون وأمراء الجور الذين يقتتلون على الملك ويحرصون على الإمارة. وفي نهاية المطاف عندما تنهدم الدنيا يتمنوا أن يخروا من الثريا ولم يلوا من أمر الناس شيئا. وأخبر النبي أن التكالب على الدنيا يعني عدم الورود على الحوض لأن الكتاب لا يأمر الناس بالحرص على الإمارة واكتناز الذهب والفضة.

لقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ويل لبني أمية " ثلاث مرات (١)، ولقد وردت أحاديث صحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أسماء قادة الفتن وحذر منهم. وكان حذيفة يقول: أنسي أصحابي أم تناسوا. والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا... ألا وقد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته " (٢)، وروي عن الإمام علي وعمار

---

(١) رواه ابن منده وأبو نعيم عن حمران بن جابر ورواه ابن قانع عن سالم الحضرمي (كنز العمال ١٦٥ / ١١).

(٢) رواه أبو داود، وسبق تخريجه.

بمثل ذلك. وإذا كان النبي قد أخبر بأسماء رؤوس الفتن. فإنه أخبر أيضا بأسماء. أعلام الهدى. ولقد ذكرنا ما ورد في أهل البيت. وأخبر عنهم أيضا آخر الزمان ولكن يبدو أن الصحابة نسوا هذه الأسماء كما ذكر حذيفة. وهذا الإخبار جاء في صحيح مسلم في مواضع. منها عندما تحدث عن القيادة الإسلامية التي ستفتح المدينة العظمى قبل خروج الدجال. يقول النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الفتح "... ويقبلون فيبعثون عشر فوارس إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم هم خير فوارس على وجه الأرض " (١)، فهنا توجد أسماء وعند مسلم أيضا " لا يزال هذا الدين عزيزا منيعا إلى اثني عشر خليفة " ولكن الراوي لم يسمع كلمة قالها النبي بعد ذلك: فقال: " فقال كلمة أصمنيها الناس فقلت لأبي: ما قال؟ قال: كلهم من قريش " (٢).

هذه أحاديث ذكرت فيها أسماء. ولا يمكن لعاقل أن يقول إن النبي احتفظ بهذه الأسماء لنفسه ولم يبلغها لأمته. لأن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه الله ليقيم حجة. وليس معنى أن في الصحابة من نسي أن جميعهم تناسوا. فبنوا أمية راية رويت فيهم أحاديث تحذر الناس من طريقهم. فعند الباب أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أشد قومه بغضا له قبائل منهم بنو أمية (٣)، وأخبر أن بني أمية إذا تقلدوا المناصب وبلغوا أربعين – وفي رواية – ثلاثين رجلا. فإنهم سيتخذون مال الله دولا أي يكون لقوم دون قوم. ودين الله دخلا أي يدخلوا فيه أمورا لم ترد في كتاب أو سنة. وعباد الله خولا أي عبيدا يستخدمونهم ويستعبدونهم " (٤).

---

(١) رواه مسلم كتاب الفتن (الصحيح ١٧٨ / ٨).

(٢) رواه مسلم كتاب الإمارة (٤ / ٦).

(٣) رواه البيهقي عن عمران وقال ابن كثير رجاله ثقات (البداية ٢٦٨ / ٦) ورواه نعيم ابن حماد عن أبي سعيد (كنز العمال ١٦٩ / ١١).

(٤) الحديث رواه الإمام أحمد والطبراني والبزار والحاكم وأبو يعلى والبيهقي عن أبي سعيد وأبي ذر وابن عباس وفي الحديث تحذير من بني أمية أو بني الحكم، ولقد تحدثنا عنه فيما سبق.

وأكثر الأحاديث التي ذكر فيها أسماء بعض الناس أو القبائل كي تحذرهم الأمة. استغلها كعب الأحبار. وكان من المتخصصين في القص مستغلا أحاديث آخر الزمان والجنة والنار. فكعب على مساحة اللا رواية. جاء بأحاديث من دائرة التخدير ووضع عليها رداء التبشير، ولقد استفاد من هذا خط بني أمية من بدايته إلى نهايته. ومن الثابت بل ومن المشهور أن كعبا كان من المنحرفين عن علي بن أبي طالب (١)، وكان أبو ذر يهاجمه في وجود عثمان إذا رآه يتدخل في توزيع الخراج. وبلغت المأساة ذروتها. عندما ألقى كعب في نفس معاوية بأحاديثه المختلفة وقصصه الإسرائيلية. وأخبره بأنه الخليفة بعد عثمان.

وبعد هذا البيان لا يستغرب أن نسمع أمير المؤمنين علي يقول لأصحابه يوم صفين: انفروا إلى بقية الأحزاب، امضوا بنا إلى ما قاله الله ورسوله. إنا نقول صدق الله ورسوله. ويقولون: كذب الله ورسوله " (٢)، وليس معنى أنهم يقولون هذا. أنهم يسيرون بين الناس ويرددونها. وإنما المعنى: أن لهم تأويلا خاصا في مال الله. ودين الله وعباد الله. ولهم موقفهم الخاص من رسول الله والذي يعلمه الله. وبينه رسوله عندما وضعهم ضمن الذين يبغضونه. ولا يستغرب أيضا أن نسمع الإمام يقول بعد أن رفع معسكر معاوية المصاحف ليعبر عن أهدافه من تحتها " إن معاوية وابن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن سلمة وابن أبي السرح والضحاك، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم " (٣)، وقوله أيضا في معاوية وأبيه " طليق بن طليق، حزب من الأحزاب. لم يزل حربا لله ورسوله هو وأبوه. حتى دخلا في الإسلام كارهين " (٤)، وقوله: " والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أسلموا. ولكن استسلموا، وأسروا الكفر. فلما وجدوا عليه أعوانا. رجعوا إلى عداوتهم لنا. إلا أنهم لم يتركوا

---

(١) قال ابن أبي الحديد: روى جماعة من أهل السير أن عليا كان يقول عن كعب الأحبار: إنه لكذاب. وقال: وكان كعب منحرفا عن علي (ابن أبي الحديد ٧٩٢ / ١).
(٢) رواه البزار بإسناده (الزوائد ٢٣٩ / ٧).
(٣) الطبري ٢٧ / ٦، الكامل ١٦١ / ٣، مروج الذهب ٤٣٣ / ٢، البداية والنهاية ٢٩٨ / ٧.
(٤) الكامل ١٤٨ / ٣.

الصلاة " (١)، ولا يستغرب أن نرى عمار بن ياسر الذي ورد فيه أنه يدعو إلى الجنة وخصومه يدعون إلى النار – إلى غير ذلك من الأحاديث التي ذكرناها – يقول يوم صفين وهو يشير إلى راية معاوية: قاتلت صاحب هذه الراية ثلاثا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذه الرابعة " (٢)، وروي أن رجلا سأل عمارا: يا أبا اليقظان، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: قاتلوا الناس حتى يسلموا. فإذا أسلموا عصموا مني دماءهم وأموالهم؟ قال: بلى، ولكن والله ما أسلموا ولكن استسلموا وأسروا الكفر حتى وجدوا عليه أعوانا " (٣)، ولا يستغرب أن نسمع ابن مسعود وهو يحدث بحديث فيه اسم من الأسماء التي حذر النبي صلى الله عليه وسلم منها، قال عبد الله: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا رأيتم معاوية بن أبي سفيان يخطب على منبري فاضربوا عنقه "، وكان الحسن يقول: فوالله ما فعلوا ولا أفلحوا " (٤)، وليس معنى قتله لأنه دخل المسجد، وإنما لأنه يخطب. لأن الخطبة لا بد أن تحمل فكره وثقافته في معنى مال الله ودين الله وعباد الله، وخطورة هذه الثقافة تبلغ مداها إذا كان معاوية ورجاله هم حراس الأمة، لهذا وجدنا الحسن بن علي بعد وفاة أمير المؤمنين. يقيم الحجة على الناس في كل ميدان. فلقد تجهز لقتال معاوية ولكنه خذل، ثم حث الناس على الصمود ولكنهم قالوا: البقية البقية!! وطلبوا الصلح. ثم اشترط الحسن شروطا. ولكن معاوية لم يف بها لسبب بسيط هو أن الأمة كانت تغط في نوم عميق. والحجة لا يأتي إلى الناس وإنما الناس هم الذين يأتون إليه لأن قانون الاختيار يدور على قوله تعالى: (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون " (٥).

---

(١) ابن أبي الحديد ٧٦٠ / ١.
(٢) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٢٤٣ / ٧) وابن سعد (الطبقات ٢٥٧ / ٣) والطبري ٢١ / ٦.
(٣) ابن أبي الحديد ٧٦٠ / ١.
(٤) المصدر السابق ٧٦٠ / ١.
(٥) سورة يونس: الآية ١٤.

فالرايات يوم صفين، كان فيها من الله برهان. فالذي يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا معروف. وقتال بني أمية من أجل الملك مشهور. وهذا القتال له بذور غرست في الفتن. وروى أنه قد قيل لسفينة: إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم. فقال: كذبوا بنو الزرقاء (١)، بل هم ملوك من شر الملوك " (٢)، وبنو أمية ما زعموا هذا إلا على أساس. فلقد سمعوا الأحاديث التي تخبر بأنهم سيصلون إلى الملك (٣). ولأن هذه الأحاديث أحاديث تحذيرية. رفعوها من دائرة التحذير إلى دائرة التبشير. وقاتلوا على ذلك. ساروا وسط الأمة يتعوذون من الفتنة وهم في الفتنة سقطوا لأنهم الذين حفروا حفرتها. وسنرى فيما بعد ماذا صنعوا كي بخبرهم أمير المؤمنين بخبرهم في المستقبل. وسنرى أن حركتهم خلال أحداث صفين ما تركت بابا يساعد على تأصيل هذا الشذوذ إلا فتحوه ليخلطوا الأمور على الناس فيما بعد. فالذي يبحث في الخلافة يجدهم. والذي يبحث في الملك يجدهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وإذا كنا قد تحدثنا عن الرايات على أرض الاصطفاف. فلنتحدث عن بعض الرجال الذين تحت هذه الرايات. أما معسكر أمير المؤمنين. روى أنه كان في جيش علي ثمانون بدريا ومائة وخمسون ممن بايع تحت الشجرة (٤)، وكان جميع من شهد معه من الصحابة ألفين وثمانمائة (٥) على رأس هؤلاء: عمار بن ياسر. الذي بشره النبي صلى الله عليه وسلم بأن الفئة الباغية تقتله وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من عادي عمارا عاداه الله ومن أبغض

---

(١) الزرقاء امرأة من أمهات بني أمية، رواه ابن حبان (تحفة الأحوذي ٤٧٩ / ٦).
(٢) رواه الترمذي وصححه وقال رواه غير واحد (الجامع ٥٠٣ / ٤) وأبو داوود حديث ٤٦٤٦.
(٣) الحديث تحدث به أبو ذر في وجود عثمان وكعب الأحبار، ومعاوية كانت يقرب مروان منه لمعرفته أن في صلبه ملوكا. والإمام علي أخبر مروان بالأحاديث التحذيرية بعد الجمل.
(٤) الحاكم (المستدرك ١٠٤ / ٣) البداية ٢٥٥ / ٧.
(٥) مروج الذهب ٣٦١ / ٢.

عمارا أبغضه الله " (١)، وقال: " ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار " (٢)، وتحت راية علي نجد أيضا أويس بن عامر القرني. الذي لم ير النبي صلى الله عليه وسلم. وأخبر النبي أن أويسا خير التابعين – وظهر أويس في عهد عمر بن الخطاب واستغفر لعمر. وعندما طلب عمر أن يكون أويس بجانبه. فضل أويس أن يذهب إلى الكوفة. وعندما ود عمر أن يكتب للأمراء بشأنه. قال أويس إنه يفضل أن يعيش في غبراء من الناس. وعاش أويس زاهدا حتى جاء عهد علي فخرج مقاتلا يضرب بالسيف ويصيح: يا خيل الله اركبي! وهناك الكثير تحت راية الأمير كرم الله وجهه.

أما راية بني أمية، فتحتها التجار بجميع عناوينهم، روي أن معاوية بعث رجلا إلى أمير المؤمنين وقال له: أبلغ عليا أني أقاتله بمائة ألف. ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل. وقد بلغ من أمرهم في طاعته لهم. أنه صلى بهم عند سيرهم إلى صفين الجمعة يوم الأربعاء، وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها (٣). إنهم العامة والغوغاء، الذين يمهدون الطريق لكل فتنة. أما قادة الألوية الذين قاتلوا بجلد وقوة. فعلى رأسهم: أبو الأعور السلمي، وورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعنه. وبسر بن أرطاة الذي فعل الأفاعيل في مكة والمدينة واليمن. وأخباره مشهورة، ومنهم أيضا عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد. وحبيب بن مسلمة الفهري، وعندما قطعوا الماء كان على الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص. وحابس بن سعيد. والضحاك بن قيس. وغير هؤلاء كثير (٤). وروي عن ابن إسحاق أنه قال: اجتمع عند معاوية في ليلة من ليالي صفين عمرو بن العاص. وعتبة بن أبي سفيان. والوليد بن عقبة ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر وابن طلحة الطلحات الخزاعي، فقال عتبة: إن أمرنا وأمر علي بن أبي طالب لعجيب. ما

---

(١) رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح (الفتح ٣٢٩ / ٢٢) (الزوائد ٢٩٣ / ٩).
(٢) رواه أحمد (الفتح ١٤٢ / ٢٣) والبخاري (كنز العمال ٧٢٢ / ١١).
(٣) مروج الذهب ٤١ / ٣.
(٤) ابن أبي الحديد ٦٤٩ / ١. والطبري أحداث سنة ٣٦.

فينا إلا موتور محتاج. أما أنا فقتل جدي عتبة بن ربيعة. وأخي حنظلة، وشرك في دم عمي شيبة يوم بدر، وأما أنت يا وليد، فقتل أباك صبرا، وأما أنت يا ابن عامر. فصرع أباك وسلب عمك، وأما أنت يا ابن طلحة، فقتل أباك يوم الجمل وأيتم إخوتك، وأما أنت يا مروان فكما قال الشاعر:

وأفلتهن عليا جريصا * ولو أدركنه صفر الوطاب (١)

فقال معاوية: هذا الاقرار فأين الغير؟ قال مروان: وأي غير تريد؟ قال: أريد أن تشجروه بالرماح، قال: والله يا معاوية ما أراك إلا هاذيا أو هازئا. وما أرانا إلا ثقلنا عليك، فقال ابن عقبة:

يقول لنا معاوية بن حرب * أما فيكم لواتركم طلوب
يشد على أبي حسن علي * بأسمر لا تهجنه الكعوب

إلى أن قال:

فقلت له: ألكعب يا بن هند * كأنك بيننا رجل غريب
أتغرينا بحية بطن واد * إذا نهشت فليس لها طبيب (٢)

فهم يخافون لأنهم لا يستندون إلى حقيقة. وإنما إلى فتنة شقوا فيها طريقهم. ولأنهم خائفون كان لا بد لهم من جدر تحميهم وتحمي تاريخهم. ومن أجل إقامة هذه الجدر بعثروا المال على العقول والنفوس. وما تركوا خدعة إلا فعلوها ولا مصحفا إلا رفعوه. وهذا الأسلوب لا يقدم عليه أمير المؤمنين. أولا: لأنه حجة ويعلم أنه مقتول. وثانيا: لأن الغادر يرفع له لواء يوم القيامة. ويظهر غدره على رؤوس الأشهاد.

٥ - القتال:

قبل أن يتوجه معاوية إلى صفين، كان قد صالح ملك الروم على مال

---

(١) لامرئ القيس، علياء / قاتل والد امرئ القيس، الجريص / الذي يؤخذ بريقه، صفر الوطاب / كناية عن القتل.
(٢) ابن أبي الحديد ٤٧٨ / ٢.

يحمله إليه لشغله بعلي (١). والذي أشار عليه بالتقريب إلى الروم لتفرغ لعلي هو عمرو بن العاص (٢)، وعندما توجه إلى صفين حاول السيطرة على مصادر المياه، ولكن خطته باءت بالفشل أمام قوات أمير المؤمنين عليه السلام. وعندما اصطف الفريقان قبل القتال يقول ابن عباس: عقم النساء أن يأتين بمثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والله ما رأيت ولا سمعت رئيسا يوزن به. رأيت في هذا اليوم عليا وعليه عمامة بيضاء وكأن عينيه سراجا سليطا (٣)، وهو يقف على طوائف الناس في مراتبهم يحثهم ويحرضهم، حتى انتهى إلي وأنا في كثيف (٤) من الناس. فقال: يا معشر المسلمين، عموا الأصوات، وأكملوا اللامة (٥)، واستشعروا الخشية، وافلقوا السيوف في الأجفان قبل السل، والحظوا الشزر (٦)، واطعنوا الهبر (٧)، ونافحوا (٨) بالظبأ (٩)، وصلوا السيوف بالخطا (١٠)، والنبال بالرماح، وطيبوا عن أنفسكم، فإنكم بعين الله، ومع ابن عمر رسول الله، عاودوا الكر، واستقبحوا الفر، فإنه عار في الأعقاب، ونار يوم الحساب، ودونكم هذا السواد الأعظم، والرواق (١١) المطنب (١٢)، فاضربوا نهجه، فإن الشيطان راكب صعيده، مفترض ذراعيه، قد قدم للوثبة يدا وأخر

---

(١) مروج الذهب ٤١٨ / ٢.
(٢) الطبري ١٨٦ / ٦.
(٣) السراج السليط / المتقد بالزيت الجيد.
(٤) كثيف / أي حشد وجماعة.
(٥) اللامة / الدرع.
(٦) الشزر / النر بمؤخرة العين.
(٧) الهبر / اللحم الكثير.
(٨) نافحوا / دافعوا.
(٩) الظبأ / حد السيف.
(١٠) الخطا / الرمي بالسهام.
(١١) الرواق / ما بين يدي البيت.
(١٢) المطنب / المشدود.

للنكوص (١) رجلا، فصبر جميل حتى تنجلي عن وجه الحق، وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم، وتقدم أمير المؤمنين على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهباء " (٢).

ومن آراء أمير المؤمنين قبل القتال روي أنه قال: لا تقتلوا القوم حتى يبدؤكم. فأنتم بحمد الله عز وجل على حجة، وترككم إياهم حتى يبدؤكم حجة أخرى لكم. فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم، فلا تقتلوا مدبرا، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل. فإذا وصلتم إلى رحال القوم، فلا تهتكوا سترا، ولا تدخلوا دارا إلا بإذن، ولا تأخذوا من أموالهم إلى ما وجدتم في عسكرهم، ولا تهجوا امرأة بأذى - وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحاءكم فإنهم ضعاف القوى والأنفس (٣).

وبعد هذه التعليمات الرفيعة المستوي، نادي أمير المؤمنين: يا كهيعص (٤) اللهم إليك رفعت الأبصار وبسطت الأيدي، ونقلت الأقدام، ودعت الألسن، وأفضت القلوب، وتحوكم إليك في الأعمال، فاحكم بيننا وبينهم بالحق، وأنت خير الفاتحين. اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبينا، وقلة عددنا، وكثرة عدونا، وتشتت أهوائنا، وشدة الزمان، وظهور الفتن، فأعنا على ذلك بفتح منك تعجله، ونصر به سلطان الحق وتظهره (٥).

وبعد أن فرغ أمير المؤمنين، روي عن الحارث أنه قال: رأيت بعيرا من أهل الشاء جاء وعليه راكبه وثقله (٦) فألقى ما عليه، وجعل يتخلل الصفوف إلى علي بن أبي طالب. فجعل شفره فيما بين رأس علي ومنكبه، وجعل يحركها

---

(١) النكوص / الفرار والهرب.
(٢) مروج الذهب ٤٢٠ / ٢، ابن عساكر (كنز العمال ٣٤٧ / ١١).
(٣) الطبري ٦ / ٦، ابن أبي الحديد ٧٥٧ / ١.
(٤) ابن أبي الحديد ٢٠٩ / ٢.
(٥) ابن أبي الحديد ٢٠٩ / ٢.
(٦) ثقله / حملة.

بجرانه، فقال أمير المؤمنين: والله إنها للعلامة بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم (١). وروي كان درع علي بن أبي طالب لا ظهر لها. فقيل له في ذلك، فقال: إذا استمكن عدوي من ظهري فلا يبقى (٢). وروي إنه كان بعد المعركة وفي نهاية كل يوم كان يظهر في إزار ورداء. فقيل له: أتقتل أهل الشام بالغداة وتظهر بالعشي في إزار ورداء؟! فقال: أبا لموت تخوفوني؟! فوالله ما أبالي أسقطت على الموت أم سقط علي (٣).

ولم يكن هدف الإمام القتل، وإنما إقامة الحجة، وفتح طريق الهداية أمام الذين وقعوا تحت تأثير الإعلام الأموي، وكان هذا الإعلام قد بث في الناس أن عليا لا يصلى وأنه قتل عثمان، وإذا وقع في يده أسير فإن عليا يقتله صبرا. ومن معالم إقامة الحجة أثناء المعركة على الذين سقطوا ضحية للإعلام الأموي. روي أن عليا أتي بأسير يوم صفين، فقال له الأسير: لا تقتلني صبرا، فقال الإمام: لا أقتلك صبرا إني أخاف الله رب العاملين، وخلى سبيله، ثم قال له: أفيك خير يتابع (٤).

وروي أن شابا من معسكر معاوية أنشد:

أنا ابن أرباب الملوك غسان * والدائن اليوم بدين عثمان

نبأنا قراؤنا بما كان * أن عليا قتل ابن عفان

وظل الشاب يشتم ويلعن، فلقيه هاشم بن عتبة وكان من أصحاب علي فقال له: يا هذا إن الموقف وما أردت به. قال: فإني أقاتلكم لأن صاحبكم لا يصلي كما ذكر لي، وأنتم لا تصلون أيضا. وأقاتلكم لأن صاحبكم قتل خليفتنا وأنتم ساعدتموه على قتله، فقال له هاشم: وما أنت وابن عفان، إنما قتله أصحاب محمد وأبناء الصحابة وقراء الناس، حين أحدث الأحداث وخالف حكم

---

(١) رواه أبو نعيم وابن عساكر (كنز العمال ٣٥٠ / ١١)، (الخصائص الكبرى ٢٣٤ / ٢).
(٢) العقد الفريد ٢٠٩ / ١.
(٣) العقد الفريد ١١٩ / ١. وابن كثير بلفظ آخر (البداية ٢٦٥ / ٧.
(٤) رواه الشافعي والبيهقي (كنز العمال ٣٤٨ / ١٠).

الكتاب!! وهم أهل الدين وأولى بالنظر في أمور الناس منك ومن أصحابك... وأما قولك إن صاحبنا لا يصلي، فهو أول من صلى، وأفقه خلق الله في دين الله، وأولى بالرسول، وأما كل من ترى معي فكلهم قارئ لكتاب الله، لا ينام الليل تهجدا، فلا يغوينك عن دينك هؤلاء الأشقياء المغرورون. فقال له الفتى: يا عبد الله إني أظنك امرأ صالحا فتخبرني، هل تجد لي من توبة؟ قال هاشم: نعم يا عبد الله تب إلى الله يتب عليك فإنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويحب المتطهرين. فرجع الفتى. فقال له أهل الشام: خدعك العراقي، خدعك العراقي. قال: لا ولكن نصح لي (١).

وروي أن معاوية بعث وفدا ليستلم القتلى، فقابل الإمام علي هذا الوفد وقال لهم: معاوية الذي لم يجعل له سابقة في الدين، ولا سلف صدق في الإسلام، طليق ابن طليق، حزب من الأحزاب، لم يزل حربا لله ورسوله هو وأبوه، حتى دخلا في الإسلام كارهين، ولا عجب إلا من انقيادكم له وتتركون آل بيت نبيكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم. ألا إني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإماتة الباطل وإحياء الحق ومعالم الدين. فقالوا: تشهد أن عثمان قتل مظلوما. قال: لا أقول أنه قتل مظلوما ولا ظالما. فقالوا: الذي لا يتبرأ من قتل عثمان نحن نتبرأ منه (٢). فتلى الإمام (فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين. وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم أن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) (٣).

ولم يكتف الإعلام الأموي بهذه النتيجة، وهذا الحشد من الذين صلوا الجمعة يوم الأربعاء. وإنما جلسوا على أرض صفين يشتمون الإمام، ليثبتوا الباطل داخل الجماجم الآدمية، ليشق الباطل طريقه في عالم الاحتناك، روي أن الإمام مر على جماعة من أهل الشام فيها الوليد بن عقبة وهم يشتمونه فخبر

---

(١) الطبري ٢٣ / ٦، الكامل ١٥٩ / ٣.
(٢) الكامل ١٤٨ / ٣.
(٣) سورة الروم: الآية ٥٢،، ٥٣.

بذلك، فوقف فيمن يليهم من أصحابه. فقال: انهضوا إليهم عليكم السكينة والوقار، وقار الإسلام وسيما الصالحين، فوالله لأقرب قوم من الجهل قائدهم ومؤذنهم معاوية، وابن النابغة، وأبو الأعور السلمي، وابن أبي معيط شارب الخمر المجلود جلدا في الإسلام. وهم أولى من يقومون فينتقصونني ويجذبونني. وقبل اليوم ما قاتلوني وأنا إذ ذاك أدعوهم إلى الإسلام، وهم يدعونني إلى عبادة الأصنام، الحمد الله قديما عاداني الفاسقون فعبدهم الله، ألم يفتحوا؟ إن هذا لهو الخطب الجليل، إن فساقا كانوا غير مرضيين وعلى الإسلام وأهله متخوفين. خدعوا شطر هذه الأمة. وأشربوا قلوبهم حب الفتنة ما استمالوا أهواءهم بالإفك والبهتان. قد نصبوا لنا الحرب في إطفاء نور الله عز وجل، اللهم فافضض خدمتهم، وشتت كلمتهم، وأبسلهم بخطاياهم، فإنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت (١).

لقد جلسوا على الطرقات يشتمون، فإذا أمير المؤمنين يصدر أوامره لاتباعه: انهدوا إليهم عليكم السكينة والوقار، وقار الإسلام وسيما الصالحين!! فأي فرق بين هذا وذاك!؟ لقد كان عليه السلام في قتاله يقود الناس إلى صراط الله العزيز الحميد، رغم ضراوته في القتال. كان يقيم الحجة أولا ثم يضرب بكل قوة أصحاب الرقاب الغليظة الذين يشيدون الطرق نحو سنن اليهود والنصارى، حتى لا يقذفون بالأمة في دروبها المظلمة، وبقدر صمود الناس من حوله تكون قوة الضربات. روي أنه كان في صفين لا يرجع حتى يخصب سيفه، وأنه حمل ذات يوم على أعدائه فلم يرجع حتى انثنى سيفه، فألقاه إليهم وقال: لولا أنه انثنى ما رجعت (٢). وذكر علماء التاريخ وغيرهم أنه بارز في أيام صفين، وقتل خلقا حتى ذكر بعضهم أنه قتل خمسمائة (٣). وكانت أقوى ضرباته بعد أن قتل عمار بن ياسر. وروي أنه في يوم من أيام صفين، قال الناس: إن

---

(١) الطبري ٢٥ / ٦.
(٢) البداية والنهاية ٢٩٤ / ٧.
(٣) البداية والنهاية ٢٦٤ / ٧.

معاوية قد مات. فقال أمير المؤمنين: قد أكثرتم من نعي معاوية، والله ما مات، ولا يموت حتى يملك ما تحت قدمي. وإنما أراد ابن آكلة الأكباد أن يعلم ذلك مني، فبعث من يشيع ذلك فيكم، ليعلم ويتيقن ما عندي فيه، وما يكون من أمره في المستقبل من الزمان. ثم ذكر أمير المؤمنين ما يكون من أمر معاوية وذكر الحجاج وما يسومهم من العذاب. فارتفع الضجيج. فقال رجل: إن ذلك كائن؟ قال الإمام: والله إن ذلك لكائن. فقال آخر: متى يكون؟ قال: إذا خضبت هذه من هذه - ووضع إحدى يديه على لحيته والأخرى على رأسه - وأكثر الناس من البكاء فقال: لا تبلوا في وقتكم هذا. فستبكون بعدي طويلا. وبعد أن حدثهم الإمام، كاتب أكثر أهل الكوفة إلى معاوية سرا في أمورهم. واتخذوا عنده الأيادي (١).

هنا تكمن حقيقة الابتلاء، وهنا ترى حركة التاريخ، فالإمام يقاتل بضراوة وهو يعلم أنه مقتول وأن معاوية سيملك ما تحت قدمه، والرسول صلى الله عليه وسلم كان يجاهد ويحذر وهو يعلم أن غلمان قريش سينزون على منبره نزو القردة، وكان ينادي بوحدة الأمة وهو يعلم أنها ستفترق إلى أكثر من سبعين شعبة، وكان يحذر من اتباع اليهود والنصارى وهو يعلم أن مساحة كبيرة من الأمة ستتبعهم شبرا بشبر وذراعا بذراع، والإمام علي من بايعه الناس وهو يخوض حروبا فتحوها عليه من كل جانب. ومع ذلك لم يهمل الاصلاح وإقامة الحجة وحشد الحشود، وهو يعلم أن الحشود من حوله ستنفض، ثم تأتيه ضربة من أشقى الناس فتخضب لحيته من رأسه، فما معنى هذا؟ لقد ذكرنا في هذا الكتاب أن كليات الدين موجودة في فطرة الإنسان نفسه، وهذه الفطرة تهدي الإنسان إلى صراط الله العزيز. ومعنى أنها تهديه إلى طريق وإن هناك طريقا آخر يحمل معالم أخرى لا تهدي إلى صراط الله العزيز. ودائرة الفطرة يسهر عليها أنبياء الله ورسله - فالله يبعثهم بالدين، والدين طريق خاصة في الحياة تؤمن صلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي. أما دائرة اللاهدى، فيسهر عليها

---

(١) مروج الذهب ٤٦٥ / ٢.

الشيطان. وبرنامج الشيطان يعتمد على التزيين والإغواء، ليصل بالإنسان إلى مرحلة الاحتناك، وهي مرحلة خدمة الأهواء والسياسة الشيطانية، والإنسان بين برنامج الفطرة وبين برنامج الشيطان حر مختار، بمعنى أن الله تعالى حاصر الإنسان بجميع الحجج في نفسه وفي الوجود حتى لا تكون له على الله حجة. ثم أمر سبحانه الجوارح أن تطيع صاحبها فيما يريد، ويختار، وكلما اختار الإنسان شيئا من دائرة الشيطان، انطفأ نور من أنوار الفطرة بداخله – فإذا اختار الكفر خرج الإيمان من قلبه، وفي كل إنسان قلب واحد وهذا القلب لا يحمل إلا شيئا واحدا.

قال تعالى: (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) (١)، ولأن الله تعالى يعلم أن وسائل الشيطان لها بريقها، وأن هذا البريق سيكون عاملا مهما في الصد عن سبيل الله، بعث سبحانه الرسل على فترات، ليبينوا للناس أسباب الهدى كي تطرد القلوب الكفر وتعمر بالإيمان.

والرسالة الخاتمة جاءت لتدعو الناس إلى صراط الله العزيز، وحذرت من دوائر الشيطان أشد التحذير، وما تركت الرسالة سبيلا إلى الهدى إلا بينته. ومن فضل الله تعالى على الأمة الخاتمة أنه سبحانه أوحي إلى رسوله بما سيحدث في أمته حتى قيام الساعة، وأخبره بخطوات الشيطان في بعض القبائل وداخل بعض النفوس ليحذر أمته من هذا ومن ذاك، وأخبره سبحانه بعلمه المطلق أنه رغم تحذيره إياهم إلا أن الغالب الأعم من الأمة لن ينصت إلى هذا التحذير وأن الأمة ستختلف ثم ستفترق ثم ستتبع سنن الأولين شبرا بشبر وذراعا بذراع، وعلى امتداد هذا الطريق فإن الحجة فوق الرؤوس، وفي الكون وفي أعماق أعماق النفس حيث الفطرة والموعد الله. ومعنى أن الحجة فوق الرؤوس أن الحجة مستمرة وتسوق الناس إلى صراط الله العزيز. ولا يضرها من خالفها أو خذلها أو ناوأها. ولا يضرها قتل أو قطع رؤوس أو سجن أو طرد أو نفي. فالملك لله، والموعد الله.

وفي عهد الإمام علي كان الإمام يعلم نهايته. فلم يتألم لأنه سيضرب على

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤.

رأسه، وإنما كان يقول: فوالله ما أبالي أسقطت على الموت أم سقط علي " (١).
ولم يكن الإمام يتألم من هذا، وإنما كان يتألم أن يرى باطلا ولا يستطيع كسره. وذلك لأنه يعيش في دائرة الإيمان الكامل. وأصحاب هذه الدائرة لا تشعر جوارحهم إلا بما في مخزون الفطرة ودائرة العبادة الحق. لقد كان الإمام يعلم بأنه مقتول، ولكنه كان يأخذ بأسباب إقامة المجتمع الصالح. وليس معنى أن الله تعالى كتب على كل إنسان الموت وأن يجلس الإنسان على سريره لينتظر الموت، وإنما عليه أن يكد ويحصل العلوم ويأخذ بأسباب الحياة الكريمة التي تؤمن صلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي.

والإمام أعلن أمام الجميع إخبار الرسول له بأنه مقتول. وهناك فرق بين مقتول وميت. فإذا كانت الأمة ستقتل الإمام، فهل هذا أخذا بأسباب الحياة الكريمة؟ قد يقال إن الذي قتله إنسان واحد، فنقول إن الذي قتل الناقة كان إنسان واحد، ولكن الله عندما أخبرنا بقتلها قال: " فكذبوه فعقروها " ثم أخبرهم الإمام أن بعد القتل سيأتيهم العذاب. والعجيب أن الإمام عندما أخبرهم بأنه سيقتل وأن معاوية سيملك ما تحت قدمه. سارع البعض بإرسال الرسائل إلى معاوية واتخذوا عنده الأيادي. فهل هذا أخذا بالأسباب الكريمة؟. فإذا جاء العذاب فهل يكون العذاب إلا نتيجة طبيعية لأعمالهم. لأن الله لا يظلم مثقال ذرة.

إن الإنسان الذي يفسد دينه الفطري لا تتعادل قواه الحسية الداخلية، وتصبح معظم ملكات نفسه في حالة جوع دائم. واليهود عندما فسد دينهم الفطري جاعت نفوسهم، وعندما جاء إليهم أنبياء الله ورسله لإطعامهم الحلال، لم يجدوا في الحلال كفاية، فقتلوا الأنبياء، ولما كان لا بد أن يسير اليهود وراء إمام لهم، بشرط أن يكون هذا الإمام موافق لما يريدون، بدأوا ينقبون في أحاديث الغيب وأخبار المستقبل التي تركتها رسلهم. فوجدوا أحاديث عليها علامات تحذيرية وأخرى عليها علامات تبشيرية، واختلط الأمر عليهم فهناك

---

(١) العقد الفريد ١١٩ / ١.

أشياء يريدونها وعليها تحذير وأخرى لا يريدونها وعليها تبشير. ووجدوا أن الغيب فيه مسيحان الأول يولد من عذراء والآخر دجال. ووجدوا أن ابن العذراء لن يعطيهم إلا بميزان بينما الآخر سيصب عليهم الدنيا صبا، واختلط عليهم الأمر، وهنا تدخل أحبار السوء في كل زمان وكل مكان، الأحبار الذين يسعون في الأرض فسادا، فقالوا أنهم أحباء الله والله لا يعطي أحباءه بميزان. وقد يكون الأولون قد أخطأوا في تحديد التحذير والتبشير. ثم استقروا على المسيح الثاني. وحاولوا قتل المسيح الأول عندما بعثه الله إليهم، ولما كان المسيح الذي وقعوا عليه هو الدجال الذي وصفته الأحاديث بأنه يهودي أي أنه على هوى اليهود (١).

وعالم ابتغاء الفتنة عالم طويل عريض، ويبحث أصحابه دائما في أصولهم التي في صدورهم، ثم يعملوا من أجل إيجاد رداء لهم يسيرون به في الحياة، وكلما كان الرداء له قداسة كانت العقبات في طريقهم أقل. ولقد استغل تيار النفاق الجلباب الإسلامي. بل استغلوا فيما بعد القرآن، قال تعالى: (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة) (٢)، ثم استغلوه عندما رفعوه طلبا للتحكيم بينهم وبين أمير المؤمنين الذي يقاتلهم أصلا على التأويل. وكانوا يريدون من وراء ذلك أولا: الخروج من المعركة أحياء، وثانيا: إخراج الإمام من دائرة أنه الأعلم بالتأويل. كما حاولوا من قبل إخراجه من دائرة التطهير.

٦ – مشاهد من ميدان القتال:

لقد كان هناك من خذل الإمام من البداية، عندما علموا أن الأمر سيكون لمعاوية في النهاية. وكان هناك أيضا الذين علموا بنهاية الإمام ولكنهم أخذوا بالأسباب نحو الحياة الكريمة. ومنهم من كان يعلم أن الفئة الباغية ستقتله في هذه المعركة لا محالة، ولكن لم يمنعه ذلك من أن يسير وراء أمير المؤمنين. باختصار: كان هناك من يأخذ بالأسباب لينظر الله إلى عمله وهو يسير نحو

---

(١) راجع بحوثنا في المسيح الدجال وصدر منها خمس بحوث.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٧.

غايته. أما نتيجة هذا العمل فعند الله أمرها.
* من هؤلاء (يزيد بن قيس الأرجي):
لقد حرض الناس فقال: إن المسلم السليم من سلم دينه ورأيه، وإن هؤلاء القوم والله إن يقاتلوننا على إقامة دين رأونا امتناه. وإن يقاتلوننا إلا على هذه الدنيا، ليكونوا جبابرة فيها ملوكا. فلو ظهروا عليكم لا أراهم الله ظهورا ولا سرورا. ألزموكم بمثل سعيد والوليد وعبد الله بن عامر السفيه الضال. يجيز أحدهم في مجلسه بمثل ديته ودية أبيه وجده، يقول هذا لي ولا إثم علي. كأنما أعطى تراثه عن أبيه وأمه، وإنما هو مال الله عز وجل، أفاءه علينا بأسيافنا وأرماحنا. فقاتلوا عباد الله القوم الظالمين الحاكمين بغير ما أنزل الله، ولا يأخذكم في جهادهم لوم لائم. ثم فإنهم ما ازدادوا إلى يومهم إلا شرا (١).
* ومنهم (عبد الله بن بديل):
قال في الناس: إلا أن معاوية ادعي ما ليس أهله، ونازع هذا الأمر من ليس مثله، وجادل بالباطل ليدحض به الحق، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب قد زين لهم الضلالة وزرع في قلوبهم حب الفتنة. وليس عليهم الأمر، وزادهم رجسا إلى رجسهم، وأنتم على نور من ربكم، وبرهان مبين. فقاتلوا الطغاة الجفاة ولا تخشوهم. فكيف تخشونهم وفي أيديكم كتاب الله عز وجل طاهرا مبرورا؟ " أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين "، وقد قاتلناهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة، وهذه ثانية، والله ما هم في هذه بأتقى ولا أزكي ولا أرشد قوموا إلى عدوكم، بارك الله عليكم، فقاتل قتالا شديدا هو وأصحابه (٢).
وروي: كان على عبد الله بن بديل بصفين ومعه سيفان فكان يضرب

---

(١) الطبري ١٠ / ٦، الكامل ١٥٢ / ٣.
(٢) الطبري ٩ / ٦، الكامل ١٥١ / ٣، الإصابة ٤٠ / ٤.

أهل الشام وهو يقول:
لم يبق إلا الصبر والتوكل * ثم التمشي في الرعيل الأول
مشى الجمال في حياض المنهل * والله يقضي ما يشاء ويفعل (١)
وروي أن الصحابي الجليل عبد الله بن بديل هو ونفر من أصحابه على الموت، فاقتحم هو وأصحابه قبة معاوية وكان عدد أصحابه بين المائتين والثلثمائة. وعندما أرسل إليه الأشتر أن يقاتل بين الناس لأن في هذا بقاء له ولأصحابه أبى. وانطلق نحو معاوية وكان حول معاوية رجال كالجبال يقول الطبري: كان في يده سيفان وخرج أمام أصحابه. فأخذ كلما دنا منه رجل ضربه فقتله حتى قتل سبعة، ودنا من معاوية فنهض إليه الناس من كل جانب، وأحبط به وبطائفة من أصحابه، فقاتل حتى قتل وقتل ناس من أصحابه ورجعت طائفة (٢).

* ومنهم (أويس بن عامر القرني):
أخبر عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليكون حجة على التابعين كي ينصروا عليا، روي الإمام مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن خير التابعين رجل يقال له أويس " (٣)، وقال الحاكم: أويس لم يصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما ذكره رسول الله ودل على فضله (٤)، وقال النووي: هو من دلائل النبوة لأنه أخبر عن اسمه واسم أبيه ونعته وقبيلته، وإنه يجتمع بعمر، وكل ذلك غيب، فكان ذلك. ولفظ مسلم " يأتي عليكم أويس بن عامر مع إمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن، وكان به برص. فبرأ منه إلا موضع الدرهم. له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره... "، وقال لعمر:

---

(١) الإصابة ٤٠ / ٤.
(٢) الطبري ١٣ / ٦.
(٣) مسلم في فضل أويس (الصحيح ٩٥ / ١٦).
(٤) الحاكم (المستدرك ٤٠٢ / ٣).

" فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل " (١).
وعندما التقى بعمر قال له عمر: لا تفارقني. فأملس منه (٢)، وكان عمر قد سأله: أين تريد؟ قال: الكوفة. فقال عمر: ألا أكتب لك إلى عاملها فيستوصي بك. قال: لا. أكون في غبراء الناس أحب إلى (٣).
وعن الحسن البصري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي وأكثر من ربيعة ومضر. قال الحسن: إنه أويس.
وقال أبو بكر بن عياش: قلت لرجل من قوم أويس بأي شئ بلغ هذا؟ قال: فضل الله يؤتيه من يشاء (٤)، وظل أويس في الكوفة زاهدا في عالم اكتنز الذهب والفضة، وجارت فيه الولاة، وفي عهد علي خرج الزاهد ليقف تحت لواء سيد الزاهدين، عن الأصبغ بن نباته قال: شهدت عليا يوم صفين وهو يقول: من يبايعني على الموت! فبايعه تسع وتسعون. فقال علي: أين التمام؟ أين الذي وعدت به؟ فجاء رجل عليه أطمار صوف. محلوق الرأس فبايعه على الموت والقتل. فقال: هذا أويس القرني، فما زال يحارب بين يديه حتى قتل (٥).
وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: نادي رجل من أهل الشام يوم صفين: أفيكم أويس القرني؟ قالوا: نعم، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن من خير التابعين أويس القرني (٦). وهكذا كان أويس حجة على نهاية جيل وبداية جيل آخر. وروى الإمام الحاكم: لما كان يوم صفين. نادي مناد من أصحاب معاوية: أفيكم أويس القرني؟ قالوا: نعم. فضرب دابته حتى دخل معهم. ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) مسلم (الصحيح ٩٥ / ١٦)، (كنز العمال ٧٥ / ١٢).
(٢) أي تخلص وأفلت (كنز العمال ٤ / ١٤).
(٣) رواه مسلم وابن سعد وأبو عوانة وأبو يعلى وأبو نعيم والبيهقي والروباني (كنز العمال ٤ / ١٤).
(٤) الحاكم (المستدرك ٤٠٥ / ٣).
(٥) الحاكم (المستدرك ٤٠٣ / ٣).
(٦) رواه أحمد وقال الهيثمي إسناده جيد (الفتح ٤٤٥ / ٢٢).

وسلم يقول: خير التابعين أويس القرني (١).
إن كان ورقة تسقط علمها عند الله، وكل خطوة في حركة التاريخ عليها حجة من الله، وما من بصمة إلا ولها جذور، وما خلق الله شيئا إلا لهدف.
وعلى امتداد أيام صفين ضرب الزاهد بسيفه فماذا كان يريد هذا الزاهد؟ وما معنى أن الله سبحانه يخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا الزاهد ومكانته؟ وما المقصود من وراء هذا؟ ولماذا قاتل مع علي بالذات؟ وما هي أهدافهما؟ إن هذه أسئلة وغيرها يتركها الباحث دون إجابة لمن أراد أن يتفكر ويتدبر.
والآن كيف كانت نهاية هذا المقاتل الزاهد؟ يقول ابن حجر في حديث صحيح الإسناد، نادى منادي علي: يا خيل الله اركبي وابشري، قصف الناس، فانتضى أويس سيفه حتى كسر جفنه فألقاه، ثم جعل يقول:
يا أيها الناس تموا تموا ليتمن وجوه، ثم ينصرف حتى يرى الجنة.
فجعل يقول ذلك ويمشي. حتى إذا جاءته رمية فأصابت فؤاده فقتل (٢)، وعن يحيى بن معين قال: قتل أويس القرني بين يدي علي بن أبي طالب يوم صفين (٣).
ويبدو أن وجود أويس في معسكر علي بن أبي طالب لم يرق للبعض وفقا لأمور سياسة غير خافية. وكان العلماء يخافون من الحكام. يقول النووي في حديث " خير التابعين أويس "، هذا صريح في أنه خير التابعين. وقد يقال: قد قال أحمد بن حنبل وغيره. أفضل التابعين سعيد بن المسيب. والجواب: إن مرادهم أن سعيدا أفضل في العلوم الشرعية. كالتفسير والحديث والفقه. لا في الخير عند الله!!؟ (٤). وقال ابن الصلاح: حديث خير التابعين قاطع للنزاع. ولكن في رأي السخاوي. إن تفضيل أحمد لابن المسيب، لعله أراد الأفضلية في

---

(١) الحاكم (المستدرك ٤٠٢ / ٣) وابن سعد (الخصائص الكبرى ٢٢٠ / ٢).
(٢) الإصابة ١١٧ / ١.
(٣) الحاكم وأقره الذهبي (المستدرك ٤٠٢ / ٣).
(٤) النووي شرح مسلم (الصحيح ٩٥ / ١٦).

العلم لا الخيرية (١). وهكذا اختلفوا مع وجود نص صريح، كما اختلفوا من قبل في مولى المؤمنين.
وربما يعود ذلك إلى الخوف والله أعلم. أما اختيار سعيد بن المسيب. فإن لابن المسيب تاريخه الذي لا ينكره عليه باحث. ولكن هذا الاختيار يقتضي أن ننظر في الأحداث بجملتها. وابن المسيب عندما سمع من عامر بن سعد حديث " أنت مني بمنزلة هارون من موسى " لم يطمئن وذهب بنفسه إلى سعد وراجعه فأقسم له سعد أنه سمعه من رسول الله (٢)، وابن المسيب عندما يتأكد بنفسه من صحة حديث. فلا غبار على هذا، ولكن ابن أبي الحديد قال وهو يتحدث عن المنحرفين عن علي بن أبي طالب " وكان سعيد بن المسيب منحرفا عن علي " (٣).
وقتل أويس بن عامر القرني بين يدي علي بن أبي طالب، وهو يأخذ.
بأسباب الحياة الكريمة. وبعد قتل أويس ازدادت المعركة ضراوة، واقتتلوا كأشد القتال، وكثرت القتلى بينهم. وتحاجزوا عند الليل.
* ومنهم (عمار بن ياسر):
ولقد ذكرنا ما ورد فيه على امتداد هذا البحث، فعمار كان الميزان على امتداد معارك أمير المؤمنين. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي عندما ذكر عمار: أما أنه سيشهد معك مشاهد أجرها عظيم، وذكرها كثير، وثناؤها حسن " (٤)، وكان عمار حجة على الذين انحرفوا عن أمير المؤمنين أو اعتزلوه في وقت لا يجب فيه الاعتزال. روي أن رجلا جاء إلى ابن مسعود فقال: إن الله قد أمننا أن يظلمنا ولم يؤمنا أن يفتننا.
أرأيت إذا نزلت فتنة كيف أصنع. قال: عليك بكتاب الله. فقال: أرأيت أن

---

(١) تبسيط علوم الحديث / المطيعي ص ٢٠٣.
(٢) رواه مسلم (الصحيح ١٧٤ / ١٥).
(٣) ابن أبي الحديد ٨٠٩ / ١.
(٤) رواه أبو نعيم (كنز العمال ٧٢٣ / ١١).

جاء قوم كلهم يدعون إلى كتاب الله. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق (١). ومن قبل رأينا كيف أوصى حذيفة بالتزام عمار. والنبي صلى الله عليه وسلم وضع حول عمار مناقب لهدف حتى لا يكون للناس حجة في عدم التزام علي والقتال تحت رايته.

وعمار، كما ورد في البخاري، أجاره الله من الشيطان " (٢)، وكما ورد عند الإمام أحمد: " ما عرض عليه أمران قط إلا اختار الأرشد منهما " (٣)، وأيضا: " من عادي عمار عاداه الله " (٤). وكما ورد عند البزار والطبراني: " أبو اليقظان على الفطرة لا يدعها حتى يموت " (٥)، وكما ورد عن ابن عساكر: عمار خلط الله والإيمان ما بين قرنه إلى قدمه وخلط الإيمان بلحمه ودمه يزول مع الحق حيث زال. وليس ينبغي للنار أن تأكل منه شيئا " (٦).

وعمار عهد إليه النبي صلى الله عليه وسلم بعهد قال له: يا عمار إن رأيت عليا قد سلك واديا وسلك الناس واديا غيره فاسلك مع علي ودع الناس. إنه لن يدلك على ردي ولن يخرجك من الهدى (٧).

وعندما حدد النبي صلى الله عليه وسلم الراية والدليل قال: أبشر يا

---

(١) ابن كثير وقال رواه ديزيل (البداية ٢٩٦ / ٧)، والطبراني (كنز العمال ٧٢١ / ١١).
(٢) البخاري (الصحيح ٣٠٥ / ٢) في فصل عمار.
(٣) أحمد والحاكم والترمذي وصححه (الفتح الرباني ٣٣٠ / ٢٢)، (الجامع ٦٦٨ / ٥). المستدرك ٣٨٨ / ٣).
(٤) أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح (الفتح ٣٢٩ / ٢٢)، (الزوائد ٢٩٣ / ٩) وابن عساكر والطبراني وابن حبان وابن أبي شيبة بلفظ آخر (كنز العمال ٥٣٣ / ١٣، ٧٢٢، ٧٢٦ / ١١) والحاكم (المستدرك ٣٨٩ / ٣).
(٥) البزار والطبراني ورجالهم ثقات (الزوائد ٢٩٥ / ٩).
(٦) ابن عساكر (كنز العمال ٧٢ / ١١).
(٧) الديلمي (كنز العمال ٦١٤ / ١١).

عمار تقتلك الفئة الباغية " (١).
والقتل لم يكن من أجل القتل، ولكن لكل قتل أسبابه، ويمكن ملاحظة هذه الأسباب في قول النبي صلى الله عليه وسلم: " ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار " (٢)، ثم يتعدى التحذير أرض المعركة ويشمل مساحة أوسع وذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمار: " ستقتلك الفئة الباغية وأنت مع الحق. فمن لم ينصرك يومئذ فليس مني " (٣).
هذا هو عمار، جندي علي بن أبي طالب! فماذا قال عمار على أرض صفين؟
روي أن عمارا خرج إلى الناس فقال: اللهم إنك تعلم إني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته – اللهم إنك تعلم أني لو أعلم رضاك في أن أضع ظبة سيفي في صدري، ثم انحنى عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت، وإني لا أعلم اليوم عملا هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ولو أعلم أن عملا من الأعمال هو أرضى لك منه لفعلته.
وقال عمار: أيها الناس اقصدوا بنا نحو هؤلاء الذين يبتغون دم ابن عفان ويزعمون أنه قتل مظلوما. والله ما طلبتهم بدمه. ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرؤها، وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم. ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم. فخدعوا أتباعهم أن قالوا: إمامنا قتل مظلوما. ليكونوا بذلك جبابرة ملوكا. وتلك مكيدة بلغوا بها ما ترون. ولولا هي ما تبعهم من الناس رجلان. اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت. وإن تجعل لهم الأمر. فادخر لهم بما

---

(١) الترمذي وصححه (الجامع ٦٧٩ / ٥).
(٢) أحمد والبخاري وابن عساكر والطبراني (الفتح الرباني ٣٣١ / ٢٢)، (كنز العمال ٧٢٢، ٧٢٤ / ١١).
(٣) ابن عساكر (كنز العمال ٣٥١ / ١١).

أحدثوا في عبادك العذاب الأليم (١)، وروي أن عمارا شاهد عمرو بن العاص في أرض المعركة فقال: يا أهل العراق أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله، وجاهدهما وبغى على المسلمين وظاهر المشركين؟ فلما رأى الله عز وجل يعز دينه ويظهر رسوله أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأسلم. وهو فيما نرى راهب غير راغب، ثم قبض الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فوالله إنه زال بعده معروفا بعداوة المسلم وهوادة المجرم، فاثبتوا له وقاتلوه، فإنه يطفئ نور الله ويظاهر أعداء عز وجل (٢)... وعندما سمع ابن العاص هذا زال وذهب يبحث له عن خدعة يختفي ورائها من هذا العار.

وروي أن قيسا بن عبادة قال لعمار: أرأيت قتالكم رأيا رأيتموه، فإن الرأي يخطئ ويصيب أو عهد عهده إليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمار: " ما عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا لم يعهده إلى الناس كافة ". أي أن تعليمات النبي صلى الله عليه وسلم بخصوص قتال البغاة مع علي بن أبي طالب لم تكن لفئة دون فئة، ولكن لأمر شمل الناس كافة. ثم انتقل وهو يجيب قيس إلى أمر آخر فقال: " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن في أمتي اثني عشر منافقا لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط. ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة (٣) سراج من نار يظهر في أكتافهم حتى ينجم في صدورهم " (٤).

ولا ندري ما هو الدافع الذي جعل عمار يذكر المنافقين في هذا الموضع؟

ومن المعروف أن عمارا وحذيفة كانا مع النبي صلى الله عليه وسلم عند عودته من تبوك. يوم أن أرادت تيارات الهدم والتخريب أن يغتالوا النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) الطبري ٢١ / ٦ ذ، الكامل ١٥٧ / ٣، البداية والنهاية ٢٦٧، ٢٩٢ / ٧.

(٢) الطبري ٧ / ٦، الكامل ١٥٠ / ٣.

(٣) الدبيلة / نار تظهر في أكتافهم.

(٤) مسلم كتاب صفات المنافقين (الصحيح ١٢٤ / ١٧) أحمد (الفتح الرباني ١٤٠ / ٢٣) وابن عساكر (كنز العمال ٣٥١ / ١١).

فقيس حدث عمارا عن القتال. أهو من الرأي أم فيه عهد؟
فأجاب عمار على السؤال. ثم تحدث عن جماعة التخريب وهو لم يسأل عنها.
فهل يا ترى سقط السؤال من الناسخ؟ أم أن عمارا له مقصود خفي علينا وظهر لقيس. أم أن عمارا كان يقصد شيئا لا يعلمه إلا الله عز وجل؟
وروي أن عمارا قال وهو يشير إلى راية معاوية: لقد قاتلت صاحب هذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات. وهذه الرابعة (١). ما هي بأبر ولا أتقي (٢). وقال: فالذي نفسي بيده لو ضربونا حي يبلغوا بنا سعفات هجر، لعرفت أن مصلحينا على الحق وأنهم على الضلالة - وفي رواية - لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل (٣)، وروي أن رجلا جاء إلى معسكر عمار فقال: أيكم عمار بن ياسر؟ فقال عمار: أنا عمار، قال: أبو اليقظان؟ قال: نعم. قال: إن لي إليك حاجة. أفأنطق بها سرا أو علانية؟ قال: اختر لنفسك أيهما شئت. قال: لا بل علانية، قال: فانطق (٤)... ثم بدأ الرجل يتحدث عن حاله في القتال، وأنه قد دخله الشك في صحة هذا القتال. لأن الأطراف يصلون صلاة واحدة ويقرؤون كتابا واحدا، وإنه ذهب إلى علي بن أبي طالب فذكر له ذلك فقال له: لقد لقيت عمار بن ياسر؟ فقال الرجل: لا، فقال له أمير المؤمنين: فألقه. فانظر ماذا يقول لك عمار فاتبعه. وأخبر الرجل عمارا بأنه جاءه لذلك.
" فقال عمار: أتعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لي؟ فإنها راية عمرو بن العاص. قاتلتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات

---

(١) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٢٤٣ / ٧) وابن سعد (الطبقات ٢٥٣ / ٣).
(٢) الطبري ٢٢ / ٦.
(٣) رواه أحمد ورجاله ثقات (الفتح الرباني ١٤١ / ٢٣) والحاكم وصححه (المستدرك ٣٨٤ / ٣) البداية والنهاية ٢٦٧ / ٧، الطبري ٢١ / ٦، مروج الذهب ٤٢٢ / ٢، ابن أبي الحديد ٢٦٠ / ٢ الطبقات الكبرى ٢٥٧ / ٣.
(٤) ابن أبي الحديد ٢٦٠ / ٢.

وهذه الرابعة. فما هي بخيرهن ولا أبرهن، بل هي شرهن وأفجرهن. ثم قال عمار للرجل: أشهدت بدرا وأحدا ويوم حنين؟ أو شهدها أب لك فيخبرك عنها؟ قال: لا. قال: فإن مركزنا اليوم على مراكز رايات رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين. وإن مراكز رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب. فهل ترى هذا العسكر ومن فيه؟ والله لوددت أن جميع من فيه ممن أقبل مع معاوية يريد قتالنا. مفارقا للذي نحن عليه. كانوا خلقا واحدا فقطعته وذبحته. والله لدماؤهم جميعا أحل من دم عصفور. أفترى دم عصفور حراما؟ قال: لا. بل حلال. قال: فإنهم حلال كذلك. أتراني بينت لك؟ قال: قد بينت لي. قال فاختر أي ذلك أحببت.

فانصرف الرجال. فدعاه عمار ثم قال: أما أنهم سيضربونكم بأسيافهم حتى يرتاب المبطلون منكم فيقولوا: لو لم يكونوا على حق ما أظهروا علينا. والله ما هم من الحق على ما يقذي عين ذباب، والله لو ضربونا بأسيافهم حتى يبلغونا سعفات هجر. لعلمنا أنا على حق. وإنهم على باطل.

وروي: جاء رجل إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء القوم الذي نقاتلهم، الدعوة واحدة، والرسول واحد، والصلاة واحدة، والحج واحد فماذا نسميهم؟ قال: سمهم بما سماهم الله في كتابه. قال: ما كل ما في الكتاب أعلمه. قال: أما سمعت الله تعالى يقول: (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) - إلى قوله - (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات، ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر) (١). فلما وقع الاختلاف. كنا نحن أولى بالله. وبالكتاب وبالنبي وبالحق. وهم الذين كفروا وشاء الله قتالهم. فقاتلهم بمشيئته وإرادته (٢).

لقد كان عمار يقاتل وهو يعلم أن نتيجة القتال في نهاية المعركة ستكون لصالح معاوية، وكان يعلم أنه مقتول لا محالة بين صفين في هذه المعركة.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٣.

(٢) ابن أبي الحديد ٢٦٠ / ٢.

وبالرغم من ذلك كان يأخذ بأسباب الحياة الكريمة. لينظر الله إلى عمله وماذا يفعل ابتغاء مرضاته تعالى. كان يقول: أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أني أقتل بين صفين (١). وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: " آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن " (٢). وروي أن عمارا تقدم وقد جنحت الشمس للغروب، ومعه ضح من لبن ينتظر غروب الشمس أن يفطر، فقال غربت الشمس وشرب الضح: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: آخر زادك من الدنيا ضح من اللبن (٣)، وكان عمار يتذكر هذا على امتداد أيام صفين، وتقدم عمار فقاتل ثم رجع.

وفي اليوم رجع عمار إلى موضعه فاستسقي. فأتته امرأة من نساء بني شيبان من مصافهم بعس فيه لبن. فدفعته إليه. فقال: الله أكبر الله أكبر، اليوم ألقى الأحبة تحت الأسنة، صدق الصادق. وبذلك أخبرني الناطق. وهو اليوم الذي وعدت فيه. ثم قال: أيها الناس. هل من رائح إلى الله تحت العوالي (أي تحت الرماح) والذي نفسي بيده لنقاتلنهم على تأويله كما قاتلناهم على تنزيله.

وتقدم وهو يقول:

نحن ضربناكم على تنزيله * فاليوم نضربكم على تأويله

ضربا يزيل الهام عن مقيله (٤) * ويذهل الخليل عن خليله

أو يرجع الحق إلى سبيله (٥).

وروي أن الذي سقاه هو أبو المخاريق (٦)، وأنه بعد أن شرب اللبن نادي:

---

(١) رواه البزار وإسناده حسن (الزوائد ٣٦٥ / ٩) وابن عساكر عن مولاة عمار (كنز العمال ٥٣١ / ١٣).

(٢) رواه أحمد (الزوائد ٢٤٣ / ٧) والحاكم (المستدرك ٣٨٥ / ٣) والطبراني (الزوائد ٢٩٦ / ٩)، البداية والنهاية ٢٦٨ / ٧، ابن أبي الحديد ٨١٠ / ٢.

(٣) الحاكم (٣٨٥ / ٣ المستدرك).

(٤) المقيل / الموضع ومكان القيلولة.

(٥) مروج الذهب ٤٢٢ / ٢، ابن أبي الحديد ٨١٠ / ٢.

(٦) الطبري (الزوائد ٢٤٣ / ٧).

إني لقيت الخيار وتزوجت الحور العين. اليوم نلقي الأحبة محمدا وحزبه (١).
وروى عن سعيد بن عبد العزيز أن عمار بن ياسر أقسم يوم أحد فهزم المشركون، وأقسم يوم الجمل فغلبوا أهل البصرة، وقيل له يوم صفين لو أقسمت. فقال: لو ضربونا بأسيافهم حتى نبلغ سعفات هجر، لعلمنا أنا على الحق وهم على الباطل، فلم يقسم. وروي أنه قال يوم أحد.

أقسمت يا جبريل ويا ميكائيل * لا يغلبنا معشر الضلال
أنا على الحق وهم جهال

ثم انطلق حتى خرق صف المشركين (٢)، كان يعلم يوم صفين بأنهم سيتراجعوا عن مواقعهم وعبر عن ذلك بقوله: " لو ضربونا حتى نبلغ سعفات هجر "، ولكن النصر عند عمار لم يكن بامتلاك الأرض، وإنما بالمبادئ التي يحاربون عليها ومن أجلها، النصر بالأخلاق وفي الأخلاق، والباطل لا يمكث في الأرض وإن طالت الليالي. لأن الباطل طارئ لا أصالة فيه، والباطل مطارد من الله، ولا بقاء لشئ يطارده الله. كان عمار يعلم أنه في موقع المنتصر على الرغم من أن الموت قريب منه. فبالقرب من عمار وقف أبو الغادية قاتل عمار.. يقول أبو الغادية: كنا نعد عمارا من خيارنا، حتى سمعته يوما في مسجد قباء يقع في عثمان، فلو خلصت إليه لوطئته برجلي، فما صليت بعد ذلك صلاة إلا قلت: اللهم لقني عمارا (٣). كان أبو الغادية يراقب عمارا، وكان عمار ينادي صاحبه هاشم بن عتبة: يا هاشم الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأسل، وقد فتحت أبواب السماء، وتزينت الحور العين، اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه (٤). وتقدم عمار وهاشم، يقول أبو الغادية: فلما كان يوم صفين. جعل عمار يحمل على الناس. فقيل: هذا عمار، فرأيت فرجة بين الرئتين وبين

---

(١) رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات (الزوائد ٢٩٦ / ٩)، ابن أبي الحديد ٨١٠ / ٢.
(٢) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (الزوائد ٣٩٥ / ٩).
(٣) رواه أحمد والطبراني (الزوائد ٢٩٨ / ٩).
(٤) الطبري ٢٣ / ٦.

الساقين. فحملت عليه فطعنته في ركبته فوقع فقتلته (١)، وفي رواية الإمام أحمد: فاختلفت أنا وهو ضربتين، فبدرته فضربته فكبا لوجهه ثم قتلته (٢).
وهكذا قتل عمار بن ياسر رضي الله عنه، وكان يوم صفين شيخا كبيرا، يقول عبد الله بن سلمة: رأيت عمارا يوم صفين شيخا كبيرا آدم طوالا. أخذ الحربة بيده ويده ترعد ويقول: والذي نفسي بيده لقد قاتلت هذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث مرات، وهذه الرابعة (٣).
وبعد قتل عمار ظهر على الساحة لأول مرة " فقه البغاة " والعمود الفقري لهذا الفقه، إن الأمير إذا أمر بالسرقة أو بالقتل. فعند ظهور الضحية فإن الفاعل لن يكون الأمير بأي حال ربما يكون أقل جندي في قواته، وربما يكون بواب رواقه. وعلى سبيل المثال، لقد قتل النظام الحسين بن علي، ولكن النظام لم يظهر على امتداد التاريخ، وإنما ظهر ذو الجوشن الذي نفذ الخطة. ومن قبل الحسين ارتكبت جرائم عديدة كقتل حجر بن عدي واجتياح المدينة، وكل هذا فعله جندي من الجنود، أما أمير القوم فلم يكن يدري لأنه وقتئذ كان مشغولا بالصلاة.
روي أن عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان يقاتل يوم صفين ومعه سيفان (٤)، روي أنه قال لأبيه: يا أبت قتلتم هذا الرجل في يومكم، وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال. ألم تكن معنا يوم أن آتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: " ويحك تقتلك الفئة الباغية "؟ فدفع عمرو صدر فرسه. ثم جذب معاوية إليه. وأخبره بما يقول عبد الله فقال معاوية: إنك شيخ أخرق. ولا تزال تحدث بالحديث وأنت تدحض

---

(١) ابن سعد (الطبقات ٢٦١ / ٣).
(٢) رواه الطبراني وأحمد وقال الهيثمي رجال أحمد والطبراني رجال الصحيح (الزوائد ٢٩٨ / ٩).
(٣) البداية والنهاية ٢٩٢ / ٧.
(٤) أسد الغابة ٣٥١ / ٣ وروي أنه ندم بعد ذلك وكان يقول: ما لي ولصفين.

في بولك. أو نحن قتلنا عمارا. من جاء به؟ (١)، وفي رواية عند الإمام أحمد قال معاوية: أو نحن قتلناه. إنما قتله علي وأصحابه. جاؤوا به حتى ألقوه بين رماحنا (٢)، ثم خرج عمرو بن العاص ليؤصل هذا الفقه العميق فقال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن قاتله وسالبه في النار ". فقيل لعمرو: فإنك هوذا تقاتله، فقال: إنما قال قاتله وسالبه) (٣).

فقه واسع عميق. وروي أن ذا الكلاع سمع عمرو وهو يحدث معاوية بحديث: تقتله الفئة الباغية، فكان ذو الكلاع يقول: ويلك! ما هذا يا عمرو. وشاءت الأقدار أن يقتل ذو الكلاع في المعركة. فقال عمرو لمعاوية: ما أدري بقتل أيهما أنا أشد فرحا. بقتل عمار أو ذي الكلاع. والله لو بقي ذو الكلاع بعد قتل عمار لأفسد علينا جندنا (٤).

وروي أن عمارا لما قتل قال أمير المؤمنين علي لربيعة وهمدان. أنتم درعي ورمحي، فانتدب له نحو من اثني عشر ألفا، وتقدمهم علي – فحمل وحملوا معه حملة رجل واحد، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض، وقتلوا كل من انتهوا إليه. ثم نادي أمير المؤمنين وقال: يا معاوية علام تقتل الناس بيننا؟ هلم أحاكمك إلى الله. فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور. فقال عمرو لمعاوية: أنصفك الرجل. فقال معاوية: ما أنصفت. وإنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله. قال له عمرو: وما يجمل بك إلا مبارزته، فقال معاوية: طمعت فيها بعدي (٥).

وعندما رفض معاوية مبارزة أمير المؤمنين، لأنه يعلم منه ما علم، ولأنه

---

(١) الطبري ٢٣ / ٦.

(٢) رواه أحمد والحاكم وأقره الذهبي (الفتح الرباني ١٤٣ / ٢٣) وقال الهيثمي رواه الطبراني وأحمد وأبي يعلى والبزار ورجال أحمد وأبي يعلى ثقات (الزوائد ٢٤١، ٢٤٢ / ٧).

(٣) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الفتح الرباني ١٤٣ / ٢٣)، (الزوائد ٢٤١ / ٧)، وابن عساكر (كنز العمال ٥٣٢ / ١٣).

(٤) البداية والنهاية ٢٩٣ / ٧.

(٥) الطبري ٢٣ / ٦، البداية ٢٧٢ / ٧، الكامل ١٥٨ / ٣، مروج الذهب ٤٢٨ / ٢.

علم أنه لا يجلس على أرضية الطمع وحده وإنما يشاركه فيها ابن العاص. اشتد القتال. وقتل في ذلك اليوم صفوان وسعد ابنا حذيفة بن اليمان. وقد كان حذيفة قد قال لابنيه: كونا مع علي، فستكون له حروب كثيرة، فيهلك فيها خلق من الناس. فاجتهدا أن تستشهدا معه، فإنه والله على الحق، ومن خالفه على الباطل (١). وقتل في هذا اليوم هاشم بن عتبة الذي كان عمار يناديه: يا هاشم الجنة تحت ظلال السيوف (٢).

لقد قدمنا هنا بعض المشاهد على أرض صفين. يوم أن أخبر الإمام بأنه مقتول وأن معاوية سيملك ما تحت قدمه. ففي هذا اليوم أراد بعض الناس الدنيا فكاتبوا معاوية سرا. وأراد البعض الآخر الآخرة فقاتلوا وقتلوا رغم علمهم مقدما بما سيسفر عنه القتال في النهاية.

٧ – عندما اتخذوا المصاحف جدارا!

بعد قتل عمار اشتعلت المعركة اشتعالا. وكان عمار لا يأخذ واديا من أو دية صفين إلا اتبعه من كان هناك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (٣). وروي عن محمد بن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال: ما زال جدي – يعني خزيمة – كافا سلاحه يوم الجمل حتى قتل عمار بصفين، فسل سيفه فقاتل حتى قتل. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: تقتل عمارا الفئة الباغية. فعندما قتل عمار بد أن ضربات الصحابة فيما سمي في التاريخ: " ليلة الهرير " والهريز: صوت القوس. وصوت الكلب دون نباح.

يقول المسعودي: اختلط الناس، وبطل النبل، واستعملت السيوف، وجنهم الليل، وتنادوا بالشعار (أي الكلمة السرية المتفق عليها) وتقصفت الرماح. وتكادم القوم (أي آثروا العص) وكان يعتنق الفارس الفارس ويقعان إلى

---

(١) مروج الذهب ٤٢٥ / ٢.
(٢) البداية والنهاية ٢٧٠ / ٧.
(٣) رواه أحمد (الفتح الرباني ١٤٢ / ٢٣).

الأرض عن فرسيهما. وكان جملة من قتل علي بن أبي طالب في يومه وليلته خمسمائة وثلاثة وعشرون رجلا، أكثرهم في هذا اليوم، وكان علي إذا قتل رجل كبر إذا ضرب. ولم يكن يضرب إلا قتل (١).
وكان هذا اليوم للأشتر فيه نصيب كبير وروي أنه أنشد:
إن تقتلوا منا أبا * اليقظان شيخا مسلما
فقد قتلنا منكم * سبعين رأسا مجرما
أضحوا بصفين وقد * لاقوا نكالا مؤلما (٢)
وكان الأشتر يحرض الناس على امتداد أيام صفين ويقول: إن هؤلاء القوم لا يقاتلونكم إلا عن دينكم ليميتوا السنة: ويحيوا البدعة، ويعيدوكم في ضلالة قد أخرجكم الله عز وجل منها بحسن البصيرة. فطيبوا عباد الله أنفسا بدمائكم دون دينكم، فإن ثوابكم على الله والله عنده جنات النعيم. وإن الفرار من الزحف فيه السلب للعز والغلبة على الفئ وذل المحيا والممات، وعار الدنيا والآخرة (٣).
وفي ليلة الهرير كان الأشتر يضرب ضرباته بكل قوة حتى اخترق صفوف أهل الشام. وأجري حولهم عمليات الالتفاف والتطويق. يقول ابن كثير: حمل الأشتر على أهل الشام وتبعه علي. فتنقضت غالب صفوفهم، وكادوا ينهزمون، فعند ذلك رفع أهل الشام المصاحف فوق الرماح (٤).
وخدعة رفع المصاحف أرست فيما بعد قاعدة المتاجرة بالشعار والشراء به ثمنا قليلا، وإذا كان الخوارج قد تاجروا بالدين بعد ذلك، فلا يمكن لباحث أن يهمل أول باب تم عنده المتاجرة بالكتاب على نطاق واسع. فالخوارج دخلوا من باب صفين بصورة من الصور، وكان ابن العاص صاحب فكرة رفع الشعار. ولم تأت الفكرة عشوائيا دون تجهيز وإعداد. فالقوم كانوا يعرفون من يواجهون –

---

(١) مروج الذهب ٤٣١ / ٢.
(٢) مروج الذهب ٤٣٢ / ٢.
(٣) الطبري ١٢ / ٦.
(٤) البداية والنهاية ٢٧٣ / ٧.

والروايات الكثيرة تثبت أنهم كانوا يتجنبون ملاقاة أمير المؤمنين في المعركة. لهذا جرى الإعداد على قدم وساق لضرب القاعدة بعد أن قتل العديد من الصحابة الأجلاء الذين كانوا يمثلون العمود الفقري لجيش الإمام. فشق الصف هو المنفذ الوحيد لخروجهم من المعركة والسعي بعد ذلك في طريق الفتنة للوصول إلى الكرسي. وكان المصحف وسيلتهم الوحيدة في ذلك. فرفع الكتاب وطلب التحكيم سيؤدي إلى وجود مؤيد ومعارض داخل معسكر الإمام. فالمؤيد سيكون من بين الذين يحكمون عواطفهم في الأمور ولا يفهمون من الدين إلا القليل، أو من الذين يكاتبونهم سرا. وفي جميع الحالات فإن رفع المصاحف سيكون انتصار للإعلام الأموي أمام العامة الذين شربوا مقولة أن جيش الإمام لا يصلي فكيف بهم إذا أذيع عليهم أن الإمام رد المصحف.

لقد كان فقه الرمز يعمل من أجل إيجاد فترة زمنية. إما أن يهلك جيش الإمام بعضه بعضا فيها. وإما أن يستدرج إلى فخ التحكيم. فإذا رفض الإمام قرارات هيئة التحكيم فهو أمام العامة والغوغاء خارج عن القانون. وإذا قبلها كان الكرسي لمعاوية ويسحب بساط العلم بالتأويل من تحت الإمام. وبسحب هذا البساط ضاع الدين. وابن العاص عندما عرض خطته على معاوية لم يجعل العمود الفقري فيها النجاة من حصار الأشتر لمعسكر أهل الشام، وإنما كان العمود يقوم على اجتماع تيارهم وتشتيت معسكر الإمام. وروي أنه قال لمعاوية: هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعا ولا يزيدهم إلا فرقة. قال: نعم، فقال: نرفع المصاحف. ثم نقول: ما فيها حكم بيننا وبينكم. فإن أبى بعضهم أن يقبلها. وجدت فيهم من يقول: بل ينبغي أن نقبل. فتكون فرقة تقع بينهم. وإن قالوا: بلى نقبل ما فيها. رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين " (١).

وأقر معاوية الخطة. وخرج ابن العاص ليعلن سياسة الرمز، فقال: أيها الناس. من كان معه مصحفا فليرفعه على رمحه. ونادوا: كتاب الله بيننا وبينكم.

---

(١) الطبري ٢٦ / ٦، الكامل ١٦١ / ٣، البداية والنهاية ٢٧٣ / ٧.

من لثغور الشام بعد أهل الشام؟ ومن لثغور العراق بعد أهل العراق. ومن لجهاد الروم؟ ومن للترك؟ ومن للكفار؟ (١).
يقول المسعودي: ورفع في عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف، فلما رأى كثير من أهل العراق ذلك، قالوا: نجيب إلى كتاب الله. وقيل لعلي: قد أعطاك معاوية الحق. ودعاك إلى كتاب الله فاقبل منه وكان أشدهم في طلب التحكيم الأشعث بن قيس (٢)، وكان أمير المؤمنين يعلم أن القوم يسيرون في طريق أخبره به النبي صلى الله عليه وسلم. لقد تم ابتلاؤهم والنصر على الأعتاب. لقد خيروا بين الشعار والشعور بالشعار. فاختاروا الشعار بلا شعور. اختاروا الطريق الذي تسير فيه أكثر من سبعين فرقة وكل فرقة تدعي أنها على الشعار الحق. وهل الشعار إلا حقا محضا وأن الابتلاء لا يكون إلا في الشعور. كان الإمام يعلم أن القوم قد اختاروا طريق اللا دعوة، واللا دعوة تعني اللا ممارسة وهذا ينتهي إلى جحود الذين من قبلهم ليزاحموا أصحابها فيها، ويتبعونهم شبرا بشبر وذراعا بذراع، ثم ينتهي بهم المطاف فيكونوا غثاء، رخيصا، تافها، لا قيمة له. في علم تقرقع فيه أنياب الحيتان. وفي هذا العالم يذوقوا الذل، أي ذل. وأخذ الإمام بالأسباب كما علمه أستاذ البشرية محمد صلى الله عليه وسلم فقال لهم: عباد الله. امضوا على حقكم وصدقكم قتال عدوكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي السرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم. قد صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا، فكانوا شر أطفال وشر رجال. ويحكم أنهم ما رفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها. وما رفعوها لكم إلا خدعة ومكيدة. قالوا: ما يسعنا أن ندعي إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله. فقال: ويحكم. أنا أول من دعا إلى كتاب الله. وأول من أجاب إليه. وليس يحل لي، ولا يسعني في ديني أن أدعي إلى كتاب الله فلا أقبله. إني أقاتلهم ليدينوا

---

(١) مروج الذهب ٤٣٢ / ٢، الطبري ٢٦ / ٦، ابن أبي الحديد ٤٢٣ / ١.
(٢) مروج الذهب ٤٣٢ / ٢.

بحكم القرآن، فإنهم قد عصوا الله عز وجل فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه (١). فقالوا: يا علي أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه. وهددوه بالقتل إذا رفض إجابة الدعوة (٢) فقال لهم: احفظوا عني نهي إياكم، واحفظوا مقالتكم لي. أما أنا فإن تطيعوني تقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم (٣).

لقد كان أمير المؤمنين أول حاكم تظلمه رعيته. فالحكام على امتداد التاريخ ليس لهم إلا أن يأمروا وعلى الرعية أن تنفذ. أما الإمام لأن له مهمة محددة لا يجوز له أن يجبر فردا على عمل ما، فهو فقيه وعلى علم بالطريق، وعلى امتداد هذا الطريق يسير بمصباحه. فمن أراد أن يتجنب الحفر على سنة الله ورسوله – فعليه بحامل المصباح. وعلى امتداد هذا الطريق عهد إليه بعهود. ومع كل عهد شروط تنفيذه. وأهم هذه الشروط أن يجتمع الناس حوله ليضرب بهم من صد عن طريقه... فإذا فقد هذا الشرط فعليه أن يقيم الحجة وفقا لحركة الدعوة وحركة الواقع.

وبعد رفع المصاحف ظلمت الرعية قائدها. وأصدرت إليه الأوامر: قالوا له: ابعث إلى الأشتر ليأتينك. وكان الأشتر صبيحة ليلة الهرير أشرف على عسكر معاوية ليدخله (٤). وتدخل القوم في سير الأعمال العسكرية، يشير إلى أن عددهم وقوتهم ولم يكن من السهل تجاهلهم أو تجاهل خطرهم على باقي القوات فضلا على حركة الدعوة. ولقد روي أن الذين اعتزلوا بحروراء فقط كانوا اثنا عشر ألف مقاتل (٥). وروي أن الإمام عندما بعث للأشتر أن يأتيه. قال الأشتر لمبعوث الإمام: ليس هذه الساعة، إني قد رجوت أن يفتح لي فلا

---

(١) ابن أبي الحديد ٤٢٦ / ١. الطبري ٢٧ / ٦، البداية والنهاية ٢٩٨ / ٧، مروج الذهب ٤٣٣ / ٢، الكامل ١٦١ / ٣.

(٢) الطبري ٢٧ / ٦، البداية والنهاية ٢٩٨ / ٧، مروج الذهب ٤٣٣ / ٢، ابن أبي الحديد ٤٢٦ / ١.

(٣) الطبري ٢٧ / ٦، البداية والنهاية ٢٩٩ / ٧، ابن أبي الحديد ٤٢٦ / ١.

(٤) ابن أبي الحديد ٤٢٦ / ١، الطبري ٢٧ / ٦، البداية ٢٩٩ / ٧.

(٥) الطبري ٣٥ / ٦.

تعجلني. وعندما سمع القوم هذا ارتفع الهرج وعلت الأصوات، وقالوا للإمام: ابعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك. فبعث الإمام: أقبل إلي فإن الفتنة قد وقعت. وجاء الأشتر فقال لهم: يا أهل العراق، يا أهل الذل والوهن، حين علوتم القوم ظهرا، وظنوا أنكم لهم قاهرون. رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها، وقد والله تركوا ما أمر الله عز وجل به فيها وسنة من أنزلت عليه صلى الله عليه وسلم، فلا تجيبوهم امهلوني عدو الفرس، فإني قد طمعت في النصر.
قالوا: إذا ندخل معك في خطيئتك، ثم قالوا: لقد قاتلناهم في الله عز وجل، وندع قتالهم لله سبحانه. إنا لسنا مطيعيك ولا صاحبك فاجتنبنا. فقال: خدعتم والله فانخدعتم. ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم، يا أصحاب الجباه السود، كنا نظن صلواتكم زهادة في الدنيا وشوقا إلى لقاء الله عز وجل، فلا أري قراركم إلا إلى الدنيا من الموت إلا قبحا، يا أشباه النيب الجلالة. وما أنتم برائين بعدها عزا أبدا، فابعدوا كما بعد القوم الظالمين، فسبوه وسبهم. وقال الناس: قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينهم حكما (١).
وروي أن الإمام كان ساكتا لا يتكلم، ثم قام فسكت الناس كلهم. فقال: لقد فعلتم فعلة ضعضعت قوة، وأسقطت منه، وأوهنت وأورثت وهنا وذلة، ولما كنتم الأعليين وخاف عدوكم الاجتياح واستحربهم القتل ووجدوا ألم الجراح، رفعوا المصاحف، ودعوكم إلى ما فيها ليفثؤكم عنها ويقطعوا الحرب فيما بينكم وبينهم. ويتربصون ريب المنون خديعة ومكيدة. فأعطيتموهم ما سألوا. وأبيتم إلا أن تدهنوا وتجوزوا. وأيم الله ما أظنكم بعدها توافقون رشدا، ولا تصيبون باب خدم (٢). وقال: أيها الناس. إن أمري لم يزل معكم على ما أحب. إلى أن أخذت منكم الحرب. وقد والله أخذت منكم وتركت. وأخذت من عدوكم فلم تترك. وإنها فيهم أنكى وأنهك. ألا إني كنت أمس أمير المؤمنين فأصبحت اليوم مأمورا، وكنت ناهيا فأصبحت منهيا. وقد أحببتم البقاء. وليس

---

(١) الطبري ٢٨ / ٦، الكامل ١٦١ / ٣، ابن أبي الحديد ٤٢٧ / ١، البداية ٣٠٠ / ٧.
(٢) الطبري ٣١ / ٦.

لي أن أحملكم على ما تكرهون ثم قعد (١).
وعندئذ بدأ نجم الأشعث بن قيس في الظهور. قال ابن أبي الحديد: كل فساد كان في خلافة أمير المؤمنين علي، وكل اضطراب حدث فأصله الأشعث (٢). جاء الأشعث إلى أمير المؤمنين فقال: ما أرى الناس إلا قد رضوا، وسرهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن. فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد. قال: آته إن شئت. فآتاه. فسأله: يا معاوية لأي شئ رفعتم هذه المصاحف؟ قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به فيها. فابعثوا رجلا منكم ترضونه، ونبعث منا رجلا، ونأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله ولا يعدواه، ثم نتبع ما اتفقنا عليه، فقال الأشعث: هذا هو الحق، وانصرف وأخبر أمير المؤمنين. واجتمع قراء الشام وقراء العراق. وقال أهل الشام: إنا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص. وقال الأشعث والقراء الذين صاروا خوارج فيما بعد: قد رضينا نحن واخترنا أبا موسى الأشعري. فقال الإمام: فإني لا أرضى بأبي موسى ولا أرى أن أوليه. فقال الأشعث ومن معه: إنا لا نرضى إلا به. قال الإمام: إنه ليس لي برضا. وقد فارقني وخذل الناس عني وهرب مني حتى أمنته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك. قالوا: والله ما نبالي. أكنت أنت أو ابن عباس. ولا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء، وليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر. فقال أمير المؤمنين: فإني أجعل الأشتر. فقال الأشعث: وهل سعر الأرض علينا إلا الأشتر. وهل نحن إلا في حكم الأشتر. قال أمير المؤمنين: وما الحكمة؟ قال: حكمة أن يضرب بعضنا بعضا بالسيف حتى يكون ما أردت وما أراد (٣).
لقد كان الإمام يأخذ بأسباب الحياة الكريمة. فهو يعلم أن أبا موسى سيأتي لا محالة ليشارك في تحكيم الإمام يرفضه من البداية. وكان الإمام قد قال لأبي

---

(١) ابن أبي الحديد ٤٢٨ / ١، مروج الذهب ٤٣٢ / ٢.
(٢) ابن أبي الحديد ٤٦٨ / ١.
(٣) الطبري ٢٨ / ٦، ابن أبي الحديد ٤٣٣ / ١، الكامل ١٦٢ / ٣، مروج الذهب ٤٣٤ / ٢.

موسى قبل موقعة الجمل: اعتزل عملنا يا ابن الحائك مذموما مدحورا. فما هذا أول يومنا منك. وإن لك فينا لهنات وهنيات (١)، وروي أن عمار بن ياسر قال لأبي موسى: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلعنك ليلة الجبل.
فقال أبو موسى: إنه قد استغفر لي. قال عمار: قد شهدت اللعن ولم أشهد الاستغفار (٢)، وعندما هرب أبو موسى من علي بن أبي طالب قيل لعمار: قد هاجر أبو موسى، فقال عمار: والله ليخذلن جنده، وليفرن جهده، ولينقضن عهده (٣). ثم أخبر عمار عن معركة صفين قبل وقوعها. فقال بعد أن سلط الضوء على أبي موسى: " والله إني لأرى قوما ليضربنكم ضربا يرتاب له المبطلون، والله لو قاتلوا حتى بلغوا بنا سعفات هجر لعلمت أن صاحبنا على الحق وهم على الباطل (٤).
لقد قال لهم الإمام عندما قالوا: لا نرضى إلا بأبي موسى، قال، ويحكم هو ليس بثقة. قد فارقني (٥)! وقال لهم: قد عصيتموني في أول هذا الأمر. فلا تعصوني الآن. إني لا أرى أن أولي أبا موسى الأشعري. فقال الأشعث ومن معه: لا نرضى إلا بأبي موسى الأشعري (٦).
وانتهت المواجهة العسكرية بصفين بعد رفع المصاحف، وكان جملة من قتل من الفريقين جميعا سبعين ألفا. من أهل الشام خمسة وأربعون ألفا، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفا فيهم خمسة وعشرون بدريا. وقيل غير ذلك نظرا لأن في قتلى الفريقين من غرق ومن قتل في البر فأكله السباع.
فروي أن عدد القتلى مائة ألف وعشرة آلاف من أهل الشام تسعون ألفا.

---

(١) مروج الذهب ٣٩٦ / ٢.
(٢) رواه ابن عساكر (كنز العمال ٦٠٨ / ١٣).
(٣) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٢٤٣ / ٧).
(٤) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٢٤٣ / ٧).
(٥) مروج الذهب ٤٣٤ / ٢، الطبري ٢٨ / ٦، ابن أبي الحديد ٤٣٣ / ١، الكامل ١٦٢ / ٣.
(٦) مروج الذهب ٤٣٤ / ٢، الطبري ٢٨ / ٦، ابن أبي الحديد ٤٣٣ / ١، الكامل ١٦٢ / ٣.

ومن أهل العراق عشرون ألفا (١). وروي أن مدة المقام بصفين كانت مائة يوم وعشرة أيام. وقال آخرون: كان سبعة أشهر. وقيل: تسعة أشهر. وكان بينهم في هذه المدة تسعون زحفا (٢).

وعندما جاء أبو موسى ودخل المعسكر، قال الأحنف للقوم: لقد أبيتم إلا أبا موسى فادفئوا ظهره بالرجال. وجاء عمرو بن العاص ومن معه. جلس الطرفان. فكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه علي أمير المؤمنين. فقال عمرو: اكتب اسمه واسم أبيه. هو أميركم. فأما أميرنا فلا. قال أمير المؤمنين: الله أكبر سنة بسنة ومثل بمثل. والله إني لكاتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، إذ قالوا لست رسول الله ولا نشهد لك به. ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فكتبه. فقال عمرو: سبحان الله. أتشبهنا بالكفار ونحن مسلمون؟ فقال علي: يا ابن النابعة. ومتى لم تكن للكافرين وليا وللمسلمين عدوا؟ فقام عمرو وقال: والله لا يجمع بيني وبينك مجلس بعد اليوم، فقال علي: وإني لأرجو أن يطهر الله عز وجل مجلسي منك ومن أشباهك. وكتب الكتاب (٣).

ولقد تحدثنا فيما سبق أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد صلح الحديبية كان قد أنذر قريش بأن لهم في المستقبل يوما يقاتلهم فيه رجلا امتحن الله قلبه بالإيمان، وهو خاصف النعل. وظل هذا الأمر في ذهن دائرة الاستكبار وتوارثوه وكانت حركتهم مرتبطة بما في دائرة ذهنهم.

وروى ابن أبي الحديد عن أبي إسحاق الشيباني قال: قرأت كتاب الصلح عند سعيد بن أبي بردة في صحيفة صفراء. عليها خاتمان: خاتم من أسفلها. وخاتم من أعلاها. على خاتم علي بن أبي طالب: " محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم " وعلى خاتم معاوية " محمد رسول الله " وقيل لعلي حين أراد أن

---

(١) مروج الذهب ٤٣٦ / ٢.
(٢) البداية والنهاية ٢٧٥ / ٧.
(٣) الطبري ٢٩ / ٦، أبي الحديد ٤٣٦ / ١.

يكتب الكتاب بينه وبين معاوية وأهل الشام: أتقر أنهم مؤمنون مسلمون! فقال علي: ما أقر لمعاوية ولا لأصحابه أنهم مؤمنون ولا مسلمون. ولكن يكتب معاوية ما شاء بما شاء، ويقر بما شاء لنفسه ولأصحابه. ويسمي نفسه بما شاء وأصحابه (١).

وكان فيما كتب في الصحيفة. أن يحيى الحكمان ما أحياء القرآن، ويميتا ما أمات القرآن، ولا يتبعان الهوى ولا يداهنان (٢) في شئ من ذلك. فإن فعلا فلا حكم لهما، والمسلمون في حكمهما براء (٣). وقال أمير المؤمنين للحكمين: على أن تحكما بما في كتاب الله. وكتاب الله كله لي. فإن لم تحكما بما في كتاب الله فلا حكومة لكما (٤).

واتفقوا على موضع التحكيم بين الكوفة والشام. وخرج الأشعث ليقرأ الصحيفة على الناس. وجرى بين الأشعث وبين أناس منهم خطب طويل، وعندئذ قام عروة بن أذية، وهو أخو بلال الخارجي، فقال: أتحكمون في دين الله وأمره ونهيه الرجال؟ لا حكم إلا لله. فكان أول من قالها (٥) وما أن قال عروة هذا حتى تباغض القوم جميعا، وأقبل بعضهم يتبرأ من بعض. تبرأ الأخ من أخيه والابن من أبيه، وأمر علي بن أبي طالب بالرحيل. لعلمه باختلاف الكلمة. وتفاوت الرأي. وعدم النظام لأمورهم، وما لحقه من الخلاف منهم. وكثر التحكيم في جيش أهل العراق، وتضارب القوم بالمقارع ونعال السيوف وتسابوا. ولام كل فريق منهم الآخر في رأيه. وسار على نحو الكوفة. ولحق معاوية بدمشق (٦).

---

(١) ابن أبي الحديد ٤٣٧ / ١.
(٢) المداهنة / الخداع.
(٣) مروج الذهب ٤٣٥ / ٢، ابن أبي الحديد ٤٣٧ / ١، الطبري ٢٩ / ٦.
(٤) ابن عساكر وابن أبي شيبة (كنز العمال ٣١٩ / ١١)، مروج الذهب ٤٣٥ / ٢.
(٥) مروج الذهب ٤٣٦ / ٢، ابن أبي الحديد ٤٣٨ / ١.
(٦) مروج الذهب ٤٣٧ / ٢.

وروي عن علقمة والأسود أنهم قالا: أتينا أبا أيوب الأنصاري عند منصرفه من صفين. فقلنا له: يا أبا أيوب. إن الله أكرمك بنزول محمد صلى الله عليه وسلم وبمجئ ناقته تفضلا من الله وإكراما لك. حين أناخت ببابك دون الناس. ثم جئت بسيفك على عاتقك تضرب به أهل لا إله إلا الله! فقال لهما: يا هذا إن الرائد لا يكذب أهله، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا بقتال ثلاثة مع علي: بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين. فأما الناكثون فقد قاتلت. وهم أهل الجمل وطلحة والزبير، وأما القاسطون. فهذا منصرفنا من عندهم - يعني معاوية وعمرو - وأما المارقون فهم أهل الطرقات وأهل السعيفات وأهل التخيلات وأهل النهروان. والله ما أدري أين هم! ولكن لا بد من قتالهم إن شاء الله. ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعمار: يا عمار تقتلك الفئة الباغية. وأنت مذ ذاك مع الحق والحق معك. يا عمار بن ياسر، إذا رأيت عليا قد سلك واديا وسلك الناس غيره، فاسلك مع علي، فإنه لن يدليك في ردى ولن يخرج من هدى. يا عمار، من تقلد سيفا أعان به عليا على عدوه. قلده الله يوم القيامة وشاحين من در. ومن تقلد سيفا أعان به عدو علي عليه، قلده الله يوم القيامة وشاحين من نار. فقال علقمة والأسود لأبي أيوب: يا هذا حسبك! حسبك رحمك الله! حسبك رحمك الله (١) وأنا أقول: حسبك رحمك الله.

---

(١) رواه ابن عساكر عن أبي صادق (كنز العمال ٣٥٢ / ١١) والخطيب البغدادي (البداية والنهاية ٣٠٧ / ٧)، وابن جرير عن مخنف باختصار (كنز العمال ٣٥٢ / ١١).

ثالثا – التخاذل وغياب القمر.
قال الإمام عند انصرافه من صفين:
أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالدين المشهور، والعلم المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامع، والأمر الصادع (١)، إزاحة للشبهات، واحتجاجا بالبينات، وتحذيرا بالآيات وتخويفا بالمثلات، والناس في فتن انجذم (٢) فيها حبل الدين، وتزعزعت سواري (٣) الدفين: واختلف الفجر (٤)، وتشتت الأمر، وضاق المخرج، وعمي المصدر، فالهدى حامل، والعمى شامل، عصى الرحمن، ونصر الشيطان، وخذل الإيمان، فانهارت (٥) دعائمه، وتنكرت معالمه، ودرست سبله، وعفت شركه (٦). أطاعوا الشيطان فسلكوا سالكه، ووردوا مناهله. بهم سارت أعلامه، وقام لواؤه في فتن داستهم

---

(١) الصادع / الظاهر الجلي.
(٢) انجذم / انقطع.
(٣) السارية / الدعامة.
(٤) النحر / الأصل.
(٥) انهارت / تساقطت.
(٦) الشرك / الطرائق.

بأخفافها (١) ووطئتهم بأظلافها (٢). وأقامت على سنابكها، فهم فيها تائهون حائرون، جاهلون مفتونون، في خير دار (٣) وشر جيران (٤). نومهم سهود (٥). وكحلهم دموع (٦). بأرض عالمها ملجم (٧) وجاهلها مكرم (٨)... (٩).

ودخل أمير المؤمنين إلى الكوفة ولم يدخل معه الذين اختلفوا معه، ونزلوا بحروراء وكان عددهم يومئذ اثنى عشر ألفا، ونادى مناديهم أن أمير القتال شبث بن ربعي وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء، والأمر شورى والبيعة لله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٠).

لقد رفعوا صوتهم فوق صوت أمير المؤمنين. أمروه بأن يقبل التحكيم، وأن يسحب قوات الأشتر إلى الخلف، وأن يقر أبا موسى. وبعد أن نالوا ما أرادوا اختلفوا فيما بينهم. وهذا لا يستغرب منه لأنه من شيمة الذين يسلكون طريق الشيطان، فالاختلاف والبغي على هذا الطريق أمر طبيعي ولا ينبغي البحث عن أسبابه.

١ - خيمة التحكيم:

قبل التحكيم جاء المغيرة بن شعبة إلى معاوية، فقال له معاوية: يا مغيرة ما ترى؟ قال: يا معاوية لو وسعني أن أنصرك لنصرتك، ولكن على أن آتيك بأمر

---

(١) الخفاف / الإبل.
(٢) الأظلاف / للبقر والمعاعز.
(٣) خير دار / قيل يقصد الكوفة وقيل الشام.
(٤) شر جيران / أي أصحاب معاوية.
(٥) نوفهم سهود / يعني أصحاب معاوية. لا ينامون الليل ويرتبون أمره.
(٦) كحلهم دموع / أي نفاقا.
(٧) أي المؤمن في تقية وخوف.
(٨) أي المكذب في عز ومنعة.
(٩) ابن أبي الحديد ١٢٣ / ١.
(١٠) الطبري ٣٥ / ٦.

الرجلين – أي عمرو وأبو موسى – فرحل حتى دخل على أبي موسى كالزائر له. فقال: يا أبا موسى. ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره الدماء – وكان المغيرة مقيما بالطائف ولم يشهد الحرب – قال: أولئك خير الناس، خفت ظهورهم من دمائهم وخمصت بطونهم من أموالهم. ثم ذهب المغيرة إلى عمرو. فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره الدماء، قال: أولئك شرارة الناس لم يعرفوا حقا ولم ينكروا باطلا. فرجع المغيرة إلى معاوية فقال له: قد ذقت الرجلين. أما أبو موسى فخالع صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد هذا الأمر، وهواه في عبد الله بن عمر، وأما عمرو بن العاص، فهو صاحبك الذي تعرف. وقد ظن الناس أنه يرومها لنفسه. وأنه لا يرى أنك أحق بهذا الأمر منه (١).

لم يكن ابن العاص يمثل أي مشكلة لمعاوية، وإنما الذي كان يهم معاوية هو معرفة خامات أبي موسى الأشعري. وبعد أن تذوق المغيرة الخامات وأخبر بها معاوية، بدأت السياسة الأموية تعمل من أجل الوصول إلى أهدافها.

وروي: لما أراد أبو موسى المسير إلى دومة الجندل وهو المكان الذي اتفق ليكون مقرا للتحكيم. قال له ابن عباس: إن عليا لم يرض بك حكما لفضل عندك، والمتقدمون عليك كثير، وإن الناس أبوا غيرك، وإني لأظن ذلك لشر يراد بهم. وقد ضم داهية العرب معك – يعني عمرو – إن نسيت فلا تنسى أن عليا بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان. وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة. وليس في معاوية خصلة تقربه من الخلافة (٢). وقال له: واعلم يا أبا موسى أن معاوية طليق الإسلام، وأن أباه رأس الأحزاب، وأنه يدعي الخلافة من غير مشورة ولا بيعة، فإن زعم لك أن عمر وعثمان استعملا فلقد صدق، استعمله عمر وهو الوالي عليه. بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهي ويوجره ما يكره. ثم استعمله عثمان برأي عمر، وما أكثر من استعملا ممن لم يدع الخلافة. واعلم أن لعمرو مع كل شئ يسرك خبيثا يسؤوك. ومهما نسيت فلا تنسى أن عليا بايعه.

---

(١) ابن أبي الحديد ٤٤٩ / ٢.
(٢) مروج الذهب ٤٣٩ / ٢.

القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان. وأنه لم يقاتل إلا العاصين والناكثين (١).

وانطلق أبو موسى إلى خيمة التحكيم. وروي أن معاوية وصى عمرا عندما فارقه وهو يريد الاجتماع بأبي موسى فقال له: يا أبا عبد الله. إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبي موسى. وأنا وأهل الشام راضون بك. وقد ضم إليك رجل - أي أبو موسى - طويل اللسان قصير الرأي، فأخر الخلا. وطبق المفصل. ولا تلقه برأيك كله (٢).

وروي أن عمرا أعطى لأبي موسى صدر المجلس. وكان لا يتكلم قبله. وأعطاه التقدم في الصلاة وفي الطعام. لا يأكل حتى يأكل، وإذا خاطبه فإنما يخاطبه بأجمل الأسماء ويقول له: يا صاحب رسول الله، حتى أطمئن إليه، فظن أنه لا يغشه (٣). ودعا عمرو بصحيفة وكاتب، ثم قال لكاتبه: اكتب فإنك شاهد علينا. ولا تكتب شيئا يأمر به أحدنا حتى تستأمر الآخر فيه، فإذا أمرك فاكتب، وإذا نهاك فانته، حتى يجتمع رأينا. ثم قال عمرو: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان، فكتب وبدأ بعمرو، فقال له عمرو: لا أم لك أتقدمني قبله كأنك جاهل بحقه؟ فكتب فبدأ باسم عبد الله بن قيس. وكتب: تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، ثم قال عمرو: ونشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمل بكتاب الله وسنة رسوله حتى قبضه الله إليه، وقد أدى الحق الذي عليه، قال أبو موسى موافقا: اكتب. ثم قال في عمر بن الخطاب مثل ذلك. فقال أبو موسى اكتب. ثم قال عمرو: واكتب: وأن عثمان ولي هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم. ورضى منهم وأنه كان مؤمنا. فقال أبو موسى

---

(١) ابن أبي الحديد ٤٤٥ / ٢.
(٢) مروج الذهب ٤٣٩ / ٢، ابن أبي الحديد ٤٤٤ / ١.
(٣) الكامل ١٦٨ / ٣، وابن أبي الحديد ٤٥١ / ٣، الطبري ٣٩ / ٦.

الأشعري: ليس هذا مما قعدنا له. قال عمرو: والله لا بد من أن يكون مؤمنا أو كافرا. فقال أبو موسى: كان مؤمنا. قال عمرو: فمره يكتب، قال أبو موسى: اكتب. قال عمرو: فظالما قتل عثمان أو مظلوما؟ قال أبو موسى: بل قتل مظلوما، قال عمرو: أفليس قد جعل الله لولي المظلوم سلطانا يطب بدمه؟ قال أبو موسى: نعم، قال عمرو: فهل تعلم لعثمان وليا أولى من معاوية؟ قال: أبو موسى: لا، قال عمرو: أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه؟ قال أبو موسى: بلى، قال عمرو للكاتب: اكتب وأمره أبو موسى فكتب، قال عمرو: فإنا نقيم البينة أن عليا قتل عثمان. فقال أبو موسى: هذا أمر قد حدث في الإسلام. وإنما اجتمعنا لغيره. فهلم إلى أمر يصلح الله به أمر أمة محمد، قال عمرو: وما هو؟ قال أبو موسى: قد علمنا أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبدا، وأن أهل الشام لا يحبون عليا أبدا. فهلم نخلعهما جميعا ونستخلف عبد الله بن عمر. وكان عبد الله بن عمر على بنت أبي موسى (١).

وروي عن أبي جناب أن أبا موسى قال غير مرة: والله إن استطعت لأحيين اسم عمر بن الخطاب. فقال له عمرو: إن كنت إنما تريد أن تبايع ابن عمر لدينه. فما يمنعك من ابني عبد الله وأنت تعرف فضله وصلاحه؟ قال: إن ابنك رجل صدق. ولكنك قد غمسته في هذا الفتن (٢).

وروى الطبري: أراد أبو موسى عبد الله بن عمر فأبي عليه عمرو، وأراد عمرو ابنه فأبى أبو موسى، فقال له عمرو: خبرني ما رأيك؟ قال: رأيي أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا، فقال له عمرو: فإن الرأي ما رأيت. فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون، فقال عمرو: يا أبا موسى أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق. فتكلم أبو موسى فقال: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أن نرجو أن يصلح الله

---

(١) مروج الذهب ٤٤٠ / ٢.

(٢) الطبري ٣٨ / ٦، ابن أبي الحديد ٤٥٠ / ١، البداية والنهاية ٢٨٣ / ٧، مروج الذهب ٤٤١ / ٢.

عز وجل به أمر هذه الأمة فقال عمرو: صدق وبر أبو موسى. تقدم فتكلم.
فتقدم أبو موسى ليتكلم فقال له ابن عباس: ويحك والله إني لأظنه قد خدعك. إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك. ثم تكلم أنت بعده فإن عمرا رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه. فإذا قمت في الناس خالفك. وكان أبو موسى مغفلا فقال: إنا قد اتفقنا.
فتقدم أبو موسى ثم قال: أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة. فلو نر أصلح لأمرها. ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه وهو أن تخلع عليا ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم وإني قد خلعت عليا ومعاوية... وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية. فإنه ولي عثمان بن عفان، والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه (١) - وفي رواية - وأن أبا موسى قد كتب في الصحيفة أن عثمان قتل مظلوما وأن لوليه سلطانا أن يطلب بدمه حيث كان. وقد صحب معاوية رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه. وصحب أبوه النبي صلى الله عليه وسلم. وأن معاوية هو الخليفة علينا. وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان.
فقال أبو موسى: كذب عمرو. لم نستخلف معاوية. ولكنا خلعنا معاوية وعليا معا، وقال عمرو: بل كذب عبد الله بن قيس، قد خلع عليا ولم أخلع معاوية (٢). فقال أبو موسى: ما لك لا وفقك الله غدرت وفجرت إنما مثلك (كمثل الحمار يحمل أسفارا) (٣)، فقال له عمرو: بل إياك يلعن الله. كذبت وغدرت. إنما مثلك مثل (الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) (٤)، ثم

---

(١) الطبري ٤٠ / ٦، مروج الذهب ٤٤٢ / ٢، الكامل ١٦٨ / ٣، البداية ٢٤٨ / ٧، ابن أبي الحديد ٤٥١ / ١.
(٢) مروج الذهب ٤٤٢ / ٢.
(٣) سورة الجمعة: الآية ٥.
(٤) سورة الأعراف: الآية ١٧٦.

وكز أبا موسى فألقاه لجنبه (١) وانطلق عمرو إلى معاوية وسلم عليه بالخلافة (٢).
وهكذا انتهى التحكيم بين المسلمين. لقد اشترط أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على الحكمين أن يحكما بكتاب الله ولا يتبعان الهوى ولا يداهنان. فلم يأخذا من كتاب الله إلا مثلين ضربهما الله. مثل الحمار ومثل الكلب، وضرب كل واحد منهما صاحبه بمثل. ومن أجمل ما قرأت في هذا المقام. قول الأستاذ العقاد وهو يعلق على التحكيم قال: كلب وحمار فيما حكم به على نفسيهما غاضبين. وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه. وانتهت المأساة بهذه المهزلة. أو انتهت المهزلة بهذه المأساة (٣).
ومن أطرف الآراء التي قرأتها عن التحكيم ورأي ابن كثير، فلقد قال:
فقال عمرو: إن هذا قد قال ما سمعتم وأنه قد خلع صاحبه، وإني قد خلعته كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية، فإنه ولي عثمان وهو أحق الناس بمقامه. ثم يعلق ابن كثير على ما فعله ابن العاص فيقول: وكأن عمرو رأى أن ترك الناس بلا إمام والحالة هذه يؤدي إلى مفسدة طويلة عريضة أربى مما الناس فيه من الاختلاف. فأقر معاوية لما رأى ذلك من المصلحة. والاجتهاد يخطئ ويصيب (٤)، فيا ترى هل في هذا إقرار لفقه الكيد والمكر تحت عنوان: إن ابن العاص خاف على الأمة أن تنام ليلة واحدة بدون إمام؟ لأن من مات في هذه الليلة فستكون ميتته ميتة جاهلية. فلهذا أسرع بتنصيب إمام الزمان معاوية. وهو من هو وأسرته لها فضل عظيم على الإسلام والمسلمين. وإذا كان ابن كثير يرى أن ابن العاص لو لم يفعل ذلك لوصل الأمر إلى مفسدة طويلة. فابن كثير كواحد من كتاب التاريخ يعلم قبل غيره، أن الاختلاف والافتراق على امتداد التاريخ بعد صفين يعود أصله

---

(١) الطبري ٤٠ / ٦، مروج الذهب ٤٤٣ / ٢، الكامل ١٦٨ / ٣، البداية ٢٤٨ / ٧، ابن أبي الحديد ٤٥١ / ١.
(٢) الطبري ٤٠ / ٦.
(٣) عبقرية الإمام / العقاد ص ٨٥.
(٤) البداية ٢٨٤ / ٧.

إلى ما فعله عمرو بن العاص يوم التحكيم. ويعلم قبل غيره أن هذا التحكيم الذي رضيه من عمرو بن العاص لم يقبله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. الذي يعده ابن كثير من الخلفاء الراشدين. ولا ندري كيف لا يقبل خليفة راشد التحكيم ثم تقبله أمه ملتمسة العذر لابن العاص، على اعتبار أنه متأول مجتهد له أجر على اجتهاده!! أي أجر والله ذم الاختلاف وابن العاص له عمود كبير في دائرة الاختلاف.

ومن أنصف ما قرأت في هذا المقام. ما ذكره الدميري في حياة الحيوان. روي أن معاوية عندما صار خليفة قال لأبي الأسود الدؤلي: ما كنت تصنع لو جعلك أبو تراب حكما؟ فقال: كنت أجمع ألف رجل من المهاجرين وأولادهم، وألفا من الأنصار وأولادهم. ثم أقول: يا معشر الحاضرين، أيما أحق بالخلافة رجل من المهاجرين أم رجل من الطلقاء؟ فلما سمع منه معاوية لعنه وطرده من مجلسه.

صحيح أن هذا الرأي أغضب الحاكم. لكنه فيه إنصاف، وإدخال المهاجرين والأنصار طرفا في القضية فيه روح الشورى وبعد النظر، أما أن تترك الساحة للثعالب ويلتمس لهم الأعذار فيما بعد. فهذا – في رأينا – لا يجانبه الصواب.

وقبل أن نلقي الضوء على أحداث ما بعد التحكيم، علينا أن ننظر في الأحداث منذ أن رفعت المصاحف لنرى كيف كانت حركة أمير المؤمنين. ولقد ذكرنا أن الإمام كان يعلم أنه مقتول وأن معاوية سيمتلك ما تحت قدمه من تراب. وعلى الرغم من هذا فإن الإمام ومن معه كانوا يأخذون بأسباب الحياة الكريمة، وكانوا يواجهون الانحراف الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، من أجل أن يتنفس المستقبل الحرية الحقيقية وهو يخطو في اتجاه أهدافه. وحركة أمير المؤمنين في مواجهة هذه الأحداث. كانت حركة الحجة على جيل الصحابة الأوائل. لأن الشذوذ إذا تسرب من أرضية الصحابة إلى المستقبل فلن يكون في هذه الحالة شذوذا، وإنما سيكتسب الشذوذ رداء القداسة وعلى هذا لا يمكن نقده. ثم تعبر الفتن على هذه القواعد في هدوء وسكينة

وعليها علامات التزيين والإغواء. لتدخل إلى عالم الاحتناك والاستسلام. وحركة الإمام بعد عملية رفع المصاحف كانت تدور حول الرفض. ولكن القوم هددوه إذ لم يقبل التحكيم فسيترتب على ذلك أمور. ثم اختار القوم أبو موسى الأشعري، ورفض الإمام هذا الاختيار. ولكنهم أجاروا عليه. هذا كان الإمام حجة على معسكره. وبدخول عمرو بن العاص وكتابة صحيفة الاتفاق بين أهل الشام وأهل العراق كان الإمام حجة على المعسكرين. وبصدور قرارات التحكيم كان الإمام حجة على الأمة. وحجج الإمام على الجميع تستند على حقيقة واحدة هي أصل الحقائق كلها " إحياء ما أحيا القرآن وإماتة ما أمات القرآن "، فعندما خرج للقتال بعد بيعته تحرك على محور هذه الحقيقة. وعندما رفع أهل الشام المصاحف رفض خدعتهم لأنها تستهدف هذه الحقيقة، ووصف رؤوسهم بأنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وعندما جاء عمرو وأبو موسى للاتفاق على التحكيم قال لهما: " فإن لم تحكما بما في كتاب الله فلا حكومة لكما ". لقد كان يأخذ الجميع إلى ساحة القرآن ويضع في أعناقهم أعظم حجة منذ ذرأ الله ذرية آدم. وهذا في رأينا أعظم انتصار لإمام المتقين. قد يكون خصومه قد بسطوا أيديهم على التراب. ولكن وبالتأكيد لن يروا لهذا التراب أي فائدة. يوم يقف التابع والمتبوع أمام عظمة الله جل وعلا.

وبعد التحكيم الذي كان الإمام يعلم نتيجته، وذلك وفقا لإخبار النبي صلى الله عليه وسلم. بدأ الإمام يحث الناس على القتال. لم يحثهم على قتال الحكمين، وإنما على قتال البغاة، فالحكمين سقط حكمهما عند الإمام بمجرد إعلانه لأنه اشترط. إذا لم يحكما بكتاب الله فلا حكومة. لقد حث الجميع على قتال القاسطين بعد أن تمت مهمته في إقامة حجته على أفراد بعينهم وأقوام بعينهم. كان له رغبة في أن يلتقي بهم أمام الله وحده. وعندما ساق الله إليه الأحداث والتقى بهم، وضعهم في دائرة القرآن وحده هو الحكم فيها. ثم جلس بعد ذلك ينادي معسكره كي يأخذ بالأسباب كما أخذ بها عمار وابن صوحان وابن بديل وابن عامر القرني وغيرهم. وكان يحذر إلا أن أخوف الفتن عليكم فتنة بني أمية. كان يريد منهم أن يطفئوا بريقها، ولكن تقاعس منهم من

تقاعس، وفي جميع الحالات فالحجة على رأس هذا وذاك.
٢ - قتال المارقين:
روي أنه لما بلغ عليا ما كان من أمر أبي موسى وعمرو قال: إني كنت تقدمت إليكم في هذا الحكومة ونهيتكم عنها، فأبيتم إلا عصياني، فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم علي؟ والله إني لأعرف من حملكم على خلافي، والترك لأمري، ولو أشاء أخذه لفعلت، ولكن الله من ورائه (١)، وكنت فيما أمرت به كما قال أخو بني جشم (٢).
أمرتهم أمري بمتعرج اللوى (٣) * فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
من دعا إلى هذه الحكومة فاقتلوه قتله الله، ولو كان تحت عمامتي هذه.
إلا أن هذين الرجلين الخاطئين اللذين اخترتموهما حكمين قد تركا حكم الله، وحكما بهوى أنفسهما بغير حجة ولا حق معروف، فأماتا ما أحيا القرآن وأحيا ما أماته، واختلف في حكمهما كلامهما، ولم يرشدهما الله ولم يوفقهما، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين. فتأهبوا للجهاد، واستعدوا للمسير، وأصبحوا في عساكركم إن شاء الله تعالى (٤).
ثم كتب أمير المؤمنين إلى الخوارج الذين اعتزلوه: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى زيد بن حصين وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس، أما بعد: فإن هذين الرجلين اللذين ارتغبنا حكمهما قد خالفا كتاب الله واتبعا أهواءهما بغير هدى من الله، فلم يعملا بالسنة ولم ينفذا للقرآن حكما، فبرئ الله ورسوله منهما والمؤمنون، فإذا بلغكم كتابي هذا، فاقبلوا فإنا سائرون إلى عدونا

---

(١) قال المسعودي: يريد بذلك الأشعث بن قيس والله أعلم.
(٢) عند أبي الحديد، " أخو هوزان " ٤١١ / ١.
(٣) اللوى / ما النوى من الرمل.
(٤) مروج الذهب ٤٤٦ / ٢، ورواه باختصار: الكامل ١٧١ / ٣، البداية والنهاية ٢٨٧ / ٧، ابن أبي الحديد ٤٥٤ / ١، الطبري ٤٣ / ٦، الأغاني ٩ / ٥.

وعدوكم، ونحن على الأمر الأول الذي كنا عليه والسلام (١).
فكتبوا إليه: أما بعد فإنك لم تغضب لربك، إنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نابذناك على سواء، إن الله لا يحب الخائنين (٢)، وهكذا خاطب أتباع الشيطان أمير المؤمنين. لقد رموا إمام المتقين (٣) بالكفر. وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أنهم لا يعلمون من الإسلام إلا اسمه، وتحت هذا الاسم ساروا وراء أمير المؤمنين، ليأكلوا باسم الشعار، وعندما رفع أهل الشام المصاحف وجدوا أنفسهم في الشعار وليس في الشعور، وطالبوا الإمام بوقف القتال. وعندما انتهى القتال بطلب التحكيم راح الذين يقرؤون القرآن ولا يجاوز تراقيهم يوزعون الأخطاء. وها هم يرمون أمير المؤمنين بالكفر، وعندما نقول بأنهم أتباع الشيطان فإن هذا القول حق، لأن أمير عسكرهم كان عبد الله بن وهب الراسبي، وهو المعروف لهم اسما ونسبا، أما الأستاذ الذي يغذيهم بالعلوم فهو شيطان الردهة. وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم في حياته بقتله عندما شاهده أبو بكر، وقد ذهب كل من أبي بكر وعمر ليقتلاه ولكن خشوعه غرهما فلم يقتلاه، فأمر النبي صلى الله عليه وآله عليا أن يقتله وعندما ذهب علي لم يجد هذا الشيطان. وأخبر النبي صلى الله عليه وآله عليا بأنه سيقتله عند قتال المارقين. ولقد تحدثنا عن ذو الثدية وأمر النبي بقتله من قبل.
وأمير المؤمنين حاول بكل جهده أن يفصل الاتباع عن سيدهم، فكاتبهم وبعث إليهم بعبد الله بن عباس ثم ذهب إليهم بنفسه كي يعودوا إلى الحق، ولكنهم أبوا إلا الركون لما تلقيه الشياطين. وبعد أن يأس منهم تركهم، وكتب إلى أمراء الأنصار بالاستعداد لقتال أهل الشام. ومما جاء في كتابه إليهم: أما بعد، فإن من ترك الجهاد في الله وأدهن في أمره، كان على شفا هلكة إلا أن

---

(١) الطبري ٤٤ / ٦، الكامل ١٧١ / ٣.
(٢) الطبري ٤٤ / ٦، الكامل ١٧١ / ٣، البداية والنهاية ٢٨٧ / ٧.
(٣) الطبري ٤٨ / ٦، الكامل ١٧١ / ٣.

يتداركه الله بنعمة، فاتقوا الله وقاتلوا من حاد الله وحاول أن يطفئ نور الله. قاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين المجرمين، الذين ليسوا بقراء للقرآن، ولا فقهاء في الدين، ولا علماء في التأويل، ولا لهذا الأمر بأهل في سابقة الإسلام، والله لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل، تيسروا وتهيئوا للمسير إلى عدوكم (١).

وما أن بدأ الحشد لمواجهة أهل الشام، حتى بدأت قوات الخوارج تتحرك في الداخل وتثير المتاعب في العديد من المناطق. وكأن بينهم وبين أهل الشام عقد غير منظور يقضي بتشتيت قوات أمير المؤمنين. وهناك أدلة على ذلك تستشف من سير الحوادث، ونتيجة للعمليات التخريبية للخوارج قال الناس في معسكر أمير المؤمنين: لو سار بنا أمير المؤمنين إلى هذه الحرورية فبدأنا بهم ثم نسير بعد ذلك إلى الشام. وعندما علم أمير المؤمنين بما يقوله الناس خطب وحرضهم على الجهاد وقال: سيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار قدما، فإنهم سعوا في إطفاء نور الله، وحرضوا على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه. ألا إن رسول الله أمرني بقتال القاسطين، وهم هؤلاء الذين سرنا إليهم، والناكثين وهم هؤلاء الذين فرغنا منهم، والمارقين ولم نلقهم بعد. فسيروا إلى القاسطين، فهم أهم علينا من الخوارج. سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين يتخذهم الناس أربابا، ويتخذون عباد الله خولا ومالهم دولا (٢).

وفي الوقت الذي يحرض فيه أمير المؤمنين أتباعه على القتال، كان الخوارج قد اجتمعوا في أربعة آلاف وبايعوا عبد الله بن وهب الراسبي، وتحركوا حتى نزلوا المدائن، وجاؤوا بعبد الله بن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وعامل علي عليها، وضربوا عنقه وبقروا بطن امرأته وكانت حاملا. وقتلوا

---

(١) الطبري ٤٤ / ٦.

(٢) مروج الذهب ٤٤٩ / ٢، الكامل ١٧٤ / ٣.

غيرها من النساء (١)، وعندما علم أمير المؤمنين بأخبار هذه المجزرة، بعث إليهم بالحارث بن مرة العبدي ليتحقق من صحة هذه الأخبار. وما أن وصل الحارث إليهم حتى قتلوه، وأتى الخبر أمير المؤمنين والناس، فقام إليه الناس وقالوا: يا أمير المؤمنين. علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا. سر بنا إلى القوم فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام (٢). ونادى مناد أمير المؤمنين بالذهاب إلى قتال الخوارج.

ويبدو أن هناك إذاعة أخذت على عاتقها زعزعت النفوس من قتال الخوارج، على اعتبار أنهم قراء ويصلون ويصومون. وهذه الإذاعة وصلت حتى المدينة المنورة فعن أبي سعيد الرقاشي قال: دخلت على عائشة فقالت: ما بال أبي الحسن يقتل أصحابه القراء (٣)، وعن أبي كثير قال: كنت مع سيدي علي بن أبي طالب حتى قتل أهل النهروان. فكأن الناس وجدوا في أنفسهم من قتلهم (٤). فهذا وغيره يدل على أن هناك إذاعة كانت تخذل الناس عن قتال الخوارج. وبعد القتال وعندما أعلنت إذاعة أمير المؤمنين أن عليا قتل ذو الثدية أو شيطان الردهة. بدأت أم المؤمنين عائشة تحدث بأحاديث النبي صلى الله عليه وآله فيما يختص بفضل العصابة التي تقتل شيطان الردهة. كما بدأ الذين وجدوا في أنفسهم من قتلهم يستبشروا ويذهب عنهم ما كانوا يجدون.

وروي أن أمير المؤمنين علي عندما تحرك بقواته في اتجاه الخوارج كان يسير بجانبه جندب الأزدي فقال أمير المؤمنين: يا جندب. أترى تلك الرابية؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فقال: فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرني أنهم يقتلون عندها (٥)، وكان طليق بن علي اليمامي يقول: قال النبي

---

(١) الطبري ٤٦ / ٦، مروج الذهب ٤٤٩ / ٢، الكامل ١٧٤ / ٣.
(٢) الطبري ٤٧ / ٢، الكامل ١٧٤ / ٣.
(٣) رواه ابن أبي عاصم (كتاب السنة ٥٩٩ / ٢).
(٤) رواه الإمام أحمد والحميدي والعدني (كنز العمال ٢٢٩ / ١١).
(٥) رواه ابن عساكر (كنز العمال ٣٠٢ / ١١).

صلى الله عليه وسلم: يوشك أن يجئ قوم يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، طوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه، أما إنهم سيخرجون بأرض قومك يا يمامي يقاتلون بين الأنهار، قال قلت: بأبي أنت وأمي ما بها أنهار قال: إنها ستكون (١).

وهكذا أخبر النبي صلى الله عليه وآله بهذه الأنماط البشرية. أخبر بمجيئهم وقتالهم بين الأنهار في وقت لم يكن هناك وجود للأنهار، ثم دل علي بن أبي طالب على رابية في هذه الأرض وأخبره بأنهم عندها يقتلون. إنه الإخبار بالغيب عن الله، الإخبار بخطوات الشيطان قبل أن تظهر آثارها على الأرض. إن الإخبار بالغيب حصار للشيطان وانتصار للإنسان، ولكن أكثر الناس لا يعقلون. وروي أن أمير المؤمنين عندما أتى أهل النهروان وقف عليهم فقال: أيتها العصابة التي أخرجها عداوة المراء واللجاجة، وصدها عن الحق والهوى، وطمح بها النزق، وأصبحت في اللبس والخطب العظيم. إني نذير لكم أن تصبحوا تلفيكم الأمة غدا صرعى بأثناء هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط، بغير بنية من ربكم ولا برهان بين. ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة، وأخبرتكم أن طلب القوم إياها منكم دهن ومكيدة لكم، ونبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وإني أعرف بهم منكم، عرفتهم أطفالا ورجالا، فهم أهل المكر والغدر، وإنكم إن فارقتم رأيي جانبتم الحزم فعصيتموني حتى إذا أقررت بأن حكمت، فلما فعلت شرطت واستوثقت فأخذت على الحكمين إن يحييا ما أحيا القرآن وأن يميتا ما أمات القرآن، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة. فنبذنا أمرهما ونحن على أمرنا الأول. فما الذي بكم ومن أين أتيتم؟ قالوا: إننا حكمنا فلما حكمنا أثمنا وكنا بذلك كافرين، وقد تبنا فإن تبت كما تبنا فنحن معك. وإن أبيت فاعتزلنا فإنا منابذوك على سواء إن الله لا يحب الخائنين.

فقال أمير المؤمنين: أصابكم حاصب ولا بقي منكم وابر. أبعد إيماني برسول الله صلى الله عليه وسلم وهجرتي معه وجهادي في سبيل الله. أشهد

---

(١) رواه الطبراني (كنز العمال ٢٠٨ / ١١).

على نفسي بالكفر. لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين. ثم انصرف عنهم (١). واصطف الفريقان، ورفع أبو أيوب الأنصاري راية الأمان ونادى: من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن. ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن. وعندما سمعوا النداء انصرف بعضهم إلى الكوفة والبعض الآخر إلى الدسكرة وخرج منهم إلى علي نحو من مائة (٢). وأمر علي بأن يكفوا عنهم حتى يبدؤهم (٣)، ورمى الخوارج بالسهم الأول ونادوا الرواح الرواح إلى الجنة وشدوا على الناس والخيل (٤). وبدأ الخوارج يتساقطون حول الرابية التي أخبر النبي صلى الله عليه وآله بأنهم يقتلون عندها، وقتل قادتهم وعلى رأسهم عبد الله بن وهب الراسبي (٥)، وفي نهاية المعركة خرج علي بن أبي طالب يطلب من أصحابه أن يبحثوا له عن ذي الثدية بين القتلى ووصفه لهم. فقال بعضهم: ما نجده. فقال أمير المؤمنين: والله ما كذبت ولا كذبت اذهبوا فابحثوا عنه، فوجدوه على الوصف الذي وصفه علي (٦)، في حفرة على شاطئ النهر في أربعين أو خمسين قتيلا، فلما استخرج نظر إلى عضده فإذا لحم مجتمع على منكبه كثدي المرأة. له حلمة عليها شعيرات سود، فإذا مدت امتدت حتى تحاذي طول يده الأخرى، ثم تترك فتعود إلى منكبه كثدي المرأة. فلما استخرج قال علي: الله أكبر والله ما كذبت ولا كذبت، أما والله لولا أن تنكلوا عن العمل. لأخبرتكم بما قضى الله على لسان نبيه صلى الله عليه وآله لمن قاتلهم مستبصرا في قتالهم. عارفا للحق الذي نحن

---

(١) الطبري ٤٨ / ٦.
(٢) الطبري ٤٩ / ٦.
(٣) الطبري ٤٩ / ٦.
(٤) الطبري ٤٩ / ٦.
(٥) الطبري ٤٩ / ٦.
(٦) روى مسلم عن أبي سعيد قال: أشهد أن عليا قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتمس فوجد فأتى به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي نعت (صحيح مسلم ١٦٧ / ٧).

عليه. ثم مر أمير المؤمنين على خوارج وهم صرعى وقال: بؤس لكم، لقد ضركم من غركم!! فقال الناس: يا أمير المؤمنين من غرهم؟ قال: الشيطان وأنفس بالسوء إمارة غرتهم بالأماني وزينت لهم المعاصي. ونبأتهم أنهم ظاهرون (١) ثم وقف أمير المؤمنين على ذي الثدية وسأل الناس: من أبوه؟ فجعل الناس يقولون بعد أن اختاروا في اسم أبيه ولم يعرفه أحد منهم: هذا ملك! هذا ملك، فقال علي: ابن من هو؟ فلم يجيبوه، فقال: أما إن خليلي صلى الله عليه وآله أخبرني بثلاثة إخوة من الجن هذا أكبرهم، والثاني له جمع كثير، والثالث فيه ضعف (٢). وفي رواية – قال علي: أيكم يعرف هذا، فقال رجل من القوم هذا حرقوص. أمه ههنا. فأرسل إلى أمه وقال لها: ممن هذا؟ قالت: ما أدري إني كنت في الجاهلية أرعى غنما لي بالربذة، فغشيني شئ كهيئة الظلمة فحملت سنة فولدت هذا (٣).

وعندما طار الخبر إلى الآفاق، قال سعد بن أبي وقاص: قتل علي بن أبي طالب شيطان الرهة (٤). وعن أبي سعيد الرقاشي قال: دخلت على عائشة فقالت: ما بال أبي الحسن يقتل أصحابه القراء. قال قلت: يا أم المؤمنين إنا وجدنا في القتلى ذا الثدية. فشهقت أو تنفست ثم قالت: كاتم الشهادة مع شاهد الزور. سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يقتل هذه العصابة خير أمتي (٥) – وفي رواية – هم شرار أمتي يقتلهم خيار أمتي (٦) – وفي رواية – هم شر الخلق والخليقة يقتلهم خير الخلق والخليقة (٧).

من هذا كله رأينا أن اتباع الشعار الذي لا شعور فيه، الذين يأكلون الدين

---

(١) الطبري ٥٠ / ٦، مروج الذهب ٤٥٢ / ٢.
(٢) رواه الإمام أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الفتح الرباني ١٥٦ / ٢٣).
(٣) أخرجه أبو يعلى (الخصائص الكبرى ٢٥٠ / ٢).
(٤) البداية والنهاية ٢٩٨ / ٧.
(٥) رواه ابن أبي عاصم (كتاب السنة ٥٩٩ / ٢.
(٦) رواه البزار (فتح الباري ٢٨٦ / ١٢).
(٧) رواه الطبراني (فتح الباري ٢٨٦ / ١٢).

بالدين، ويقرؤون القرآن وتقف تلاوتهم عند أنيابهم ولا تعلم قلوبهم عنها شيئا. فهؤلاء اصطفوا وراء شيطان من شياطين الجن. وأنفس أمارة بالسوء تمنطق أصحابها بجلود آدمية. ولقد روى الإمام مسلم: إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب فيتفرقون، فيقول الرجل منهم: سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدث (١). وروى ابن عساكر: سيكون بعدي أئمة لا يهتدون بهديي ولا يستنون بسنتي، وسيقوم رجال قلوبهم قلوب شياطين في جثمان إنس " (٢).

إن أتباع اللا شعور واللا دعوة عبدوا كل شئ حتى ذواتهم. فاهتموا بصورهم واشتغلوا بها ولم يفقهوا قول النبي صلى الله عليه وآله: " إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم " (٣). ولقد استهدف الشيطان قلوبهم حتى أنهم لم يجدوا حرجا في تكفير أمير المؤمنين الذي هو من النبي بمنزلة هارون من موسى إلى النبوة، ولم يترك الشيطان لهم إلا ما على جلودهم وهي المساحة التي لا ينظر الله إليها.

وهذا الصنف من الناس لم يستأصل في موقعة النهروان، وإنما توجد لهم بصمات على امتداد التاريخ روي أنه لما قتل الخوارج قيل لأمير المؤمنين: هلك القوم بأجمعهم، فقال: كلا والله إنهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء، كلما نجم منهم قرن قطع، حتى يكون آخرهم لصوصا سلابين. وروي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: " لا يزالوا يخرجون حتى يخرج آخرهم من الدجال " (٤)، وهكذا استقر بهم المطاف. لقد التقطهم الدجال أعظم الفتن منذ ذرأ الله ذرية آدم، وهذا عدل الله. إنهم رفضوا أمير المؤمنين عند المقدمة. فرفضهم الطهر عند الخاتمة. لأنهم رجس لا ينبغي أن يناموا إلا عند دجال ليزيدهم الله رجسا

---

(١) رواه مسلم (صحيح ٩ / ١).
(٢) رواه ابن عساكر (كنز العمال ٢٢٣ / ١١).
(٣) رواه مسلم (كشف الخفاء ٢٨٢ / ١).
(٤) رواه أحمد ورجاله ثقات (الزوائد ٢٩٩ / ٦).

على رجسهم.
وبعد أن فرغ أمير المؤمنين من قتال الخوارج، خطب في الناس وحثهم على العمل ليلتحم الشعار بالشعور. وروي أنه صعد المنبر بعد فراغه من النهروان، فحمد الله، وخنقته العبرة فبكى حتى اخضلت لحيته بدموعه وجرت، ثم نفض لحيته فوغ رشاشها على ناس من أناس، فكانوا يقولون: إن من أصابه من دموعه فقد حرمه الله النار، ثم قال: يا أيها الناس. لا تكونوا ممن يرجوا الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة بطول أمل، يقول في الدنيا قول الزاهدين، ويعمل فيها عمل الراغبين، إن أعطي منها لم يشبع، وإن منع منها لم يقنع، يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، ويأمر ولا يأتي، وينهى ولا ينتهي، ويحب الصالحين ولا يعمل بأعمالهم، ويبغض الظالمين وهو منهم. تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن، إن استغنى فتن، وإن مرض حزن، وإن افتقر قنط ودهن، فهو بين الذنب والنعمة يرتع، يعافى فلا يشكر، ويبتلي فلا يصبر. كأن المحذر من الموت سواه، وكأن من وعد وزجر غيره يا أغراض المنايا، يا رهائن الموت، يا وعاء الأسقام، يا نهبة الأيام، ويا ثقل الدهر، ويا فاكهة الزمان، ويا نور الحدثان، ويا خرس عند الحجج، ويا من غمرته الفتن وحيل بينه وبين معرفة العبر بحق، أقول: ما نجا من نجا إلا بمعرفة نفسه، وما هلك من هلك إلا من تحت يده. قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا) جعلنا الله وإياكم ممن سمع الوعظ فقبل، ودعى إلى العمل فعمل (١).

٣ - التخاذل:

بعد فراغ أمير المؤمنين من أهل النهروان كانت قواته متماسكة، حيث إنه لم يقتل من أصحابه إلا سبعة، وكان النبي صلى الله عليه وآله قد أخبره بعدد القتلى من قواته وقوات أهل النهروان. وقد أخبر أمير المؤمنين قواته بهذا قبل

---

(١) ابن النجار (كنز العمال ٢٠٦ / ١٦).

المعركة. وبعد المعركة، ونظرا لأن القوات متماسكة، تحدث أمير المؤمنين في معسكره وقال: إن الله قد أحسن بكم وأعز نصركم، فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم. فقالوا: يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا، وكلت سيوفنا، ونصلت أسنة رماحنا، وعاد أكثرها قصدا. فأرجع إلى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا. ولعلك تزيد في عدتنا عدة من هلك منا، فإنه أوفى لنا علي عدونا (١).

فسمع أمير المؤمنين منهم وأقبل حتى نزل النخيلة، ثم أمر الناس أن يلزموا عسكرهم، ويوطنوا على الجهاد أنفسهم، وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عدوهم. فأقام الناس في معسكرهم أياما، وكان أمير المؤمنين يجهز للمعركة في هذه الأيام، ولكن الحال لم يدم على هذا طويلا، فالناس بدؤوا يتسللون من معسكرهم حتى خلا المعسكر. وعندما رأى أمير المؤمنين ذلك، دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه في المسير (٢). وخطب في الناس تلك الخطبة التي بكر فيها وهو يحثهم على العمل ليلتقي الشعار بالشعور، ثم خطب فيهم مرة أخرى فقال: أيها الناس استعدوا للمسير إلى عدو في جهاده القربة إلى الله ودرك الوسيلة عنده، حيارى في الحق جفاة عن الكتاب، نكب عن الدين يعمهون في الطغيان، ويعكسون في غمرة الضلال، فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيلا، وكفى بالله نصيرا (٣).

ولكن القوم لم ينفروا فتركهم أمير المؤمنين أياما، حتى إذا آيس من أن يفعلوا دعا رؤساءهم ليسألهم عن رأيهم. فقام فيهم خطيبا فقال: عباد الله ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا اثاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، وبالذل والهوان من العز، أو كلما ندبتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من

---

(١) الطبري ٥١ / ٦.
(٢) الطبري ٥١ / ٦.
(٣) الطبري ٥٢ / ٦.

الموت في سكرة، وكأن قلوبكم مألوسة فأنتم لا تعقلون، وكأن أبصاركم كمة فأنتم لا تبصرون. لله أنتم، ما أنتم إلا أسود الشرى في الدعة، وثعالب رواغة حين تدعون إلى البأس. ما أنتم لي بثقة سجيس الليالي، ما أنتم بركب يصال بكم ولأذى عز يعتصم إليه. لعمر الله بئس حشاش الحرب أنتم. أنكم تكادون ولا تكيدون، وينتقص أطرافكم ولا تتحاشون، ولا ينام عنكم وأنتم في غفلة ساهون. إن أخا الحرب اليقظان ذو عقل وبات لذل من وادع وغلب المتجادلون، والمغلوب مقهور ومسلوب. ثم قال أمير المؤمنين: أما بعد، فإن لي عليكم حقا، وإن لكم علي حقا، فأما حقكم علي فالنصيحة لكم ما صحبتكم، وتوقير فيئكم عليكم وتعليمكم فيما لا تجهلون وتأديبكم كي تعلموا، وأما حقي عليكم، فالوفاء بالبيعة، والنصح لي في الغيب والمشهد، والإجابة حين أدعوكم، الطاعة حين آمركم. فإن يرد الله بكم خيرا انتزعوا عما أكره، وتراجعوا إلى ما أحب، تنالوا ما تطلبون وتدركوا ما تأملون (١).

إن الخذلان شذوذ قديم ضرب بجذوره في أعماق الأرض، والشيطان في حركته لا يحب شيئا متماسكا. فإذا كان لا بد من التماسك فيجب أن يكون وفقا لبرنامجه. والشيطان عندما يقوم بتفكيك جسد ما فإن أدواته لا بد وأن تكون من صنع البيئة التي يريد أن يفكك جسدها. وأمير المؤمنين وجه إليهم الدعوة، كي يواجهوا حركات التفتيت والتفكيك التي يذيع دعاتها أنهم على قلب رجل واحد ويتوجهون نحو هدف واحد، ولكن القوم تلقوا دعوة الإمام، وهم بين المعتل أو المكره، وقيل منهم من نشط، وفيما بعد جاء التثاقل إلى الأرض بجميع أمراضه، لأن التثاقل فراش ممهد تتحرك فيه أجهزة ومؤسسات الصد بكل سهولة ويسر، فالمتثاقل لا يرد إلا الحياة الدنيا، والشيطان له أساليبه في مخاطبته في هذا الباب. وشاء الله تعالى أن من يتثاقل عن نصرة الحق، خوفا من الموت أو غيره أو طمعا في مال أو غيره، أن يجعله ينفر ويهب عند سماعه بوقا للشيطان، فينتظم في جيشه، ويصطف في خيله ورجله، ويزين له الشيطان هناك أن قتاله

---

(١) الطبري ٥٢ / ٦.

قتال حق، وأن المال الذي اكتسبه بمخالبه حلال، وأن حركته في الحياة هي الحركة الصحيحة. فجيش الشيطان لا ينتظم فيه مخلوقات من الكواكب الأخرى، وإنما ينتظم فيه الذين يحملون بين ضلوعهم قلوبا ليست قلوب إنس، ويسيرون نحو أهداف ترفضها الفطرة. ويرفعون أعلام يعتمد مضمونها على الزينة من أجل إغواء الناس ثم السير بهم في طريق التلجيم والاحتناك.

لقد كان الإمام يحذر من التثاقل إلى الأرض، ويدعو الناس كي يأخذوا بالأسباب نحو الحياة الكريمة، وهو خير دليل على ذلك. فهو قد أخبركم بأنه مقتول، والمقتول هو الذي يدعو للقتال. ولكن ذهب نداء الإمام في عالم. وكأنه عالم السكون، حيث لا ومض ولا نبض ولا صوت إلا من رحم الله، ويقابل هذا العالم عالم آخر يتحرك بالذهب والفضة والتمر، إنه عالم معاوية. ومعاوية لم يكن بعيدا عن الساحة بعد التحكيم، فلقد أصبح له حضور بعد أن سلم عليه ابن العاص بالخلافة. كانت له عيون في كل مكان، وكان يتابع حركة جيش العراق قبل النهروان وبعدها، لأنه كان على يقين أن عليا لن يتركه وسيأخذ بجميع الأسباب لكي يدمر قشرته. وتدمير القشرة يعني أن الأيام به لن تطول، وهو يريد المزيد والمزيد، لهذا تحرك معاوية في جميع الجبهات، وكانت مقدمته في كل جبهة الذهب والفضة.

وروي أن قوما من المدينة لحقوا بمعاوية. فكتب سهل بن حنيف الأنصاري (١) إلى أمير المؤمنين بذلك، فرد عليه أمير المؤمنين بخطاب جاء فيه: أما بعد. فقد بلغني أن رجالا ممن قبلك يتسللون إلى معاوية، فلا تأسف (٢) على ما يفوتك من عددهم، ويذهب عنك من مددهم. فكفى لهم غيا (٣) ولك منهم شافيا (٤) فرارهم من الهدى والحق،

---

(١) كان عاملا لعلي على المدينة.
(٢) أي لا تحزن.
(٣) الغي / الضلال.
(٤) أي يكفيك في الانتقام منهم وشفاء النفس من عقوبتهم أنهم يتسللون إلى معاوية.

وإيضاعهم (١) إلى العمى والجهل. فإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها، ومهطعون (٢) إليها. قد عرفوا العدل ورأوه، وسمعوه ووعوه. وعلموا أن الناس عندنا في الحق أسوة، فهربوا إلى الآثرة (٣). فبعدا وسحقا (٤). إنهم والله لم يفروا من جور، ولم يلحقوا بعدل. وإنا لنطمع في هذا الأمر أن يذلل الله لنا صعبه، ويسهل لنا حزنه، إن شاء الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (٥).

وروي أنه لما رأت طائفة من أصحابه ما يفعله معاوية من بذل الأموال لأصحابه والمنقطعين إليه، وتفضيل بعضهم على بعض في العطاء قالوا: يا أمير المؤمنين. إن عامة الناس أصحاب دنيا لها يسعون وفيها يكدحون، فلو أعطيت من هذا المال، وفضلت الأشراف من العرب وقريشا على الموالي، ومن تخاف خلافه وفراقه، حتى إذا استتب لك ما تريد عدت إلى أحسن ما كنت عليه من العدل في الرعية والقسم بالسوية. فقال الإمام: أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟ والله لا اطور به (٦) ما سمر سمير (٧)، وما أم نجم في السماء نجما (٨). ولو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما لمال مال الله؟ ثم. قال: ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف. وهو يرفع صاحبه في الدنيا، ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الناس، ويهينه عند الله... " (٩).

إن المقتول لا يجامل أحدا، المقتول حجة ومهمته هي مهمة الحجة، قال فيه النبي صلى الله عليه وآله: " من أحب عليا فقد أحبني. ومن أحبني فقد

---

(١) الايضاع / الاسراع.
(٢) مهطعون / مسرعون أيضا.
(٣) الآثرة / الاستئثار.
(٤) فبعدا وسحقا / دعاء عليهم بالبعد والهلاك.
(٥) ابن أبي الحديد ٢٣٤ / ٥.
(٦) ولا أطور به / لا أقربه.
(٧) ما سمر سمير / أي ما أقام الدهر وما بقي.
(٨) ما أم نجم في السما نجم / أي قصد وتقدم لأن النجوم تتبع بعضها بعضا.
(٩) ابن أبي الحديد ٣ / ٣.

أحب الله. ومن أبغض عليا فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله " (١)، وقال صلى الله عليه وآله: " يا علي من فارقني فارق الله ومن فارقك يا علي فارقني " (٢). وقال النبي صلى الله عليه وآله: " إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك " (٣). وقال صلى الله عليه وآله: " من آذى عليا فقد آذاني " (٤).

فهذه الأحاديث الصحيحة وغيرها، تبين أن الإمام له مهمة واحدة، هي سوق الناس إلى صراط الله وفقا لمنهج الفطرة الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم. وهذه المهمة لا يشوبها تخاذل الناس عنه، فمن أراد أن يصطف وراء يعسوب المؤمنين فليصطف ومن أراد أن يبحث عن مكان له وراء يعسوب المال فليذهب. وكل طريق له أسبابه. والموعد الذي سيلتقي فيه الجميع (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا * ذلك اليوم الحق، فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا) (٥).

ولم يترك الإمام بابا يحث الناس فيه على القتال إلا طرقه وحدثهم منه، لقد خوفهم من فتنة بني أمية. فقال: ألا وإن أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية، فإنها عمياء مظلمة، عمت خطتها، وخصت بليتها. وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمي عنها. وأيم الله لتجدن بني أمية لكم أرباب سوء بعدي كالناب الضروس، تعدم بغيها. وتخبط بيدها، وتزين برجلها، وتمنع درها، لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعا لهم، أو غير ضار بهم، ولا يزال بلاؤهم عنكم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربه،

---

(١) رواه الطبراني وقال الهيثمي إسناده حسن (الزوائد ١٣٢ / ٩) وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وقال حديث صحيح (الصحيحة ٢٩٨ / ٥).

(٢) رواه البزار (كشف الأستار ٢٠١ / ٣) وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٣٥ / ٩) ورواه الحاكم وصححه (المستدرك ١٢١ / ٣).

(٣) رواه الطبراني وقال الهيثمي إسناده حسن (الزوائد ٢٠٣ / ٩).

(٤) رواه أحمد وقال الهيثمي رجال أحمد ثقات (الزوائد ١٢٩ / ٩) ورواه الحاكم وصححه (المستدرك ١٢٢ / ٣) ورواه البزار بسند صحيح (كشف الأستار ٢٠٠ / ٣).

(٥) سورة النبأ: الآية ٣٨ / ٣٩.

والصاحب من مستصحبه. ترد عليكم فتنتهم شوهاء فحشية، وقطعا جاهلية. ليس فيها منار هدى، ولا علم يرى، نحن أهل البيت منها بمنجاة، ولسنا فيها بدعاة. ثم يفرجها الله عنكم كتفريج الأديم، بمن يسومهم خسفا، ويسوقهم عنفا. ويسقيهم بكأس مصبرة لا يعطيهم إلا السيف. ولا يحلسهم إلا الخوف (١).

لقد خوفهم من مساحة مظلمة وبين لهم أن على رأس هذه المساحة رجل واسع البلعوم. فقال: أما إنه سيظهر عليكم بعدي (٢) رجل رحب البلعوم (٣)، مندحق البطن (٤)، يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه. ولن تقتلوه (٥)، إلا وإنه سيأمركم بسبي والبراءة مني، فأما السب فسبوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة، وأما البراءة فلا تتبرأوا مني، فإني ولدت على الفطرة، وسبقت إلى الإيمان والهجرة.

لقد أخبرتكم بصاحب البطن التي لا تشبع، وأنه سيظهر عليكم لأن أتباعه يسيرون نحو غاية واحدة هي المال وهم لا يختلفون عليها. وأمرهم أن يقتلوه ولن يقتلوه. قال ابن أبي الحديد: إنه لا ينافي بين الأمر بالشئ والإخبار عن أنه لا يقع. كما أخبر الحكيم سبحانه عن أن أبا لهب لا يؤمن وأمره بالإيمان. وكما قال تعالى: (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) (٦)، ثم قال: (ولا يتمنونه أبدا) (٧). وأكثر التكليفات على هذا المنهج (٨). ولقد تحدثنا على امتداد هذا البحث أن الله سبحانه يهدي إلى صراط مستقيم. ويبين العقبات التي عليها

---

(١) ابن أبي الحديد ٦٠٥ / ٢.
(٢) سيظهر / سيغلب.
(٣) رحب البلعوم / واسعه.
(٤) مندحق البطن / بارزها.
(٥) ابن أبي الحديد ٧٧٦ / ١.
(٦) سورة البقرة: الآية ٩٤.
(٧) سورة الجمعة: الآية ٧.
(٨) ابن أبي الحديد ٧٧٧ / ١.

بصمات شيطانية كي يحذر الناس منها، وفي علمه تعالى أن من عباده من سيقف أمام هذه العقبات باختياره، وقد بهرته زينتها.
وأخبرهم أنه واسع البلعوم سيدعو إلى سبه والبراءة منه، فأباح أمير المؤمنين لهم سبه، لأن الله تعالى قد أباح عند الاكراه التلفظ بكلمة الكفر. أما البراءة فأخبرهم بأنه لا يجوز التبري منه، لأنه منذ ولد لم يواقع قبيحا، ولا كان كافرا طرفة عين قط. ولا مخطئا ولا غالطا في شئ من الأشياء المتعلقة بالدين.
ولقد ثبت أن الذي وجد الدعوة لسب أمير المؤمنين والبراءة منه هو معاوية ابن أبي سفيان، وثبت أيضا أنه المقصود بواسع البلعوم. وذلك لما رواه الإمام مسلم عن ابن عباس. قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهب فادع معاوية. فلما ذهبت فدعوته له فقيل: إنه يأكل، فأخبرته، فقال في الثالثة: " لا أشبع الله بطنه " قال: فما شبع بعدها (١). وروى ابن أبي الحديد عن جلام قال: كنت أحب أن أرى أبا ذر، لأنه رجل من قومي. فالتفت إليه فإذا رجل أسمر ضرب (٢) من الرجال، خفيف العارضين في ظهره خبأ (٣). فأقبل على معاوية وقال: ما أنا بعدو الله ولا لرسوله (٤)، بل أنت وأبوك عدوان لله ولرسوله، أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر، ولقد لعنك رسول الله صلى الله عليه وآله، ودعا عليك مرات ألا تشبع. سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: " إذا ولي الأمة الواسع البلعوم، الذي يأكل ولا يشبع فلتأخذ الأمة حذرها منه "، فقال معاوية: ما أنا ذاك الرجل. قال أبو ذر: بل أنت ذلك الرجل. بل أنت ذلك الرجل، أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله، وسمعته يقول وقد مررت به: " اللهم العنه ولا تشبعه إلا بالتراب " فكتب معاوية إلى عثمان فيه (٥).

---

(١) رواه مسلم وذكره ابن كثير في البداية ١١٩ / ٨.
(٢) الضرب / الخفيف اللحم.
(٣) خبأ / أي أشرف كاهله على ظهره حدبا.
(٤) في سياق الأحداث كان معاوية قد اتهمه بذلك
(٥) ابن أبي الحديد ٩٤ / ٣.

وروى البخاري " إن المؤمن يأكل في معي واحد، وإن الكافر أو المنافق يأكل في سبعة أمعاء " (١)، وروى الإمام قال النبي صلى الله عليه وآله: " إن للمنافقين علامات يعرفون بها، تحيتهم لعنة، وطعامهم نهبة (٢)، وغنيمتهم غلول... (٣) (٤).

ومن أطرف ما قرأت في تفسير، " لا أشبع الله بطنه " ما قاله ابن كثير. قال: وقد انتفع معاوية بهذه الدعوة في دنياه وأخراه، أما في دنياه فإنه لما صار إلى الشام أميرا، كان يأكل في اليوم سبع مرات، يجاء بقصعة فيها لحم كثير وبصل فيأكل فيها، ومن الحلوى والفاكهة شيئا كثيرا. ويقول: الله ما أشبع. وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك!! أما في الآخرة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اللهم إنا بشر فأيما عبد سببته أو جلدته أو دعوت عليه وليس لذلك أهلا فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة (٥)، ولست أدري إذا كان ابن كثير قد اعتبر أن هذا الدعاء: " لا أشبع الله له بطنا "، اعتبره من النعم في الدنيا. فلماذا جعله في الآخرة من السب الذي طلب النبي من ربه أن يجعله كفارة وقربة؟!.

ثم نعود إلى ما كنا نحدث فيه، لقد أخبرهم أمير المؤمنين بمساحة فيها فتن مظلمة، وعلى رأس هذه المساحة رجل واسع البلعوم. وهم كانوا يعرفون وقتئذ من هو، نظرا لأن أبي ذر كان قد كشف غطاءه. فضلا على أن أمير المؤمنين قد أخبرهم في أكثر من موطن بأن معاوية وأهل الشام سيظهرون عليهم، وأن عليهم أن يأخذوا بالأسباب لينظر الله كيف يعملون، ولا يشغلوا أنفسهم بالنتائج لأن لله في خلقه شؤون. وعندما لم يجد الإمام منهم الاستجابة

---

(١) البخاري (الصحيح ٢٩٣ / ٣).
(٢) أي اغتصاب.
(٣) أي سرقه.
(٤) رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٣٢ / ١٩).
(٥) البداية والنهاية ١٢٠ / ٨.

المناسبة قال لهم: أحمد الله على ما قضى من أمر، وقدر من فعل. وعلى ابتلائي بكم أيتها الفرقة التي إذا أمرت لم تطع، وإذا دعوت لم تجب. إن أهملتم (١) خضتم، وإن حوربتم خرتم (٢)، وإن اجتمع أناس على إمام طعنتم، وإن اجئتم إلى شاقة نكصتم (٣). لا أبا لغيركم، ما تنتظرون بنصركم، والجهاد على حقكم، الموت أو الذل لكم (٤). فوالله لئن جاء يومي - وليأتيني - ليفرقن بيني وبينكم، وأنا لصحبتكم قال: وبكم غير كثير.

لله أنتم، أما دين يجمعكم، ولا حمية (٥) تشحذكم، أوليس عجبا أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير معونة ولا عطاء (٦). وأنا أدعوكم - وأنتم تريكة الإسلام وبقية الناس - إلى المعونة أو طائفة من العطاء (٧)، فتتفرقون عني، وتختلفون علي. إنه لا يخرج إليكم من أمري رضا فترضون، ولا سخط فتجتمعون عليه (٨). وإن أحب ما أنا لاق إلى الموت. قد دارستكم الكتاب (٩)، وفاتحتكم الحجاج (١٠)، وعرفتكم ما أنكرتم (١١)، وسوغتكم ما حججتم (١٢)، لو كان الأعمى يلحظ، أو النائم

---

(١) أهملتم / خليتم وتركم.
(٢) خرتم / ضعفتم.
(٣) نكصتم / أحجمتم.
(٤) الموت أو الذل لكم / دعاء عليهم بأن يصيبهم أحد الأمرين.
(٥) الحمية / الآنفة.
(٦) معاوية لم يكن يعطي جنده على وجه المعونة والعطاء وإنما كان يعطي رؤوساء الناس ليستعبدهم بها، ويدعو أولئك السادة أتباعهم فيطيعونهم. فمنهم من يطيعونهم حمية. ولم يكن يصل إلى هؤلاء الأتباع من أموال معاوية قليل أو كثير.
(٧) أمير المؤمنين كان يقسم بين الرؤساء والأتباع على وجه العطاء والرزق.
(٨) والمعنى: أنكم لا تقبلون مما أقول لكم شيئا. سواء كان مما يرضيكم أو مما يسخطكم. بل لا بد لكم من المخالفة والافتراق عنه.
(٩) دراستكم الكتاب / أي درسته عليكم.
(١٠) وفاتحتكم الحجاج / أي حاكمتكم بالمحاجة والمجادلة.
(١١) وعرفتكم ما أنكرتم / بصرنكم ما عمى عنكم.
(١٢) وسوغتكم ما حججتم / أوضحت لكم الأمور الدينية.

يستيقظ (١)، وأقرب بقوم من الجهل بالله قائدهم معاوية ومؤدبهم ابن النابغة (٢).
لقد أخبرهم بأنهم يتثاقلون إلى الأرض وهم تريكة الإسلام وبقية الناس.
وبين لهم ما هم فيه حيث العدل في العطاء، وتلقي العلم النافع من مصادره النقية، وكان من نتيجة ذلك ظهور ما كانت عقولهم وأذهانهم تنفر عنه من الأمور الدينية، وبعد معرفتهم هذا اعتقدوه، وأخبرهم أنه فعل معهم ما يقتضي حصول الاعتقادات الحقيقية. ولكن أفعالهم تدل على أن الهوى والعصبية والإصرار على اللجاج صفحات عليا في ساحتهم.
ومما لا شك فيه أن بذرة التخاذل وضعت عند رفع المصاحف. فبعد قتل عمار بن ياسر تلقى أهل الشام ضربات قوية ليلة الهرير. وكان الأشتر وقواته على أعتاب خيمة معاوية وفي هذا الوقت رفعت المصاحف ودخل التخاذل عن هذا الباب، وبعد ذلك رأينا الذين أضروا على التحكيم هم أنفسهم الذين قاتلوا عليا لسيره في طريق التحكيم، والعجيب إنهم خرجوا بمقولة طالما روج لها معاوية، لقد أجازوا الخلافة لكل العرب ولكل مسلم ولو كان عبدا حبشيا، ما دامت شروط الإمامة متوفرة فيه. باختصار: بعد رفع المصاحف وضع البيض كله في سلة معاوية. فالخوارج وإن كانت جرائمهم الظاهرة هي القتل والتخريب، إلا أن عقيدتهم قبل رفع المصاحف لم تكن بحال هي نفس العقيدة بعد ذلك. وأغلب الظن أنهم عندما خالفوا الإمام وهددوه بالقتل إذا لم يقبل التحكيم وأن ذي الثدية بدأ يعمل في هذا الوقت بالذات. ثم وضع لمساته على اعتقاداتهم بعد ذلك.
لتلتقي هذه اللمسات مع لمسات الذين سيتخذون دين الله دغلا تحت إذاعة واحدة وإعلام واحد، مما ساعد إلى حد كبير في التخاذل عن أمير المؤمنين.
إن علماء الأمة أقروا أحاديث تقول بأن ذي الثدية كان شيطان الردهة، وأقروا أحاديث تذم بني أمية وأنهم ملوك من شر الملوك. وعقيدة الخوارج في

---

(١) أي أني قد فعلت معكم ما يقتضي حصول الاعتقادات الحقيقية في أذهانكم.
(٢) ابن أبي الحديد ٤١٧ / ٣.

الخلافة معروفة، وهي تنسجم إلى حد كبير مع الذين فرقوا دينهم شيعا. لهذا قلنا إن التخاذل وضعت بذرته عند رفع المصاحف، وإن الإمام علم هذا منذ البداية ولهذا أمرهم بالقتال. فلما أبوا عليه بدأ يضع حجته على كل رأس وفي كل خيمة، وعندما تبين الجميع نتيجة الخدعة، دعاهم الإمام إلى أمرة الله، ولكن دعوته واجهت ساحة أوسع من التخاذل، نتيجة لإعلام لم يعد يتحدث عن رفع المصاحف، وإنما يتحدث عن تحكيم أعطى الخلافة لمعاوية، يقابله إعلام الخوارج الذي دق وتدا فيه أن الخلافة لكل العرب.

وبذرة التخاذل عندما وضعت وجدت من يرعاها. وهناك دائرتان خرج منهما الماء لهذه البذرة:

الأولى: أن الله تعالى جعل للشهادة في سبيله مقاييس ومعايير، وجعل الجنة للمؤمنين من عباده، والطريق إلى الجنة يمر بابتلاءات وامتحانات عديدة. وكلما كانت الأجيال قريبة من عهد النبوة كانت الابتلاءات أقوى وأشد. وفي عهد الإمام علي كان الإمام يحدث أتباعه بأن معاوية سيظهر عليهم وأن هذا أمرا لا مرد له. ثم يأمرهم الإمام بعد ذلك بأن يأخذوا بالأسباب لوقف هذه الفتنة التي هي نتيجة لمقدمة أوجدتها. فموقف كهذا لا يحتاج إلا إلى قلب مؤمن يعلم أن الغيب لله وأن الأخذ بالأسباب تكليف إلهي للإنسان. لهذا فلا بد أن يأخذ به، وأن معركته لن تكون بحال معركة خاسرة رغم ظهور عدوه في نهايتها، وأنه قد لا يشهد انتصاره، ولكن بالتأكيد ستأتي أجيال تذكر أعلامه وخطاه. وعلى ذلك قاتل العديد حول الإمام، كانوا يقاتلون بأمر الله عدوا ما زال في علم الله بهدف حماية الفطرة، للوصول إلى غاياتهم العليا بعد الموت، فهنا يكمن الإيمان الحق، إيمان الأحرار لا إيمان التجار.

وفي عهد الإمام علي، كان الاختيار عظيما. فعلى مدى سنتين تقريبا خاض الإمام ثلاث معارك، كان لكل معركة منهم حصيلتها من أحاديث الإخبار بالغيب. وعندما قتل أكثر الصحابة في هذه المعارك أخذ أماكنهم رؤساء القبائل. ومنهم من أبلى وقاتل ابتغاء مرضاة الله، ومنهم من كتب إلى معاوية بعد أن علم أنه سيظهر والتمس عنده الأيادي. وأغلب الظن أن الخوارج خرجوا من بطن

واحد من هؤلاء. وباختصار: اتباع هذه الدائرة هم ضعاف الإيمان، الإيمان عندهم صورة وليس عمل. وجدوا أن المعركة لها تكاليف وهم ليسوا على استعداد لدفع هذه التكاليف. ثم أعد لهم منهجا للحكم يزاحموا به معاوية عندما يظهر، فهم بإيمانهم يكونوا في دائرة الحكم أفضل من وجودهم خارجها.
أما الدائرة الثانية التي ساعدت على التخاذل، فهي دائرة الذهب والفضة والزبيب. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: " علي يعسوب المؤمنين والمال يعسوب المنافقين " (١)، وكان علي يقول: " أنا يعسوب المؤمنين والمال يعسوب الفجرة "، وفي رواية: " والمال يعسوب الظلمة " (٢)، ولقد ذكرنا فيما سبق كيف فر أقوام من المدينة في اتجاه معاوية، وهناك العديد من الأمثلة في تفضيل أكثر الناس للمال في فترة التخاذل. وروي أن عليا قال لرجل: أآثرتم معاوية. فقال: ما آثرناه، ولكنا آثرنا القسب (٣) الأصفر والبر الأحمر والزيت الأخضر.

٤ – غارات معاوية:

بعد التحكيم بدأ معاوية في ترتيب أوراقه، فوضع عينه على مصر، وكان عليها يومئذ محمد بن أبي بكر عاملا لعلي، وكان معاوية يريد مصر ليجرد أمير المؤمنين من خراجها ويستعين به. وعندما علم معاوية أن عليا قد ولي الأشتر على مصر بدلا من محمد بن أبي بكر عظم ذلك عليه، لمعرفته أن الأشتر إن قدمها كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر، ومن هنا بدأ عمل معاوية للالتفاف حول أمير المؤمنين، فبعث إلى رجل من أهل الخراج، وقال له: إن الأشتر قد ولي مصر، فإن أنت كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت فاحتل له بما قدرت عليه. وخرج الرجل حتى أتى القلزم وأقام به، وعندما انتهى الأشتر إلى القلزم

---

(١) رواه ابن عدي (كنز العمال ١٤ / ١١).
(٢) رواه أبو نعيم (كنز العمال ١١٩ / ١٣).
(٣) القسب / التمر اليابس.

استقبله الجايستار، وهو المكلف من قبل معاوية بقتله، وقال للأشتر: هذا منزل وهذا طعام وعلف وأنا رجل من أهل الخراج، فنزل به الأشتر فجاء الرجل إليه بطعام حتى إذا طعم آتاه بشربة من عسل قد جعل فيها سما. فسقاه إياها فلما شربها مات (١).

ولم يخطط معاوية للجريمة فقط بل استثمرها، فقال لأهل الشام: إن عليا وجه الأشتر إلى مصر، فادعوا الله أن يكفيكموه، فكانوا كل يوم يدعون الله على الأشتر. وعندما جاء الذي سقاه إلى معاوية وأخبره بمهلك الأشتر خطب معاوية وقال: أما بعد فإنه كانت لعلي بن أبي طالب يدان يمينان، قطعت إحداهما يوم صفين - يعني عمار بن ياسر - وقطعت الأخرى اليوم - يعني الأشتر (٢). وبعد ذلك بعث معاوية عمرو بن العاص، وكان قد صالحه على أن تكون مصر طعمة له ما بقي، بعثه إلى مصر للاستيلاء عليها. وعندما نزل مصر اجتمعت إليه العثمانية من أهلها، وقاومهم محمد بن أبي بكر بمن معه، ولكن أهل الشام حاصروا قوات محمد بن أبي بكر، وخرج محمد يمشي في الطريق حتى انتهى إلى مكان في ناحية الطريق. وظل معاوية بن خديج يبحث عن ابن أبي بكر حتى وجده، فقال له: لأقتلنك يا ابن أبي بكر، فقال: يا ابن اليهودية النساجة ليس ذلك إليك إنما ذلك إلى الله عز وجل، أما والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم مني هذا. فقال له معاوية بن خديج: أتدري ما أصنع بك. أدخلك في جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار. فقال محمد: إن فعلتم بي ذلك فطال ما فعل ذلك بأولياء الله... فقتله ثم ألقاه في جيفة حمار ثم أحرقه بالنار (٣). وقال المسعودي: فأخذه معاوية بن خديج وعمرو بن العاص وغيرهما فجعلوه في جلد حمار، وأضرموه بالنار، وذلك بموضع في مصر يقال له: كوم شريك. وقيل: إنه فعل به ذلك، وبه شئ من الحياة (٤). وبلغ معاوية قتل محمد وأصحابه،

---

(١) الطبري ٥٤ / ٦، مروج الذهب ٤٥٥ / ٢، الكامل ١٧٨ / ٣، ابن أبي الحديد ٣١٢ / ٢.
(٢) الطبري ٥٥ / ٦، الكامل ١٧٨ / ٣، ابن أبي الحديد ٣١٢ / ٢.
(٣) الطبري ٦٠ / ٦.
(٤) مروج الذهب ٤٥٤ / ٢.

فأظهر الفرح والسرور، وبلغ عليا قتل محمد وسرور معاوية، فقال: جزعنا عليه على قدر سرورهم، فما جزعت على هالك منذ دخلت هذه الحروب جزعي عليه كان لي ربيبا، وكنت أعده ولدا، وكان بي برا، وكان ابن أخي. فعلى مثل هذا نحزن وعند الله نحتسبه (١).

ومع بداية عام تسع وثلاثين هجرية، بدأ معاوية يبعث سرايا لتغير على أطراف أمير المؤمنين، وكذلك كان علي يبعث من يمنع سرايا معاوية من أذية الناس، ومن السرايا التي بعثها معاوية، سرية النعمان بن بشير التي أغارت على عين التمر، وسرية سفيان بن عوف أغارت على هيت والأنبار والمدائن، وحملوا ما كان في الأنبار من الأموال وأموال أهلها ورجعوا إلى معاوية. وسرية عبد الله بن مسعدة أغارت على تيماء، فنهب الأموال وتصدى له أهل تيماء فخرج في أصحابه ليلا إلى الشام، وسرية الضحاك بن قيس أمره معاوية أن يمر بأسفل واقصة وأن يغير على كل من مر به ممن هو في طاعة علي. فسار فأخذ أموال الناس وقتل من لقي من الأعراب (٢).

كانت هذه السرايا مقدمات لسرية بسر بن أرطأة، وبسر كان من الذين بعثهم عمر بن الخطاب مددا لعمرو بن العاص في فتح مصر (٣). قال الدارقطني: بسر له صحبة ولم تكن له استقامة بعد النبي صلى الله عليه وآله، هو الذي قتل طفلين لعبيد الله بن عباس (٤)، وقال يحيى بن معين: بسر رجل سوء. وقال أبو عمر: ذلك لأمور عظام ركبها في الإسلام (٥)، وروي أن معاوية عندما وجه بسر لقتل شيعة علي، قام إليه نفر منهم زياد بن الأشهب الجعدي وقال لمعاوية: يا أمير المؤمنين. نسألك بالله وبالرحم أن لا تجعل لبسر على قيس سلطانا. حتى لا

---

(١) مروج الذهب ٤٥٤ / ٢.
(٢) الطبري ٧٨ / ٦.
(٣) الإستيعاب ١٥٥ / ١.
(٤) الإستيعاب ١٥٦ / ١.
(٥) الإستيعاب ١٥٥ / ١.

يقتل قيسا بما قتلت به بنو سليم من بني فهر وكنانة يوم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة (١)، وروي أن أبا ذر كان يقول: يوم العوراء، وما يوم العوراء. فقيل له: ما يوم العوراء؟ قال: إن نساء من المسلمات يسبين فيكشف عن سوقهن، فأيتهن كانت أعظم ساقا اشتريت على عظم ساقها، وإني دعوت الله أن لا يدركني هذا الزمان ولعلكما تدركانه. قال راوي الحديث: فأرسل معاوية بسر بن أرطأة إلى اليمن فسبى نساء مسلمات فأقمن في السوق (٢)، وقال في الإستيعاب: أغار بسر على همدان وسبي نساءهم فكن أول نساء مسلمات سبين في الإسلام، وقتل أحياء من بني سعد (٣).

وروي أن معاوية بعد تحكيم الحكمين أرسل بسر في جيش، فساروا من الشام حتى قدموا المدينة، ففر منهم أبو أيوب الأنصاري، وصعد بسر منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنادى على المنبر: يا دينار ويا نجار شيخي شيخي عهدي به بالأمس فأين هو - يعني عثمان - ثم قال: يا أهل المدينة والله لولا ما عهد إلى معاوية، ما تركت بها محتلما إلا قتلته. ثم بايع أهل المدينة، وأرسل إلى بني مسلمة فقال: والله ما لكم عندي من أمان ولا مبايعة حتى تأتوني بجابر بن عبد الله، فانطلق جابر إلى أم المؤمنين أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها: ماذا ترين؟ إني خشيت أن أقتل وهذه بيعة ضلالة. قالت: أري أن تبايع. فآتاه جابر فبايعه (٤).

وهدم بسر دور بالمدينة، ثم مضى حتى أتى مكة، فخافه أبو موسى الأشعري أن يقتله، فقال له بسر: ما كنت لأفعل بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك. ثم مضى بسر إلى اليمن وقتل عبد الله بن عبد المدان الحارثي وقتل ابنه. ووجد ابن عبيد الله بن عباس عند رجل من بني كنانة من أهل

---

(١) الإستيعاب ١٥٧ / ١.
(٢) الإستيعاب ١٥٧ / ١.
(٣) الإستيعاب ١٥٧ / ١.
(٤) الطبري ٨٠ / ٦، الكامل ١٩٣ / ٣، البداية والنهاية ٣٢٢ / ٧.

البادية. فلما أراد قتلهما قال الكناني: على ما تقتل هذين ولا ذنب لهما، فإن كنت قاتلهما فاقتلني. قال بسر افعل. فبدأ بالكناني فقتله ثم قتلهما، وقتل بسر في مسيره هذا جماعة كثيرة من شيعة علي باليمن، وبلغ عليا خبر بسر فوجه جارية بن قدامة في ألفين ووهب بن مسعود في ألفين، وهرب بسر وأصحابه (١).
كان هذا هو منهج معاوية في القتال. تجنب ملاقاة على في الميدان، والإغارة وسلب ما يمكن سلبه ثم الارتداد للخلف نحو الشام، وقتل كل من في الطريق، طفلا أو شيخا، وعرض النساء المسلمات في الأسواق، ومن قبل وضع من فيه شئ من حياة في جلد حمار، ثم إشعال النار فيه. كانت هذه سيرته في بداية الطريق، وسنرى فيما بعد كيف كانت سيرته على امتداد الطريق.
وينبغي في هذا المقام أن نذكر تقديم ابن كثير لغارات معاوية، وهو تقديم يجعل الباحث في حيرة. فهو عندما تحدث عن التحكيم قدم الروايات التي أجمعت عليها الأمة وتفيد بأن أبي موسى وعمرو اتفقا على خلع علي ومعاوية. وعندما خلع أبو موسى صاحبه، وجاء الدور على ابن العاص فعل ما فعل، وبرر ابن كثير ما فعله عمرو بأنه رأى أن ترك الناس بلا إمام يؤدي إلى مفسدة طويلة!! (٢)، هذا ما قاله هناك، ثم نراه يقول هنا، وهو يتحدث عن غارات معاوية، إن أبا موسى وعمرا كانا قد اتفقا على خلع علي – ولم يشر إلى معاوية – وأن معاوية تحرك على هذه الخلفية حيث إنه كان يعتقد أنه الإمام الذي يجب طاعته. وإليك ما قاله ابن كثير بنصه: جهز معاوية جيوشا كثيرة فرقها في أطراف معاملات علي. وذلك أن معاوية رأى بعد أن ولاه عمرو بن العاص بعد اتفاقه مع أبي موسى على عزل علي. إن ولايته وقعت الموقع فهو الذي يجب طاعته فيما يعتقد. ولأن جيوش علي من أهل العراق لا تطيعه في كثير من الأمر ولا يأتمرون بأمره، فلا يحصل بمباشرته المقصود من الإمارة والحالة هذه، فهو

---

(١) الطبري ٨١ / ٦، الكامل ١٩٣ / ٣، البداية والنهاية ٣٢٣ / ٧، ابن أبي الحديد ٢٧٣ / ١.
(٢) البداية والنهاية ٢٨٤ / ٧.

يزعم أنه أولى منه إذا كان الأمر كذلك " (١).
إن هذا التحليل يلتبس بعضه على بعض، ولا يقود أي باحث إلى حقيقة.
فلا يوجد نصا واحدا يقول أن عمروا خاف على الأمة ففعل ما فعل، ولا يوجد نصا يقول أنه اتفق على الأشعري على عزل علي وحده. والإسلام لا يقر أن عدم طاعة مصر من الأمصار لأمير المؤمنين ويعطي الحق لمن يطيعه رجاله في مصر آخر بأن تغير على الأطراف ليقتل ويسرق، تحت لافتة أن هذا هو المقصود من الإمارة والحالة هذه. والإسلام لا يقر أيضا أن يقوم الأولى بقتل الأطفال وعرض النساء المسلمات في الأسواق. علما بأن الأمة لم تعط لمعاوية لقب " الأولى " في حياة علي، والخلاصة: أننا نفهم أن بتر النصوص عند الحديث عن أهم الأحداث التاريخية دون توضيح لا يكون مفيدا للباحث في جميع الأحوال.
٥ – ليلة بكى فيها القمر:
روي أن عليا خطب الناس بعد أن تخاذلوا عنه فقال: " أيها الناس إنكم قد أبيتم إلا أن أقولها، ورب السماوات والأرض. أن من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلي: " إن الأمة ستغدر بك بعدي " (٢). لقد أعلنها الإمام واضحة جلية على أسماعهم. إن أفعالهم التي بها يستحقون الثواب والعقاب. الله تعالى أعلم بها من أنفسهم، وأنهم اختبروا لينظر الله كيف يعملون. وأن نتيجة أعمالهم عهد بها النبي صلى الله عليه وسلم إلى علي. وعلى هذا فإن الإمام كان يعلم أن الضربة التي ستأتيه، ستأتيه من طريق غدر طويل. وعلى الرغم من هذا فإنه على امتداد هذا الطريق لم يكن يعبأ بما سيفعله أهل الغدر. وإنما كان يدعو ويصحح الأخطاء فكان بذلك شاهد على جيل الصحابة، وكان السلف بذلك شاهد على الخلف. فالإمام هو الإنسان الوحيد الذي قاتل داخل سور الأمة على تأويل

---

(١) البداية والنهاية ٣٢٠ / ٧.
(٢) ابن أبي الحديد ٨١٣ / ١ والحديث رواه الحاكم والبيهقي بسند صحيح (البداية والنهاية ٢١٨ / ٦، كنز العمال ٢٩٧ / ١١).

القرآن. وبما أن حجية القرآن قائمة على امتداد التاريخ، فإن حجية الأحداث التي تعلقت بالقرآن قائمة أيضا.

وعندما أعلن الإمام أمامهم أن طريق الغدر الذي يقفون عليه، أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم عليا. قال: أما والذي نفسي بيده، ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطلهم. وإبطائكم عن حقي. ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي. استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا. وأسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرا وجهرا فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا، شهود كغياب، وعبيد كأرباب (١). اتلوا عليكم الحكم فتنفرون منها، وأوعظكم بالموعظة البالغة فتتفرقون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغي فما آتي على آخر قولي حتى أراكم متفرقين أيادي سبأ (٢)، ترجعون إلى مجالسكم وتتخادعون عن مواعظكم (٣). أقومكم غدوة، وترجعون إلى عشية كظهر الخية (٤). عجز المقوم وأعضل المقوم (٥). أيها القوم الشاهدة أبدانهم، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة أهواؤهم، المبتلي بهم أمراؤهم، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه، لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلا منهم.

يا أهل الكوفة.. منيت منكم بثلاث واثنتين: صم ذو أسماع، وبكم ذو كلام، وعمي ذو أبصار، لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء، تربت أيديكم (٦) يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها. كلما جمعت من جانب تفرقت من آخر، والله لكأني بكم فيما

---

(١) عبيد كأرباب / يصفهم بالكبر.

(٢) أيادي سبأ / مثل يضرب للمتفرقين.

(٣) تتخادعون عن مواعظكم / أي تمسكون من الاتعاظ والانزجار.

(٤) كظهر الخية / الخية القوس. يريد اعوجاجهم كما أن ظهر القوس معوج.

(٥) أعضل المقوم / أي أعضل داؤه.

(٦) تربت أيديكم / أي لا أصبتم خيرا.

أخاكم (١) ألو حمى الوغى (٢)، وحمى الضراب، قد انفرجتم عن علي بن أبي طالب انفراج المرأة عن قبلها (٣). وإني لعلى بينة من ربي، ومنهاج من نبي، وإني لعلى الطريق الواضح القطه لقطا (٤). (٥).

يقول ابن أبي صالح الحنفي: رأيت علي بن أبي طالب أخذ المصحف، فوضعه على رأسه، حتى إني لأرى ورقة يتقعقع ثم قال: اللهم إنهم منعوني أن أقوم في الأمة بما فيه، فاعطني ثواب ما فيه، اللهم إني قد مللتهم وملوني، وأبغضتهم وأبغضوني، اللهم فأبدلني بهم خيرا منهم، وأبدلهم بي شرا مني. اللهم أمت قلوبهم موت الملح في الماء (٦).

وعندما بلغ أمير المؤمنين غارة معاوية على هيت والأنبار، قال بعد أن تثاقل أهل الكوفة: لا يدرك الحق إلا بالجد والصدق، فأي دار بعد داركم تمنعون، ومع أي إمام بعدي تقاتلون. المغرور من غررتموه، ومن فارقكم فاز بالسهم الأصيب. أصبحت والله لا أصدق قولكم، ولا أطمع في نصركم، فرق الله بيني وبينكم، وأعقبني بكم من هو خيرا لي منكم، وأعقبكم من هو شر لكم مني. أما إنكم ستلقون بعدي ثلاثا: ذلا شاملا، وسيفا قاطعا، وآثره قبيحة يتخذها فيكم الظالمون سنة. فتبكي لذلك أعينكم، ويدخل الفقر بيوتكم، وستذكرون عند ذلك المواطن، فتودون أنكم رأيتموني وهرقتم دماءكم دوني، فلا يبعد الله إلا من ظلم (٧).

---

(١) فما أخالكم / أي فما أظنكم.
(٢) حمى الوغى / اشتد وعظهم. والوغى / الأصوات والجلبة.
(٣) انفراج المرأة عن قبلها / أي وقت الولادة.
(٤) القطه لقطا / أي أنا التقط طريق الهدى من بين طريق الضلال لفظ من هاهنا وهاهنا. كما يسلك الإنسان طريقا دقيقة اكتنفها الشوك.
(٥) ابن أبي الحديد ٦٢٤ / ٢.
(٦) رواه ابن عساكر (كنز العمال ١٩٥ / ١٣) ابن كثير (البداية ١٢ / ٨) المسعودي (مروج الذهب ١٣٩ / ٣).
(٧) ابن عساكر (كنز العمال ٣٥٦ / ١١).

وعندما بلغه أن سرايا معاوية تقتل شيعته ويعرضون النساء المسلمات في الأسواق. خطب الناس فقال: أيها الناس. إني قد بثثت لكم المواعظ (١) التي وعظ بها الأنبياء أممهم، وأديت إليكم ما أدت الأوصياء (٢) إلى من بعدهم، وأدبتكم بسوطي فلم تستقيموا. وحدوتكم (٣) بالزواجر فلم تستوسقوا (٤)، لله أنتم. أتتوقعون إماما غيري يطأ بكم الطريق (٥)، ويرشدكم السبيل؟ ألا إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلا، وأقبل منها ما كان مدبرا. وأزمع الترحال عباد الله الأخيار، وباعوا قليلا من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخرة لا يفنى.

ما ضر إخواننا الذين سفكت دماؤهم بصفين ألا يكونوا اليوم أحياء، يسيغون الغصص، ويشربون الرنق. قد والله لقوا الله فوفاهم أجورهم، وأحلهم دار الأمن بعد خوفهم، أين إخواني الذين ركبوا الطريق، ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم (٦) الذين تعاقدوا على المنية (٧) وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة؟ (٨).

قال راوي الحديث: ثم ضرب عليه السلام بيده على لحيته الشريفة الكريمة. فأطال البكاء، ثم قال: أوه على إخواني الذين قرأوا القرآن فأحكموه، وتدبروا الفرض فأقاموه! أحيوا السنة وأماتوا البدعة. دعوا إلى الجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتبعوه (٩). ثم نادى بأعلى صوته: الجهاد الجهاد عباد الله. ألا

---

(١) بثثت لكم المواعظ / فرقتها ونشرتها.
(٢) الأوصياء / الذين يأتمنهم الأنبياء على الأسرار الإلهية أو الذين لهم الإمرة والولاية.
(٣) حدوتكم / سقتكم كما تحدى الإبل.
(٤) فلم تستوسقوا / أي لم تجتمعوا.
(٥) يطأ بكم الطريق / أي يحملكم على المنهاج الشرعي.
(٦) أين نظراؤهم / يعني الذين قتلوا بصفين من الصحابة.
(٧) وتعاقدوا على المنية / جعلوا بينهم عقدا.
(٨) وابرد برؤوسهم / أي حملت رؤوسهم مع البريد إلى الفسقة للبشارة بها. والفجرة هنا هم أمراء الشام.
(٩) وثقوا بالقائد / يعني نفسه فاتبعوه في حرب من حارب وسلم من سالم.

وإني معسكر في يومي هذا، فمن أراد الرواح إلى الله فليخرج (١). وروي أنه ضرب برجله على المنبر حتى سمع قدمه في آخر المسجد، وقال: والله لتطأون هكذا هكذا. ثم لتستعملن عليكم اليهود والنصارى حتى تنفوا، ثم لا يرغم الله إلا بآنافكم (٢).

لقد أخبرهم أولا بظهور أهل الشام عليهم، ثم أخبرهم ثانيا بأن اليهود والنصارى سيقودوهم إلى عالم النفي أي عالم التردية، حيث تكون مهمتهم تقليد اليهود والنصارى في كل شئ، ثم أخبرهم ثالثا بأنهم سيركبون المرحلة الأخيرة معهم، وهي التي لا يرغم الله إلا بآنافهم، وهذه الأرضية هي أرضية الخنزيرية حيث يطبخون في المادة حتى يأتيهم الدجال.

وروي أن الإمام بعد أن خطبهم خرج بنفسه ماشيا إلى المعسكر. فأدركه بعض الناس، وكان يريد أن يتوجه لقتال أهل الشام. ومن العجيب أنه بعد أن عزم على ضرب أهل الشام جاءته الضربة القاتلة من أشقى الناس عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله، وعندما جاءت الضربة تراجع العساكر فكانوا كأغنام فقدت راعيها، تخطفها الذئاب من كل مكان (٣).

٦ - وغاب القمر:

روي أن النبي صلى الله عليه وآله قال لعلي: ألا أحدثك بأشقى الناس.

رجلين: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه (يعني رأسه) حتى تبتل منه هذه (يعني لحيته) (٤)، وقال له: " إن الأمة ستغدر بك

---

(١) ابن أبي الحديد ٤٣٦ / ٣.

(٢) الدولابي في الكنى والأسماء، ابن أبي شيبة (كنز العمال ٧٨٠ / ٥).

(٣) ابن أبي الحديد ٤٣٧ / ٣.

(٤) رواه أحمد وقال الهيثمي رواه أحمد والبزار ورجاله ثقات (الزوائد ١٣٦ / ٩)، والحاكم والبيهقي بسند صحيح (المستدرك ١٤١ / ٣)، (كنز ١٣٦ / ١٣) (البداية والنهاية ٢١٨ / ٦).

بعدي، وأنت تعيش على ملتي وتقتل على سنتي. من أحبك أحبني، ومن أبغضك أبغضني، وإن هذه ستخضب من هذا (يعني لحيته من رأسه) (١). وروي أن أنسا قال: دخلت مع النبي صلى الله عليه وسلم على علي وهو مريض. وعنده أبو بكر وعمر. فقال أحدهما لصاحبه: ما أراه إلا هالكا. فقال النبي: إنه لن يموت إلا مقتولا. ولن يموت حتى يملأ غيظا (٢).

وروي أن أبا فضالة الأنصاري خرج ليعود علي في مرض أصابه، وأثناء حديثه مع علي قال علي: عهد إلي النبي صلى الله عليه وسلم أن لا أموت حتى تخضب هذه من هذه (يعني لحيته من هامته) (٣). وعن أبي سنان أنه عاد عليا في شكوى اشتكاها، فقال لعلي: لقد تخوفنا عليك في شكواك هذه. فقال: ما تخوفت على نفسي، عهد إلي أن لا أموت حتى تخضب هذه من هذه (٤). وروي أن رجلا من الخوارج يقال له الجعد بن بعجة قال لعلي: اتق الله يا علي فإنك ميت، فقال: بل مقتول، ضربة على هذا تخضب هذه. عهد معهود وقضاء مقضي، وقد خاب من افترى (٥)، وروي أن عليا كان يعرف قاتله وذلك لأن النبي وصفه له وسماه واسم أبيه، وعندما جاء ابن ملجم مع الناس ليبايع عليا قال علي:

أريد حياته ويريد قتلي * عذيرك (٦) من خليلك من مرادي (٧)

---

(١) رواه أحمد وصححه (المستدرك ١٤٢ / ٣) والدارقطني والخطيب (كنز العمال ٦١٧ / ١١).

(٢) قال السيوطي في الخصائص الكبرى رواه الحاكم (الخصائص ٢١٠ / ٢).

(٣) قال ابن كثير رواه الطبراني (البداية والنهاية ٢١٨ / ٦).

(٤) رواه الطبراني وقال الهيثمي إسناده حسن (الزوائد ١٣٧ / ٩) والحاكم وصححه (١١٣ / ٣).

(٥) رواه أحمد (الفتح الرباني ١٦٣ / ٢٣) والطبراني والبغوي والضياء بسند صحيح (كنز العمال ٢٩٧ / ١١) والحاكم (المستدرك ١٤٣ / ٣)، وقال ابن كثير رواه الطيالسي (البداية ٢١٨ / ٦).

(٦) أي هات من يعتذر منك.

(٧) رواه ابن سعد ووكيع (كنز العمال ١٩١ / ١٣).

وكان يقول هذا كلما رآه، وروي أنه لما دخل شهر رمضان، كان يفطر عند الحسن ليلة وعند الحسين ليلة، وليلة عند عبد الله بن جعفر، ولا يزيد على اللقمتين أو ثلاث. فقيل له في ذلك فقال: إنما هي ليال قلائل، يأتي أمر الله وأنا خميص (١). وفي اليوم الذي قتل فيه جاءه ابن النباح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة، فقام يمشي وهو يقول:

أشدد حيازيمك للموت * فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت * إذا حل بواديكا (٢)

وقال: والله ما كذبت وكذبت، وإنها الليلة التي وعدت فيها (٣). وعندما خرج، أقبل الوز والبط يصحن في وجهه، فطردوهن عنه فقال: ذروهن فإنهن نوائح (٤)، وكان ابن ملجم قد أتى الأشعث بن قيس في هذه الليلة، فخلا به في بعض نواحي المسجد، ومر بهما حجر بن عدي، فسمع الأشعث يقول لابن ملجم: النجاء النجاء بحاجتك فقد فضحك الصبح. فقال حجر: قتلته يا أعور، وخرج مبادرا إلى علي ليخبره (٥)، وقال أبو الفرج: وللأشعث بن قيس في انحرافه عن أمير المؤمنين أخبار يطول شرحها (٦). ولم يلتق حجر بن عدي بعلي، وسبقه ابن ملجم فضربه، فأقبل حجر والناس يقولون: قتل أمير المؤمنين (٧). وعن أبي عبد الله بن محمد الأزدي قال: إني لأصلي تلك الليلة في المسجد الأعظم مع رجال من أهل المصر، كانوا يصلون في ذلك الشهر من أول الليل إلى آخره. إذ نظرت إلى رجال يصلون قريبا من السدة. قياما وقعودا وركوعا وسجودا ما يسأمون إذ يخرج عليهم علي بن أبي طالب الفجر. فأقبل

---

(١) رواه ابن عساكر والعسكري (كنز ١٩٠ / ٣٩٥ / ١٣).
(٢) رواه ابن عساكر (كنز العمال ١٩٦ / ١٣) وابن أبي الحديد ٣٣٩ / ٢.
(٣) مروج الذهب ٤٥٩ / ٢.
(٤) ابن كثير (البداية ١٤ / ٨)، (مروج الذهب ٤٥٩ / ٢، ابن عساكر ١٩٥ / ١٣.
(٥) ابن أبي الحديد ٣٤٠ / ٢، مقاتل الطالبين.
(٦) مقاتل الطالبين، ابن أبي الحديد ٣٤٠ / ٢.
(٧) مقاتل الطالبين، ابن أبي الحديد ٣٤٠ / ٢.

ينادي: الصلاة الصلاة، فرأيت بريق السيف وسمعت قائلا يقول: الحكم لله يا علي لا لك. ثم رأيت بريف سيف آخر وسمعت علي عليه السلام يقول: لا يفوتنكم الرجل (١).

قال أبو الفرج: فأما بريق السيف الأول، فإنه كان شبيب بن بحير ضربه فأخطأه، ووقعت ضربته في الطاق، وأما بريق السيف الثاني، فإنه ابن ملجم ضربه فأثبت الضربة في وسط الرأس، وشد الناس عليهما من كل ناحية حتى أخذوهما (٢)، وانصرف الناس من صلاة الصبح، فأحدقوا بابن ملجم ينهشون لحمه بأسنانهم ويقولون: يا عدو الله ماذا صنعت؟ أهلكت أمة محمد وقتلت خير الناس. وأنه لصامت لا ينطق (٣).

وأمر أمير المؤمنين علي إذا مات من الضربة أن يفعلوا بقاتله كما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل برجل أراد قتله. وهو أن يقتل ويحرق بالنار (٤). وطريقة القصاص من قاتله تدل أيضا على منزلة أمير المؤمنين من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وروي أن الناس أخذوا ابن ملجم وأدرجوه في بواري ثم طلوها بالنفط وأشعلوا فيها النيران فاحترق (٥).

ورحل الإمام علي عليه السلام من الدنيا. وروي أنه قال: إن خليلي صلى الله عليه وآله وسلم حدثني أن أضرب لسبع عشر قضى من رمضان، وهي الليلة التي مات فيها موسى عليه السلام، وأموت لاثنين وعشرين من رمضان، وهي الليلة التي رفع فيها عيسى عليه السلام (٦). وبعد أن صعدت روح الإمام

---

(١) رواه الطبراني (الزوائد ١٤١ / ٩)، الطبري ٨٤ / ٦، ابن أبي الحديد ٣٤٠ / ٢.
(٢) مقاتل الطالبين، ابن أبي الحديد ٣٤٠ / ٢.
(٣) مقاتل الطالبين، ابن أبي الحديد ٣٤١ / ٢.
(٤) رواه أحمد ورجاله ثقات (الفتح الرباني ١٦٣ / ٢٣)، (الزوائد ١٤٢ / ٩) والحاكم (المستدرك ١٤٤ / ٣).
(٥) مروج الذهب ٤٦١ / ٢.
(٦) كنز العمال ٦٩٧ / ١٣. وهذا الحديث اعترض عليه ابن الجوزي. وكم رد ابن الجوزي أحاديث صحيحة. ولقد تصدى له السيوطي وبين أنه لم يصب الحق في الكثير من اعتراضاته. والحديث رواه أبو يعلى وابن جرير وابن عساكر (كنز ٦٩٣ / ١٣).

إلى بارئها وقف الحسن بن علي في الناس خطيبا ثم قال: " أيها الناس. لقد فارقكم رجل بالأمس لم يسبقه الأولون بعلم ولا يدركه الآخرون، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبعثه بالراية جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله، لا ينصرف حتى يفتح الله له، وزاد في رواية - وما ترك من صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطاء، كان يرصدها لخادم لأهله، ثم خنقته العبرة فبكى وبكى الناس معه (١).

وروى الطبري: لما إنتهى إلى عائشة قتل علي بن أبي طالب قالت:

فألقت عصاها واستقرت بها النوى * كما قر عينا بالإياب المسافر

ثم قالت: من قتله؟ فقيل: رجل من مراد. قالت:

فإن يك بك نائيا فلقد نعاه * غلام ليس في فيه التراب

فقالت لها زينب ابنة أبي سلمة: العلي تقولين هذا؟ فقالت: إني أنسى فإذا نسيت فذكروني (٢)، وكانوا قد قالوا لعائشة أيام صفين: ألا تعجبين لرجل من الطلقاء ينازع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلافة؟ فقالت: وما تعجب من ذلك؟ هو سلطان الله يؤتيه البر والفاجر (٣).

وبعد مقتل الإمام أنشد الخارجي عمران بن حطان (٤) شعرا يمدح فيه قاتل عليا فقال:

يا ضربة من تقي ما أراد بها * ألا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره يوما فأحسبه * أوفى البرية عند الله ميزانا (٥)

---

(١) رواه أحمد بسند صحيح (الفتح الرباني ١٦٤ / ٢٣) وابن أبي شيبة وأبو نعيم وابن عساكر وابن جرير (كنز العمال ١٩٣ / ١٣)، مروج الذهب ٤٦١ / ٢.

(٢) الطبري ٦٧ / ٦.

(٣) البداية والنهاية ١٣١ / ٨.

(٤) قال في الإصابة: كان من رؤوس الخوارج.

(٥) مروج الذهب ٤٦٢ / ٢، البداية والنهاية ٣٢٩ / ٧.

وعمران بن حطان هذا له رواية في صحيح البخاري، الذي قيل فيه أنه أصح كتاب بعد كتاب الله، وممن عاب على البخاري إخراجه حديث عمران بن حطان الدارقطني فقال: عمران متروك لسوء اعتقاده وسوء مذهبه (١). وأخرج أبو داوود أيضا حديث عمران عن عائشة. وقال: إن الخوارج أصح أهل الأهواء حديثا (٢). والخوارج هم الذين وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم: " يمرقون من الدين " (٣)، أي أن أهواءهم خارج نطاق الدين. وأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أيضا بأنهم " لن يعودوا إلى الدين " (٤). وبين أنهم " لا يزالون يخرجون حتى يخرج آخرهم مع الدجال " (٥). فالطريق واضح فكيف يكونوا أصح أهل الأهواء حديثا وهم الذين أرادوا هدم الدين من رأس؟ يقول شاعرهم ابن مياس المرادي في قتل علي:

ونحن خلعنا ملكه من نظامه * بضربة سيف إذ علا وتجبرا
ونحن كرام في الصباح أعزة * إذا الموت بالموت ارتدي وتأذرا

وقال أيضا:

فلا مهر أغلى من علي وإن غلا * ولا قتل إلا دون قتل ابن ملجم (٦)

ولقد رد القاضي أبو الطيب على شعر عمران بن حطان فقال:

إني لأبرأ مما أنت قائله * عن ابن ملجم الملعون بهتانا
يا ضربة من شقي ما أراد بها * ألا ليهدم للإسلام أركانا
إني لأذكره يوما فألعنه * دنيا وألعن عمران ابن حطانا

---

(١) الإصابة / ابن حجر ١٨٠ / ٣.
(٢) الإصابة ١١٩ / ٣.
(٣) رواه أحمد (البداية والنهاية ٢٩٢ / ٣).
(٤) رواه أحمد (البداية والنهاية ٢٩٧ / ٧).
(٥) رواه أحمد ورجاله ثقات (الزوائد ٢٢٩ / ٦).
(٦) الطبري ٨٧ / ٦، البداية والنهاية ٣٢٩ / ٧.

وقال:
أنتما من كلاب النار جاء به * نص الشريعة برهانا وتبيانا (١)
٧ - لهيب الليل:
لم ير الناس إلا ابن ملجم وأصحابه عندما قتل أمير المؤمنين، وفي الحقيقة كان هناك طابور طويل يقف وراء ابن ملجم ولا يراهم إلا الله وحده. لقد شارك الكثير من الناس في قتل علي بن أبي طالب، وفي كتاب الله الكريم. عقر ناقة صالح عليه السلام فردا واحدا قال تعالى: (إذ انبعث أشقاها)، وبعد إتمام عملية القتل قال تعالى: (فكذبوه فعقروها) (٢)، وفي هذا يقول الإمام علي: أيها الناس، إنما يجمع الناس الرضا والسخط، وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا، فقال سبحانه: (فعقروها فأصبحوا نادمين) (٣). فما كان ألا خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة. أيها الناس: من سلك الطريق ورد الماء، ومن خالف وقع في التيه (٤). ولا يخفى أن حديث قتل علي بن أبي طالب فيه أحيمر ثمود قاتل الناقة، والذي يضرب عليا على رأسه فتخضب لحيته من رأسه. فأشقى الناس هنا يقابله أشقى الناس هناك، وقتل علي هنا يقابله قتل الناقة هناك. والعذاب الذي وقع هناك لا بد وأن يقابله عذاب هنا. ولذلك كان علي بن أبي طالب يخبرهم بالذل الشامل الذي سيحل بهم بعد مقتله كما أخبره النبي صلى الله عليه وآله وسلم. والعذاب الذي يشق طريقه الظالمون من الأمة الخاتمة، يستقيم مع رسالة الأمة ودوامها حتى قيام الساعة. بمعنى أن ثمود ضربهم عذاب الاستئصال. أما الأمة الخاتمة فلها عذاب يستقيم مع الاستئصال بصورة من الصور حتى يأتي أمر الله.

---

(١) مروج الذهب ٤٦٢ / ٢.
(٢) سورة الشمس: الآية ١٤.
(٣) سورة الشعراء: الآية ١٥٧.
(٤) ابن أبي الحديد ٥٤٩ / ٣.

ولما كان الدجال خارج لا محالة في آخر الزمان. كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الله لم يبعث نبيا إلا حذر أمته الدجال، وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة " (١). ولما كانت جميع الفتن منذ كانت الدنيا تصب شذوذها في سلة لها موضع عند الدجال، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: " وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة أو كبيرة إلا لفتنة الدجال " (٢)، فإن ملامح العذاب الذي يصيب الظالمين من الأمة ترى صورته على طريق الدجال. وطريق الدجال داخل مربع الأمة يبدأ كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم من عند دائرتين: " ثلاثة من نجا منها فقد نجى، من نجا عند موتي، ومن نجا عند قتل خليفة يقتل مظلوما وهو مصطبر يعطي الحق من نفسه فقد نجا، ومن نجا من فتنة الدجال فقد نجا " (٣). فالدائرة الأولى حادث أو موقف ينشأ عند موت النبي صلى الله عليه وسلم، والدائرة الثانية قتل خليفة يعمل بالحق ويسير بالحق وهدفه الحق. فالذي ينجو من الدائرة الأولى، ويدخل في أمان الدائرة الثانية تسوقه أقدامه إلى أمان الدائرة الثالثة والتي يكون مركزها الدجال. فالأمان يدفع إلى أمان. ومن وقع في فتنة الدجال، فإن لوقوعه أسباب سلك طريقها يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " لأنا لفتنة بعضكم أخوف عندي من الدجال، ولن ينجو أحد مما قبلها إلا نجا منها " (٤).

فهذا باختصار طريق العذاب وبعض ملامحه. والله تعالى لا يظلم الناس. والعذاب الذي يرونه ما هو إلا نتيجة طبيعية لأعمالهم. والله تعالى أخذ على نفسه الرحمة، وأنه لا يضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون. ولقد ساق النبي صلى الله عليه وسلم الأمة إلى طريق الهداية. وحذرهم من كل سبيل

---

(١) رواه مسلم (الصحيح ٥٥ / ١٨) الترمذي (الجامع ٢٣٢ / ٤) وأحمد (الفتح الرباني ٧٦ / ٢٤) الحاكم (المستدرك ٥٣٦ / ١).

(٢) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح (الزوائد ٣٣٥ / ٧).

(٣) رواه أحمد والطبراني والضياء بسند صحيح (كنز العمال ١٨٠ / ١١) والحاكم وصححه (المستدرك ١٠١ / ٣).

(٤) رواه أحمد والبزار وقال الهيثمي رجال أحمد رجال الصحيح (الزوائد ٣٣٥ / ٧).

ليس لله فيه راية. وبالغ في التحذير فقال: " من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله " (١)، وقال: " أول فرقة تسير إلى السلطان في الأرض لتذله يذلهم الله تعالى يوم القيامة " (٢)، قال في تحفة الأحوذي: أي من أهان من أعز الله أهانه الله. وفي الأرض متعلق بسلطان الله. قال تعالى لداوود عليه السلام: " إنا جعلناك في الأرض خليفة " وإضافة السلطان إلى الله إضافة تشريف كبيت الله وناقة الله " (٣).

فالنبي حذر من إهانة سلطان الله، وحذر أيضا من إهانة وليه الذي هو ولي الله فقال: " من أهان لي وليا فقد بارزني بالعداوة " (٤)، وقال: " من أخاف لي وليا فقد بارزني بالمحاربة " (٥)، وقال: " من عادى لي وليا فقد ناصبني بالمحاربة (٦)، وقال: " من آذى لي وليا فقد استحل محارمي " (٧)، وقال لعلي وفاطمة والحسن والحسين: " أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم " (٨)، وقال: " من آذى عليا فقد آذاني " (٩)، وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. وانصر من نصره واخذل من خذله " (١٠)، وقال:

---

(١) رواه ابن أبي عاصم وصححه الألباني (كتاب السنة ٤٨٩ / ٢) والترمذي (كنز العمال ١٨٤ / ١).
(٢) رواه الديلمي عن حذيفة (كنز ٢١٥ / ١).
(٣) تحفة الأحوذي ٤٧٦ / ٦).
(٤) رواه الطبراني وأبو نعيم عن أبي إمامة (كنز ٢٢٩ / ١).
(٥) رواه ابن عساكر عن أنس (كنز ٢٢٩ / ١١).
(٦) رواه الطبراني عن ابن عباس (كنز ٢٣١ / ١).
(٧) رواه أحمد وأبي يعلى والطبراني وابن عساكر عن عائشة (كنز ٢٣٠ / ١).
(٨) رواه الحاكم وصححه (المستدرك ١٤٩ / ٣) والضياء بسند ٦٤٠ / ١٣) والترمذي (الجامع ٦٩٩ / ٥).
(٩) رواه أحمد وقال الهيثمي رجال أحمد ثقات، ورواه الطبراني والبزار وابن حبان في صحيحه (الزوائد ١٢٩ / ٩) والحاكم صححه (المستدرك ١٢٢ / ٣) وأبو يعلى ورجاله ثقات (الزوائد ١٢٩ / ٩)، وابن سعد وابن أبي شيبة (كنز ١٤٢ / ١٣).
(١٠) رواه البزار وابن جرير وقال الهيثمي رجاله ثقات (كنز العمال ١٥٨ / ١٣) والألباني وصححه (الصحيحة ٣٤٣ / ٥).

" سبعة لعنتهم ولعنهم الله " منهم " المتسلط على أمتي بالجبروت ليذل من أعز الله ويعز من أذل الله. والمستحل من عترتي ما حرم الله " (١).
والنبي وهو يحذر كان يعلم أن الأمة ستقع في الفتن، ولكن ما على الرسول إلا البلاغ، ولقد ساق الناس إلى الهدى آخذا بجميع الأسباب للوصول بهم إلى هذا الهدف. كان يعلم بأنهم سيكذبوه وأنه سيهاجر ويترك لهم الديار في سبيل الله وأنهم سيقاتلونه وأن بني أمية سيصعدون منبره في نهاية المطاف، فلم يحول هذا العلم بينه وبين الدعوة، وإنما جاهد ونصح حتى لا يكون للناس على الله حجة يوم القيامة. ومما روي عن النبي وهو يخبر بالغيب عن ربه " والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم وتجتلدوا بأسيافكم ويرث دنياكم شراركم " (٢). ففي الحديث بداية تسفر عن قتل إمام، ثم اجتلاد بالسيوف، ثم يجلس الرويبضه والغلمان السفهاء على المقاعد الأولى وبين أيديهم دنيا فعلوا من أجلها الأفاعيل.
وهكذا يستقيم البدء مع الختام. فالناس لم يروا سوى ابن ملجم وأصحابه عند قتل الإمام علي، كما أن ثمود لم تر سوى عاقر الناقة وأصحابه. وروي أن الناقة عندما قتلت رفعت ببصرها إلى السماء. وروي أن جماعة تبعوا فصيلها لما هرب منهم فرماه أحدهم بسهم فأصاب قلبه، وأن فصيلها رغا ثلاث مرات إلى السماء (٣)، وروي أن الإمام علي قال: " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنح لي الليلة في منامي. فقلت: يا رسول الله. ما لقيت من أمتك من الأود واللدد. فقال: ادع عليهم. فقلت: اللهم أبدلني بهم من هو خير لي منهم. وأبدلهم بي من هو شر مني (٤)، وهذا الدعاء جهر به الإمام أمام القوم عندما خذلوه. ثم

---

(١) رواه ابن أبي عاصم وحسنه الألباني (كتاب السنة ٢٤ / ١).
(٢) رواه الترمذي (الجامع ٤٦٨ / ٤) وقال في تحفة الأحوذي، رواه ابن ماجة (التحفة ٣٩١ / ٦).
(٣) ابن كثير في التفسير (٢٢٩ / ٢) والميزان (٣١٥ / ١٠).
(٤) البداية والنهاية ١٢ / ٨، الطبقات الكبرى ٣٦ / ٣، العقد الفريد ٢٨٩ / ٢، مقاتل الطالبين ص ١٦.

رحل الإمام وأمامه البشرى. قال له النبي صلى الله عليه وسلم: " أبشر يا علي حياتك معي وموتك معي " (١)، وقال: " إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة علي وعمار وسلمان " (٢)، وقال لفاطمة: " إني وإياك وهذا النائم (٣) وهما (٤) لفي مكان واحد يوم القيامة " (٥).

وإذا كانت البشري دائرة عاش فيها الإمام علي في الدنيا، فإن البشري يوم القيامة ستكون حقيقة يعيشها الإمام علي بجانب الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، وبما أن ساحة الأمة يوجد عليها إمام مقتول، فإننا نلقي الضوء هنا على الدماء يوم القيامة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " أول ما يقضي بين الناس في الدماء " (٦)، وفيما يتعلق بالأمة في هذا الشأن يقول الإمام علي: " أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة " (٧)، وروي أنه قال: " أنا حجيج المارقين وخصيم الناكثين المرتابين " أي: يوم القيامة (٨).

وروي أنه عندما نزل قوله تعالى: " (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) (٩) قال الزبير يا رسول الله. أتكرر علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟ قال: نعم فقال الزبير: إن الأمر إذا لشديد (١٠).

وروي أن الإمام علي قال: يؤتى بي وبمعاوية يوم القيامة فنختصم عند ذي

---

(١) رواه الطبراني وقال الهيثمي إسناده حسن (الزوائد ١١٢ / ٩).
(٢) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٦٦٧ / ٥) والحاكم وأقره الذهبي (المستدرك ١٣٧ / ٣).
(٣) أي عليا.
(٤) أي الحسن والحسين.
(٥) رواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرك ١٣٧ / ٣).
(٦) رواه البخاري ومسلم والترمذي (كشف الخفاء ٨٢٦ / ١)، (الجامع ١٠ / ٤)، (كنز العمال ٢٠ / ١٥).
(٧) رواه البخاري (الصحيح ٥ / ٣.
(٨) ابن أبي الحديد ٣٧٨ / ٢.
(٩) سورة الزمر: الآية ٣١.
(١٠) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٣٧١ / ٥).

العرش. فأينا فلج فلج أصحابه " (١)، وقال: " حزبنا حزب الله، والفئة الباغية حزب الشيطان، ومن سوى بيننا وبين عدونا فليس منا " (٢)، أما قول الإمام بأن حزبه هو حزب الله فإن هذا يستشف ويرى بوضوح في آيات القرآن الكريم وفي الأحاديث الصحيحة وفي حركة التاريخ، وإما أن الفئة الباغية هي حزب الشيطان، فيكفي الفئة الباغية قتل عمار الذي يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول في عمار: " عمار خلط الله الإيمان ما بين قرنه إلى قدمه. وخلط الإيمان بلحمه ودمه " (٣)، وقال: روي عمار إيمانا إلى مشاشته (٤)، فعمار الذي في دائرة الإيمان قتل بيد الفئة الباغية، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: " أبى الله أن يجعل لقاتل مؤمن توبة " (٥)، وقال: " لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار " (٦)، فالذي يقتل مؤمنا لأنه مؤمن، فهذا بلا جدال من حزب الشيطان. ولأن المؤمن كثير ما يقتل على طريق البغي، فلقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الطريق فقال: " يا معشر المسلمين احذروا البغي، فإنه ليس من عقوبة هي أخطر من عقوبة البغي " (٧)، وقال: " لو بغي جبل على جبل لدك الباغي منهما " (٨)، وقال: لا يبغي على الناس إلا ولد بغي أو فيه شئ منه " (٩)، وقال: " لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامة " (١٠)،

---

(١) رواه ابن عساكر والحارث (كنز العمال ٣٥٠ / ١١).
(٢) رواه ابن عساكر (كنز العمال ٣٥٦ / ١١).
(٣) رواه ابن عساكر (كنز العمال ٧٢٠ / ١١).
(٤) رواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرك ٣٩٢ / ٣).
(٥) رواه الطبراني والضياء بسند صحيح (كنز العمال ١٩ / ١٥).
(٦) رواه الترمذي (الجامع ١١ / ٤).
(٧) رواه ابن أبي الدنيا وابن النجار (كنز العمال ٣٠٨ / ٣) وابن عدي (كنز ٤٤٦ / ٣).
(٨) (كنز العمال ٤٤٦ / ٣).
(٩) رواه ابن عساكر (كنز العمال ١٩ / ١١) والطبراني (كنز ٤٤٦ / ٣).
(١٠) رواه مسلم (كنز العمال ٥١٨ / ٣) وأحاديث لواء الغدر رواه البخاري (الصحيح ٧٨ / ٤) والترمذي (الجامع ١٤٤ / ٤).

فالأمير الذي يسلك طريق المكر والخديعة على امتداد طريق البغي هو أعظم الناس غدرا، وله لواء يوم القيامة يحمل اسمه.
فإذا كان حزب الله وحزب الشيطان لهما معالمهما في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم. فلا تسوية بين هذا وذاك لقول النبي صلى الله عليه وسلم أيضا: " علي بن أبي طالب باب حطة، من دخل فيه كان مؤمنا ومن خرج منه كان كافرا " (١)، قال في فيض القدير: والمعنى أن عليا طريق حط الخطايا (٢)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " فلو أن رجلا صفن (٣) بين الركن والمقام وصلى وصام ثم مات وهو مبغض لآل محمد صلى الله عليه وسلم دخل النار " (٤)، وقال: " والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار " (٥)، وقال: " النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف. فإذا خالفتها قبيلة من العرب، اختلفوا فصاروا حزب إبليس " (٦)، والتسوية لا تستقيم أيضا، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بأن طريق البغاة سيكون فيه مال الله دولا، ودين الله دخلا وعباد الله خولا. وعلى امتداد هذا الطريق تنبت الأشجار التي حذر منها النبي، أشجار الفتن التي يجلس في ظلها الدجال وأتباعه آخر الزمان. ودائرة الدجال التي عليها رجس لا تستقيم مع دائرة المهدي الذي فيها من الله طهر. وكما حذر النبي من الدجال في أحاديث، بشر أيضا بالمهدي في أحاديث. ومن عدل الله أنه قابل الشر المخبوء بعدل مخبوء، وكما أن للشر أعلام كذلك للعدل أعلام.

---

(١) رواه الدارقطني في الأفراد (كنز ١٠٠ / ٥).
(٢) فيض القدير ٤ / ٣٥٦.
(٣) أي وقف.
(٤) رواه الطبراني. وقال الهيثمي روى هذا الحديث عن سفيان الثوري وبقية رجاله رجال الصحيح (الزوائد ١٧١ / ٩)، ورواه الحاكم وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وواقعة الذهبي (المستدرك ١٤٩ / ٣).
(٥) رواه الحاكم وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (المستدرك ١٥٠ / ٣).
(٦) رواه الحاكم وقال هذا حديث صحيح الإسناد (المستدرك ١٤٩ / ٣).

وفي الختام نقول: لقد عمل التيار التخريبي على امتداد التاريخ لوقف حركة الأنبياء والرسل، ولكن كيدهم رد إلى نحورهم وخاب سعيهم وأصبحوا أحاديث. وعند الرسالة الخاتمة اجتمعت رايات الشذوذ التي تحمل بصمات الذين أصبحوا أحاديث، وأرادوا الكيد للدعوة، ولكن الله كشف خباياهم، وهتك سترهم وأخبر النبي بوقع أقدامهم في المستقبل كي يحذر أمته. فكان النبي يتكلم مع الرجل منهم في الوقت الذي يرى حقيقته في الآخرة، بمعنى: يقول له أحدهم يا رسول الله أين مدخلي؟ فيقول له النبي: النار فالنبي هنا يراه على صورتين، والصورة الأخيرة هي الحقيقة، وعلى هذا المثال، كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتحدث مع فطاحل بني أمية، وهو يراهم في صورة أخرى على منبره بعد وفاته، ثم يرى حقيقتهم في الآخرة. وفقا لهذا حذر النبي أشد التحذير من اليهود ومن النصارى، ومن المنافقين ومن الذين في قلوبهم مرض، ولقد بينا هذا في موضعه.

وبعد النبي صلى الله عليه وسلم اجتهد بني أمية، فكان العقد فيما بينهم، حتى أن أبي بن كعب كان يقول في عهد عمر: " هلك أهل العقد ورب الكعبة، هلك أهل العقد ورب الكعبة، والله ما آسي عليهم إنما آسي على من أهلكوا من المسلمين (١). ولقد ذكرنا فيما سبق أن أبي بن كعب عندما وعد الناس بأنه سيتكلم يوم الجمعة. ما جاء يوم الجمعة إلا وأبي بن كعب في عالم ما بعد الحياة الدنيا. ولا ندري أهي مصادفة أن يموت أبو بكر مسموما، وعمر مقتولا، ثم يأتي عثمان يضعه بني أمية على طريق القتل، ثم يأتي أمير المؤمنين علي فيقاتله معاوية، ثم يقتل أمير المؤمنين. ولقد اتهم أبو الأسود الدؤلي معاوية بهذا القتل عندما قال:

ألا أبلغ معاوية بن حرب * فلا قرت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا * بخير الناس طر أجمعينا

---

(١) رواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرك ٥٢٧ / ٤).

قتلتم خير من ركب المطايا * وذللها ومن ركب السفينا (١)
وكان الإمام علي يضع قريش في دائرة الساعين لقتله وكان كثيرا ما يقول:
تلكم قريش تمناني لتقتلني * فلا وربك ما بروا وما ظفروا
فإن هلكت فرهن ذمتي لهم * بذات ودقين ولا يعفو لها أثر (٢)
فبني أمية لم تكن بعيدة عن دم الإمام، ثم جاء دور الحسن بن علي وروي أن معاوية أوصى بنت الأشعث لتسمه، وقتل الحسن مسموما. ثم جاء الدور على الحسين قتيل الدولة الأموية. فهل جاء كل هذا مصادفة ليجلس بني أمية على رؤوس الأمة؟ إن الذي قطف الثمرة لا بد أنه يراقب الشجرة زمنا طويلا، وهذه المراقبة لا بد وأن تستقيم مع أحاديث اللعن التي لعن فيها النبي تيارات الهدم. بمعنى أنهم وهم يراقبون الأحداث كانوا على دراية بأن هذه الأحداث ستصب في وعائهم في نهاية المطاف، لأن وقودهم هو الذي يدفعها ويسيرها.
إن قيادة بني أمية للبغض لم تأت بعد عهد الإمام علي، وإنما بدأت بعد نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا نراه في حديث: " أبغض الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: بنو أمية وثقيف وبنو حنيفة " (٣)، وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " أشد قومنا لنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم " (٤)، إن البغض لطريق الهداية كان منذ زمن الرسول، وهذا البغض ارتدى رداء الفتن البراقة بعد عهد علي بن أبي طالب. ولقد كان في بني أمية رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وهؤلاء كان يعرفهم الإمام علي، وكان فيهم أيضا رجال يتسلقون ويشترون الذمم للصد عن سبيل الله وهؤلاء أيضا كان يعرفهم الإمام علي، ويرى بصماتهم من اشتغل برصد التاريخ وأحداثه. فهم هناك عند دائرة الكبر، التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: " الكبر بطر الحق

---

(١) مروج الذهب ٤٦٣ / ٢.
(٢) مروج الذهب ٤٦٤ / ٢.
(٣) رواه البيهقي ورجاله ثقات (البداية والنهاية ٢٦٨ / ٦).
(٤) رواه نعيم بن حماد والحاكم (كنز العمال (١٦٩ / ١١).

وغمط الناس " (١)، وبطر الحق: دفعه وإنكاره ترفعا وتجبرا (٢)، وقيل: هو أن يجعل ما جعله الله حقا باطلا، وقيل: هو أن يتكبر على الحق فلا يقبله، وغمط الناس: أي احتقارهم (٣).

إن الإمام علي قتله الذين يبغضونه، قتله تيار المسجد الضرار، وتيار العقبة الذين أرادوا يوما أن يغتالوا النبي عند عودته من تبوك. والتاريخ لا يحاكم الناس، وإنما الذي يحاكمهم الله وحده. وروي أن الإمام علي قال: لا تأمنن على خير هذه الأمة عذاب الله لقوله تعالى: " فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرين) (٤).

ولا تيأس لشر هذه الأمة من روح الله لقوله تعالى: (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) (٥).

إن التاريخ لا يحاكم أحدا، إنما الذي يحاكم الناس هو الله وحده. ولقد رحل الإمام، وفي الحديث الصحيح يقول النبي لعلي: أنت أخي، وأبو ولدي، تقاتل على سنتي وتبرئ ذمتي، من مات في عهدي فهو كنز الله، ومن مات في عهدك فقد قضى نحبه. ومن مات بحبك بعد موتك ختم الله له بالأمن، والإيمان ما طلعت الشمس أو غربت، ومن مات يبغضك مات ميتة جاهلية وحوسب بما عمل في الإسلام " (٦).

---

(١) رواه مسلم (الصحيح ٨٩ / ٢).
(٢) النووي شرح مسلم (الصحيح ٨٩ / ٢).
(٣) تحفة الأحوذي ١٣٨ / ٦.
(٤) سورة الأعراف: الآية ٩٩.
(٥) سورة يوسف: الآية ٨٧.
(٦) رواه أبو يعلى وقال البوصيري رواته ثقات (كنز العمال ١٥٩ / ١٣).

جداول الدماء

أولا – عاصفة الأمطار الحمضية

١ – بيعة الحسن بن علي:

كان الحسن بن علي علامة بارزة في طريق الدعوة إلى الله. فإذا كان علي بن أبي طالب حجة على عصر فيه أكابر الصحابة، فإن الحسن حجة على جيله أو إن شئت فقل حجة على مقدمة جيل التابعين، أو قل حجة على الساحة الإسلامية من بعد والده عليه السلام. ويكفي لكي ندلل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم للحسن والحسين " من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني " (١)، وقوله: " هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهم أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما " (٢)، يكفي أنهما من أصحاب الكساء، ولقد قال النبي لأصحاب الكساء " أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم " (٣)، وعلاوة على هذا وذاك

---

(١) رواه أبو يعلى وقال البوصيري رواته ثقات (كنز العمال ١٥٩ / ١٣).

(٢) رواه ابن ماجة وقال البوصيري صحيح ورجاله ثقات. ورواه الإمام أحمد والبزار (الفتح الرباني ١٤٠٦ / ٣)، (الزوائد ١٧٩ / ٩)، (سنن ابن ماجة ١ / ٥١) ورواه الحاكم وصححه (المستدرك ١٦٦ / ٣).

(٣) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٦٥٦ / ٥).

فلقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " جاءني جبريل أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة " (١).
فهذه المناقب لم توضع إلا لحكمة ومن وراء هذه الحكمة هدف. والحسن خاض المعارك مع والده، وكان يعلم جيدا ما الذي عليه أهل الشام، وكان يعلم أن معاوية سيملك ما تحت قدمه. هكذا سمع من النبي صلى الله عليه وسلم ومن علي بن أبي طالب عليه السلام. وعلى الرغم من أنه كان يعلم أن نهايته في مربع الشهادة، وأنه سيقتل ويكون سيدا في الجنة بهذه الشهادة. إلا أنه أخذ بالأسباب لإقامة الحجة حتى لا يكون للناس على الله حجة.
والبداية كانت بعد وفاة أمير المؤمنين. روى الطبراني أن الحسن بن علي خطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر أمير المؤمنين عليا خاتم الأوصياء، ووصى النبي وأمين الصديقين والشهداء... ثم قال: أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني، فأنا الحسن بن محمد صلى الله عليه وسلم. أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله عز وجل بإذنه، وأنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.
والذين افترض الله مودتهم في كتابه إذ يقول: " ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا " (٢)، فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت " (٣).
فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطة، قام عبد الله بن عباس بين يديه، فدعا الناس إلى بيعته (٤)، وقام رجل فقال: أشهد لقد رأيت رسول الله صلى الله

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجة وأحمد والطبراني والحاكم - وتم تخريجه من قبل.
(٢) هذا الحديث عده السيوطي من المتواترات (تحفة الأحوذي ٢٧٢ / ٣) ورواه البخاري والضياء (كنز العمال ١٢٠ / ١٢) والترمذي وأحمد والحاكم وابن حبان وأبو يعلى وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد ٢٠١ / ٩)، (الجامع الترمذي ٦٥٦ / ٥)، (كنز العمال ١١٢ / ١٢).
(٣) سورة الشورى: الآية ٢٣.
(٤) قال الهيثمي رواه الطبراني في الأوسط وفي الكبير باختصار وأبو يعلى والبزار وأحمد وإسناد أحمد وبعض طرق البزار والطبراني في الكبير حسان (الزوائد ١٤٦ / ٩) ورواه الحاكم (المستدرك ١٤٣ / ٣. ١٧٢ / ٤)، ورواه الطبري في تاريخ الأمم ٩٥ / ٦، وابن أبي الحديد ٦٩٦ / ٤.

عليه وآله وسلم واضعه في حبوته ويقول: " من أحبني فليحبه، فليبلغ الشاهد الغائب " (١)، ولولا كرامة رسول الله ما حدثت به أبدا (٢). وعندما قام الناس ليبايعوه، قال: أبايعكم على أن تسمعوا وتطيعوا وتسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت " (٣)، فاستجابوا وقالوا: ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة (٤).

وروي أن الحسن رضي الله عنه كتب إلى معاوية يدعوه إلى الطاعة والجماعة وقال له: "... ولقد كنا تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا وسلطان نبينا، وإن كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الإسلام، وأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب (٥)، في ذلك مغمزا يثلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده. فاليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله ولا بفضل في الدين معروف، ولا أثر في الإسلام محمود. وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكتاب الله والله حسيبك، فسترد فتعلم لمن عقبى الدار. وبالله لتلقين عن قليل ربك، ثم ليجزينك بما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد. إن عليا لما مضى لسبيله – رحمة الله عليه يوم قبض، ويوم من الله عليه بالإسلام، ويوم يبعث حيا – ولاني المسلمون الأمر بعده فأسأل الله أن يؤتينا في الدنيا الزائلة شيئا ينقصنا به في الآخرة مما عنده من كرامة، ولك في ذلك إن فعلته الحظ الجسيم، والصلاح للمسلمين، فدع التمادي في الباطل، وأدخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فإنك تعلم أني أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل

---

(١) رواه أحمد وابن أبي شيبة وابن مندة والحاكم (كنز العمال ٦٥١ / ١٣)، (المستدرك ١٧٤ / ٣).

(٢) رواية أخرى للحاكم بها هذه الزيادة (المستدرك ١٧٤ / ٣).

(٣) الحاكم (المستدرك ١٧٣ / ٣) الطبري ٩٣ / ٦.

(٤) ابن أبي الحديد ٦٩٧ / ٤.

(٥) الأحزاب هم الذين تحزبوا وتظاهروا على قتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قريش وغطفان وبني مرة وبني أشجع وبني سليم وبني أسد في غزوة الخندق.

أواب حفيظ، ومن له قلب منيب. واتق الله ودع البغي، واحقن دماء المسلمين، فوالله ما لك خيرا في أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه فيه. وادخل في السلم والطاعة، ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحق به منك ليطفئ الله النائرة (١) بذلك، ويجمع الكلمة، ويصلح ذات البين. وإن أنت أبيت إلا التمادي في غيك سرت إليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين". وأرسل الحسن هذه الرسالة مع حرب بن عبد الله الأزدي (٢).

فكتب معاوية إليه ومما جاء في رسالته... ذكرت وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتنازع الأمر بعده، وتغلبهم على أبيك، فصرحت بتهمة أبي بكر وعمر الفاروق، وأبي عبيدة الأمين حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلحاء المهاجرين والأنصار. فكرهت ذلك لك. إنك امرؤ عندنا وعند الناس غير الظنين، ولا المسئ، ولا اللئيم وأنا أحب لك القول السديد، والذكر الجميل. إن هذه الأمة لما اختلفت بعد نبيها لم تجهل فضلكم ولا سابقتكم ولا قرابتكم من نبيكم، ولا مكانكم في الإسلام وأهله. فرأت الأمة أن تخرج من هذا الأمر لقريش لمكانها من نبيها، ورأى صلحاء الناس من قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس وعوامهم أن يولوا هذا الأمر من قريش أقدمها إسلاما، وأعلمها بالله وأحبها له وأقواها على أمر الله، فاختاروا أبا بكر، وكان ذلك رأي ذوي الدين والفضل والناظرين للأمة. فأوقع ذلك في صدوركم لهم التهمة، ولم يكونوا متهمين، ولا فيما أتوا بالمخطئين ولو رأى المسلمون أن فيكم من يغني غناءه ويقوم مقامه، ويذب عن حريم الإسلام ذبه، ما عدلوا بالأمر إلى غيره رغبة عنه، ولكنهم عملوا في ذلك بما رأوه صلاحا للإسلام وأهله، والله يجزيهم عن الإسلام وأهله خيرا. وقد فهمت الذي دعوتني إليه من الصلح، والحال فيما بيني وبينك اليوم، مثل الحال التي كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبي

---

(١) للنائرة / العداوة والشحناء.

(٢) ابن أبي الحديد ٦٩٨ / ٤.

صلى الله عليه وسلم فلو علمت أنك أضبط مني للرعية، وأحوط على هذه الأمة. وأحسن سياسة، وأقوى على جمع الأموال، وأكيد للعدو لأجبتك إلى ما دعوتني إليه، ورأيتك لذلك أهلا، ولكن قد علمت أني أطول منك ولاية، وأقدم منك بهذه الأمة تجربة، وأكبر منك سنا، فأنت أحق أن تجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني، فادخل في طاعتي، ولك الأمر من بعدي... ".

قال جندب: فلما أتيت الحسن بكتاب معاوية قلت له: إن الرجل سائر إليك، فابدأه بالمسير حتى تقاتله في أرضه وبلاده وعماله. فإما أن تقدر أنه ينقاد لك، فلا والله حتى يرى منا أعظم من يوم صفين (١).

وفي رسالة معاوية نرى أن القوم بعد الرسول صلى الله عليه وسلم عملوا في الخلافة بما رأوه صلاحا للإسلام وأهله، ونرى أن معاوية في زمن الحسن يحسبها بالأقدمية، فهو الأطول ولاية والأقوى على جميع الأموال. ولا ندري لماذا لم يضع عنوان الأطول إسلاما أمام عينيه وهو يقاتل عليا؟ ولماذا رفع عنوان الأقدمية هنا بينما كان هناك يرفع قميص عثمان؟ إن معاوية وإعلامه يبدلون أعلامهم وفقا لمتطلبات كل ساحة. ويدخرون لكل زمان خدعة.

٢ – القتال بالذهب والفضة:

عندما بعث معاوية إلى الحسن أن الخلافة له من بعده، كان الحسن ينظر إلى هذا الوعد من نافذة أحاديث الإخبار بالغيب التي وضعها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دائرة ذهن أهل البيت. ولم يكن الحسن يعبأ كثيرا بما يقوله معاوية، نظرا لوزنه بمعيار هذه الأحاديث التي تخبر عن المستقبل.

وروي أن الحسن كتب إلى معاوية: أما بعد فقد وصل إلى كتابك، تذكر فيه ما ذكرت، فتركت جوابك خشية البغي مني عليك، وبالله أعوذ من ذلك فاتبع الحق تعلم أني من أهله، وعلي إثم أن أقول

---

(١) ابن أبي الحديد ٦٩٩ / ٤.

فأكذب... " (١).
فلما وصل كتاب الحسن إلى معاوية كتب إلى عماله "... إن الله بلطفه وحسن صنعه، أتاح لعلي بن أبي طالب رجلا من عباده، فاغتاله فقتله، فترك أصحابه متفرقين مختلفين، وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم. فأقبلوا إلى حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم وحسن عدتكم. فقد أصبتم بحمد الله الثأر، وبلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البغي والعدوان... " (٢)
فلما اجتمعت العساكر إلى معاوية سار بها قاصدا العراق. وبلغ الحسن خبره ومسيره نحوه. وأنه قد بلغ جسر منبج، فتحرك عند ذلك، وبعث حجر بن عدي، فأمر العمال والناس بالتهيؤ للمسير. ونادي المنادي: الصلاة جامعة.
فخرج الحسن رضي الله عنه، وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن الله كتب الجهاد على خلقه. وسماه كرها، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين: اصبروا إن الله مع الصابرين. فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون، بلغني أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه فتحرك لذلك، أخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وتنظروا. ونرى وتروا (٣).
وكان في كلامه يتخوف خذلان الناس له. وبعد أن تكلم لم يتكلم أحد من الناس ولا أجابه بحرف. فلما رأى ذلك عدي بن حاتم قام فقال: أنا ابن حاتم، سبحان الله، ما أقبح هذا المقام! ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم؟ أين خطباء مضر؟ أين المسلمون؟ أين الخواضون من أهل المصر الذين ألسنتهم كالمخاريق (٤) في الدعة، فإذا جد الجد فرواغون كالثعالب؟ أما تخافون مقت الله

---

(١) ابن أبي الحديد ٧٠١ / ٤.
(٢) ابن أبي الحديد ٧٠١ / ٤.
(٣) المصدر السابق ٧٠١ / ٤.
(٤) المصدر السابق ٧٠٢ / ٤.

ولا عيبها وعارها؟ ثم استقبل الحسن بوجهه فقال: أصاب الله بك المراشد، وجنبك المكاره، ووفقك لما تحمد ورده وصدره، قد سمعنا مقالتك، وانتهينا إلى أمرك، وسمعنا لك وأطعناك فيما قلت وما رأيت. وهذا وجهي إلى معسكري، فمن أحب أن يوافيني فليواف (١).

وكان عدي بن حاتم أول الناس عسكر، وقام قيس بن سعد بن عبادة، وزياد بن صعصعة وغيرهما فأنبوا الناس ولاموهم وحرضوهم. وخرج الناس فعسكروا، ونشطوا للخروج، وسار الحسن في عسكره (٢)، وفي الوقت الذي كان الحسن يخاف فيه من خذلان الناس له، كان معاوية يتحرك ببيت ماله المملوء بالذهب والفضة. ولقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي في المال " (٣)، وقال: " إن هذا الدينار والدرهم أهلكا من قبلكم وهما مهلكاكم " (٤). وكان معاوية يريد أن يشق صف الحسن قبل القتال بسكين الدينار والدرهم. وروى الحاكم أن عبد الله بن جعفر كان على مقدمة الحسن في عشرة آلاف، فراسله معاوية وضمن له ألف ألف درهم. إذا سار إلى الحجاز وخرج من الساحة، فأجابه إلى ذلك. وتفرق الجند الذين كانوا مع عبد الله بن جعفر، وانضم البعض منهم إلى قوات قيس بن سعد (٥) الذي كان يعتبر القوة الضاربة في جيش الحسن.

وبعد أن فتت معاوية جانب من جوانب الحسن، بدأ يتفرغ لقوات قيس بن سعد. روى الطبري: حين نزل الحسن عليه السلام المدائن بعث قيس بن سعد على مقدمته في اثني عشر ألفا، وأقبل معاوية في أهل الشام حتى نزل مسكن. فبينما الحسن في المدائن إذا نادى مناد في العسكر: ألا إن قيس بن سعد قد

---

(١) المصدر السابق ٧٠٢ / ٤.
(٢) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٥٦٩ / ٤).
(٣) رواه أبو داوود (كنز العمال ١٩١ / ٤).
(٤) الحاكم (المستدرك ٦٧٤ / ٣).
(٥) الطبري ٩٢ / ٦، ابن أبي الحديد ٧٠٢ / ٤.

قتل، فانفروا فنفروا ونهبوا سرادق الحسن عليه السلام، حتى نازعوه بساطا كان تحته (١). وتفرق الناس من حول الحسن بعد إذاعة بيان يقول أن قيسا قد قتل، وهذا باطل، ولم يقف الأمر بعد إذاعة البيان عند سرقة متاع الحسن. وإنما حدث ما لم يكن في الحسبان، فهناك من أشار بأسر الحسن وتقديمه إلى معاوية ليأخذوا من معاوية الأمان (٢). وهناك من تقدم من الحسن وطعنه بالمعول فشق فخذه (٣).

فهذا الهياج داخل المعسكر كان هدفه إحداث أكبر الخسائر في القيادة بواسطة الغوغاء، فالحسن كان الهدف. وأهل الشام لهم خبرات في دس العيون. ولقد روي أن معاوية دس رجلا من حمير إلى الكوفة، ورجلا من بني القين إلى البصرة. وأمرهما أن يكتبا إليه أخبار الحسن (٤) وليس ببعيد أن تكون هذه الإذاعة التي أدت إلى خروج الحسن جريحا من أرض المعركة من صنع هؤلاء.

وروى ابن أبي الحديد: أن الحسن عليه السلام حمل على سرير ودخل إلى المدائن، وبها سعيد بن مسعود واليا عليها من قبله، فأقام عنده يعالج جرحه (٥)، وعندما جن الليل أرسل معاوية إلى القادة والجنود يخبرهم بأن الحسن راسله في الصلح وهو مسلم الأمر إليه. وأغراهم بالمال، فانسل بعضهم ليلا ودخلوا معسكر معاوية (٦)، ولم يتبق داخل معسكر الحسن سوى قوات قيس بن سعد وبعض الصحابة والتابعين الذين انفض عنهم الناس، بينما على الجانب الآخر تقف قوات الشام التي كسبت معركة ليس بما يملكون من رجال وإنما بما يملكون من ذهب وفضة. ولم يظهر بريق الذهب فجأة، وإنما كانت له أرضية قديمة دق فيها أوتاده، وحول هذه الأوتاد لا تسمع صوتا ترتعش خوفا ويقول:

---

(١) الطبري ٩٢ / ٦.
(٢) الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٧٢ / ٩).
(٣) ابن أبي الحديد ٦٩٧ / ٤.
(٤) المصدر السابق ٧٠٣ / ٤.
(٥) المصدر السابق ٧٠٤ / ٤.
(٦) تم تخريجه من قبل.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي في المال "، فما بالك إذا كانت الأيدي التي تدفع المال هي نفسها فتنة حذر الرسول منها! لم يتبين الناس الفتنة التي تعطي فتنة، ولم يضعوا في اعتبارهم ماذا سيترتب على ذلك. والأهم من ذلك أنهم أحبوا ما نهوا عنه، وبغضوا وانفضوا عن ما أمروا به. ألم يقل النبي في الحسن والحسين " من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني " (١)؟!.

وروي أن الحسن عندما تماثل للشفاء كان يحث الناس كي يتصدوا لمعاوية، ومن خطب الحسن رضي الله عنه في بعض مقاماته أنه قال: " نحن حزب الله المفلحون وعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقربون، وأهل بيته الطاهرون الطيبون، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم والثاني كتاب الله فيه تفصيل كل شئ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمعول عليه في كل شئ، لا يخطئنا تأويله، بل نتيقن حقائقه، فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولي الأمر مقرونة... " فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول "، " ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر لعلمه الذين يستنبطونه منهم " (٢)، وأحذركم الاصغاء لهتاف الشيطان، إنه لكم عدو مبين، فتكونون كأوليائه قال لهم، " لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني برئ منكم إني أرى ما لا ترون " (٣)، (٤)، وظل صوت الحسن يدوي في أعماق السكون، في عالم لا نبض فيه ولا ومض ولا صوت.

وبدأ معاوية يتحسس الساحة من قريب ومن بعيد. وروي أنه بعث إلى الحسن بصحيفة بيضاء مختوم على أسفلها، وكتب إليه أن اشترط في هذه

---

(١) تم تخريجه من قبل.
(٢) سورة النساء: الآية ٥٩ - ٨٣.
(٣) سورة الأنفال: الآية ٤٨.
(٤) مروج الذهب ٤٨٠ / ٢.

الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت (١) وعلى أن تكون الخلافة للحسن من بعده. وعندما وصلت الرسالة، قام الحسن خطيبا وقال: إن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفة. فإن أردتم الموت رددناه عليه، وحاكمناه إلى الله عز وجل بظبأ السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا، فناداه الناس من كل جانب: البقية البقية وإمضاء الصلح (٢).

وهنا قال الحسن رضي الله عنه كلمته المشهورة: يا أهل العراق إنه سخى بنفسي عنكم ثلاث قتلكم أبي، وطعنكم إياي وانتهابكم متاعي (٣). فالذين تخاذلوا عن الإمام علي وقتلوه، لا بد لهم من عقاب في بطن الغيب. فلما جاء الحسن آخذا بأسباب النجاة، لم يتركوه وإنما طعنوه وسرقوا متاعه، فأي جنود هؤلاء الذين احترفوا ظلم أئمتهم؟ ثم إذا كانوا قد سرقوا متاعا بدراهم معدودة، فكيف يكون الحال إذا وضع الذهب في طريقهم وأذن لهم أن يأخذوه نظير خدمة ما يقدمونها إلى جهاز ما.

وبدأ الحسن يتركهم وما يريدون، فلقد اشترط عليهم عند البيعة أن يسمعوا، وأن يطيعوا وأن يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم. ولكنهم لم يسمعوا ولم يطيعوا وسالموا من حارب من قبل أن تبدأ الحرب، وروي أن الحسن رضي الله عنه كتب شروطا كثيرة على الصحيفة البيضاء المختوم على أسفلها، وهذه الشروط حجة بذاتها على أصحاب المقاعد الأولى، حتى لا يكون لهم على الله حجة. وبعث الحسن إلى معاوية يطلب الصلح، وكتب إلى قيس بن سعد وكان على مقدمته في اثني عشر ألفا، يأمره بالدخول في طاعة معاوية، فقام قيس في الناس فقال: يا أيها الناس اختاروا الدخول في طاعة إمام ضلالة أو القتال مع غير إمام. قالوا: لا بل نختار أن ندخل في طاعة إمام ضلالة، فبايعوا لمعاوية، وانصرف عنهم قيس بن

---

(١) الطبري ٩٣ / ٦.
(٢) الانحرافات الكبرى / للمؤلف ص ٤٧٨.
(٣) الطبري ٩٢ / ٦.

سعد (١) وروي: لما تم الصلح بين الحسن ومعاوية أرسل إلى قيس بن سعد يدعوه إلى البيعة، فقال: إني حلفت ألا ألقاه إلا وبيني وبينه الرمح أو السيف، فأمر معاوية برمح وسيف فوضعا بينه وبينه ليبر يمينه، وقال له: أتبايع يا قيس؟ قال: نعم. ووضع يده على فخذه ولم يمدها إلى معاوية، فجاء معاوية من سريره، وأكب على قيس حتى مسح يده على يده وما رفع إليه قيس يده (٢)، ثم أمر معاوية الحسن أن يخطب. فقام فخطب فقال في خطبته: إنما الخليفة من سار بكتاب الله وسنة نبيه، وليس الخليفة من سار بالجور، ذاك رجل ملك ملكا تمتع به قليلا ثم تتخمه، تنقطع لذته، وتبقى تبعته (وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) (٣)... (٤).

٣ - الغدر:

قبل دخول معاوية الكوفة ظهر الغدر... روي أنه نزل النخيلة، وجمع الناس بها فخطبهم وقال: ألا إن كل شئ أعطيته الحسن بن علي تحت قدمي هاتين لا أفي به. قال أبو إسحاق: وكان والله غادرا (٥) فمعاوية لم يدخل الكوفة عنوة، ولم يملك ما حولها قسرة، ولكن دخل بعهود ومواثيق. وما كان لمعاوية أن يلغي ما عاهد عليه إلا بعد أن تأكد أن المبايعة أصبحت في عنق كثير من العامة. وبعد أن تأكد أن الموقف العسكري في صالحه. وفوق كل هذا فهو ألغى شروط الحسن لا شروط العامة، وكان يعلم أن الحسن لو وقف أمام الناس يدعوهم للقتال من أجل أن يوفي معاوية بالشروط، فإن العامة ستفترق عن الحسن مع أول كيس من الذهب يلقيه معاوية على رؤوسهم. وروي أن الحسن عندما التقى بمعاوية وسأله أن يعطيه الشروط التي شرط في السجل الذي ختم

---

(١) الطبري ٩٢ / ٦.
(٢) ابن أبي الحديد ٧٠٧ / ٤.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ١١١.
(٤) ابن أبي الحديد ٧٠٧ / ٤.
(٥) المصدر السابق ٧٠٦ / ٤.

معاوية أسفله، لم يعط معاوية أي اهتمام لما تعاهد عليه وأبى أن ينفذ للحسن من الشروط شيئا (١).

ولم تكن هذه المفاجأة الوحيدة قبل دخول الكوفة، فلقد روي عن سعيد بن سويد. قال: صلى بنا معاوية بالنخيلة الجمعة ثم خطبنا فقال: والله إني ما قاتلتكم لتصلوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجوا، ولا لتزكوا، إنكم لتفعلون ذلك. وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم. وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون (٢).

وكان عبد الرحمن بن شريك إذا حدث بذلك يقول: هذا والله هو التهتك (٣). ثم سار موكب معاوية ولم يعترض معترض على أي بيان أذاعه، وتوجه نحو الكوفة. وعن حبيب بن أبي ثابت قال: خطب معاوية بالكوفة حين دخلها، فذكر عليا عليه السلام فنال منه ومن الحسن. فقام الحسن وقال: أيها الذاكر عليا، أنا الحسن وأبي علي، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمي فاطمة وأمك هند، وجدي رسول الله وجدك عتبة بن ربيعة، وجدتي خديجة، وجدتك قتيلة، فلعن الله أخملنا ذكرا، وألأمنا حسبا، وشرنا قديما وحديثا، وأقدمنا كفرا ونفاقا.

فقالت طوائف من أهل المسجد: آمين (٤). قال الفضل: قال يحيى بن معين: وأنا أقول: آمين. وقال أبو الفرج: قال أبو عبيد: قال الفضل: وأنا أقول: " آمين " ويقول علي بن الحسين الأصفهاني: آمين. وقال عبد الحميد بن أبي الحديد: آمين. قلت: ويقول سعيد أيوب مصنف هذا الكتاب: آمين.

وقال ابن عبد ربه: قعد معاوية بالكوفة يبايع الناس على البراءة من علي بن أبي طالب (٥). فأين الشروط؟ أين الوفاء بالوعد؟ أين الأمانة؟ وهل كل من

---

(١) الطبري ٩٥ / ٦.
(٢) ابن أبي الحديد ٧٠٦ / ٤، البداية والنهاية ٩٠ / ٥.
(٣) ابن أبي الحديد ٧٠٦ / ٤.
(٤) ابن أبي الحديد ٧٠٦ / ٤.
(٥) العقد الفريد ٧٠ / ١.

خاصم فجر؟ وتوجد رواية في البخاري يستشف منها أصحاب العقول والأفهام أفول معاوية في الكوفة، فعن مسروق قال: دخلنا على عبد الله بن عمرو حين قدم معاوية إلى الكوفة، فذكر عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لم يكن فاحشا ولا متفحشا. وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " إن من أخيركم أحسنكم خلقا "، ترى، ما الذي دعى عبد الله أن يقول ذلك؟ وهل لهذا القول علاقة بالإعلام الأموي وقتئذ؟

وروي أن الحسن رضي الله عنه خرج إلى مسجد الكوفة فقال: يا أهل الكوفة اتقوا الله في جيرانكم وضيفانكم، وفي أهل البيت نبيكم صلى الله عليه وسلم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا (١).

وروى المدائني أن أصحاب الحسن اجتمعوا عنده، فقال المسيب بن نجية للحسن رضي الله عنه: ما ينقضي عجبي منك أعطاك معاوية أمرا فيما بينك وبينه، ثم قال: ما قد سمعت، والله ما أراد بها غيرك. قال الحسن: فما تري؟ قال: أرى أن ترجع إلى ما كنت عليه، فقد نقض ما كان بينه وبينك. فقال: يا مسيب. إني لو أردت بما فعلت الدنيا لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء، ولا أثبت عند الحرب مني، ولكني أردت صلاحكم... فارضوا بقدر الله وقضائه، حتى يستريح بر، أو يستراح من فاجر (٢).

وروي أن حجر بن عدي قال للحسن: لوددت أنك كنت من قبل هذا اليوم، ولم يكن ما كان. إنا رجعنا راغمين بما كرهنا، ورجعوا مسرورين بما أحبوا. فقال الحسن: يا حجر، ليس كل الناس يحب ما تحب ولا رأيه كرأيك وما فعلت ما فعلت إلا إبقاء عليك، والله كل يوم في شأن (٣)، وروي أن سفيان بن أبي ليلى النهدي دخل عليه فقال: السلام عيك يا مذل المؤمنين. قال الحسن: اجلس يرحمك الله. إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رفع له ملك

---

(١) الطبري ٩٥ / ٦.
(٢) ابن أبي الحديد ٦٨٦ / ٤.
(٣) الحديث روي بسند صحيح، رواه الحاكم والترمذي والبيهقي وقد خرجناه فيما سبق.

بني أمية، فنظر إليه يعلون منبره واحدا فواحدا فشق ذلك عليه (١). فأنزل الله في ذلك قرآنا قال له: (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن) (٢)، وسمعت عليا أبي رحمه الله يقول سيلي أمر هذه الأمة رجل واسع البلعوم كبير البطن (٣). فسألته: من هو؟ فقال: معاوية، وقال لي: إن القرآن قد نطق بملك بني أمية ومدتهم. قال تعالى: (ليلة القدر خير من ألف شهر) (٤). قال أبي: هذه ملك بني أمية (٥).

لقد أخذ الحسن رضي الله عنه بالأسباب، وليس معنى أن القرآن قد أخبر بأن أبا لهب لن يؤمن أن الدعوة لا تشمل أبا لهب، فكل حرف يسمعه وكل آية في نفسه وفي الكون حجة عليه. وكذلك أهل الشام ليس معنى أنهم سيجلسون على المقاعد الأولى في الدنيا، أن الدعوة لا تتوجه إليهم لتخبرهم بأحوال الدنيا وأخبار الآخرة. ولله في عباده شؤون. وخرج الحسن رضي الله عنه من الكوفة فلما صار بدير هند نظر إلى الكوفة وقال:

ولا عن قلي فارقت دار معاشري * هم المانعون خوزتي وذماري

ثم سار إلى المدينة (٦) بعد أن أنقذ الكوفة من مجزرة كانت ستؤكل فيها كثير من الأكباد، وروي أنه قال في أهل العراق: " إنهم قوم لا يرجعون إلى الحق، ولا يقصرون عن باطل، أما إني لست أخشاهم على نفسي، ولكن أخشاهم على ذاك - وأشار إلى الحسين (٧).

---

(١) ابن أبي الحديد ٦٨٦ / ٤.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٦٠.

(٣) الحديث رواه غير واحد منهم نعيم بن حماد عن الحسن (كنز العمال ٣٤٩ / ١١). والديلمي (الخصائص الكبرى ١٩٩ / ٢).

(٤) الحديث روي بسند صحيح كل من الحاكم والترمذي والبيهقي وابن جرير وغيرهم. وقد خرجناه فيما مضى.

(٥) ابن أبي الحديد ٦٨٦ / ٤.

(٦) ابن أبي الحديد ٦٨٧ / ٤.

(٧) رواه الطبراني ورجاله ثقات (الزوائد ٢٤٤ / ٦).

٤ - وفاء وحقائق على الطريق:
كان معاوية في الكوفة، وعلى امتداد الطريق من الكوفة إلى المدينة يبعث إلى كل من يعرفه ويسألهم عن علي بن أبي طالب. وكان يريد من وراء ذلك الوقوف على أسباب حب الناس لعلي ليقوم بعد ذلك بوضع منهج ثقافي يتصدى لعلي بعد وفاته. ومن الذين التقى بهم معاوية خالد بن المعمر. قال معاوية له: كيف حبك لعلي؟ قال: أحبه لثلاث خصال: على حلمه إذا غضب، وعلى صدقه إذا قال، وعلى وفائه إذا وعد (١). وروي أنه بعث إلى امرأة يقال لها دارمية الحجونية وقال لها: أتدري لم بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله، قال: بعثت إليك لأسألك علام أحببت عليا وأبغضتني ووواليته وعاديتني؟ قالت: أو تعفيني، قال: لا أعفيك. قالت: أما إذا أبيت، فإني أحببت عليا على عدله في الرعية، وقسمه بالسوية، وأبغضتك على قتالك من هو أولى منك بالأمر، وطلبتك ما ليس لك بحق. ووواليت عليا على ما عقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم تشير إلى قوله: من كنت مولاه... - وحبه المساكين وحكمك بالهوى. فقال لها: يا هذه، هل رأيت عليا؟ قالت: أي والله. فقال: فكيف رأيته قالت: رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك. ولم تشغله النعمة التي شغلتك، فقال: فهل سمعت كلامه؟ قالت: نعم والله، فكان يجلو القلب من العمى كما يجلو الزيت صدأ الطست (٢).
وروي أنه بعث إلى امرأة تدعى الزرقاء بنت عدي. فعندما دخلت عليه قال: مرحبا وأهلا. كيف كنت في مسيرك؟ أتدرين فيم بعثت إليك؟ قالت: إني لي بعلم ما لم أعلم! قال: ألست الراكبة الجمل والواقفة بين الصفين يوم صفين تحضين على القتال، وتوقدين الحرب، فما حملك على ذلك؟ فقالت: يا معاوية مات الرأس، وبتر الذنب، ولم يعد ما ذهب، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث

---

(١) العقد الفريد ٢٨٢ / ٢.
(٢) العقد الفريد ١١٥ / ٢.

بعده الأمر. قال: صدقت. أتحفظين كلامك يوم صفين؟ فقالت: لا. قال: لكني أحفظه. لله أبوك حين تقولين: أيها الناس، إنكم قد أصبحتم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم، وجارت بكم عن قصد المحجة، فيا لها من فتنة عمياء صماء بكماء، لا تسمع لناعقها ولا تنساق لقائدها. إن المصباح لا يضئ في الشمس، ولا تنير الكواكب مع القمر، ولا يقطع الحديد إلا الحديد، فصبرا يا معشر المهاجرين والأنصار على الغضض. فكأن قد اندمل شعب الشتات، والتأمت كلمة العدل، دفع الحق باطله، فلا تجهلن أحد فيقول: كيف العدل وأنى ليقضي الله أمرا كان مفعولا. ألا وإن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، ولهذا اليوم ما بعده، والصبر خير في الأمور عواقبا...

ثم قال معاوية: والله يا زرقاء لقد شركت عليا في كل دم سفكه. فقالت: أحسن الله بشارتك، وأدام سلامتك،، فمثلك بشر بخير وسر جليسه. قال أو يسرك ذلك؟ فقالت: نعم والله. لقد سررت بالخبر فأنى لي بتصديق الفعل. قال معاوية: والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له في حياته (١).

وروي أنه أمر بأن تحمل إليه أم الخير بنت الحريش بن سراقة. وعندما حضرت قال معاوية: أيكم يحفظ كلامها؟ فقال رجل: أنا أحفظ بعض كلامها. كانت تقول: أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم. إن الله قد أوضح لكم الحق، وأبان الدليل، وبين السبيل، ورفع العلم، ولم يدعكم في عمياء مبهمة، ولا سوداء - مدلهمة. فأين تريدون رحمكم الله. أفرارا عن أمير المؤمنين. أم فرارا من الزحف. أم رغبة عن الإسلام. أم ارتدادا عن الحق. أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول: (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم). ثم رفعت رأسها إلى السماء يومئذ وقالت: اللهم قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشرت الرغبة، وبيدك يا رب أزمة القلوب، فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، وأردد الحق إلى أهله. هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والرضي التقي، والصديق الأكبر،

---

(١) العقد الفريد ١٠٨ / ٢.

إنها إحن بدرية، وأحقاد جاهلية، وضغائن أحدية. وثب بها واثب حين الغفلة، ليدرك ثارات بني عبد شمس. ثم قالت يومئذ قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون. صبرا يا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم. فكأني بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة فرت من قسورة، لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض. باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى، وعما قليل ليصبحن نادمين حين تحل بهم الندامة، فيطلبون الإقالة ولات حين مناص. إنه من ضل والله عن الحق وقع في الباطل. ألا إن أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرفضوها، واستطابوا الآخرة فسعوا لها، فالله الله أيها الناس، قبل أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان. فإلى أين تريدون رحمكم الله؟ عن ابن عم رسول الله صلى عليه وسلم، وصهره وأبي سبطيه، خلق من طينته وتفرع من نبعته (١)، وخصه بسره (٢)، وجعله باب مدينته (٣)، وأبان ببغضه المنافقين (٤). وها هو ذا مغلق السهام، ومكسر الأصنام (٥)، صلى والناس مشركون (٦) - وأطاع والناس كارهون،، وقتل مبارزي بدر، وأفنى أهل أحد، وهزم الأحزاب، وقتل الله به أهل خيبر (٧)، مفرق به جمع هوزان، فيا لها

---

(١) تقصد قول النبي: " إن الله تعالى جعل ذريتي في صلب علي "، رواه الطبراني عن جابر وابن عباس (كنز ٦٠٠ / ١١).

(٢) تقصد حديث النجوى وغيره في حديث النجوى حديث صحيح رواه الترمذي (الجامع ٦٣٩ / ٥).

(٣) تقصد حديث " أنا مدينة العلم وعلي بابها " وهو حديث صحيح وله طرق ضعيفة. وركز القوم على طرقه الضعيفة.

(٤) تقصد حديث " لا يبغضه إلا منافق " ورواه مسلم وغيره.

(٥) تقصد حديث تكسيره الأصنام مع رسول الله. ورواه البخاري.

(٦) تقصد حديث " أنا أول من أسلم " رواه الترمذي وصححه (الجامع ٦٤٢ / ٥) وحديث " أنا أول من صلى " رواه الإمام أحمد ورجاله ثقات (الزوائد ١٠٣ / ٩).

(٧) تقصد حديث " لأدفعن الراية غدا إلى رجل يحبه الله ورسوله " والحديث رواه البخاري وأحمد (البخاري ١٦٦ / ٢) الفتح الرباني ١٢٢ / ٢٣.

من وقائع زرعت في قلوب نفاقا وردة وشقاقا – وزادت المؤمنين إيمانا.
فقال معاوية: يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي، ولو قتلتك ما حرجت في ذلك. قالت: والله ما يسوءني في أن يجري قتلي على يدي من يسعدني الله بشقائه (١).
وروي أن عكرشة بنت الأطرش بن رواحة دخلت على معاوية متوكئة على عكازها، فسلمت عليه بالخلافة ثم جلست. فقال لها معاوية: الآن يا عكرشة صرت عندك أمير المؤمنين. قالت: نعم إذ لا علي حي، فقال: ألست المتقلدة حمائل السيف بصفين، وأنت واقفة بين الصفين تقولين: أيها الناس عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم. إن الجنة لا يرحل عنها من قطنها، ولا يهرم من سكنها، ولا يموت من دخلها، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تنصرم همومها، وكونوا قوما مستبصرين في دينهم، مستظهرين بالصبر على طلب حقهم. إن معاوية دلف إليكم العرب غلف القلوب. لا يفقهون الإيمان ولا يدرون ما الحكمة. دعاهم بالدنيا فأجابوه واستدعاهم إلى الباطل فلبوه. ثم قال: فكأني أراك على عصاك هذه، وقد انكفأ عليك العسكران يقولون: هذه عكرشة بنت الأطرش، فإن كدت لتقتلين أهل الشام لولا قدر الله، وكان أمر الله قدرا مقدورا، فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين قال تعالى: " يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم)، وإن اللبيب إذا كره أمرا لا يحب إعادته. قال: صدقت فاذكري حاجتك. قالت: إنه كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فترد على فقرائنا، وإنا فقدنا ذلك، فقال معاوية: هيهات يا أهل العراق نبهكم علي بن أبي طالب فلن تطاقوا (٢).
لم يكن سهلا على معاوية أن يتلقى صفعات الحقائق من النساء المسلمات، ولكن معاوية عندما يستمع فإنما يستمع لهدف. ولقد اختار من النساء التي تشتهر بين قومها بالبلاغة، واختار أن يسمع من النساء، لأن الكلمات

---

(١) العقد الفريد ١١٩ / ٢.
(٢) العقد الفريد ١١٢ / ٢.

ستخرج بلا خوف من سيوف وقيود. وبعد أن استمع، تحرك ركبه إلى المدينة.
وروي أنه لما قدم المدينة، تلقته رجال من وجوه قريش فقالوا: الحمد لله الذي أعز نصرك، وأعلا أمرك، فما رد عليهم جوابا حتى دخل المدينة. فقصد المسجد ثم قال: أما بعد فإني والله ما وليت أمركم حين وليته وأنا أعلم أنكم لا تسرون بولايتي ولا تحبونها، وإني لعالم بما في نفوسكم من ذلك، ولكني خالستكم بسيفي هذا مخالسة، ولقد رمت نفسي على عمل ابن أبي قحافة، فلم أجدها تقوم بذلك ولا تقدر عليه. وأردتها على عمل ابن الخطاب، فكانت أشد نفورا وأعظم هربا من ذلك. وحاولتها على مثل سنيات عثمان فأبت علي. وأين مثل هؤلاء؟ ومن يقدر على أعمالهم؟ هيهات أن يدرك فضلهم أحد ممن بعدهم. غير أني سلكت بها طريقا لي فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكن فيه مواكلة حسنة، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة. فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم. والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دبر أذني، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فارضوا مني ببعضه... وإياكم والفتنة فلا تهموا بها... (١).

وأهم معالم الخطاب أن لكل خليفة طريقة، وبما أن معاوية لا يدرك فضل الذين سبقوه رضوان الله عليهم، فإنه ستكون له سنة خاصة به فيها منفعة له ولهم. وفي جميع الأحوال فهو قد وضع نفسه في دائرة الخير " فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم "، وفي جميع الأحوال فهو في دائرة الحق " وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فارضوا مني ببعضه "، وفي جميع الأحوال فإن هذا هو الدين الذين نزل به جبريل الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم.

وروي أن معاوية لقي أبا قتادة الأنصاري في المدينة فقال له: تلقاني الناس كلهم غيركم يا معشر الأنصار. فقال: لم يكن لنا دواب. قال: فأين النواضح؟ فقال: عقرناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر. ثم قال: إن النبي صلى الله عليه

---

(١) البداية والنهاية ١٣٢ / ٨.

وآله وسلم قال لنا: إنكم سترون بعدي آثرة. فقال معاوية: فما أمركم؟ قال: أمرنا أن نصبر. فقال معاوية: فاصبروا وعندما بلغ عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ذلك قال:

ألا أبلغ معاوية بن حرب * أمير المؤمنين نبأ كلامي
فإنا صابرون ومنظروكم * إلى يوم التغابن والخصام (١).

وروي أنا أبا أيوب الأنصاري قال لمعاوية: أنبأني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سنرى بعده أثرة. فقال معاوية: فيم أمركم. قال: أمرنا أن نصبر. فقال: اصبروا إذا (٢)، وروي أن مروان أقبل فوجد أبا أيوب الأنصاري عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم واضعا وجهه على القبر ويبكي، فقال له مروان: أتدري ما تصنع، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا على الدين إذا وليه غير أهله (٣).

وروي أن أروى بنت الحارث بن عبد المطلب دخلت على معاوية، وهي عجوز كبيرة، فقالت: يا ابن أخي، لقد كفرت يد النعمة، وأسأت لابن عمك الصحبة، وتسميت بغير اسمك، وأخذت غير حقك من غير بلاء كان منك، ولا من آبائك ولا سابقة في الإسلام، بعد أن كفرتم برسول الله صلى الله عليه وسلم. فأتعس الله منكم الجدود، وأضرع منكم الخدود، ورد الحق إلى أهله ولو كره المشركون. وكانت كلمتنا هي العليا ونبينا صلى الله عليه وسلم هو المنصور، فوليتم علينا بعده تحتجون بقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ونحن أقرب إليه منكم، وأولى بهذا الأمر، فكنا فيكم بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون. وكان علي بن أبي طالب رحمه الله بعد نبينا صلى الله عليه

---

(١) تاريخ الخلفاء ١٨٨ / ١.
(٢) رواه الطبراني وقال الهيثمي رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح (الزوائد ٣٢٣ / ٩).
(٣) رواه الطبراني وقال الهيثمي فيه كثير بن زيد وثقه أحمد وغيره (الزوائد ٢٤٥ / ٥) ورواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرك ٥١٥ / ٤) ورواه أحمد (الفتح الرباني ٣٢ / ٢٣).

وسلم بمنزلة هارون من موسى، فغايتنا الجنة، وغايتكم النار، فقال لها عمرو بن العاص: كفى أيتها العجوز الضالة، واقصري من قولك مع ذهاب عقلك. إذ لا تجوز شهادتك وحدك. فقالت له: وأنت يا ابن النابغة تتكلم، وأمك كانت أشهر امرأة تغني بمكة وآخذهن الأجرة. ادعاك خمسة نفس من قريش، فسألت أمك عنهم فقالت: كلهم أتى فانظروا أشبههم به فالحقوه به، فغلب عليك شبه العاص بن وائل فلحقت به. فقال مروان: كفى أيتها العجوز واقصدي لما جئت له. فقالت: وأنت أيضا يا ابن الزرقاء تتكلم. ثم التفتت إلى معاوية فقالت: والله ما جرأ علي هؤلاء غيرك. فإن أمك القائلة في قتل حمزة:

نحن جزيناكم بيوم بدر * والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان لي عن عتبة من صبر * وشكر وحشي علي دهري
حتى ترم أعظمي في قبري

فأجابتها بنت عمي وهي تقول:

خزيت في بدر وبعد بدر * يا بنة جبار عظيم الكفر

فقال معاوية: عفا الله عما سلف، هات حاجتك. قالت: ما لي إليك حاجة وخرجت عنه (١)، وروي أن سعنة بن عريص قال لمعاوية: أنشدتك الله يا معاوية أما تذكر يا معاوية لما كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء علي بن أبي طالب، فاستقبله النبي صلى الله عليه وسلم وقال: قاتل الله من يقاتلك وعادى من يعاديك، فقطع عليه معاوية حديثه وأخذ معه في حديث آخر (٢).

ما زلنا نرى الأحداث ومعاوية في المدينة، ولم يبق أمامنا إلا أن نرصده عند بيت عثمان الذي كان قميصه لافتة كبرى عند بداية الأحداث. روي أن واثلة صحابي رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على معاوية. فقال له معاوية:

---

(١) العقد الفريد ١٢١ / ٢.
(٢) قال في الإصابة رواه ابن شيبة (الإصابة ٩٤ / ٣).

ألست من قتلة عثمان؟ قال: لا ولكني ممن حضره فلم ينصره. فقال: وما منعك من نصره؟ قال: لم تنصره المهاجرون والأنصار. فقال معاوية: أما لقد كان حقه واجب عليهم أن ينصروه. قال: فما منعك يا أمير المؤمنين من نصره ومعك أهل الشام؟ فقال: أما طلبي بدمه نصرة له؟ فضحك أبو الطفيل ثم قال: أنت وعثمان كما قال الشاعر:

لا ألفينك بعد الموت تندبني * وفي حياتي ما زودتني زادا (١)

وروي أن معاوية عندما دنا إلى باب دار عثمان بن عفان صاحت عائشة بنت عثمان وندبت أباها. فقال لها معاوية: يا بنت أخي، إن الناس أعطونا سلطاننا، فأظهرنا لهم حلما تحته غضب. وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، فبعناهم هذا بهذا، وباعونا هذا بهذا، فإن أعطيناهم غير ما اشتروا منا، شحوا علينا بحقنا وغمطناهم بحقهم. ومع كل إنسان منهم شيعة، وهو يرى مكان شيعته. فإن نكثناهم نكثوا بنا، ثم لا ندري أتكون لنا الدائرة أم علينا. وأن تكوني ابنة عثمان أمير المؤمنين. أحب إلي أن تكوني أمة من إماء المسلمين. ونعم الخلف أنا لك بعد أبيك (٢).

وهكذا اندثرت لافتة " قميص عثمان " بعد أن حققت أهدافها، وأصبح معاوية نعم الخلف لأبناء عثمان بعد أبيهم. وعلى امتداد الطريق من الكوفة إلى المدينة، وضع معاوية يده على حقائق منها أن حب علي بن أبي طالب في القلوب، وأن تعاليمه راسخة رسوخ الجبال، ولن يكون من السهل انفراد الحكام ببيوت المال، وأن حقه واضح ومنزلته من الرسول لا تحتاج إلى بيان طويل. وفوق كل هذا علم معاوية أن تاريخه الأموي تاريخ مكشوف أمام المهاجرين والأنصار، وأن كل ما ادعاه في حربه مع علي أصبح مفضوحا على ساحة المدينة وما حولها. وأما هذا وغيره، أقدم معاوية على سياسة يتم من خلالها التعتيم على دائرة الطهر، وفي الوقت نفسه تصنع له تاريخ.

---

(١) تاريخ الخلفاء ١٨٧ / ١.

(٢) البداية والنهاية ١٣٣ / ٨.

٥ – نظرات في مقعد جديد:
من الشام بدأ معاوية في إدارة شؤون الخلافة وروي أنه قال على منبر دمشق: " أيها الناس اعقلوا قولي. فلن تجدوا أعلم بأمور الدنيا والآخرة مني... " (١). وكان قد أعلن في المدينة من قبل: " فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم ". فمعاوية وضع نفسه في دائرة العلم ودائرة الخير، ولكن الباحث يجد أن الحقيقة تخالف ذلك. أولا: لأن الأمة على أعتاب توجيه ضربة إلهية بما قدمت يداها وهذا ثابت في أحاديث صحيحة، كما أن فتح أبواب كل شئ على الذين نسوا ما ذكروا به سنة كونية وحقيقة قرآنية. وقد تكون دوائر العلم والخير الخاصة بمعاوية في ظاهرها علم وخير، ولكن الحقيقة التي لا جدال فيها أن في باطنها فتنة ليس فيها علم يرى. وثانيا: أن بني أمية بالذات على أيديهم يأتي ما ذكرناه في أولا. فمعاوية وإن كان يعمل لصالح نفسه أو أسرته هو في الحقيقة صورة من صور العذاب، كما أن الحجاج بن يوسف صورة من صوره. وقتال الإمام علي لمعاوية كان في الحقيقة أخذا بالأسباب لصد هذه الصورة التي تحمل معالم العذاب، والتي هي نتيجة طبيعية لأعمال الناس. وصد الإمام لهذه الصورة لا يكون إلا بدفع الناس إلى الصراط المستقيم، لأن أعمالهم على الصراط المستقيم ستفتح عليهم بركات من السماء، بينما أعمالهم على أي خط آخر ستأتي بصور العذاب حيث تفتح عليهم أبواب كل شئ عدا البركة. فالدعوة تعمل من أجل فتح أبواب وغلق أبواب، كي تصل القافلة البشرية سالمة غانمة إلى كمالها وأهدافها العليا.
فإذا وجدنا معاوية يخطب على المنابر، فيجب أن نضع نصب أعيننا أن النبي صلى الله عليه وسلم ساءه ذلك عندما أراه الله بني أمية ينزون على منبره نزو القردة. وإذا قال معاوية على منبر دمشق: " لن تجدوا أعلم مني بأمور الدنيا والآخرة " فيجب أن نعلم أن معاوية باغي، وأن الناس تخاذلوا ولم يردوه عن

---
(١) البداية والنهاية ١٣٢ / ٨.

بغيه، لهذا عبر إلى المنبر، وأن للباغي عقوبة عند الله، ومن ركب قطاره أصابته العقوبة. أخرج ابن مردويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ثلاث قد فرغ الله من القضاء فيهن. لا يبغين أحدكم. فإن الله تعالى يقول: (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم)، ولا يمكرن أحد، فإن الله تعالى يقول: (ولا يحيق المكر السئ إلا بأهله "، ولا ينكث أحد. فإن الله تعالى يقول: (من نكث فإنما ينكث على نفسه) (١).

إنها محطات ثلاث، من ركب في قطار واحدة منهن فلا يلومن إلا نفسه

قال النبي صلى الله عليه وسلم: " تعرض الفتن على القلوب، فأي قلب أنكرها نكتت في قلبه نكتة بيضاء، وأي قلب لم ينكرها نكتت في قلبه نكتة سوداء. حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربدا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه " (٢)، أو قال: " إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها،، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها " (٣).

إنها محطات ثلاث، ولا تخفى واحدة على أحد، أخرج ابن جرير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم. قيل: كيف؟ فقرأ قوله تعالى: (فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) (٤)، يعني أنهم لا يهلكون حتى تكثر ذنوبهم فيستوجبون العقوبة، ويكون لمن يعذبهم عذر (٥).

إن معاوية نزل بالخلافة إلى أرض الشام، بل وحاول أن ينقل منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هناك. وإذا كان قد أعلن من هناك، أنه

---

(١) الدر المنثور ٣٠٣ / ٣.
(٢) رواه أحمد والحاكم وصححه (كنز العمال ١١٩ / ١١)، (المستدرك ٤٦٨ / ٤).
(٣) رواه أبو داوود حديث ٤٣٤٥.
(٤) عون المعبود ٥٠٢ / ١١.
(٥) عون المعبود ٥٠٢ / ١١.

أعلم الناس بأمور الدنيا والآخرة، فإن الباحث يرد عليه قوله، ويقول: إن هذا القول يعارض الحقيقة التي أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال لابن حولة: يا ابن حولة إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام... " (١).

وقال الأمين الصادق صلى الله عليه وسلم: " لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا. يظهر النفاق، وترفع الأمانة وتقبض الرحمة، ويتهم الأمين، ويؤتمن الخائن " (٢).

٦ – اتهام الأمين:

كان التعتيم على مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب شيئا طبيعيا على امتداد القرن الأول بصفة خاصة. فعمر بن الخطاب عندما خاف على الإسلام أمر بعدم الرواية، وهدد العديد من الصحابة الذين كانوا يروون الحديث. ولقد سجل البخاري منع عمر للرواية وعدم الأخذ بها من حديث أبي موسى عندما استأذن (٣). ولقد تحدثنا عن ذلك في موضعه، وذكرنا أنه قد ترتب على ذلك خفوت أصوات وظهور أصوات أخرى. وعندما جاء عهد علي بن أبي طالب، كان القص قد غذى الساحة بعد أن خلت من الرواية. لهذا واجه الإمام صعوبات كثيرة ليبين للناس من هو، وشقت الرواية طريقها في الصخور، وعلم الناس بعض مناقب الإمام. ولم يكن كل من علم راسخ العقيدة، وذلك لأن الإمام لم يسهر على تربيتهم، فالغالب الأعم منهم كان قريبا من ثقافة الوليد بن عقبة وأبو

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داوود والحاكم وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي " الفتح الرباني ٢٩ / ٢٤ ".

(٢) عند البخاري ضياع الأمانة. إذا أسند الأمر إلى غير أهله (الصحيح ١٢٨ / ٤) ك الدعوات، ب رفع الأمانة.

(٣) رواه الحاكم (كنز العمال ١٢٧ / ١١) وروى صدر الحديث أحمد والترمذي وابن ماجة وغيرهم.

زبيد الشاعر. وعندما رأى معالم العدل تحت راية الإمام ابتعد عن ثقافة الوليد وغيره، واقترب من ثقافة الإمام. وهؤلاء منهم من نصر الإمام، ومنهم من خذله. وكانت حركة الإمام تعتمد على الصحابة الأجلاء، وعلى الصادقين من التابعين. وعندما قتل هؤلاء لم تكن الخطورة قط على الجانب العسكري، وإنما كانت أيضا على دوام الرواية.

وإذا كان بين أيدينا حديث صحيح يقول: إذا نزلت الخلافة الأرض المقدسة فقد دنت البلايا، وإذا كان بين أيدينا أحاديث تحذر من البغي ومن بني أمية، فلا عجب إذا رأينا بني أمية يعملون من أجل تشويه الخط الرسالي، فإذا لم يشوهوا هذا الخط فأي خط يشوهون؟ وإذا كان تشويههم لغير الخط الرسالي فلماذا كان حزن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما أراه الله بني أمية على منبره؟ إن معنى وجودهم على المنبر إشارة إلى اغتصابه، وإشارة إلى أنهم نازعوا الأمر أهله. ومعنى تشويه الخط الرسالي، أي العمل من أجل تزيين خط آخر يكون مشابها للخط الرسالي في الصورة، بهدف أن يهرع أصحاب الأهواء إلى الخط المزخرف نظرا لوجود مطالب كل صاحب هوى على هذا الطريق. ونظرا لأن هذه المطالب تحميها فتاوى علماء الضلال الذين حذر النبي صلى الله عليه وسلم حذيفة منهم. قال حذيفة: "... قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم. دعاة إلى أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركت ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك " (١).

فهؤلاء لا بد من وجود من يمهد إليهم، لا بد من وجود من يمهد لأكثر من سبعين فرقة وتنجوا واحدة. وإذا كان الحديث قد صرح بأنه سيكون زمان لا

---

(١) رواه البخاري ك بدء الخلق (الصحيح ٢٨٠ / ٢) ورواه غيره ولقد تكلمنا عن الحديث فيما سبق.

جماعة فيه ولا إمام، فإن هناك حديث آخر صرح بأنه من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية (١). لهذا لم يهمل الحديث الذي رواه حذيفة موضع الإمام في الزمان الذي لا يكون فيه جماعة ولا إمام، وهو قوله: " فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة ". لم يقل اعتزل وكفى ولا تحققت الموتة الجاهلية، وإنما قال: " ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك "، وفي رواية: " قال حذيفة: ثم ماذا؟ قال: ثم يخرج الدجال " (٢)، فإذا كان الدجال شجرة رجس، فأي شجرة التي تقابل الرجس؟ فإذا قلنا إنها شجرة المهديين؟ فما هو الدليل على أنهم مهديين؟

ونحن لا نريد أن نطيل في هذا البحث. وبالجملة فلن يكون معاوية صاحب هذه الشجرة، أعني شجرة المهديين، وذلك لوجود أحاديث تقول خلاف هذا. وإذا أردنا أن نضع أيدينا على أصل الشجرة فإني أسوق الحديث الصحيح الذي أورده السيوطي في تاريخ الخلفاء، فقال: أخرج الطبراني في الأوسط بسند صحيح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الناس من شجر شتى، وأنا وعلي من شجرة واحدة (٣)، وروى الديلمي: " أنا وعلي من شجرة واحدة والناس من أشجار شتى " (٤) وروى الحاكم: " يا علي الناس من شجر شتى " وأنا وأنت من شجرة واحدة " (٥).

فالظالمين من بني أمية هدفهم تشويه الخط الرسالي، وذلك بإنشاء خط جديد مشابه له. والنبي صلى الله عليه وسلم حذر من هذا، وأغلق الأبواب أمام هذه الأعمال، فقال:

"... فإن للقرآن منار كمنار الطريق فما عرفتم فخذوه وما أنكرتم فردوه إلى

---

(١) رواه ابن أبي عاصم وحسنه الألباني (كتاب السنة ٥٠٣ / ٤) ورواه غير واحد ولقد بينا ذلك فيما سبق.

(٢) رواه أبو داود حديث ٤٢٤٤.

(٣) تاريخ الخلفاء ١٦٠ / ١.

(٤) الديلمي (كنز العمال ١٦٨ / ١١).

(٥) الحاكم (كنز العمال ١٦٨ / ١١).

عالمه " (١). ولقد قتلوا عالمه، ونتيجة لذلك يمكن أن نفهم قوله النبي صلى الله عليه وسلم: " كتاب الله يضلون، وأول ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم " (٢)، فهم ضلوا لأن هناك أشياء لا يعلمونها في كتاب الله. وبما أنهم قتلوا عالمه واعتزلوا أهل بيته لا يستبعد أن يتحقق الضلال، ويرتفع النفاق، ليتحقق قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " أكثر منافقي أمتي قراؤها " (٣).

من هنا يمكن أن نعلم حقيقة الخط المشابه للخط الرسالي. الذي أخذ على عاتقه تمزيق الأمة ولكن تحت الراية المزخرفة التي تقول بالجماعة. لا يهم أن تتمزق الأمة ولكن المهم أن تكون الجماعة على رأس الحكم.

وتيارات التشويه دائما ما تلجأ إلى التشويه الغير مباشر، فكتاب الله لا يمكن أن تمتد إليه يد أو عقل لإحداث تشويه فيه، فهذا من المحال. وإنما تمتد عقولهم إلى تفسيره وتأويله، فتفرغه من المحتوى السياسي الذي يتعارض مع أهداف جماعة الحكم. والقارئ للقرآن يعلم أنه يتعرض للأحداث الكبرى ويقدم لها الحلول، ولقد سلط الأضواء على الانحرافات الكبرى على امتداد التاريخ البشري وبينها للأمة الخاتمة – وحذر من الوقوع على طريقها، وهذا كله عند تيارات التشويه لا يلتفت إليه إلا في حدود. وفي الغالب الأعم يقرؤن القرآن قراءة لا تجاوز تراقيهم في المآتم وحول الأضرحة، وفي أندية النفاق حيث المباخر والشعوذة والدجل.

وكما أن كتاب الله لا يمكن أن تمتد إليه يد أو عقل للتشويه فيه، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم. فتيار التشويه داخل الأمة لا يقترب من مكانة النبوة، وإلا سيفقد وجوده على الكرسي. ولكي يتجنب ذلك يفعل ما فعله مع القرآن، بمعنى أن يكذب على النبي فيحدث التباسا بين ما قيل وبين ما لم يقال. وهذا الطريق ينتج الإنسان المشوه. أو يقوم بضرب الخط الذي ينتسب إلى النبي

---

(١) رواه الطبراني (الزوائد ١٨٧ / ١).
(٢) رواه ابن أبي عاصم وفيه من ضعف (كتاب السنة ١٣٢ / ١).
(٣) رواه أحمد والطبراني وقال الهيثمي أحد أسانيد أحمد ثقات أثبات (الزوائد ٢٢٩ / ٦).

، أقصد الخط الرسالي، أو ينسب إلى كل ما هو برئ منه.
فإذا حدث هذا فهو أمام العامة لم يقترب من ساحة النبوة، بمعنى روي في حديث صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من آذى عليا فقد آذاني " (١). فخط التشويه يوجه الأذى إلى علي، ويمكن للعامة أن تتقبل ذلك. ولكن الحقيقة أن عليا لم يكن هو الهدف، وهذا لا يفهمه إلا عاقل منصف.
ولقد كان النبي يغضب عندما يؤذي أحد عليا. فعن سعد بن أبي وقاص قال: كنت جالسا في المسجد أنا ورجلين معي، فنلنا من علي، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبان يعرف في وجهه الغضب، فتعوذت بالله من غضبه فقال: ما لكم وما لي!!؟ من آذى عليا فقد آذاني (٢)، لم يقل: ما لكم وعلي، وإنما قال: ما لكم وما لي. وعلي هذا المقياس نفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: " من سب عليا فقد سبني " (٣).
وروي أن رجلا من أهل الشام جاء فسب عليا عند ابن عباس، فحصبه ابن عباس وقال: يا عدو الله أذيت رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا " (٤).
وروي أن معاوية أصدر العديد من القرارات بعد عودته من المدينة إلى الشام. روى المدائني: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: برأت الذمة ممن روى شيئا في فضل أبي تراب وأهل بيته، فقام الخطباء من كل كورة، وعلى كل منبر، يلعنون عليا ويبرأون منه ويوقعون فيه وفي أهل بيته " (٥)، ثم كتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: " لا تجيزوا لأحد من شيعة علي

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله ثقات (الزوائد ١٢٩ / ٩).
(٢) رواه أبو يعلى ورجاله ثقات (الزوائد ١٢٩ / ٩).
(٣) رواه أحمد ورجاله ثقات (الفتح ١٣٠ / ٩) والحاكم وصححه (المستدرك ١٢١ / ٣).
(٤) رواه الحكم وأقره الذهبي (المستدرك ١٥٢ / ٣).
(٥) ابن أبي الحديد ٥٩٥ / ٣.

وأهل بيته شهادة " (١)، ثم كتب إليهم: أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته، والذين يرون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم، واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته " (٢). وبعد أن كثر الحديث في فضائل عثمان ومناقبه كتب إليهم: إن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر. فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبرا يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة. فإن هذا أحب إلى وأقر لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته " (٣)، ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة: انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب عليا وأهل بيته. فامحوه من الديوان. وأسقطوا عطاءه ورزقه " (٤)، وشفع ذلك بنسخة أخرى: من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم، فنكلوا به واهدموا داره " (٥).

وترتب على هذه القرارات أن الكذابين والجاحدين وجدوا لكذبهم وجحودهم موضعا يتقربون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمال السوء في كل بلد، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة، ورووا ما لم يقله الخط الرسالي وما لم يفعلوه ليبغضوهم إلى الناس، وقرأت الكتب على الناس، ورويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها. وترتب على ذلك اشتداد البلاء ولا سيما بالكوفة، حتى أن الرجل من شيعة علي كان يخاف من خادمه ومملوكه. كان هذا في زمن معاوية وتفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام، وبعد أن ولي عبد الملك بن مروان وأتي بالحجاج بن يوسف. فلم يبق أحد إلا وهو خائف على دمه أو طريد في الأرض.

---

(١) المصدر السابق ٥٩٥ / ٣.
(٢) المصدر السابق ٥٩٥ / ٣.
(٣) المصدر السابق ٥٩٦ / ٣.
(٤) المصدر السابق ٥٩٦ / ٣.
(٥) المصدر السابق ٥٩٦ / ٣.

إن للصحابة فضائل ومناقب ولم يكونوا في حاجة إلى إضافات جديدة.
ولكن هذه الإضافات لم يقصد بها الصحابة، لأن العديد منهم كانوا في رحمة الله ولا تفيدهم زيادات، وإنما كان المقصود أن تزاحم مناقب الصحابة مناقب أهل البيت ليحدث الالتباس. ولكن أهل الحديث الراسخين في علم الحديث. ذكروا كثيرا من الأحاديث الموضوعة، وبينوا وضعها وأن رواتها غير موثوق بهم. إلا أن المحدثين إنما يطعنون فيما دون طبقة الصحابة، ولا يتجاسرون على أحد من الصحابة لأن عليه لفظ (الصحبة) على أنهم قد طعنوا في قوم لهم صحبة كبسر بن أرطأة وغيره. ونحن لا نجحد فضل أحد من الصحابة، ولكننا نعلم أن بعض الأخبار الواردة فيهم موضوع.
وقرار سب علي بن أبي طالب على المنابر وقف منه الصحابة في دائرة الخوف. فمعاوية اهتم اهتماما ملحوظا بالأمن الداخلي، فبث العيون وسلح الحاميات العسكرية، وأعطى للأمراء في الأمصار حق التصرف في هذه القضايا. وأمام الأسوار حول المدن التي تمثل أي خطر عليه حتى مكة، يقول ابن كثير. " كانت أبواب مكة لا أغلاق لها وأول من اتخذ لها الأبواب معاوية " (١).
وليس معنى أن الصحابة كانوا في دائرة الخوف أنهم قبلوا ثقافة السب. فمنهم من رفضها وقتل في ذلك كحجر بن عدي وغيره، ومنهم من رفضها بحذر، ومنهم من رفض ووعظ، ومنهم الجهاز الذي أشرف على إتمام ثقافة السب، كعمرو بن العاص، ومروان بن الحكم، والمغيرة بن شعبة، وبسر بن أرطأة، ومعاوية بن خديج وغيرهم.
ولقد سجل مسلم عملية السب في صحيحه، وبهذا التسجيل لا يمكن أن يدعي مدعي أن السب كان خرافة أو لا أساس له من الصحة، وسجله غير مسلم في روايات صحيحة. وبداية عملية السب روي أن معاوية استعمل المغيرة بن شعبة على الكوفة فلما أمره عليها دعاه وقال له: لست تاركا إيصاءك بخصلة. لا

---

(١) البداية والنهاية ١٣٩ / ٨.

تترك شتم علي وذمه والترحم على عثمان والاستغفار له. والعيب لأصحاب علي والإقصاء لهم. والإطراء بشيعة عثمان والإدناء لهم " (١). فهذه الوصية التي رواها صاحب الكامل هي إجمالي ما رواه ابن أبي الحديد من قبل. وبدأت عملية السب، روى الطبراني بسند صحيح أن عمرو بن العاص صعد المنبر، فذكر عليا ووقع فيه، ثم صعد المغيرة بن شعبة، ووقع في علي، وكان الحسن بن علي بالمسجد. فقيل له اصعد. فقال: لا أصعد ولا أتكلم حتى تعطوني إن قلت حقا أن تصدقوني، وإن قلت باطلا أن تكذبوني، فأعطوه، فصعد المنبر فحمد الله وأثني عليه ثم قال: أنشدك بالله يا عمرو ويا مغيرة. ألا تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لعن الله السابق والراكب أحدهما فلان، قالا اللهم بلى. قال: أنشدك الله يا معاوية ويا مغيرة، ألا تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن عمرو بن العاص بكل قافية قالها لعنة، قالا: اللهم بلى. قال: أنشدك يا عمرو ويا معاوية، ألا تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن قوم هذا قالا: بلى، فقال الحسن: فإني أحمد الله الذي وقعتم فيه تبرأ من هذا (٢).

وهذا الحديث يحتاج إلى تفسير. فأما قوله: " لعن الله السابق والراكب. أحدهما فلان " فيقصد بذلك معاوية كما روى البغوي (٣) وقوله: " أن رسول الله لعن عمرو بن العاص بكل قافية قالها لعنة ". فلقد روي أن الذين كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مشركي مكة: أبو سفيان بن الحارث، وعبد الله بن الزيعري، وعمر بن العاص، وضرار بن الخطاب (٤)،

وكان أشدهم عمرو بن العاص وروي أن رسول الله قال: " اللهم إن عمرو بن العاص هجاني وهو يعلم أني لست بشاعر، فاهجه والعنه عدد ما

---

(١) الكامل ٢٣٤ / ٣، الطبري ١٠٨ / ٦.

(٢) رواه الطبراني وقال الهيثمي رواه عن شيخه زكريا بن يحيى وقال الذهبي: أحد الأثبات ما علمت فيه جرحا أصلا (الزوائد ٢٤٧ / ٧).

(٣) رواه الطبراني والبغوي (الإصابة ٥ / ٤).

(٤) أسد الغابة ٥ / ٢.

هجاني " (١) وإن كان في إسناد هذا الحديث مقال. فإن حديث الحسن يشهد بصحته. أما قوله: " إن رسول الله لعن قوم هذا " فإنه يقصد المغيرة بن شعبة، والمغيرة بن ثقيف (٢)، وفي الحديث الصحيح. إن بني أمية وثقيف وبني حنيفة من أبغض الناس إلى رسول الله (٣).

وهكذا رفع عنهم الحسن رضي الله عنه الغطاء الذي وضعه على جلودهم عالم اللارواية. لقد وقفوا ليلعنوا وهم في الحقيقة عليهم من الله لعنة. قال تعالى: (إن الذين يؤذون الله ورسوله. لعنهم الله في الدنيا والآخرة). ومن الذين سهروا من أجل انتشار ثقافة السب مروان بن الحكم الذي كان سببا رئيسيا في محاصرة الثوار لعثمان، ومروان هو قاتل طلحة يوم الجمل، ومروان وأبيه عليهما لعنة من الله على لسان رسوله. وصرح بذلك روايات صحيحة.

وأخرج ابن سعد أن مروان بن الحكم كان يسب عليا كل جمعة على المنبر (٤)، وروى أنه قال للحسن: أهل بيت ملعونون. فقال الحسن: أقلت أهل بيت ملعونون. فوالله لقد لعنك الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وأنت في صلب أبيك (٥). وروي عن أبي كثير قال: كنت جالسا عند الحسن بن علي فجاءه رجل فقال: لقد سب عند معاوية عليا سبا قبيحا رجل يقال له معاوية بن خديج. فلم يعرفه الحسن،، فقال: إذا رأيته فأتني به، فرآه الرجل عند دار عمرو بن حريث، فأراه إياه، فقال الحسن: أنت معاوية بن خديج؟ فسكت فلم يجبه - ثلاثا - ثم قال: أنت الساب عليا عند ابن أكلة الأكباد؟ أما لئن وردت عليه الحوض، وما أراك ترد، لتجدنه مشمرا حاسرا عن ذراعيه يذود الكفار والمنافقين عن حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم. قول الصادق

---

(١) رواه ابن عساكر (كنز العمال ٥٤٨ / ١٣).
(٢) الإصابة ١٣١ / ٦.
(٣) البيهقي (البداية والنهاية ٢٦٨ / ٦.
(٤) البداية والنهاية ٢٨٠ / ٨، تاريخ الخلفاء ١٧٧ / ١.
(٥) رواه أبو يعلى (الزوائد ٢٤٠ / ٥) وابن سعد وابن عساكر (كنز العمال ٣٥٧ / ١١) وذكره ابن كثير (البداية ٨ / ٢٨٠).

المصدوق محمد صلى الله عليه وسلم (١). ومعاوية بن خديج ذكره ابن سعد فيمن ولي مصر من الصحابة. أمره معاوية على الجيش الذي جهزه إلى مصر وبها محمد بن أبي بكر عاملا لعلي، فأخذوا ابن أبي بكر ووضعوه في بطن حمار وأشعلوا فيه النار.

أما الصحابة الذين لم يقبلوا ثقافة السب، ما رواه مسلم عن سهل، قال: استعمل على المدينة رجل من آل مروان، فدعا سهل بن سعد فأمره أن يشتم عليا، فأبى سهل. فقال له: أما إذا أبيت فقل لعن الله أبا تراب. فقال: ما كان لعلي اسم أحب إليه من أبي تراب، وإن كان ليفرح إذا دعي بها (٢)، وروى مسلم أيضا أن معاوية أمر سعد بن أبي وقاص فقال: ما منعك أن تسب أبا تراب (٣)؟ فعد عليه سعد بعض مناقب علي وقال: لو أن تكون لي واحدة منهن خيرا من أن تكون لي حمر النعم.

وعن عبد الرحمن بن البليماني قال: كنا عند معاوية. فقام رجل فسب عليا بن أبي طالب فقام سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل فقال: يا معاوية إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: هو مني بمنزلة هارون من موسى " (٤)

وعن أبي عمار قال: إني لجالس عند واثلة بن الأسقع، إذ ذكروا عليا فشتموه فلما قاموا. قال: اجلس أخبرك عن الذي شتموا. إني عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم إذ جاء علي وفاطمة وحسن وحسين فألقى عليهم كساءا ثم قال: " اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس

---

(١) رواه الطبراني بإسنادين (الزوائد ١٣١ / ٩)، والحاكم (المستدرك ١٣٨ / ٣)، وابن أبي عاصم (كتاب السنة ٣٦٠ / ٢).

(٢) رواه مسلم (الصحيح ١٨٢ / ١٥) في فضل علي.

(٣) رواه مسلم في فضل علي (الصبح ١٧٥ / ١٥) والحاكم وأقره الذهبي (المستدرك ١٠٩ / ٣).

(٤) رواه ابن أبي عاصم (كتاب السنة ٦٠٢ / ٢).

وطهرهم تطهيرا " (١).
وعن خالد بن عرفطة قال: أتيت سعد بن مالك فقلت: بلغني أنكم تعرضون على سب علي بالكوفة فهل سببته؟ قال: " معاذ الله والذي نفس سعد بيده، لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في علي شيئا لو وضع المنشار على مفرقي ما سببته أبدا " (٢)، ويقصد سعد يوم أن عاد من اليمن ودخل ليشكوا عليا وكان معه أبو بكر. فبينما هو في وسط كلامه قال له النبي: " سعد بن مالك بن الشهيد. مه بعض قولك لأخيك علي. فوالله لقد علمت أنه جيش في سبيل الله "، فقال سعد: فقلت في نفسي ثكلتك أمك سعد بن مالك. ألا أراني كنت فيما يكره منذ اليوم وما أدري. لا جرم والله لا أذكره بسوء أبدا سرا ولا علانية (٣).
وروي أن أبا الأسود الدؤلي وكان من شيعة علي ينزل بالبصرة في بني قشير، وكان جيرانه يرجموه بالليل لمحبته عليا وأهل بيته. فإذا ذكر رجمهم له قالوا: إن الله يرجمك فيقول لهم: تكذبون لو رجمني الله لأصابني، ثم باع الدار، فقيل له: بعت دارك! فقال: بل بعت جاري (٤). وروى الزمخشري في ربيع الأبرار: سأل زياد بن أبيه أبا الأسود عن حب علي فقال: إن حب علي يزداد في قلبي كما يزداد حب معاوية في قلبك، وإني أريد الله والدار الآخرة بحبي عليا، وأنت تريد الدنيا وزينتها بحبك معاوية. ويقصد بذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: " علي يعسوب المؤمنين والمال يعسوب المنافقين " (٥).
وروي أن معاوية قال لصعصعة بن صوحان. اصعد المنبر فالعن عتيا.

---

(١) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٦١ / ٩)
(٢) رواه أبو يعلى وإسناده حسن (الزوائد ١٣٠ / ٩) ابن أبي عاصم (كتاب السنة ٦٠٤ / ٢).
(٣) رواه البيهقي (البداية والنهاية ٣٤٦ / ٧) ولقد قدمنا الحديث بطوله في موضعه.
(٤) حياة الحيوان / الدميري في آخر باب الدال.
(٥) رواه ابن عدي وغيره (كنز العمال ٤ - ٦ / ١١).

فامتنع من ذلك وقال: أو تعفيني؟ قال: لا. فصعد صعصعة المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: معاشر الناس إن معاوية أمرني أن ألعن عليا. فالعنوه لعنه الله (١).

وهكذا مرت ثقافة السب. ولقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الثقافة وبين أهدافها الحقيقية. روى عن عبد الله الجدلي أنه قال: دخلت على أم سلمة رضي الله عنها فقالت لي: أيسب رسول الله صلى الله عليه وسلم!؟ قلت: معاذ الله أو سبحان الله. قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من سب عليا فقد سبني (٢).

أنظر إلى قول أم المؤمنين: أيسب رسول الله فيكم؟ إنها لم تقل: أيسب علي فيكم: لأن عليا درجة على طريق طاهر طويل. وفي مواجهة أخرى قالت أم المؤمنين أم سلمة: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من سب عليا فقد سبني، ومن سبني فقد سب الله تعالى (٣). ولقد أخبر الإمام علي عن هذه الثقافة فقال: " إنكم ستعرضون على سبي فسبوني، فإن عرضت عليكم البراءة فلا تتبرأوا مني فإني علي الإسلام "، وفي رواية – فإني على الفطرة (٤). وفي رواية: فإني ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة (٥).

وروي أن ابن عباس قال لمعاوية: ألا تكف عن شتم هذا الرجل؟ قال: ما كنت لأفعل حتى يربوا عليه الصغير ويهرم فيه الكبير (٦). وهذه الاستمرارية التي

---

(١) العقد الفريد ٤٦٦ / ٢، والحاكم (المستدرك ٣٥٨ / ١).
(٢) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٣٠ / ٩) (الفتح الرباني ١٢١ / ٢٣)، ورواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرك ١٢١ / ٣) وأورده السيوطي في تاريخ الخلفاء ١٦٢ / ١.
(٣) رواه أحمد والحاكم (كنز العمال ٦٠٢ / ١١)، (المستدرك ١٢١ / ٣).
(٤) رواه الحاكم وصححه (المستدرك ٣٥٨ / ١) والمحاملي وابن عساكر (كنز العمال ٣٠٢ / ١١) ورواه البلاذري (أنساب الأشراف ص ١١٩ / ١) وابن أبي الحديد ٧٧٦ / ١.
(٥) ابن أبي الحديد ٧٧٦ / ١.
(٦) ابن أبي الحديد ٢٢٢ / ٤.

يصر عليها معاوية. أخبر عنها وعن غيرها النبي فقال: كيف أنتم إذا لبستم فتن يهرم فيها الكبير ويربو فيها الصغير ويتخذها الناس سنة. فإذا غيرت قالوا: غيرت السنة (١). إنها الفتن التي تنسف العبادة نسفا، وتترك الناس لا يعقلون فتن اللسان فيها أوقع من السيف. قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الفتنة تجئ فتنسف العبادة نسفا، وينجو العالم منها بعلمه " (٢)، وهل ثقافة السب تحافظ على عبادة أو تنفع معها عبادة، لقد ألقوا في الساحة بأحاديث يزاحم بعضها بعضا. وتمهد لخروج أكثر من سبعين فرقة كل فرقة معها أحاديثها. وكل فرقة لها لسان يضرب كضرب السيف، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " ستكون فتنة صماء بكماء عمياء، من أشرف لها استشرفت له، وإشراف اللسان فيها كوقوع السيف (٣). قال في عون المعبود: وصفت الفتنة بهذه الأوصاف بأوصاف أصحابها. أي لا يسمع فيها الحق، ولا ينطق به، ولا يتضح الباطل عن الحق، وقيل المعنى: لا يميزون فيها بين الحق والباطل، ولا يسمعون النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل من تكلم بحق أوذي ووقع في المحن، ومن أشرف لها: أي من اطلع عليها وقرب منها. استشرفت له. أي: اطلعت تلك الفتنة عليه وجذبته إليها. وإشراف اللسان. أي: إطلاقه وإطالته كوقوع السيف أي: في التأثير (٤).

وإذا كان إشراف اللسان في هذه الفتنة كوقوع السيف، بمعنى إذا كانت الكلمة في هذه الفتنة تعمل عمل السيف. فإن الذين سبوا عليا يكونوا في منزلة الذين قتلوه. لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " من لعن مؤمنا فهو كقتله، ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله " (٥). وبهذا تكون بني أمية بثقافة السب قافلة من القتلة ولا يعرف حقيقتهم إلا العالم. وشاء الله أن يكون على امتداد تاريخ

---

(١) رواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرك ٥١٥ / ٤).
(٢) رواه أبو نعيم وأبو داوود والرافعي (كنز العمال ١٥٠، ١٧٨ / ١٠).
(٣) رواه أبو داوود حديث ٤٢٤٤.
(٤) عون المعبود ٣٤٦ / ١١
(٥) رواه البخاري (الصحيح ٥٧ / ٤).

بني أمية العديد من العلماء الأفاضل، فكانوا يحذرون من الحفرة قبل الوقوع فيها. حدث هذا في جميع الأحداث الكبرى بل والصغرى التي جرت تحت أعلام بني أمية. ولقد رأينا كيف كانوا ينهون عن السب في كل زمان ومكان. لقد أنتجت ثقافة السب جيلا مشوها، كان من السهل عليه أن يقتل الحسين، ويجتاح المدينة، ويضرب الكعبة. ولقد ظلوا يسبون الإمام حتى ضاع ذكره عند الذين يقفون تحت رايات بني أمية. يقول المسعودي: قيل لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأي والعقل منهم: من أبو تراب هذا الذي يلعنه الإمام على المنبر؟ قال: أراه لصا من لصوص الفتن (١). وروي أن فقيها آخر ذهب ليشتكي جاره إلى الوالي فقال: إن جاره مرجئ قدري ناصبي رافضي، يبغض معاوية بن الخطاب الذي قتل علي بن العاص. فقال له الوالي: ما أدري على أي شئ أحسدك. على علمك بالمقالات أو على بصرك بالأنساب (٢).

وروي في سنن أبي داوود أن في عصر بني مروان لم يكن فطاحل العلم وجهابذته يعدون عليا من الخلفاء، وعندما بلغ سفينة ذلك قال: كذبت استاه بني الزرقاء (٣).

وظل الحال هكذا حتى جاء عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وسنتحدث عن ذلك في حينه.

٧ – ائتمان الخائن:

من قبل أن يحدث الاختلاف والافتراق أعلن النبي صلى الله عليه وسلم على الأمة أن " الإسلام والسلطان أخوان توأمان، لا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه. فالإسلام أس (٤)، والسلطان حارث. وما لا أس له يهدم، وما لا

---

(١) مروج الذهب ٤٢ / ٣.
(٢) مروج الذهب ٤٢ / ٣.
(٣) ذكره الألباني في تحقيقه كتاب السنة ٥٦٤ / ٢.
(٤) أس / أصل البناء.

حارث له ضائع " (١). ثم بين فضل أهل بيته ووجوب مودتهم في أحاديث كثيرة منها " النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأمتي " (٢)، وقوله صلى الله عليه وسلم: " مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق " (٣)، وقوله: " إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض " (٤)، وغير ذلك من الأحاديث التي أوردناها في موضعها.

فمن هذا نفهم أن معنى الإسلام والسلطان يكون أقرب للفهم إذا وضعنا أمامنا في دائرة السلطان أهل البيت. بمعنى أن نقول: أن الإسلام وأهل البيت توأمان، وذلك لأن الروايات حددت معنى السلطان الذي يستقيم مع الكتاب. والنبي صلى الله عليه وسلم عندما وضع الأمة على الصراط المستقيم وعلم من ربه جل وعلا أن الأمة ستختلف من بعده، فأقام الحجة على الناس، وهم في طريق الاختلاف، كما أقامها من قبل أن يتشعبوا في دروب الاختلاف فقال: "..... إن رحى الإسلام دائرة. وإن الكتاب والسلطان سيفترقان فدوروا مع الكتاب حيث دار " (٥). فإذا كان الكتاب كما في الحديث الصحيح لن يفترق عن أهل البيت. فإننا يمكن أن نفهم أن الدوران مع الكتاب يعني في مقدمته الدوران مع أهل البيت.

---

(١) رواه الديلمي (كنز العمال ١٠ / ٦).

(٢) رواه الطبراني وأبو يعلى وابن عساكر وابن أبي شيبة عن سلمة ابن الأكوع (كنز العمال ٩٦، ١٠٢، ١٢) ورواه أبو يعلى والبزار والحاكم عن أبي ذر (الخصائص الكبرى ٤٦٦ / ٢).

(٣) رواه البزار عن ابن عباس وعن الزبير (كنز العمال ٩٥٥ / ١٢) ورواه الحاكم وابن جرير والطبراني عن أبي ذر (كنز العمال ٩٥، ٩٨ / ١٢) وطريق أبو ذر طريق ضعيف. وجميع من ساق هذا الحديث ساقه من طريقه الضعيف ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٤) رواه أحمد والترمذي وحسنه والطبراني وقال المناوي رجاله موثقون (الفتح الرباني ١٨٦ / ١).

(٥) رواه الطبراني عن معاذ وابن عساكر عن ابن مسعود (كنز العمال ٢١٦ / ١).

والنبي صلى الله عليه وسلم وهو يخبر عن الافتراق، أمر الجيل الأول بأن يأخذ بالأسباب لدفع الافتراق والاختلاف لأن من حكمة الوجود أن الله ينظر لعباده، ليرى كيف يعملون وفقا لمساحة الاختيار التي وهبها إياهم.

فعن أنس أن معاذا قال: يا رسول الله. أرأيت إن كان علينا أمراء لا يستنون بسنتك، ولا يأخذون بأمرك، فما تأمرني في أمرهم؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا طاعة لمن لم يطع الله عز وجل (١)، وعن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. " لا طاعة في معصية الله تبارك وتعالى " (٢)، وعلى هذا يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد ساق الناس إلى الصراط المستقيم أولا، ثم أخبرهم بالافتراق وماذا يفعلون ثانيا، ثم أمرهم بالأخذ بالأسباب ثالثا، ولا حجة لهم بعد ذلك كله.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده. فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض. ثم تلى قوله تعالى: (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم...)، ثم قال: كلا والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، لتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا (٣)، ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم " (٤)، ولا حجة لهم بعد هذا.

وجاء معاوية بن أبي سفيان، وجعل سب الإمام علي سنة، جاء معاوية على طريق الاختلاف. ولو لم يكن الاختلاف قد وقع، ما جاء معاوية. ولكن الله

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد وقال في الفتح الرباني الحديث جيد الإسناد (الفتح ٤٤ / ٢٣).
(٢) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (٢٦٩ / ٧ الزوائد).
(٣) رواه أحمد وقال في الفتح الرباني: الحديث صحيح رواه مسلم بلفظه والبخاري بلفظ: لا طاعة في معصية " الفتح ٤٢ / ٢٣ ".
(٤) أي / لتردنه إلى الحق.

بعلمه المطلق علم أن عباده سيختلفون فعاقبهم ببني أمية وكان قد حذرهم منهم. ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: " ما اختلفت أمة بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها " (١). إن الله تعالى ذم الاختلاف في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، فإذا وقع الاختلاف فلا بد من عقوبة يتذوقها الغالب الأعم. وأهل الحق لا يضرهم من ناوأهم أو من خذلهم أو من عاداهم، فهذا قانون الوجود. ومن يقف تحت مظلة الاختلاف فعليه أن يستقبل أبواب كل شئ، وهذا أيضا من قانون الوجود. يقول الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم: " إن الله تبارك وتعالى إذا أراد بقوم بقاء أو نماء، رزقهم القصد والعفاف. وإذا أراد بقوم اقتطاعا، فتح لهم أو فتح عليهم باب خيانة " حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين " (٢).

لقد جاء معاوية بعد أن اختلف الناس، وليس صحيحا أن معاوية جاء نتيجة لاجتماع الناس، فهو نفسه القائل لابنة عثمان: " يا بنت أخي إن الناس أعطونا سلطاننا فأظهرنا لهم حلما تحته غضب، وأظهروا لنا طاعة. تحتها حقد، فبعناهم هذا بهذا، وباعونا هذا بهذا... ومع كل إنسان منهم شيعة، وهو يرى مكان شيعته. فإن نكثناهم نكثوا بنا، ثم لا ندري أتكون لنا الدائرة أم علينا " (٣)، ثم إن أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخبر بالغيب عن ربه جل وعلا، وأيضا حركة التاريخ. كل ذلك يثبت أن معاوية جاء على رقعة خلاف وليس على عصبة اجتماع. فمعاوية دخل من طريق كان الرجل فيه يلقى أخاه فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده. في الوقت الذي يحذر فيه النبي صلى الله عليه وسلم ويقول: " يهلك أمتي هذا الحي من قريش ". قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله، قال: لو أن

---

(١) رواه الطبراني (كنز العمال ١٨٣ / ١).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه (الدر المنثور ١٢ / ٣).
(٣) البداية والنهاية ١٣٣ / ٨.

الناس اعتزلوهم (١). فأهل هذا الحي لا يجهلهم أحد من الصحابة، ولقد حددتهم روايات صحيحة وشهدت حركة التاريخ على خطاهم. فالنبي حذر من طريق النقص الذي أصاب بني إسرائيل في الوقت الذي أشار فيه باعتزال بني أمية ومن على شاكلتهم، وقوله: لو أن الناس اعتزلوهم وفيه إشارة بأنهم لن يأخذوا بالأسباب.

وعندما جاء معاوية ووضع ثقافة السب، تراجع الدين عند الذين أكلوا من زاد هذه الثقافة. وهذا أمر طبيعي لساحة لم يدر أصحابها مع القرآن، واختاروا حارسا غير الذي حدده النبي صلى الله عليه وسلم لحفظ الإسلام، لأن من سنن الوجود أن ما لا أس له يهدم وما لا حارث له ضائع. ونحن هنا سنلقي ضوءا على معالم الضياع. وفي البداية نقول إن حذيفة سجل لنا معالم الخفوت قبل وفاته (٢) فقال: إنما كان النفاق على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان (٣). وقال: إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم. كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون (٤)، وقال: ".... ابتلينا حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سرا " (٥)، وفي لفظ البخاري: " فابتلينا حتى أن الرجل ليصلي وحده وهو خائف " (٦)، فإذا كان هذا قد حدث في ساحة لم يكن معاوية على الكرسي الأول فيها، فما بالك إذا جلس معاوية ووصف نفسه بأنه أعلم الناس بشؤون الدنيا والآخرة.

كانت الساحة بها خفوت، ثم جاء الضياع بعد ذلك. فعن زياد بن جارية أنه دخل مسجد دمشق وقد تأخرت صلاة الجمعة بالعصر. فقال: والله ما

---

(١) رواه أحمد وإسناده صحيح (الفتح الرباني ٣٩ / ٢٣) والبخاري الصحيح (ك الفتن ٢٨٠ / ٢) ومسلم (الصحيح ٤١ / ١٨).
(٢) من الثابت أن حذيفة مات بعد قتل عثمان بأيام معدودات.
(٣) البخاري ك الفتن (الصحيح ٢٣٠ / ٤).
(٤) البخاري ك الفتن (الصحيح ٢٣٠ / ٤).
(٥) رواه أحمد (الفتح الرباني ٤٠ / ٢٣) ومسلم (الصحيح ١٧٩ / ٢).
(٦) البخاري (الصحيح ١٨٠ / ٢) ك الجهاد.

بعث الله نبيا بعد محمد صلى الله عليه وسلم أمركم بهذه الصلاة (١)، وعن أبي العالية قال: أخر ابن زياد الصلاة، فأتاني عبد الله بن الصامت فذكرت له صنيع ابن زياد، فعض على شفتيه وضرب فخذي وقال: إني سألت أبا ذر كما سألتني فضرب فخذي كما ضربت على فخذك وقال: إني سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتني، فضرب فخذي كما ضربت وقال: صل الصلاة لوقتها، فإن أدركتك معهم فصل ولا تقل إني قد صليت ولا أصلي (٢). وكان سفيان الثوري يقول: يا؟ أظن الصلاة تقبل إلا أن الصلاة خير من تركها (٣)، كان هذا في مرحلة تأخير الصلاة. وهذه المرحلة تبعتها أخرى في ساحة ترفع ثقافة السب وتحرص عليها. فعن أم الدرداء قالت: دخلت على أبي الدرداء وهو مغضب. فقلت: من أغضبك، قال: والله لا أعرف فيهم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم شيئا إلا أنهم يصلون جميعا - يعني صلاة الجماعة (٤). وروى البخاري: دخل الزهري على أنس فوجده يبكي، فقال: ما يبكيك؟ قال: لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة. وهذه الصلاة قد ضيعت (٥). أما أبو الدرداء الذي شهد بأنه لا يعرف فيهم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم شيئا إلا صلاة الجماعة، فلقد مات قبل وفاة عثمان بن عفان بسنتين (٦). بمعني: أنه شهد ما رآه في خلافة عثمان على أقل تقدير. أما أنس فلقد عاش إلى ما بعد زمن الحجاج بن يوسف، وروي أنه مات سنة إحدى وتسعين وكان عمره مائة سنة إلا سنة (٧)، فأبي الدرداء شهد الصورة فقط. أما أنس فلقد شهد الضياع في عهد بني أمية. وإذا سألنا: كيف ضاعت الصلاة بعد وفاة النبي بمدة قليلة؟ نقول: ضاعت عندما

---

(١) ابن عساكر (كنز العمال ٣٧١ / ٨).
(٢) رواه أحمد ومسلم (الفتح الرباني ١٨٣ / ٢٣).
(٣) مقاتل الطالبين ٣٢٩ / ١.
(٤) رواه أحمد وإسناده جيد ورواه الترمذي بطريق آخر (الفتح الرباني ٩٩، ٢٠٠ / ١).
(٥) رواه البخاري (الصحيح ١٣ / ١).
(٦) الإصابة ٤٦ / ٥.
(٧) الإصابة ٧٢ / ١.

انفصل الإسلام عن السلطان. فإن قيل: وما الدليل؟ نقول: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم " لينتقضن الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة، تشبث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة " (١)، وعلى هذا يكون ضياع الصلاة كنتيجة سببه ضياع الحكم عند المقدمة.

إن النبي صلى الله عليه وسلم ذم بني أمية، فهل ينتظر أن يحافظ بنو أمية على الصلاة وغيرها، والنبي صلى الله عليه وسلم لعن الحكم وما ولد فماذا ينتظر من مروان عندما يتقلد أمور المسلمين؟ ولقد اتفق العلماء على أنه أول من شق عصا المسلمين بلا شبهة (٢)، إن الصورة بهتت في عهد عثمان، وعندما جاء علي بن أبي طالب قاتلوه، ثم جاء معاوية فكان أول من نقص التكبير في الصلاة (٣)، في الوقت الذي كان فيه أول من اتخذ الحرس لحمايته، وأول من اتخذ الخصيان لخاص خدمته (٤). وفي عام ستين دخل بالدولة نحو أعتاب المبايعة لولده يزيد. وفي الحديث الصحيح قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " تعوذوا بالله من رأس الستين ومن إمارة الصبيان " (٥)، وعندما وضع معاوية ابنه على رقبة الأمة سار على منهاج أبيه ورفع أعلام السب، فكان من نتيجة هذه الثقافة ظهور الإنسان المشوه الذي لا يمكن أن يحمل منهجا سماويا، ففي الحديث الصحيح يقول البني صلى الله عليه وسلم: " يكون خلف بعد الستين سنة أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيا، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم. ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر (٦)، المنافق

---

(١) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والحاكم (كنز ٢٣٨ / ١) وقال السيوطي. رواه أحمد والطبراني والحاكم وصححه (الخصائص الكبرى ٢٦٥ / ١).
(٢) شذرات الذهب / ابن العماد الحنبلي ٦٩ / ١.
(٣) تاريخ الخلفاء ١٨٧ / ١.
(٤) تاريخ الخلفاء ١٨٧ / ١.
(٥) رواه أحمد بسند صحيح وأبو يعلى (كنز العمال ١١٩ / ١١).
(٦) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٢٣١ / ٦) وقال ابن كثير تفرد به أحمد وإسناده على شرط السنن (البداية ٢٢٨ / ٦) ورواه ابن جرير (كنز ٣١٤ / ١١) والحاكم وأقره الذهبي (المستدرك ٥٠٧ / ٤)، والبيهقي (الخصائص الكبرى ٢٣٦ / ٢)، وابن حبان في صحيحه (كنز العمال ١٩٥ / ١١).

كافر به، والفاجر يتأكل منه، والمؤمن يؤمن به (١). والمال هو الباب الوحيد الذي تخرج منه هذه الأجيال المنافقة الفاجرة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " مما أتخوف على أمتي أن يكثر فيهم المال حتى يتنافسوا، فيقتتلوا عليه. وإن مما أتخوف على أمتي أن يفتح لهم القرآن حتى يقرأه المؤمن والكافر والمنافق، فيحل حلاله المؤمن ابتغاء تأويله " (٢). ومما هو محفوظ أن القرآن قد فتح للصالح والطالح منذ زمن بعيد، يوم أن قال الناس حسبنا كتاب الله، ولم يكن في الساحة وقتئذ العالم بتأويله، الأمر الذي أدى إلى تشعبات كانت الأمة في غنى عنها. وبعد عهد يزيد سارت أعلام بني أمية على الطريق الذي يضيعون فيه الصلاة، حتى جلس الوليد بن عبد الملك على رقبة الأمة. وروي أنه جلس يوم الجمعة على المنبر حتى اصفرت الشمس، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين إن الوقت لا ينتظرك، وإن الرب لا يعذرك. قال: صدقت. ومن قال مثل مقالتك فلا ينبغي له أن يقوم مثل مقامك، ثم نادى: من هاهنا من أقرب الحرس يقوم إليه فيضرب عنقه (٣).

إنه طريق إضاعة الصلاة، حتى أن سفيان الثوري كان يقول في الذين على طريق السلطان: لولا أن تكون سبة ما صليت على من يأتي السلطان حتى يكونوا عبرة (٤)، وقال وهيب: هؤلاء الذين يدخلون على الملوك. إنهم لأضر على الأمة من المقامرين (٥)، وقال سفيان: القبول مما في أيديهم من استحلال المحارم، والتبسم في وجوههم، علامة الرضا بفعالهم، وإدمان النظر إليهم يميت القلب (٦). وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إذا قال الرجل

---

(١) رواه الحاكم (المستدرك ٥٠٧ / ٤).
(٢) رواه الحاكم (كنز العمال ٢٠٠ / ١٠).
(٣) العقد الفريد ٦٢ / ١.
(٤) رواه أحمد في الورع ١٩٣ / ١.
(٥) أحمد في الورع ٨٢ / ١.
(٦) أحمد في الورع ٩٧ / ١.

للمنافق يا سيدنا فقد أغضب ربه (١). وقال: " لا تقولوا للمنافق سيدنا، فإنه إن يكن سيدكم فقد أسخطتم ربكم " (٢). وفي هذا دليل أن المنهج يظهر المنافق وإلا فكيف سيعرفونه؟.

لقد ضاعت الصلاة عندما تم التعتيم على العلم وتشويه حملته، إن الله تعالى يقول: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير) (٣)، قال المفسرون: تدل الآية على انقسام المؤمنين إلى طائفتين: مؤمن ومؤمن عالم ومن المحفوظ أن المؤمن العالم أفضل بقوله تعالى: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) (٤)، وقالوا: وبما أن المؤمن العالم أفضل، فإن ما ذكر من رفع الدرجات في الآية مخصوص بالذين أوتوا العلم. ويبقى لسائر المؤمنين من الرفع، الرفع درجة واحدة، ويكون التقدير أن الله يرفع الذين آمنوا درجة. ويرفع الذين أوتوا العلم درجات.

فإذا كان طريق بني أمية قد أضاع الصلاة فهل تكون أعلامهم في دائرة الذين أوتوا العلم؟ وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال: " لكل قوم سادة، حتى أن للنحل سادة " (٥)، فهل بني أمية سادة المؤمنين أو سادة الذين أوتوا العلم؟ وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال: " إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالما، اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسألوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا " (٦). فهل علماء بني أمية قبضوا؟ كيف وهم على سدة الحكم وأبواب المساجد مفتوحة لهم، ولهم المدارس والمعاهد والدواوين؟ فإذا كان ذلك كذلك، فلماذا ضيعوا الصلاة واعتمدوا عقائد المرجئة، وسارت السياسة المالية تحت أعلامهم بالوقود البيزنطي؟

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي (كنز العمال ١٧٠ / ١).
(٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائي (كنز العمال ١٧٠ / ١).
(٣) سورة المجادلة: الآية ١١.
(٤) سورة الزمر: الآية ٩.
(٥) أبو يعلى (كنز العمال ٨٨ / ٦).
(٦) رواه مسلم (الصحيح ٢٢٤ / ١٦) وأحمد (الفتح الرباني ١٨١ / ١).

إن العلم قبض تحت هذه الأعلام عندما استبعدوا حملته. وعن زياد بن لبيد قال: قلنا يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ويقرئه أبنائنا، ونقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال النبي: ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرأون التوراة والإنجيل لا ينتفعون بما فيها بشئ (١). إنه عالم معاوية ويزيد الذين سهروا على ثقافة تأتي بخلف يقرأون القرآن لا يعدوا تراقيهم وتحت أعلامهم يقرأ القرآن منافق كافر به وفاجر يتأكل منه. إنه العالم الذي قام بالتعتيم على الخط الرسالي. حتى جاء الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا. ولقد ركبوا بذلك سنن الذين من قبلهم. يقول تعالى بعد أن ذكر أنبياءه ورسله: (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم * وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا * فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيا * إلا من تاب وآمن وعمل صالحا، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا) (٢)، قال المفسرون: وقوله تعالى: (وممن هدينا واجتبينا) معطوف على قوله: " من النبيين "، وهؤلاء غير النبيين من الذين أنعم الله عليهم، فإن هذه النعمة غير خاصة بالنبيين ولا منحصرة فيهم، بدليل قوله تعالى: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) (٣). ومن الدليل أيضا أن الله تعالى قال: (واذكر في الكتاب مريم) ومريم ليست من النبيين. وكانت من الصديقين لقوله تعالى: (وأمه صديقة) (٤)، فالمراد بقوله تعالى: (وممن هدينا واجتبينا) غير النبيين من الصديقين والشهداء والصالحين لا محالة. فهل

---

(١) رواه أحمد (الفتح الرباني ١٨٢ / ١)، والحاكم وأقره الذهبي وقال الهيثمي رواه الطبراني والبزار (الزوائد ٢٠٠ / ١).
(٢) سورة مريم: الآية ٥٨، ٦٠.
(٣) سورة النساء: ٦٩.
(٤) سورة المائدة: ٧٥.

بني أمية يقفون تحت رايات الذين هداهم الله واجتباهم؟ أم أنهم عتموا على الخط الرسالي وشقوا طريقهم نحو سنن الأولين، حيث الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا؟

ويقول البعض: إن النبي قال: " أيما عبد دعوت عليه فاجعل اللهم ذلك له أو عليه رحمة " ونحن نشك في هذا، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، ولكن هب أن النبي قال ذلك. مع تحفظنا الشديد، فهل يسر بنو أمية أن رسول الله لعنهم فكان ذلك لهم رحمة؟ وقال البعض: يكفي بني أمية أنهم فتحوا الفتوح ومصروا الأمصار. ونحن نقول إن الفتوحات عمل عظيم، ولكن أي فتوحات؟ إن الإسلام جاء ليقول كلمة لا ليرفع سيفا. فإذا رفع السيف فإن هذا السيف لا يرفع إلا بإذن الله ووفقا لمنهج الله. والنبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه " (١). ولقد ثبت أن بني أمية لا يحيطون به. وثبت أنهم ليسوا أولى الناس بالأنبياء، وليسوا من الذين أوتوا العلم، لقد فتحوا الفتوح ومصروا الأمصار، ولكن لحساب من؟ إننا ما زلنا نعاني من مقولة إن الإسلام انتشر بالسيف، والإسلام بري من هذه المقولة التي ألصقت به في عالم الفتن.

إن فتوحات بني أمية وغيرهم أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال لابن حولة: ليفتحن لكم الشام والروم وفارس، حتى يكون لأحدكم من الإبل كذا وكذا، ومن البقر كذا وكذا، ومن الغنم، وحتى يعطي أحدهم مائة دينار فيسخطها. ثم وضع رسول الله يده على رأس بن حولة وقال: يا ابن حولة، إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام (٢). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: إذا فتحت عليكم فارس والروم، أي قوم أنتم. قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله. فقال النبي: أو غير ذلك تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم

---

(١) رواه أبو نعيم (كنز العمال ٨٤ / ٣).

(٢) رواه أحمد وأبو داوود والحاكم وصححه (الفتح الرباني ٢٩ / ٢٤).

تتباغضون... " (١).
إن أصحاب المقاعد الأولى أساءوا أبلغ إساءة إلى الفتوحات. ومن لطف الله تعالى أن عامة المسلمين من التجار وغيرهم، والعديد من العلماء الأفاضل، كانوا الصورة النقية التي عبرت عن الإسلام في البلاد المفتوحة. أما أصحاب المقاعد الأولى الذين لا فقه لهم فيقول عنهم النبي صلى الله عليه وسلم: " إنه سيفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإن عمالها في النار، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة " (٢). وللأمانة تعاريف طويلة وعريضة، وأما علماء السوء الذين اتخذوا الفتوحات وغيرها تجارة يقول فيهم النبي صلى الله عليه وسلم: " ويل لأمتي من علماء السوء، يتخذون هذا العلم تجارة، يبيعونها من أمراء زمانهم ربحا لأنفسهم، لا أربح الله تجارتهم " (٣).
إن الذين وضعوا بني أمية في دائرة مناقب الفتوحات، لم يصيبوا الحق في رأينا، لأن بني أمية دخلوا هذه الأبواب من طريق أضاعوا فيه الصلاة، واتبعوا الشهوات، فجاءت الفتن المقروءة والمسموعة وغير ذلك. ثم كيف يوضعوا في دائرة المناقب هذه في الوقت الذي ضاعت فيه الأمانة؟ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا ضيعت الأمانة فانتظروا الساعة. وقيل: يا رسول الله: كيف أضاعتها؟ قال: إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة (٤). ولما كان إسناد الأمر إلى غير أهله بهذه الأهمية، فكان لا بد أن يبين لهم من هم أهله هؤلاء، ولقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قد بين ذلك في أكثر من موضع (٥). ومن

---

(١) رواه مسلم (الصحيح ٩٧ / ١٨).
(٢) رواه أحمد وقال في الفتح إسناده حسن (الفتح الرباني ٢٥ / ٢٣).
(٣) رواه الحاكم في تاريخه (كنز ٢٠٥ / ١٠)
(٤) رواه البخاري (الصحيح ١٢٨ / ٤).
(٥) كان علي في دائرة أهل بمكة عندما نزل قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين) وكان في دائرة أهله عندما نزل قوله تعالى: (... وأنفسنا وأنفسكم)، وكان في دائرة أهل يوم تبوك عندما قال له: " أنت مني بمنزلة هارون من موسى.... "، وفي العام التاسع عندما بعثه بسورة براءة، ويوم الكساء (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت...)، ويوم غدير خم: (من كنت مولاه فعلي مولاه).

العجيب أنه كان يبايعهم على ذلك، فعن عبادة قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثره علينا وأن لا ننازع الأمر أهله... " (١). ومن الأعجب أن أبا أيوب الأنصاري كان يبكي ويقول: " لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا عليه إذا وليه غير أهله (٢).

وهكذا نعود إلى حيث بدأنا، ولقد بدأنا هذا الضوء بقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الإسلام والسلطان أخوان توأمان، لا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه. فالإسلام أس والسلطان حارس، وما لا أس له يهدم، وما لا حارس له ضائع " (٣). ثم إخباره: " إن رحى الإسلام دائرة وإن الكتاب والسلطان سيفترقان فدوروا مع الكتاب حيث دار " (٤). ولقد بينا كيف تم الافتراق، وكيف رفعت أعلام الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات.

---

(١) رواه البخاري (الصحيح ٢٢٢ / ٤)، ورواه ابن أبي عاصم وقال الألباني رجاله ثقات (كتاب السنة ٤٩٣ / ٢).

(٢) رواه أحمد والحاكم وأقره الذهبي الطبراني (الفتح الرباني ٣٢ / ٢٣)، (المستدرك ٤١٥ / ٢)، (الزوائد ٢٤٥ / ٥).

(٣) رواه الديلمي (كنز العمال ١٠ / ٦).

(٤) رواه الطبراني عن معاذ. وابن عساكر عن ابن مسعود (كنز ٢١٦ / ١).

ثانيا – دماء حول كهف النفاق

احذروا إن القانون هنا يقوم على أعمدة، قال معاوية: " إياك والسلطان، فإنه يغضب غضب الصبيان، ويأخذ أخذ الأسد، وإن قليلة يغلب كثير الناس " (١). وقال: " إني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا " (٢). وكتب إلى نائبه زياد: " إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة باللين فيمرحوا، ولا بالشدة فنحمل الناس على المهالك، ولكن كنت أنت للشدة والفظاظة والغلظة. وأنا للين والألفة والرحمة... " (٣).

لقد وضع بني أمية بذرة الاضطهاد في الإسلام، ومن هذه البذرة خرجت شجرة تحت ظلالها وضعت الأرائك للملك العضوض، ونصبت الخيام للجبرية والطواغيت. وعلى طرقها توجه التهم للشرفاء فيتهموا بالعمالة تارة، وبالتحريض تارة، وبالسعي للاستيلاء على السلطة تارة أخرى، وبالتهمة تقطع الرؤوس، ويطاف بها هنا وهناك، على هدير هتاف يدعو للسلطان بدوام البغاء. والقانون لا يجوز الطعن فيه، لأن الذي أملاه صحابي شاهد النبي وسمع منه. ومرحا للطلقاء وأبناء الطلقاء، مرحا لاثني عشر رجلا كانوا يريدون أن يقتلوا النبي صلى الله عليه

---

(١) البداية والنهاية ١٣٥ / ٨.

(٢) الطبراني ١٨٧ / ٦.

(٣) البداية والنهاية ١٣٦ / ٨.

وسلم عند عودته من تبوك، ومرحا لأصحاب المسجد الضرار.
ونحن هنا سنلقي الضوء على كيفية تعامل القانون مع المسلمين تحت ثقافة السب. بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم بما يقرب من ثلاثين عاما.
١ - قلوب من نحاس:
يوم غدير خم قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من كنت مولاه فعلي مولاه.... " الحديث، وفي نفس الخطبة أوصى الأمة بوصايا وحذرهم من أمور منها قوله: " لعن الله من ادعى إلى غير أبيه ولعن الله من تولى غير مواليه الولد للفراش وللعاهر الحجر " (١). ولقد اخترت هذه الرواية، لأنها لزيد بن أرقم وفيها: " كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بغدير خم، ونحن نرفع غصن شجرة عن رأسه فقال.... "، ثم ساق الحديث. وهذا الحديث رواه أحمد عن أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الولد للفراش وللعاهر الحجر وحسابهم على الله، ومن ادعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله إلى يوم القيامة " (٢). ورواه أحمد والشيخان عن أبي عثمان أنه لقي أبا بكرة فقال له: ما هذا الذي صنعتم؟ إني سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: سمع أذني من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: من ادعى أبا في الإسلام غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه، فالجنة عليه حرام. فقال أبو بكرة: وأنا سمعت من رسول الله (٣).
وإذا كان معاوية قد حارب الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم يوم الغدير: " من كنت مولاه فعلي مولاه "، فإن معاوية تتبع الخطبة إلى نهايتها، وألحق زياد بن أبيه بالخيمة الأموية، ضاربا بالتحذير عرض الحائط. وزياد هو

---

(١) رواه الطبري (الزوائد ١٥ / ٤).
(٢) رواه أحمد (الفتح الرباني ٢١٨ / ٢١) والترمذي وقال في تحفة الأحواذي أخرجه الجماعة إلا أبو داود (التحفة ٣٢١ / ٤).
(٣) رواه أحمد والشيخان (الفتح الرباني ٤١ / ١٧).

المعروف بزياد بن أبي سفيان، ويقال فيه زياد بن أبيه، ويقال زياد بن أمه. وادعاه معاوية وألحقه بأبيه أبي سفيان وصار من جملة أصحابه. وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قد حذر زياد من معاوية فقال له: " إن معاوية يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه فاحذره " (١).

وكان معاوية يريد أن يخترق جبهة علي، فبعث إلى زياد يغريه بهذا الاستلحاق، وكان زياد وقتئذ عاملا لعلي. وبعد وفاة أمير المؤمنين راسل معاوية زياد رغبة منه في أن يستعين به في تأسيس ملكه والقضاء على المعارضة.

وبدخول زياد خيمة معاوية جرت الدماء أنهارا، ولم تقف حتى بعد وفاة زياد الذي خلفه ابنه فكان شر خلف لشر سلف.

وروى الطبري: كان زياد أول من شد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة، وتقدم في العقوبة، وجرر السيف، وأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة، وخافه الناس في سلطانه خوفا شديدا (٢). وكان زياد أول من سير بين يديه بالحراب، ومشى بين يديه بالعمد (٣). وضم معاوية إلى زياد الكوفة، فكان أول من جمع له الكوفة والبصرة (٤). وقام زياد بتعيين سمرة بن جندب عاملا له على البصرة، وكان يقيم ستة أشهر بالكوفة وستة أشهر بالبصرة (٥).

وسمرة بن جندب شرب من إناء زياد كل معالم القسوة، يقول الطبري: سئل أنس بن سيرين، هل كان سمرة قتل أحدا؟ قال: وهل يحصى من قتل سمرة بن جندب؟، استخلفه زياد على البصرة، فقتل ثمانية آلاف من الناس، وعندما قيل له: هل تخاف أن تكون قد قتلت أحدا بريئا قال: لو قتلت إليهم ا

---

(١) أسد الغابة ٢٧٢ / ٢.
(٢) الطبري ١٢٦ / ٦.
(٣) الطبري ١٢٧ / ٦.
(٤) الطبري ١٢٨ / ٦.
(٥) الطبري ١٣١ / ٦.

مثلهم ما خشيت (١). وعن أبي سوار العدوي قال: قتل سمرة من قومي في غداة سبعة وأربعين رجلا قد جمع القرآن (٢)، وروي أن سمرة دخل إلى المدينة، وعند مرور الخيل ظهر رجل فضربوه بالحربة، وقال سمرة: إذا سمعتم بنا قد ركبنا فاتقوا أسنتنا (٣).

فهذه القوة الحديدية التي يتحرك بها رجال لهم قلوب من نحاس، حذر النبي صلى الله عليه وسلم من مقدماتها يوم غدير خم. وذلك لأن أصحاب العقول البرونزية، التي تقرقع أنيابهم كقرقعة أنياب الحيتان، لن يجدوا فريسة يغرسون فيها أنيابهم سوى الذين يحبون علي بن أبي طالب، فيوم الغدير دثر النبي علي بن أبي طالب بدثار " من كنت مولاه... " في الوقت الذي كان النبي يقول فيه: " لعن الله من ادعى إلى غير أبيه.... ".

٢ - مقتل حجر بن عدي:

قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخبر بالغيب عن ربه جل وعلا:

" سيقتل بعذراء أناس يغضب الله لهم وأهل السماء " (٤). وروي عن الإمام علي أنه قال: " يا أهل العراق سيقتل منكم سبعة نفر بعذراء، مثلهم كمثل أصحاب الأخدود " (٥). وحجر بن عدي هو الذي قام بفتح عذراء، قال: إني لأول فارس من المسلمين هلل في واديها، وأول رجل من المسلمين نبحته كلابها (٦).

فمن الذي قتل في عذراء؟ الإجابة: إنه حجر بن عدي. فماذا قتل؟

---

(١) الطبري ١٣٢ / ٦.
(٢) الطبري ١٣٢ / ٦.
(٣) الطبري ١٣٢ / ٦.
(٤) ابن عساكر ويعقوب بن سفيان (كنز العمال ١٢٦ / ١) ابن كثير (البداية ٥٥ / ٨).
(٥) البداية والنهاية ٥٥ / ٨.
(٦) الكامل ٢٤١ / ٣، أسد الغابة ٤١٢ / ١، الطبري ١٥٤ / ٦.

الإجابة: قتل في مولاه علي بن أبي طالب! (١).
يقول ابن كثير: كان المغيرة بن شعبة على الكوفة إذا ذكر عليا في خطبته يتنقصه بعد مدح عثمان، فيغضب حجر... فلما توفي المغيرة وجمع معاوية لزياد الكوفة مع البصرة، فعل ما كان يفعله المغيرة، فكان حجر يغضب كغضبه أيام المغيرة (٢). وروي أن زياد خطب يوما في الجمعة، فأطال الخطبة وأخر الصلاة، فقال له حجر: الصلاة، فمضى زياد في خطبته، وكما ذكرنا من قبل أن بني أمية كانوا يتعاملون مع الصلاة بطريقة خاصة بهم. وعند ما مضى زياد في الخطبة، خشي حجر فوات الصلاة فضرب بيده إلى الحصا. وثار إلى الصلاة وثار الناس معه (٣). فلما رأى زياد. نزل وصلى بالناس. ثم كتب إلى معاوية في أمر حجر. فكتب إليه معاوية: أن شده في الحديد واحمله إلي (٤). وتم القبض على حجر، وأحضر الشهود الذين يشهدون عليه أنه سب الخليفة، وحارب الأمير، وأنه قال: إن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل علي بن أبي طالب (٥).
وروي أنه لما أخذ في قيوده سائرا إلى الشام، تلقته بناته في الطريق وهن يبكين، فمال نحوهن وقال: اسكتن، فسكتن، فقال: اتقين الله عز وجل واصبرن، فإني أرجو من ربي في وجهي هذا إحدى الحسنيين، إما الشهادة وهي السعادة، وإما الانصراف إليكن في عاقبة. وإن الذي كان يرزقكن ويكفيني مؤونتكن هو الله تعالى، وهو حي لا يموت، أرجو أن لا يضيعكن. وأن يحفظني فيكن (٦).
وروي أنه ذهب إلى معاوية أولا في دمشق، ثم أمر معاوية بقتله في

---

(١) الحاكم (المستدرك ٤٧٠ / ٣).
(٢) البداية والنهاية ٥١ / ٨، الطبري ١٤٣ / ٦.
(٣) الطبري ١٤٣ / ٦، الكامل ٢٤٣ / ٣.
(٤) البداية ٥١ / ٨، الطبري ١٤٣ / ٦، الكامل ٢٤٣ / ٣، كتاب المحن ١٢٠ / ١.
(٥) البداية ٥١ / ٨.
(٦) الطبري ١٥٢ / ٦.

عذراء. وقيل: إن معاوية تحرك في موكبه من دمشق وضرب خيمته في عذراء، وجاء حجر إليه. ولا ندري لماذا اختار معاوية عذراء بالذات! وكما ذكرنا أن حجرا هو أول فارس قال لا إله إلا الله فيها.

وروي أن معاوية عندما أمر بقتل حجر وأصحابه، جاء رسول معاوية فقال لهم: إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علي بن أبي طالب واللعن له، فإن فعلتم تركناكم، وإن أبيتم قتلناكم. وإن أمير المؤمنين معاوية يزعم أن دماءكم قد حلت له بشهادة أهل مصركم عليكم. غير أنه قد عفى عن ذلك، فابرؤوا من هذا الرجل نخلي سبيلكم. فقالوا: إنا لسنا فاعلي ذلك. فأمر بقبورهم فحفرت، وأدنيت أكفانهم، فقاموا الليل كله يصلون. فلما أصبحوا قال أصحاب معاوية: يا هؤلاء لقد رأيناكم البارحة قد أطلتم الصلاة، وأحسنتم الدعاء، فاخبرونا ما قولكم في عثمان. قالوا: هو أول من جار في الحكم وعمل بغير الحق. فقال أصحاب معاوية: أمير المؤمنين معاوية أعلم منكم. ثم قالوا: تبرؤون من هذا الرجل؟ قالوا: بل نتولاه ونتبرأ ممن تبرأ منه. فأخذ كل رجل من أصحاب معاوية رجلا منهم ليقتله. فقال لهم حجر: دعوني أتوضأ. قالوا: توضأ. فلما توضأ قال لهم: دعوني أصلي ركعتين، فأيمن الله ما توضأت قط إلا صليت ركعتين. فتركوه يصلي. فلما صلى قال: والله ما صليت صلاة قط أخف منها. ولولا أن تظنوا في جزعا من الموت لاستكثرت فيها (١).

وروي أن بعض أصحاب حجر قالوا: ابعثوا بنا إلى معاوية، فلما دخلوا عليه دخل الخثعمي قال: الله الله يا معاوية! فإنك منقول من هذه الدار الزائلة إلى الدار الآخرة الدائمة، ثم مسؤول عما أردت بسفك دمائنا. فقال له معاوية: ما تقول في علي؟ قال: أقول فيه قولك. أتبرأ من دين علي الذي يدين الله به.

فسكت معاوية ثم قال لعبد الرحمن العنزي: ما تقول في علي: فقال لمعاوية: دعني ولا تسألني فهو خير لك. قال: والله لا أدعك حتى تخبرني عنه، فقال: أشهد أنه كان من الذاكرين الله كثيرا، ومن الأمرين بالحق، والقائمين بالقسط،

---

(١) الطبري ١٥٤ / ٦، الكامل ٢٤١ / ٣، أسد الغابة ٤٦٢ / ١.

والعافين عن الناس، فقال معاوية: فما قولك في عثمان؟ قال: هو أول من فتح باب الظلم، وأرج أبواب الحق، فقال معاوية: قتلت نفسك، قال: بل إياك قتلت (١).

لم يأمر معاوية بقتل العنزي في مرج عذراء، بل اختاره من بين أصحاب حجر ليرى أهل العراق قتله. روى أن معاوية بعث به إلى زياد وكتب إليه: إن هذا العنزي شر من بعثت، فعاقبه عقوبته التي هو أهلها، واقتله شر قتلة (٢).

وروي أن العنزي قبل أن يغادر عذراء قال لحجر: نعم أخو الإسلام كنت. ثم حمل إلى العراق فلما قدم به على زياد، أمر بدفنه حيا (٣).

وروي أن حجرا لما مشى إليه فياض الأعور بالسيف، ارتعدت فرائصه، فقيل له: يا حجر أليس زعمت أنك لا تجزع من الموت؟ فقال: وما لي لا أجزع، وأنا أرى قبرا محفورا وكفنا منشورا وسيفا مشهورا (٤). وروي أنه قال: اللهم إنا نستعديك على أمتنا، فإن أهل الكوفة شهدوا علينا، وإن أهل الشام يقتلوننا، أما والله لئن قتلتموني بها، إني لأول فارس من المسلمين هلل في واديها، وأول رجل من المسلمين نبحته كلابها. فمشى إليه الأعور، هدبة بن فياض بالسيف، فأرعدت خصائله، فقال لحجر: أنا أدعك فابرأ من صاحبك. فقال حجر: لا أقول ما يسخط الرب. فقتله، وأقبلوا يقتلونهم واحدا واحدا حتى قتلوا ستة (٥). روى الطبري: قال الحسن: حجوهم ورب الكعبة (٦)، وفي قتل حجر قالت هند ابنة زيدان الأنصارية:

ألا يا حجر بني عدي * تلقتك السلامة والسرور

---

(١) الطبري ١٥٥ / ٦، الكامل ٢٤٢ / ٣.
(٢) الطبري ١٥٥ / ٦، الكامل ٢٤٢ / ٣.
(٣) الطبري ١٥٥ / ٦، الكامل ٢٤٢ / ٣.
(٤) الطبري ١٥٤ / ٦، الكامل ٢٤١ / ١، الحاكم (المستدرك ٤٦٩ / ٣) كتاب المحن ١٨٨ / ١.
(٥) الطبري ١٥٥ / ٦، الكامل ٢٤١ / ٣، كتاب المحن ١٨٨ / ١.
(٦) الطبري ١٥٥ / ٦.

أخاف عليك ما أروي عديا * وشيخا في دمشق له زئير
يرى قتل الخيار عليه حقا * له من شر أمته وزير (١)
وروي أن حجرا أوصى قبل قتله فقال: لا تغسلوا عني دما، ولا تطلقوا عني قيدا، وادفنوني في ثيابي، فأنا سألقى معاوية غدا (٢). وفي رواية: فإني لاق معاوية بالحادة، وإني مخاصم (٣).
وقتل أصحاب عذراء الذين وصفهم الحديث بأن مثلهم كمثل أصحاب الأخدود. لقد لفت النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأنظار إليهم، ليعلم الذين عاصروا الحدث حقيقة الأحداث. فحجر لم يكن مجرد قتيل، ولكنه شاهد على تاريخ مضى، وشاهد على إمارة تقلدها رجل وقع في دائرة اللعن يوم غدير خم، يوم أن قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " لعن الله من ادعى إلى غير أبيه... ". وكان حجر شاهدا أيضا على كرسي كبير يجلس عليه شيخ في دمشق له زئير، وهذا أيضا مخالف لما قيل يوم الغدير. ترى هل فهم أحد يومئذ الحكمة التي رواء قتل حجر. إنني أميل إلى القول بأن الكثرة لم تفهم المغزى بدليل أن حجرا دعا ربه وقال: اللهم إنا نستعديك على أمتنا، فإن أهل الكوفة شهدوا علينا وإن أهل الشام يقتلوننا. وأغلب الظن أن أهل الشام ما كانوا في حاجة إلى شهود، فالذي يضيع الصلاة على أقل تقدير ليس بعيدا عليه أن يضيع الشهود - وها هو سمرة بن جندب الذي قتل الآلاف وما خاف أن يكون فيهم بريئا واحدا.
وبعد أن فرغ معاوية من قتل حجر ورفاقه ذهب إلى المدينة، وروي أنه دخل على عائشة ولم يشهد كلامهما أحد إلا ذكوان مولى عائشة (٤)، فقالت: ما حملك على قتل أهل عذراء حجر وأصحابه؟ قال: يا أم المؤمنين، إني رأيت

---

(١) الطبري ١٥٧ / ٦.
(٢) الحاكم (المستدرك ٤٦٩ / ٣).
(٣) الحاكم (المستدرك ٤٧٠ / ٣) ابن عساكر (كنز العمال ٣٥٣ / ١١) أسد الغابة ٤٦٢ / ١.
(٤) البداية ١٤٣ / ٨.

قتلهم صلاحا للأمة، وبقاءهم فسادا للأمة فقالت: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " سيقتل بعذراء ناس يغضب الله لهم وأهل السماء " (١)، وبعد أن عاتبته عائشة قال: أنت والله العالمة العاملة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، الناصحة المشفقة البليغة الموعظة، حضضت على الخير وأمرت به، ولم تأمرينا إلا بالذي هو لنا مصلحة وأنت أهل أن تطاعي (٢). وروي أنها عاتبته أيضا في قتل أخيها فقالت: أما خفت أن أقعد لك رجلا فيقتلك؟ فقال: ما كنت لتفعليه، وأنا في بيت أمان، وقد سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " الإيمان قيد الفتك ". ثم قال: كيف أنا في الذي بيني وبينك وفي حوائجك؟ قالت: صالح، فقال: فدعينا وإياهم حتى نلقى ربنا (٣). وفي رواية قال: كيف بري بك يا أمة، قالت: إنك محب لنا، فقال: يكفيني هذا عند الله (٤).

ولقد كان معاوية برا بأم المؤمنين، فعن سعيد بن عبد العزيز قال: قضى معاوية عن عائشة أم المؤمنين ثمانية عشر ألف دينار، وما كان عليها من الدين الذي كانت تعطيه الناس (٥). وعن عطاء قال: بعث معاوية إلى عائشة وهي بمكة بطوق قيمته مائة ألف فقبلته (٦). وروي أن زيد بن منبه، أخو يعلى بن منبه صاحب حجل عائشة، ومتولي تلك الحرب دخل على معاوية وشكا إليه دينا لزمه فأمر معاوية له بثلاثين ألف، وعندما هم زيد بالانصراف قال معاوية: وليوم الجمل ثلاثين ألف أخرى (٧).

وليس معنى هذا أن أم المؤمنين تبحث عن الثروة، معاذ الله. فلقد كانت تأخذ المال من معاوية لتعطي المحتاجين. ولقد روي عن عائشة قالت: جلست

---

(١) ابن عساكر ويعقوب بن سفيان (كنزل العمال ٥٨٨ / ١٣) كتاب المحن ١١٩ / ١.
(٢) البداية والنهاية ١٤٣ / ٨.
(٣) رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٣٤ / ١٩) كتاب المحن ١٢٠ / ١.
(٤) البداية والنهاية ٥٧ / ٨.
(٥) البداية والنهاية ١٣٦ / ٨.
(٦) البداية والنهاية ١٣٧ / ٨.
(٧) العقد الفريد ٦٨ / ٢.

أبكي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: ما يبكيك. إن كنت تريدين اللحوق بي، فيكفيك من الدنيا مثل زاد الراكب، ولا تخالطين الأغنياء (١).

٣ - هل رأيت آية النار؟

كان عمر بن الحمق من أتباع حجر بن عدي، وكان يعترض على ما يعترض عليه حجر، وكما كان حجر حجة على جموع أحاط بها العذاب من كل مكان، ودعوة لهم كي يأخذوا بالأسباب لدفع هذا العذاب، كذلك كان عمرو بن الحمق أيضا. روي عن عمرو أنه قال: هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فبينما أنا عنده ذات يوم قال لي: يا عمرو هل لك أن أريك آية الجنة تأكل وتشرب الشراب، وتمشي في الأسواق؟ قلت: بلى بأبي أنت. قال: هذا وأشار بيده إلى علي بن أبي طالب. ثم قال لي: يا عمرو هل لك أن أريك آية النار، تأكل الطعام وتشرب الشراب وتمشي في الأسواق؟ قلت: بلى بأبي أنت. قال: هذا وقومه آية النار، وأشار إلى رجل! فلما وقعت الفتنة ذكرت قول النبي صلى الله عليه وسلم ففرت من آية النار إلى آية الجنة. ثم قال عمرو: ويرى بنو أمية قتلي بعد هذا. والله إن كنت في حجر في جوف حجر، لاستخرجني بنو أمية حتى يقتلوني، حدثني به حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال لي: إن رأسي أول رأس تحتز في الإسلام وينقل من بلد إلى بلد (٢).

وروي أن عمرو بن الحمق كان من جملة من أعان حجر بن عدي، فطلبه زياد فهرب وكان مريضا، وخرجت الخيل في طلبه. وفي الطريق سأله رجل: من

---

(١) أبو سعيد الأعرابي في الزهد (كنز العمال ٧٣١ / ٣).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط وقال الهيثمي فيه عبد الله بن عبد الملك وهو ضعيف (الزوائد ٤٠٦ / ٩) وله شاهد قوي عند الطبراني في الكبير. (كنز العمال ٦٢٧ / ١١) ورواه ابن عساكر بلفظ آخر بسند صحيح (كنز العمال ٤٩٦ / ١٣).

أنت؟ فقال: من إن تركتموه كان أسلم لكم، وإن قتلتموه كان أضر بكم. وهرب عمرو إلى الموصل (١)، وروي أن عامل الموصول لما رأى عمرا عرفه، فكتب إلى معاوية فأمر معاوية بقتله، فهرب نحو الجزيرة ومعه رجل يقال له زاهر، وبينما هما مختبآن إذ رأيا نواصي الخيل في طلبه، فأمر زاهر أن يتغيب، وقال له: فإذا قتلت فإنهم يأخذون رأسي، فارجع إلى جسدي فادفنه، فقال له زاهر: بل انثر نبلي ثم أرميهم حتى إذا فنيت معك. قال عمرو: لا ولكني سأزودك مني ما ينفعك الله به. فاسمع مني: آية الجنة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلامتهم علي بن أبي طالب! وتوارى زاهر، فأقبل القوم، وقتل عمرو، ونزل إليه رجل منهم فقطع رأسه. فكان أول رأس في الإسلام نصب في الناس.

وخرج زاهر إليه فدفنه (٢). وفي رواية: أن حية نهشته فمات فقطعوا رأسه (٣).

وبعد أن رفعت رأس عمرو بن الحمق ليراها أهل العراق، كان لا بد أن يراها أهل الشام. يقول البخاري: أول رأس بعث في الإسلام رأس عمرو بن الحمق. بعثه زياد إلى معاوية (٤) لكي تشاهد الأمة الرأس المقطوع. يقول ابن كثير: وبعث برأسه إلى معاوية فطيف به في الشام وغيرها، فكان أول رأس طيف به (٥).

وكان معاوية قد ألقى القبض على زوجه عمرو بعد أن فشل في القبض على عمرو، وألقى بها في سجونه. ورأى معاوية بعد أن أطمئن إلى أن الأمة قد شاهدت الرأس، أن يبعث برأس عمرو إلى زوجته في السجن. يقول ابن كثير: ثم بعث معاوية برأسه إلى زوجته آمنة بنت الشريد، وكانت في سجنه فألقي في حجرها، فوضعت كفها على جبينه، ولثمت فمه وقالت: عيبتموه عني طويلا،

---

(١) الطبري ١٤٨ / ٦، البداية ٤٨ / ٨.

(٢) رواه ابن عساكر وقال ابن حجر في الإصابة سنده جيد (الإصابة ٥٣٣ / ٢) (كنز العمال ٤٩٨ / ١٣).

(٣) البداية ٤٨ / ٨، ابن عساكر (كنز العمال ٤٩٨ / ١٣).

(٤) التاريخ الصغير للبخاري ١٠٥ / ١.

(٥) البداية والنهاية ٤٨ / ٨.

ثم أهديتموه إلى قتيلا، فأهلا بها من هدية، غير قالية ولا مقلية (١).
إن بني أمية سجلوا السطور الأولى في قانون الاضطهاد الذي يحمل غلاف الدين، فمن هنا كانت خطورتهم. ولأجل ذلك حذرت الدعوة منهم، ولقد ميزهم الله بعلامات على امتداد تاريخهم في الجاهلية حتى لا تجهلهم قريش. فبينما كان لبني عبد شمس أنهار كان لبني هاشم أنهار أخرى، وجاءت الدعوة الخاتمة على هذا الأساس من المعرفة، جاءت الدعوة لتنهي الأحقاد وتعلن: لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وتحذر من أصحاب مستنقعات الحقد لأنهم لو بلغوا أربعون رجلا على آرائك السلطة فسيكون قانونهم: السواد بستان لقريش، وأن أبا سفيان لو ولد الناس فلن يلد إلا حازما.
إن الدعوة أرشدت الجيل الأول إلى الطريق الذي إذا أخذوا به فلن يضلوا أبدا. وقتل حجر، وقطع رأس عمرو بن الحمق، ومن قبلهما عمار بن ياسر، وزيد بن صوحان، وغيرهم ما وقع إلا على طريق ينتهي بتمزيق الأمة.
ومن فضل الله تعالى ورحمته، أنه غرس على امتداد طريق الأمة الخاتمة مبشرات وعلامات، تنير الطريق قبل وقوع الحدث كي يحذر الناس. فعمار كان علامة لأحداث محددة، وأبو ذر كان علامة لوقت محدد، وحجر بن عدي وأصحابه علامات إرشادية لها مهمة ما، وعند ثقافة ما، في زمن ما. ومعنى أن جبريل عليه السلام يخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن عمارا تقتله الفئة الباغية، وأن الله يغضب لقتل أهل عذراء، معنى هذا أن من أراد طريق العصمة من الفتن فلا يقف ضد المبشرات والعلامات، بل يجب عليه أن يدور معهم ويسلك طريقهم. وهذه العلامات باختصار شديد. دعوة للدخول في رحاب الرحمة، والخروج من باب الضنك والعذاب الذي نشأ من اختلافهم وارتفاع أصواتهم وخذلانهم للحق، فالله سبحانه يبين للناس ما يتقون ويكشف لهم طريق المحن. فإذا آمن أهل القرى فتح عليهم سبحانه أبواب البركات، وإذا اختلفوا

---

(١) البداية والنهاية ٤٨ / ٨.

أنار الطريق بالمبشرات والعلامات ليرفع عنهم ما جلبوه لأنفسهم، وهذا من رحمته الواسعة. يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " ذهبت النبوات وبقيت المبشرات " (١). فإغلاق الطريق أمام المبشرات وعلاماتها يعني أن الذي أغلق الطريق يسير في عالم الفتن، وعالم الفتن لا يدري القاتل فيه في أي شئ قتل، ولا يدري المقتول في أي شئ قتل. وفي عالم الفتن الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم. وعلى كل داخل في الباطل إثمان: إثم العمل به وإثم الرضا به.

وليس معنى أن الفتن في الخارج أن يغلق رجال الجيل الأول على أنفسهم الأبواب، لأن الفتن على أيامهم كان عليها علامات وعلامات، وكان إمام الهدى لا يجهله أحد. إن إغلاق الباب عند المقدمة سيكون إغلاقا للحقيقة عند النتيجة. والله تعالى يجري الأحداث لينظر كيف يعمل عباده. كما أن لكل فتنة فقه. فهناك فتنة يدور فقهها على رحى " لو أن الناس اعتزلوهم " فالاعتزال هنا المقصود منه تجريد جهات الاستعلاء على عباد الله من المال، والجنود والفقهاء، فالاعتزال سيجعلهم بلا سيف وبلا سجن. وهناك فتن يجب أن يبحث المسلم فيها عن سيف من خشب، وذلك عندما يجد أن الذين من حوله يقتتلون على المال، أو على شبر من الأرض. قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا رأيت رجلين من أمتي يقتتلان على المال، فاعدد عند ذلك سيفا من خشب " (٢). وقال: " إذا رأيت الأخوين المسلمين يختصمان في شبر من الأرض فاخرج من تلك الأرض " (٣).

وفي الجيل الأول لم يكن الإمام علي، ومن بعده الإمام الحسن، يقاتلان من أجل المال. ولم يخرج أبو ذر، أو عمار، وأويس، أو حجر من أجل المال. فاعتزال هذا الخط يكون اعتزال في غير محله. ولقد رأينا في حركة التاريخ أن الغالب الأعم لم يعتزل الذين أمروا باعتزالهم واعتزلوا الذين نهوا عن

---

(١) رواه ابن ماجة وابن حبان في صحيحه (الإصابة ٢٧٢ / ٨).
(٢) رواه الطبراني (كنز العمال ١٤٨ / ١١).
(٣) رواه الطبراني (كنز العمال ١٤٩ / ١١).

اعتزالهم. ونتيجة لذلك، ركبوا الطريق الذي يؤدي إلى عذراء فقتل حجر. وغضب الله وأهل السماء. وفي الفتن يقول الإمام علي: " لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتن، لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة. ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن، فإن الله سبحانه يقول: " واعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة "، ومعنى ذلك أنه سبحانه يختبر عباده بالأموال والأولاد، ليتبين الساخط لرزقه والراضي بقسمه. وإن كان الله سبحانه أعلم بهم من أنفسهم. ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب، لأن بعضهم يحب الذكور ويكره الإناث. وبعضهم يحب تثمير المال. ويكره انثلام الحال " (١).

فمن هذا نعلم أن الأحداث عندما تجري لا بد للأفعال أن تظهر. فإذا أغلقت الأبواب في موضع، فليس معنى هذا أنها تغلق في كل موضع بالنسبة للجيل الأول. وإلا لو كان الاغلاق قاعدة، ما كنا قد علمنا حركة الأحداث. ولكننا علمنا عندما شاهدنا حركة أبو ذر وعمار وحجر وغيرهم. ومن الدليل أيضا على عدم جدية إغلاق الأبواب في وجه الإمام علي والإمام الحسن، أن من الصحابة من واجه حركة الاستكبار الأموي وهي في عنفوانها، آخذا بالأسباب في اتجاه رحمة الله الواسعة. ولتكون بصماته شاهدة على الأحداث. روي أن قيس بن خرشه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أبايعك على ما جاءك من الله، وعلى أن أقول بالحق. فقال له النبي: عسى أن يكون عليك من لا تقدر على أن تقوم معه بالحق – (وفي رواية: يا قيس عسى إن مد بك الدهر أن يليك بعدي ولاة لا تستطيع أن تقول بحق معهم) (٢)، فقال قيس: والله لا أبايعك على شئ إلا وفيت لك به. فقال له النبي: إذا لا يضرك شئ. فكان قيس يعيب زياد بن أبيه، وابنه عبيد الله، وكان يقول قال لي النبي: لا يضرك شئ. فأرسل إليه عبيد الله بن زياد وقال له: أأنت الذي تزعم أنه لن

---

(١) ابن أبي الحديد ٣٧٠ / ٥.

(٢) رواه الطبراني (كنز العمال ١٩٠ / ١١).

يضرك شئ. فقال: نعم، قال: كذبت أنت تفتري على الله ورسوله. فقال: لا والله. ولكن إن شئت أخبرتك بمن يفتري. قال ابن زياد: وما هو؟ فقال: من ترك العمل بكتاب الله وسنة رسوله. قال: ومن ذاك، فقال: أنت وأبوك ومن أمركما. قال ابن زياد: لتعلمن اليوم أنك قد كذبت. وصاح قائلا: ائتوني بصاحب العذاب. فمال قيس عند ذلك فمات (١).

لقد خذل كثير من الناس علامات البشرى. إن نزول جبريل عليه السلام، وإخباره بأن الله يغضب لمن يقتل في عذراء، كان دعوة ليقف الجيل الأول بعد قتل حجر وقفة رجل واحد حول الإمام الحسن. بعد أن خذلوه وكشفوا خنادقه أمام خيل معاوية. كان دعوة ليأخذوا بالأسباب التي ترضي الله بعد غضبه، والله واسع المغفرة. ولكن حركة التاريخ سارت على خلاف ذلك. وإذا كان الستار قد نزل هنا على قطع رأس عمرو بن الحمق، والطواف بها في الأمصار، ثم إرسالها إلى زوجته في السجن، فإن الستار سيفتح هناك على رأس أبي عبد الله الحسين بن علي عليهما السلام ليطوف بها جند الباطل. في عالم دق فيه الخذلان أوتاده، ونصب خيامه، وفتح فيه بنو أمية أبواب الفتن التي ليس فيها على يرى على مصارعها.

٤ - مقتل أبي عبد الله الحسين:

أولا - وجاء وفد أغيلمة قريش:

عندما قتلت الدولة حجر ورفاقه في عام ٥١ ه تحت شعار حفظ الأمن الداخلي، كان الجهاز السري لنظام حكم بني أمية يدبر الخطط لاغتيال بعض الشخصيات الذين لا يمكن قتلهم على طريقة حجر وغيره، وذلك لإفساح المجال أمام النظام الوراثي الذي عزم عليه معاوية. ولقد ظهرت رغبة معاوية في تنصيب ابنه يزيد خليفة على المسلمين عندما قدم له المغيرة بن شعبة مفتاح هذا الأمر. روي أن المغيرة خشي أن يستغني عنه معاوية بعد أن كبر سنه ورق

---

(١) قال السيوطي أخرجه الطبراني والبيهقي (الخصائص الكبرى ٢٥٤ / ٢) وأخرجه الحسن بن سفيان في مسنده وقال ابن حجر رجاله ثقات (الإصابة ٢٥٠ / ٥).

عظمه. فأتى معاوية وقال له: يا أمير المؤمنين إن الأنفس ليغدى عليها ويراح، ولست في زمن أبي بكر ولا عمر، فلو نصبت لنا علما بعدك نصير إليه، فإني قد كنت دعوت أهل العراق إلى بيعة يزيد. فقال له معاوية: يا أبا محمد انصرف إلى عملك ورم هذا الأمر لابن أخيك (١).

وهكذا من أجل أن يضمن المغيرة إفناء عمره في ولاية الكوفة، فتح على أمة محمد صلى الله عليه وسلم بابا يأت بخير، حتى أن المغيرة نفسه قال لاتباعه عقب خروجه من عند معاوية: والله لقد وضعت رجله في ركاب طويل ألقي عليه أمة محمد (٢).

وروي أن معاوية بعد لقائه مع المغيرة خطب أهل الشام فقال: يا أهل الشام. كبرت سني، وقرب أجلي، وقد أردت أن أعقد لرجل يكون نظاما لكم، وإنما أنا رجل منكم (٣). لقد أراد معاوية من هذا البيان أن يدخل إليهم بلافتة الشورى، ويترك الأمر إليهم في اختيارهم، ثم يتصرف مع هذا الاختيار حسب ما يحب. وروي أن أهل الشام أجمعوا واتفقوا على عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فشق ذلك على معاوية وأسرها في نفسه (٤)، وروى أن عبد الرحمن بن خالد كان مريضا، فدخل عليه ابن أثال النصراني فسقاه سما (٥)، وروى الطبري وغيره: أمر معاوية ابن أثال أن يحتال في قتله، وضمن له أن هو فعل ذلك أن يضع عنه خراجه ما عاش، وأن يوليه جباية خراج حمص، فلما قدم عبد الرحمن بن خالد حمص، دس إليه ابن أثال شربة مسمومة، فشربها فمات، وولاه معاوية خراج حمص، ووضع عنه خراجه (٦). وكان ذلك عام ٤٦ ه أي بعد صلحه مع الحسن بخمس سنين تقريبا.

---

(١) العقد الفريد ٩٨ / ١، الطبري ١٦٩ / ٦، البداية والنهاية ٧٩ / ٨.
(٢) العقد الفريد ٩٨ / ١.
(٣) أسد الغابة ٤٤٠ / ٣.
(٤) أسد الغابة ٤٤٠ / ٣.
(٥) أسد الغابة ٤٤٠ / ٣.
(٦) الطبري ١٢٨ / ٦.

ومعاوية كان قد تصالح مع الحسن رضي الله عنه بشروط، ولكنه مزق صحيفة الشروط بعد أن علم أن الموقف العسكري في صالحه، ونظرا لأن تركيبته النفسية لا تقوى على الوفاء بالشروط. وكان من ضمن هذه الشروط رأي يكون للحسن الأمر من بعده، وكان الحسن يريد من وراء هذا أن تتذوق الأمة نظام معاوية الذي لن يكون بحال نظاما يحمل روح الإسلام وأسمى معانيه. فيكون هذا دعوة للفظه جماهيريا، أو دعوة للالتفات حول الحسن فيما بعد. وهذا كله من باب الأخذ بالأسباب، وفقا لحركة الدعوة وحركة الناس.

ولم يكن معاوية يفكر بعيدا عن هذا التصور الذي يسير عليه الحسن، لذا بادر من أجل تصفية الحسن عليه السلام. روي أن جعدة بنت الأشعث بن قيس امرأة الحسن سقته السم، وقد كان معاوية دس إليها: إنك إن احتلت في قتل الحسن، وجهت إليك بمائة ألف درهم، وزوجتك من يزيد، فكان ذلك الذي بعثها على سمه. فلما مات، وفى لها معاوية بالمال، وأرسل إليها: إنا نحب حباة (١) يزيد، ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه (٢).

وروي أن الحسن رضي الله عنه قام فدخل المخرج ثم خرج فقال: لقد لفظت طائفة من كبدي، أقلبها بهذا العود، ولقد سقيت السم مرارا، وما سقيت مرة هي أشر من هذه. ثم قال لرجل دخل عليه: سلني قبل أن لا تسألني فقال: ما أسألك شيئا يعافيك الله (٣). وروي أن الطبيب قال عندما جاؤوا به: هذا رجل قطع السم أمعاءه (٤).

وروى أبو الفرج الأصفهاني: أن الحسن أرسل إلى عائشة أن تأذن له أن يدفن مع النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: نعم. فلما سمعت بنو أمية بذلك استلاموا في السلاح. وتنادوا هم وبنو هاشم في القتال. فبلغ ذلك

---

(١) حباة / من حبابي بمعنى نصر ومال واختفى.
(٢) مروج الذهب ٤٧٦ / ٢، الحاكم (المستدرك ١٧٦ / ٣)، ابن أبي الحديد ٧٠٨ / ٤.
(٣) البداية والنهاية ٤٢ / ٨، الحاكم (المستدرك ١٧٦ / ٣)، ابن أبي الحديد ٧٠٨ / ٤.
(٤) البداية ٤٣ / ٨.

الحسن. فأرسل إلى بني هاشم، أما إذا كان هذا فلا حاجة لي فيه، ادفنوني إلى جنب أمي. ودفن إلى جنب فاطمة عليها السلام (١).

لقد كان الجهاز السري يعمل بكل قواه من أجل إفساح الطريق لعهود تتربع فيه الأغيلمة السفهاء الذين حذر منهم النبي صلى الله عليه وسلم. حتى سعد بن أبي وقاص لم ينج من ضربات هذا الجهاز، فروي أن معاوية حين أراد أن يعهد إلى يزيد دس لسعد السم فمات (٢). وبعد أن فرغت الساحة من الذين يخشى معاوية أن يقتلهم على مسمع ومرأى من قريش، ولم يتبق إلا نفر يمكن أن يقوم العسكر بتصفيتهم، بدأ معاوية يبايع لابنه يزيد. وروي أن سعيد بن عثمان بن عفان عندما سمع بمبايعة معاوية لابنه قال لمعاوية: لقد اصطنعك أبي ورفاك حتى بلغت باصطناعه المدى الذي لا يجاري إليه ولا يسامي، فما شكرت بلاءه، ولا جازيته بآلائه، وقدمت علي هذا - يعني يزيد - وبايعت له، ووالله لأنا خير منه أبا وأما. فقال معاوية: أما بلاء أبيك فقد يحق علي الجزاء به، وقد كان من شكري لذلك أني طلبت بدمه، حتى تكشفت الأمور، ولست بلائم نفسي في التشمير. وأما فضل أبيك على أبيه، فأبوك والله خير مني، وأقرب برسول الله صلى الله عليه وسلم. وأما فضل أمك على أمه، فما ينكر امرأة من قريش خير من امرأة من كلب. وأما فضلك عليه فوالله ما أحب أن الغوطة دحست ليزيد رجالا مثلك. فقال له يزيد وكان حاضر المجلس: يا أمير المؤمنين ابن عمك! وأنت أحق من نظر في أمره، وقد عتب عليك لي فأعتبه، فعندئذ ولاه معاوية حرب خرسان (٣). وروي أن عمرو بن حزم وفد على معاوية وقال له: أذكرك الله في أمة محمد بمن تستخلف عليها. فقال: نصحت وقلت برأيك، وإنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم، وابني أحق (٤).

---

(١) ابن أبي الحديد ٧٠٨ / ٤.
(٢) مقاتل الطالبين ٦٠ / ١.
(٣) الطبري ١٧١ / ٦، البداية والنهاية ٨٠ / ٨.
(٤) تاريخ الخلفاء ١٩٢ / ١.

ومن الطريف أن يقول ابن كثير في هذه الكارثة: لما مات الحسن، قوي أمر يزيد عن معاوية، ورأى أنه لذلك أهلا، وذلك من شدة محبة الوالد لولده. ولما كان يتوسم فيه من النجابة الدنيوية، وسيما أولاد الملوك ومعرفته بالحروب، وترتيب الملك، والقيام بأبهته (١).. وروى ابن كثير أن معاوية قال: إني خفت أن أذر الرعية من بعدي كالغنم المطيرة ليس لها راع. ونحن نعجب: أخاف معاوية على الرعية من بعده فنصب لهم يزيد، ولم يخف النبي صلى الله عليه وسلم على أمته فلم ينصب لهم أحدا؟! أكان معاوية حريصا على الإسلام فأتى بأولاد الملوك للقيام بأبهة الحكم، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم حريصا عليه ولذلك لم يأت بأصحاب الطهر والعفاف؟! لا والله. لقد كان النبي يخاف على أمته، وكان حريصا على استمرار الدعوة.

وروي أن معاوية وهو يعد المسرح لابنه أمر بإحضار رؤوس القبائل، وعندما حضروا قام رجل من الأزد فأشار إلى معاوية وقال: أنت أمير المؤمنين، فإذا مت فأمير المؤمنين يزيد، فمن أبى هذا فهذا. وأخذ بقائم سيفه فسله. فقال له معاوية: اقعد فأنت من أخطب الناس (٢). وفي سنة ست وخمسين هجرية دعا معاوية الناس إلى بيعة ابنه يزيد من بعده وجعله ولي العهد (٣). وروى ابن كثير أن معاوية قال ليزيد: كيف تراك فاعلا إن وليت. قال: كنت والله يا أبه عاملا فيهم عمل عمر بن الخطاب. فقال معاوية: سبحان الله يا بني، والله لقد جهدت على سيرة عثمان، فما أطقتها فكيف بك وسيرة عمر (٤). وقال ابن كثير وهو يصف يزيد: كان فيه خصال محمودة في الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الرأي في الملك، وكان فيه أيضا إقبال على الشهوات، وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات، وإماتتها في غالب

---

(١) البداية والنهاية ٨٠ / ٨.
(٢) البداية والنهاية ٨٠ / ٨.
(٣) مروج الذهب ٣٧ / ٣.
(٤) الطبري ١٦٨ / ٦.

الأوقات (١). ولقد وصفه غير واحد وسيأتي في موضعه:
ثانيا: أبناؤنا خير من أبنائهم:
بينما كان الإعلام الأموي يشيد بأبناء بني أمية ويردد قول معاوية: " إنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم وابني أحق " كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أقام. الحجة على هذا القول ومثله، وأودع هذه الحجة في ذاكرة الجيل الأول، وقوله تعالى: (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم) (٢) وقوله النبي صلى الله عليه وسلم للحسن والحسين: " هذان ابناي وابن ابنتي اللهم إني أحبهما... " (٣). وقوله: " إن الله تعالى جعل ذرية كل نبي في صلبه. وإن الله تعالى جعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب (٤)، وقوله: " إن لكل نبي أب عصبة ينتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم.. " (٥) وقوله: " نحن خير من أبنائنا، وبنونا خير من أبنائهم، وأبناء بنينا خير من أبناء أبنائهم " (٦). إلى آخر الأحاديث التي ذكرت علاقتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم. فجميع هذا يطيح بادعاءات معاوية وغيره. لأن محبة الوالد لوالده، وتوسم الوالد في ولده النجابة الدنيوية، والقيام بأبهة الملك شئ، ومحبة النبي لأبنائه وتعليمهم للقيام بأمر الله شئ آخر، وهذا لا يلتقي مع هذا من أول الخط وحتى حوض النبي صلى الله عليه وسلم، لأن لكل مقدمة نتيجتها وفقا لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم.
فهذا كله كان في دائرة الذهن لدى الجيل الأول، ولأن النبي صلى الله عليه.

---

(١) البداية والنهاية ٢٣٠ / ٨.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٦١.
(٣) رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم وابن حبان (تحفة الأحوازي ٢٧٤ / ١٠)، (الجامع ٦٥٦ / ٥).
(٤) رواه الطبراني عن جابر والخطيب عن ابن عباس (كنز العمال ٦٠٠ / ١١).
(٥) رواه الحاكم وابن عساكر عن جابر (كنز العمال ٩٨ / ١٢).
(٦) رواه الطبراني عن معاذ (كنز العمال ١٠٤ / ١٢).

وسلم يحبهم، فلقد حصنهم وحذر من اقتحامهم بسوء، لأن حربهم حربه (١)، ومن آذى أهله فقد آذى الله (٢). ومن أبغض الحسن والحسين فقد أبغض رسول الله (٣). ومعنى تحصين النبي لهم أن النبي رفعهم إلى مكانه لا يضرهم فيها من خذلهم. وهذه المكانة هي نفسها مكانة الدعوة والدعوة هي الحق. والحق حق ولو قل اتباعه، والباطل باطل ولو كثر اتباعه. وبهذا التحصين يكون الاعتداء عليهم هو اعتداء على الدعوة، ومن اعتدى على الدعوة فقد اعتدى على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهذا ما صرحت به الأحاديث ونرى أنه لا داعي لتكرارها هنا.

إن السيدة فاطمة كانت لها مهمة في حدث محدد، قد نراه صغيرا، ولكنه تحت المجهر يكون كبيرا، والإمام علي كانت له مهمة محددة، وكذلك الإمام الحسن، والإمام الحسين جاء دوره في الوقت المناسب. فهو حجة على عصر يتم فيه ترجيح الأبناء، فابن عثمان، وابن خالد، وابن سعد، وابن معاوية، وابن الزبير، وابن أبي بكر كل منهم يريد الملك. فشاء الله أن تبدأ حركة الحسين في هذا الوقت، علما بأن في ذاكرة الجيل الأول الأحاديث التي تضع أبناء أمية وأبناء الحكم في دائرة التحذير منهم. فهم الذين رآهم النبي على منبره ينزون نزو القردة، وهم الذين سيتخذون مال الله دولا، ودين الله دخلا، وعباد الله خولا. وفي نفس الوقت تحتوي الذاكرة على أبناء دائرة الطهر، أبناء الكساء والمباهلة. ولقد علم الجميع أنهم أهل البيت ولا أحد غيرهم. فالنبي كان يمر ببيت فاطمة لمدة سبعة أشهر ويقول في وقت الصلاة والناس في المسجد: " الصلاة يا أهل

---

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم والطبراني وابن ماجة وابن أبي شيبة وابن حبان في صحيحه والضياء (جامع الترمذي ٦٩٩ / ٥)، (الفتح الرباني ١٠٦ / ٢٢)، (المستدرك ١٤٩ / ٣)، (كنز العمال ٩٦ / ٩٧ / ١٢ /، ١٤٩، ٦٤٠ / ١٣)، (البداية والنهاية ٣٨ / ٥).

(٢) أبو نعيم عن علي (كنز العمال ١٠٣ / ١٢).

(٣) أحمد (الفتح الرباني ٧ / ٢٣) والحاكم وصححه (المستدرك ١٦٦ / ٣)، وابن ماجة وصححه البوصيري (كنز العمال ١١٦ / ١٢).

البيت... " (١). وعلى هذا فدائرة الاختيار لا إجبار فيها، والله تعالى ينظر إلى عباده كيف يعملون. فإن ركبوا طريق الدعوة أنزل عليهم بركات، وإن لم يركبوا، فإن الدعوة سائرة في عالميتها، ولن توقف حركتها قبيلة من القبائل، حتى ولو قامت بتجنيد عصر بالكامل للنيل من هذه الدعوة، ولمن صد عقوبة عند الله والله يطارده ولا بقاء لشئ يطارده الله. إن الحسين بن علي جاء في الوقت المناسب كي يسوق الناس إلى الطريق المستقيم، فهو في هذا الوقت عنوان لدائرة المبشرات، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " ذهبت النبوات وبقيت المبشرات " (٢). فالحسين يقف عند مرحلة من مراحل الإخبار بالغيب، يقف كعلامة بارزة، فإذا بعث إليه الناس أو جاؤوه، فليس عليه إلا أن يلبي.
وكذلك كان الإمام علي. لقد عهد إليه النبي أن لا ينازع، فإذا بايعه الناس فعليه أن يلبي. فإن تركوه فعليه أن يأخذ بالأسباب ويدعوهم وفقا لحركة الدعوة، ووفقا لحركة الناس بحيث أن لا يكون هناك إكراه بأي صورة من الصور.
فالإسلام لا يكره أحدا، والإسلام لا يقيم وزنا إلا للذين يفكرون بمفهوم الحلال والحرام، ويؤمنون بأن غدا حساب وما الدنيا إلا قنطرة للآخرة. فالإمام علي شق الطريق معهم، وقاتل على التأويل آخذا بكل سبب من الأسباب. وعند ما وقفوا بالغ في نصحهم، وهو يعلم أنه على طريق هو مقتول فيه لا محالة.
وسنة الأخذ الأسباب سنة إلهية، فالله سبحانه يقول: " ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * أنهم لهم المنصورون " (٣) أي: أنا قضينا قضاء محتوما فيهم أنهم لهم المنصورون. فالرسل عليهم السلام منصورون في الحجة لأنهم على الحق، والحق غير مغلوب، وهم منصورون على أعدائهم، إما بإظهارهم عليهم، وإما بالانتقام منهم. وهم منصورون في الآخرة، وقال تعالى: " كتب الله لأغلبن أنا ورسلي " (٤) فالنصر هنا واقع لا محالة ولكن طريقه هو

---

(١) رواه الترمذي (البداية والنهاية ٢٠٥ / ٨).
(٢) ابن ماجة وابن حبان في صحيحه (الإصابة ٢٧٢ / ٨).
(٣) سورة الصافات: الآية ١٧١ - ١٧٢.
(٤) سورة المجادلة: الآية ٢١.

طريق الأخذ بالأسباب، يقول تعالى: " أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولم يأتكم مثل الذين خلو من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) (١)، فهذه الآية تدل على دوام أمر الابتلاء والامتحان وجريانه على امتداد التاريخ الإنساني. والابتلاء والامتحان لا بد أن يكون له حركة، لينظر الله ماذا يفعل عباده وهو أعلم بحركاتهم وسكناتهم من أنفسهم. وأيضا في قوله تعالى: (وإن جندنا لهم الغالبون) (٢)، فالمؤمنين الذين يعملون بأمر الله ويجاهدون في سبيله، ما داموا على هذا الطريق وهذه الصفة، فهم متصورون غالبون. ولكن لا بد لهم من الأخذ بالأسباب التي تحكمها الدعوة، وفي عالم الأسباب يكون الابتلاء والامتحان. يقول تعالى وهو يخاطب المؤمنين: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) (٣)، إنه ضوء على الحركة لتستقيم المقدمات مع النتائج.

والإمام الحسين ادخره الله سبحانه لوقت سارت فيه الأمة في أعماق الفتن والابتلاء، وكان عليه السلام يعلم بأنه مقتول في نهاية الطريق، والذين من حوله يعرفون هذا جيدا. ولكنه لم يجئ ليقتل، وإنما جاء ليخرج أهل عصره من كهف مظلم، وأهل عصره أحرار في الاختيار، فمن أجابه ونصره يكون قد عبر قنطرة الدنيا بأمان – وركب معهم الذين جاؤوا من بعدهم، وفي الحديث: " المرء مع من أحب " (٤)، ومن قاتله وسفك دمه فله عند الله عقوبة، وركب معه من أحبه، حتى يصير الناس إلى فسطاطين، إيمان لا نفاق فيه، ونفاق لا إيمان فيه. حتى يأتي الله بأمره. فيركب المهدي فسطاط الأيمان. ويركب الدجال فسطاط النفاق. " وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلا لفتنة

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٤.
(٢) سورة الصافات: الآية ١٧٣.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٣٩.
(٤) البخاري (الصحيح ٧٧ / ٤).

الدجال " (١).
ولدقة مهمة الحسين عليه السلام أحيط بدائرة تحذيرية من أخطر ما يكون فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا، حسين سبط من الأسباط " (٢). قال في تحفة الأحوذي: علم الرسول ما سيحدث له، فخصه بالذكر، وبين أنهما كالشئ الواحد في وجوب المحبة، وحرمة التعرض والمحاربة. وأكد ذلك بقوله: " أحب الله من أحب حسينا "، فإن محبته محبة الرسول، ومحبة الرسول محبة الله، وقوله: " حسين سبط من الأسباط " أي: أمة من الأمم في الخير، والأسباط في أولاد إسحاق بن إبراهيم الخليل بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل. وأحدهم سبط، فهو واقع على الأمة والأمة واقعة عليه (٣). وقال في لسان العرب: إن الأسباط في ولد إسحاق من إبراهيم بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل عليهم السلام، فولد كل ولد من ولد إسماعيل قبيلة، وولد كل ولد من ولد إسحاق سبط. وإنما سمي هؤلاء بالأسباط وهؤلاء بالقبائل، ليفصل بين ولد إسماعيل وولد إسحاق. وسبط رسول الله صلى الله عليه وسلم معناه أي: طائفة وقطعة منه. ومن هذا الحديث يمكن القول. بأن الذي يقاتل الحسين فإنه سيدخل في دائرة الذي يريد أن يقضي على نسل الرسول حتى قيام الساعة، أي سيكون بمثابة الذي يريد أن يقضي على نسل الرسول حتى قيام الساعة، أي سيكون بمثابة الذي يريد أن يخلع الشجرة بجذورها، وهذا قمة الفساد في الأرض.
فأي مكان لأولادهم هنا؟ وكيف يتم وضعهم على رقبة الأمة؟ أن لفظ سبط جاء ليكون مميزا عن لفظ القبيلة، فهم قبائل. وحتى لا تختلط عليهم الأمور، ويدخلون دهاليز الرأي والتأويل، جاءت الكلمة التي يعرفون أنهم ليسوا

---

(١) رواه أحمد والبزار وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد ٣٣٥ / ٧).
(٢) رواه الترمذي وحسنه وقال رواه غير واحد (الجامع ٦٥٨ / ٥) وقال في تحفة الأحوازي رواه البخاري في الأدب المفرد وابن ماجة والحاكم (تحفة الأحوازي ٢٨٠ / ١١)، ورواه أحمد (الفتح الرباني ١٧٩ / ٢٣).
(٣) تحفة الأحوذي ٢٨٠ / ١٠.

من نسيجها. وبنفس الكلمة أقام النبي صلى الله عليه وسلم عليهم الحجة فقال: إن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلف نبي، وإنه لا نبي بعدي. إنه سيكون خلفاء فنكثر، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم الذي جعل الله لهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم " (١).

إنه طريق الحسن والحسين، ومن معالمه: " وأعطوهم حقهم الذي جعل الله لهم " ومن معالمه أن الله هو الذي استرعاهم. بمعنى أن معاوية، والمغيرة، وزياد، ومروان، وغيرهم ليس لهم يد في عملية التنصيب وهذا باب كبير لا مجال لبحثه هنا. وكان الحسين يعلم أنه سبط من الأسباط، وأنه سيعتدى عليه كما اعتدت اليهود على أعلامها. فكان يقول: " والله لتعدن كما اعتدت بنو إسرائيل في السبت " (٢). والذي يتدبر أحاديث الإخبار بالغيب، يجد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحذر من اتباع طريق الذين ضلوا وانحرفوا من بني إسرائيل. وفي هذا إشارة إلى أن بعد الحسين الذي وصفه الحديث بسبط من الأسباط سيكون اختلاف وفرقة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لتهوكن كما تهوكت اليهود والنصارى " (٣)، فالنبي حذر، وعلم من ربه أن هناك من لن يأخذ بالتحذير – فأخبر بما سيكونوا عليه في بطن الغيب.

إن الحسين لم يأت ليقتل، وإنما جاء لينظر الله عمل الأمة فيه، وهو سبحانه العليم المطلق، والأمة ستقتل الحسين، وهي في هذا العمل مختارة، ولو شاء الله ما فعلوه. فهو سبحانه العزيز وغيره ذليل، فقول معاوية: " إنه لم يبق إلا ابني وأبناءهم وابن أحق " قول يصلح للتجارة، وزينة يتزين بها الذين لا يشبعون حتى ولو جلسوا على آرائك الملك. إن أبناء النبي في دائرة الطهر وعلى قمة الحجة. أما غيرهم فهم مبتلون بهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إن

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد وقال في الفتح إسناد صحيح (الفتح ٥٢ / ٢٣).
(٢) البداية والنهاية ١٦٩ / ٨، الطبري ٢١٧ / ٦.
(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (كنز العمال ٢٠١ / ١).

أهل بيتي سيلقون بعدي من أمتي قتلا وتشريدا، وإن أشد قومنا لنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم " (١). فإذا رفع واحد من أولادهم سيفا على أبي عبد الله الحسين فسيكون بمثابة الذي رفع سيفه على طائفة هي من الرسول والرسول منها. عن ابن عباس قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرج ما بين فخذي الحسين وقبل زيبته " (٢).

ثالثا – النبي صلى الله عليه وسلم يبكي:

كان النبي صلى الله عليه وسلم يرى الرؤيا في منامه، فإذا استيقظ حدث الناس بحقيقة جاءت في صورة رؤيا. وكان الله تعالى في أحيان أخرى يريه بعينه رؤية فيراها رأي العين، أي يقع بصره عليها من دون خلق الله، فيحدث بها على أنها حقيقة. فكان عليه الصلاة والسلام يجلس في المسجد وأمامه الناس. فيقول: " من أحب أن يسأل عن شئ فليسأل عنه، فوالله لا تسألون عن شئ إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا، والذي نفسي بيده لقد عرضت علي الجنة والنار آنفا في عرض هذا الحائط وأنا أصلي... " (٣)، وروي أن أحد أصحابه قال له: " أين مدخلي يا رسول الله. قال: النار (٤). وروي أنه خطب فقال: أيها الناس إن فيكم منافقين، فمن سميت فليقم، قم يا فلان، قم يا فلان، حتى عد، ستا وثلاثين " (٥).

فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يرى فردا ما أمامه، ثم يرى حركة هذا الفرد في التاريخ، ثم يرى مدخل هذا الفرد هل في الجنة أم في النار. ووفقا لهذا كان يخبر عن بني أمية ويقول: " أريت في منامي بني الحكم " (٦)، " رأيت

---

(١) رواه نعيم ابن حماد والحاكم (كنز العمال ١٦٩ / ١١).
(٢) رواه الطبراني وقال الهيثمي إسناده حسن (الزوائد ١٨٦ / ٩).
(٣) رواه أحمد والشيخان (كنز العمال ٤٢١ / ١١).
(٤) البخاري ك الاعتصام (الصحيح ٢٥٩ / ٤).
(٥) رواه البيهقي بسند صحيح (الخصائص الكبرى ١٧٤ / ٢).
(٦) رواه الحاكم والبيهقي وابن عساكر وأبو يعلى ويعقوب بن سفيان (كنز العمال ١١٧، ٣٥٨ / ١١)، (الزوائد ٢٤٤ / ٥).

بني أمية.. " (١)، ويخبر عن أحداث أخرى فيقول: " إني أرى مواقع الفتن خلال بيوتكم " (٢)، " رأيت الدجال أعور العين اليمنى... " (٣). ويخبر عن أحداث أخرى فيقول: " ليدخلن عليكم رجل لعين " (٤). إلى غير ذلك من أحاديث الإخبار بالغيب. وكلما تكرر الحدث أكثر من مرة، كان أمره عظيما. كحديث الكساء نزلت آيته في بيت أم سلمة، ثم تكرر دعاء الرسول لأهل الكساء في أكثر من موضع فسمعت به عائشة، وواثلة، وعمر بن أبي سلمة، وشداد بن أبي عمار، وزينب بنت أبي سلمة، وإسماعيل بن عبد الله. وكذلك مروره صلى الله عليه وسلم على بيت فاطمة ستة أشهر، وفي رواية سبعة أشهر، ونداؤه الصلاة يا أهل البيت، وأيضا حديث من كنت مولاه فعلي مولاه، سمعته جموع غفيرة ورواه غير واحد. وأيضا حديث الارتداد. وذلك عندما يقول النبي: " يا رب أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك "، فلقد تكرر في أكثر من موضع، ورواه أكثر من واحد. وهكذا فالأمور العظيمة والأحداث المصيرية تتكرر مشاهدتها أكثر من مرة ويخبر عنها الرسول في أكثر من موضع ويرويها أكثر من واحد.

وأحداث أبو عبد الله الحسين عليه السلام من هذا النوع، فلقد نزل بها جبريل عليه السلام، ونزل بها ملك لم يكن ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم من قبل، ونزل بها ملك المطر. وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأحداثها: علي وعائشة وأبو بكر وعمر وأم سلمة وابن عباس وغيرهم، ووصف المكان الذي سيدور فيه القتال وسماه، بل وأحضر له جبريل من تربتها... حتى

---

(١) رواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرك ١٧١ / ٣) والترمذي وابن جرير والبيهقي (البداية والنهاية ٢٤٣ / ٦).

(٢) مسلم (الصحيح ٧ / ١٨) ك الفتن.

(٣) مسلم (الصحيح ٦٠ / ١٨) ك الفتن.

(٤) رواه أحمد والبزار إلا أنه قال دخل الحكم بن أبي العاص والطبراني في الأوسط (الزوائد ٢٤١ / ٥).

أن الطبري وغيره رووا: إن أهل ذلك الزمان يقولون ذلك الأمر وينتظرونه في كل يوم وليلة (١). وروى الحاكم عن ابن عباس قال: ما كنا نشك، وأهل البيت متوافرون، أن الحسين يقتل بالطف (٢)، وذكر ابن كثير عن عمرة بنت عبد الرحمن أنها قالت: أشهد لقد سمعت عائشة تقول: إنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يقتل الحسين بأرض بابل (٣).

وروي عن علي أنه قال: ليقتلن الحسين قتلا، وإني لأعرف تربة الأرض التي بها يقتل. قريبا من النهرين (٤). وروي أنه مر أيام صفين بكربلاء فنادى: اصبر أبا عبد الله، اصبر أبا عبد الله بشط الفرات... " (٥)، ثم أخبر بقتل الحسين. وروي أنه جاء على الموضع الذي سيقتل فيه الحسين وقال: ههنا مناخ ركابهم، وموضع رحالهم، ومهراق دمائهم، فتية من آل محمد يقتلون بهذه العرصة، تبكي عليهم السماء والأرض " (٦)، وفي رواية قال: ها هنا، هاهنا، ثقل لآل محمد ينزل ها هنا فويل لهم منكم، وويل لكم منهم، فقال له رجل: ما معنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟ قال: ويل لهم منكم تقتلونهم، وويل لكم منهم يدخلكم الله بقتلهم النار " (٧)، والحسين كان يعرف كل ما يتعلق بتحركاته، كان يعرف أن جند الباطل سيقطع رأسه، وأنهم سيسرقون متاعه بعد ذلك، بل والأكثر من ذلك أن أمير القتلة عمر بن سعد بن أبي وقاص، كان يعرف موقفه من الحسين قبل أن يتحرك الحسين، روي أن علي بن أبي طالب عليه السلام قال لعمر بن سعد: كيف أنت إذا قمت مقاما خير فيه بين الجنة والنار فتختار

---

(١) الطبري ٢١٩ / ٦.
(٢) رواه الحاكم وقال السيوطي سنده صحيح (الخصائص الكبرى ٢١٣ / ٢).
(٣) البداية والنهاية ١٧٧ / ٨.
(٤) رواه ابن أبي شيبة (كنز العمال ٦٧٣ / ١٣).
(٥) رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجاله ثقات (الزوائد ١٨٧ / ٩)، (الفتح الرباني ١٧٥ / ٢٣).
(٦) رواه أبو نعيم (الخصائص الكبرى ٢١٤ / ٢) ابن أبي الحديد ٦٢٠ / ١.
(٧) ابن أبي الحديد ٦٢٠ / ١.

النار (١)؟ تماما كما أخبر القرآن بأن أبا لهب لن يؤمن، في الوقت الذي يدعو فيه القرآن الجميع إلى الإيمان، إن هناك أنماطا بشرية علم الله أن الرسول لو جاءهم بكل آية فسيكون لهم تفسيرهم الخاص. بل إن هناك أنماطا سيطلبون العودة إلى الدنيا يوم القيامة ليعملوا صالحا، والله يعلم أنهم لو عادوا فلن يفعلوا إلا ما كانوا يفعلون على الرغم من أنهم شاهدوا النار بأعينهم. يقول تعالى: " ولو ترى إذ وقفوا على النار، فقالوا: يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) (٢).

فهؤلاء منهم من عاصر الأنبياء ومنهم من أخذ بذيول الآباء، وعلى رؤوسهم جميعا حجة من الله، لأن الله تعالى لا يكذب أحدا، إلا بعد أن يقيم عليه الحجة، فإن أعرض عنها ولم يحدث نفسه بتوبة، كانت له عند ربه الأعلى عقوبة.

وبعد أن بينا أن الناس كانوا يعرفون حقيقة الأحداث قبل وقوعها، كي يأخذوا بالأسباب التي تجعلهم يحققون سعادة الدنيا والآخرة، ولا يدفعون الأحداث دفعا حتى يسفك الدم الحرام. نقدم الآن بعض الأحاديث التي رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم عن منزلة الحسن والحسين، ولقد قدمنا بعضا على امتداد هذا البحث. ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: " الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ". وهذا الحديث محفوظ ورواه ستة عشر صحابيا (٣). وقول النبي صلى الله عليه وسلم: " هما ريحانتاي من الدنيا " (٤)، وقوله: " من أحبهما فقد

---

(١) رواه ابن عساكر (كنز العمال ٦٧٤ / ١٣).

(٢) سورة الأنعام: الآية ٢٧ - ٢٨.

(٣) قال في نظم المتناثر في الحديث المتواتر نقل عن السيوطي أنه متواتر رواه ستة عشر صحابيا (نظم المتناثر ١٩٦ / ١).

(٤) رواه البخاري (الصحيح ٣٠٦ / ٢) وأحمد والترمذي وابن عدي وابن عساكر والنسائي والبزار (كنز العمال ١١٣، ١١٤ / ١٢)، (الزوائد ١٨١ / ٩)، (البداية والنهاية ٢٠٥ / ٨).

أحبني " (١). فمنزلتهما في الجنة لا خلاف عليها، وموقعهما في الدنيا واضح، وروي أن ابن عباس كان يأخذ الركاب للحسن والحسين إذ ركبا ويرى هذا من النعم عليه (٢).

وما ورد في أبي عبد الله كثير، ومنه عن أبي هريرة قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو حامل الحسين وهو يقول: " اللهم إني أحبه فأحبه " (٣). وعن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى الحسين بن علي (٤)

والأحداث الكبرى على امتداد الجيل الأول كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدد فيها المثل الأعلى المرتفع، والمثل الأعلى المنخفض، ويبين أن طريق المثل الأعلى المرتفع غايته الله ومكانه في الجنة. أما المثل الأعلى المنخفض، فإن على طريقه تكون الفتن التي يغيب فيها العقل، وترقع فيه الحقائق، وتلتبس فيه الأمور، ولا ينجو إلا العالم بما يجري. وبداية طريق المثل الأعلى والمرتدع أن يتذكر الإنسان أنه سيموت وسيبعث وسيعرض على الله الملك الحق، وأن هذه الدنيا صغيرة، وهي دار للامتحان عند دائرة فيها نقص في الأنفس، ونقص في الثمرات، وشئ من الخوف، وشئ من الجوع. ودار للامتحان عند دائرة زينها الشيطان وزخرفها رغبة منه في الاغواء والاحتناك. وعلى امتداد طريق المثل الأعلى المرتفع، يواجه الإنسان المحن بزاد الصبر. أما طريق المثل الأعلى المنخفض، فدائما ما يشق خطاه في ساحات الزينة والافتخار بالأموال والأولاد. وأصحابه يعز عليهم أن يغادروا الدنيا وليس لهم أعلام تأكل وتحلد وتسجن باسمهم. فطريق المثل الأعلى المنخفض هو نفسه الطريق الذي يتكالب فيه

---

(١) رواه أحمد (البداية والنهاية ٢٠٥ / ٨).

(٢) ابن كثير (البداية والنهاية ٤٠ / ٨).

(٣) رواه الحاكم وقال الذهبي صحيح (المستدرك ١٧٧ / ٣).

(٤) رواه أبو يعلى ورجاله ثقات (الزوائد ١٨٧ / ٩)، ورواه ابن كثير في البداية بلفظ: من أحب أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى هذا، وقال تفرد به أحمد (البداية والنهاية ٢٠٦ / ٨).

أصحاب الأنياب على المستضعفين من أبناء هذه الأمة الجريحة
ولقد كان أبو عبد الله الحسين علما من أعلام طريق المثل الأعلى المرتفع الذي غايته الله وحده. كان أبو عبد الله دعوة لرفض الظلم والاستكبار على عباد الله المساكين. فالسلطة الأموية تسير بالقافلة نحو طريق لا يورث الأمة إلا الذل والعار. ألم يقتل حجر بن عدي ويدعي معاوية زياد وتسير الصلاة في طريق الضياع؟ ألم تنفق أموال المسلمين على تدبير المؤامرات وقتل من ترى الدولة أنهم معارضين لسياستها؟ ألم تتخذ الدولة بطانة لها من النصارى وعلى رأسهم سرجون الرومي موضع سر معاوية؟ ثم ألم يكن هذا كله مقدمة أو خطوة داخل مربع اتخاذ مال الله دولا ودين الله دخلا وعباد الله خولا؟ وعلاوة على هذا، ألم تكن الساحة قد طفحت تحت ثقافة السب بأجيال سيكون لهم الأثر البالغ على مسيرة الأمة بعد عام ستين، ذلك العام الذي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه سيكون مقدمة للفجار والمنافقين الذين يتاجرون بالقرآن. وفوق هذا الطوفان يبحث المحترفين من أبناء الصحابة عن طريق لكي يصلوا به إلى سدة الحكم.
إن هذا الطفح كان لا بد له من مثل أعلى مرتفع، فمن تذكر الموت وعلم أن لكل ذرة في هذا الكون رسالة، وأن رسالته هي الوقوف في خنادق الدعوة والسير على طريقها وفي اتجاه أهدافها. فمن علم ذلك فلن يجد مشقة في الوقوف تحت مظلة المثل الأعلى المرتفع. ويكفيه عنوان " من أحب أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى هذا - يعني الحسين (١)، ويكفيه أيضا العنوان التحذيري القاطع الباتر: " إن ابني هذا يقتل بأرض من أرض العراق يقال لها: كربلاء، فمن شهد ذلك فلينصره " - وفي رواية: " فمن شهده فلينصره " - وفي رواية: " فمن شهد منكم ذلك فلينصره " (٢).

---

(١) رواه الإمام أحمد (البداية والنهاية ٢٠٦ / ٨).
(٢) رواه البغوي وابن السكن والبارودي وابن مندة وابن عساكر وأبو نعيم (البداية والنهاية ١٩٩ / ٨)، (كنز العمال ١٢٦ / ١٢)، (الخصائص الكبرى ٢١٣ / ٢)، (أسد الغابة ٣٤٩ / ١)، (الإصابة ٦٨ / ١).

ولأن النبي صلى الله عليه وسلم علم من ربه ماذا ستكون عليه الأمور، كان يبكي بكاءا شديدا، كلما جاء إليه نعى أبي عبد الله الحسين. وكما ذكرنا فلقد جاء إليه النعي في أكثر من موضع، وحمله أكثر من واحد. عن أم سلمة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا ذات يوم في بيتي. فقال: لا يدخل علي أحد، فانتظرت، فدخل الحسين، فسمعت نشيج (أي: صوت معه توجع وبكاء) رسول الله يبكي، فاطلعت فإذا حسين في حجره، والنبي صلى الله عليه وسلم يمسح جبينه وهو يبكي. فقلت: والله ما علمت حين دخلت. فقال: إن جبريل كان معنا في البيت. قال: أفتحبه؟ قلت: أما من الدنيا فنعم. فقال: إن أمتك ستقتل هذا بأرض يقال لها: كربلاء. فتناول جبريل من تربتها وأراها النبي... " (١)، وفي رواية: فقلت لجبريل: أريني تربة الأرض التي يقتل فيها – فجاءني فهذه تربتها (٢)..

وروى الإمام أحمد عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لقد دخل على البيت ملك لم يدخل على قبلها. فقال لي: إن ابنك هذا حسين مقتول. وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها، قال: فأخرج تربة حمراء (٣).

وروى الإمام أحمد عن أنس قال: استأذن ملك القطر أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم، فأذن له. فقال لأم سلمة: احفظي علينا الباب لا يدخل علينا أحد، فجاء الحسين بن علي، فوثب حتى دخل، فجعل يصعد على منكب النبي صلى الله عليه وسلم. فقال الملك: أتحبه؟ قال: نعم، فقال:

.

---

(١) قال الهيثمي رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدهما ثقات (الزوائد ١٨٩ / ٩).

(٢) ابن سعد عن أم سلمة (كنز العمال ١٢٦ / ١٢).

(٣) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل (١٧٦ / ٢٧ الفتح الرباني) وقال في الفتح: قال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (١٨٧ / ٩)، وأورده ابن كثير في البداية (البداية ١٩٩ / ٨)، وقال: روى هذا الحديث من غير وجه عن أم سلمة ورواه الطبراني عن أبي إمامة وفيه قصة أم سلمة. ورواه ابن سعد عن عائشة بنحو رواية أم سلمة وروى ذلك من حديث زينب بنت جحش ولبابة وأم الفضل امرأة العباس. وأرسله غير واحد من المتابعين.

إن أمتك تقتله، وإن شئت أريتك المكان الذي يقتل فيه. قال: فضرب بيده فأراه ترابا أحمر. فأخذت أم سلمة ذلك التراب فصرته في طرف ثوبها، قال أنس: فكنا نسمع أنه يقتل بكربلاء (١).

فماذا كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم عقب كل إخبار من ملك من الملائكة؟ لقد كان النبي يبلغ ويحذر، روى الطبراني: فلما ذهب حبريل من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج والحسين في يده يبكي، فقال: يا عائشة إن جبريل أخبرني أن ابني حسين مقتول في أرض الطف، وإن أمتي ستفتن من بعدي، ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه منهم: علي، وأبو بكر، وعمر، وحذيفة، وعمار، وأبو ذر رضي الله عنهم وهو يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا رسول الله. فقال: أخبرني جبريل أن ابني الحسين يقتل بعدي بأرض الطف، وجاءني بهذه التربة، وأخبرني أن فيها مضجعه (٢).

وأخرج ابن سعد في الطبقات عن عائشة قالت: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم راقد. إذ جاء الحسين يحبوا إليه، فنحيته عنه، ثم قمت لبعض أمري، فدنا منه فاستيقظ يبكي، فقلت: ما يبكيك قال: إن جبريل أراني التربة التي يقتل عليها الحسين، فاشتد غضب الله على من يسفك دمه. وبسط يده فإذا فيها قبضة من بطحاء، فقال: يا عائشة والذي نفسي بيده إنه ليحزنني، فمن هذا من أمتي يقتل حسينا بعدي؟ (٣).

أما عندما نزل الملك على النبي وأخبره بمقتل الحسين. فلقد روى الطبراني عن عائشة: أن الحسين بن علي دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا عائشة ألا أعجبك؟! لقد دخل.

---

(١) أورده ابن كثير في البداية ١٩٩ / ٨، وأخرجه أبو يعلى في مسنده وأبو نعيم في الدلائل (٢٠٢ / ٣)، ورجالهما ثقات. وأخرجه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط باختصار (الزوائد ١٨٨ / ٩)، وأخرجه الماوردي في أعلام النبوة ص ٨٣، ورجاله ثقات.

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات وابن عساكر عن أم سلمة باختصار (كنز العمال ١٢٧ / ١٢).

علي ملك آنفا ما دخل علي قط. فقال: إن ابني هذا مقتول. وقال: إن شئت أريتك تربة يقتل فيها. فتناول الملك بيده. فأراني تربة حمراء (١). وروى عبد بن حميد في مسنده بسند صحيح أن النبي كان يبكي ويقول: " يا ليت شعري من يقتلك بعدي "، وروى الطبراني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " نعي إلي الحسين وأتيت بتربته وأخبرت بقاتله، والذي نفسي بيده، لا يقتلوه بين ظهراني قوم لا يمنعونه، إلا خالف الله بين صدورهم وقلوبهم وسلط عليهم شرارهم وألبسهم شيعا (٢). وروى ابن عساكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " حسين أتيت بتربته، ورأيت قاتله أما أنه لا يقتل بين ظهراني قوم فلا ينصرونه. ألا عمهم الله بعقاب " (٣).

مما سبق علمنا أن العصر الأول كان على علم بأحداث أبي عبد الله الحسين في خطوطها العريضة، وأنهم كانوا يعلمون أيضا بما سيترتب على قتل الحسين. فالطريق بعد القتل فيه عذاب من الله، وأمروا أن ينصروا الحسين. ومن الثابت والمحفوظ أن معاوية كان يسب أهل البيت على منابر دمشق وغيرها. ولم تقف الأكثرية ضد هذه الثقافة التي ليس فيها نصر للحسين. لم يعملوا بسياسة: " لو أن الناس اعتزلوهم " (٤)، ولم يأخذوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع " أيها الناس خذوا العطاء ما كان عطاء، فإذا تجاحفت قريش على الملك، وكان عن دين أحدكم فدعوه " (٥) وقال: " خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا كان إنما هو رشا فاتركوه، ولا أراكم تفعلون، يحملكم على ذلك الفقر

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (كنز ١٢٨ / ١٢) ورجاله ثقات وهم: محمد بن عبد الله الحضرمي قال الدارقطني: ثقة والحسين بن حريث بن الحسن من رجال الصحاح غير ابن ماجة، وثقه النسائي وابن حبان، والفضل بن موسى من رجال الصحاح الست وثقه ابن معين وابن سعد، وابن وكيع وغيرهم.

(٢) الطبراني (الزوائد ١٩٠ / ٩)، وإسناده جيد (كنز العمال ١٦٧ / ١١).

(٣) ابن عساكر (كنز العمال ١٢٨ / ١٢).

(٤) رواه البخاري (الصحيح ٢٨٠ / ٢) ك. بدء الخلق.

(٥) رواه أبو داوود حديث ٢٩٥٨.

والحاجة. ألا وإن رحى بني مرج قد دارت، وإن رحى الإسلام دائرة، وإن الكتاب والسلطان سيفترقان. فدوروا مع الكتاب حيث دار.. " (١).

إن الأغلبية بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بأقل من خمسين سنة لم يعتزلوا بني أمية، على الأقل عندما تبينوا أن معاوية يتجاحف على الملك وهو من الطلقاء، ويبذر المال بذرا لوقف تقدم الذين يدورون مع الكتاب حيث دار. ولا يعني هذا أن بني أمية شقوا طريقهم بسهولة ويسر، لأن خير أمية أخرجت للناس ما نامت، إن كان أكثرهم قد قتل. ولو لم يكن هناك غير هذه الفئة القليلة لكان ذلك كفاية، لأن التاريخ قد سجل وعلم الشاهد والغائب أن خير أمة أخرجت للناس وقفت بالمرصاد للظلم والاستكبار وبطر الحق، الذي اتخذ من الدين رداءا له. ولم يحدث على امتداد التاريخ الإنساني أن خرجت أمة على أمة، أمة ترفع راية الإسلام وهي تريد بطر الحق، وأخرى على بينة وترفع راية القرآن والسنة، وتنادي بإقامة العدل. ولم يحدث في أمة من الأمم أن خرج منهم رجال يحملون القرآن في صدورهم، ليأمروا بالمعروف في عالم مدجج بالسلاح، وأهله لا تجاوز القرآن تراقبهم. لم يحدث هذا من قبل، ولكنه حدث في الأمة الخاتمة التي حمل أمانتها خير أمة أخرجت للناس.

رابعا – على مفترق الطرق:

قبل اشتعال الأحداث التي تنتهي بمقتل الحسين كان هناك تغيرات، ذهب معها قديم وجاء عليها جديد منها: موت المغيرة بن شعبة أحد دهاة العرب، والذي يعود الفضل إليه في وضع بذرة الحكم الوراثي في ساحة الملك، في أمة رفضت الحكم الوراثي في دائرة الطهر. وضع بذرة لا تنبت إلا بالسيف والدهاء والمكر. في حين أن هذه البذرة كان يقابلها بذرة أخرى شجرتها التقوى وفروعها اليقين وتسقى من حوض فيه ماء لذة للشاربين. مات المغيرة سنة خمسين بعد أن ضربه الطاعون (٢). وفي سنة اثنين وخمسين مات زياد ابن أبيه، ذراع معاوية،

---

(١) رواه الطبراني عن معاذ، وابن عساكر عن ابن مسعود (كنز ٢١٦ / ١).
(٢) الطبري ١٣١ / ٦.

مات بالطاعون بعد أن فعل الأفاعيل بأمة النبي الأمي صلى الله عليه وسلم:
ومات سمرة بن جندب الذي قتل من المسلمين ثمانية آلاف، وعند ما قيل له: هل تخاف أن تكون قد قتلت بريئا قال: لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت (١). وروي أنه قال في آخر أيام حياته وبعد أن فقد منصبه: لعن الله معاوية، والله لو أطعت الله كما أطعت معاوية ما عذبني أبدا (٢). ومات عمرو بن العاص الذي نظر إليه عمر بن الخطاب يوما وقال: " ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرا (٣).
وروي أن ابن العاص عندما احتضر حول وجهه إلى الجدار وقال: اللهم أمرتنا فعصينا، ونهيتنا فما انتهينا ولا يسعنا إلا عفوك. وفي رواية أنه جزع جزعا شديدا، فلما رأى ذلك ابنه عبد الله قال: يا أبا عبد الله ما هذا الجزع، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنيك ويستعملك؟ قال: أي بني: وسأخبرك عن ذلك، أما والله. ما أدري أحبا كان ذلك أم تألفا يتألفني (٤).
ومات أيضا معاوية بن أبي سفيان بن حرب، كان عمر بن الخطاب يقول للناس: " أتذكرون كسرى وعندكم معاوية " (٥)، ويقول لهم: " دعوا فتى قريش وابن سيدها، إنه لمن يضحك في الغضب، ولا ينال منه إلا على الرضا " (٦)، وإذا قال له معاوية: مرني يا أمير المؤمنين بما شئت. يقول له عمر: لا آمرك ولا أنهاك (٧). وعندما استعمله عمر كتبت هند بنت عتبة إلى معاوية: إن هذا الرجل قد استنهضك في هذا الأمر، فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت. وكتب إليه

---

(١) الطبري ١٣٢ / ٦.
(٢) الطبري ١٦٤ / ٦.
(٣) الإصابة ٣ / ٥.
(٤) قال الهيثمي في الصحيح طرف منه ورواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (الزوائد ٣٥٣ / ٩).
(٥) الطبري ١٨٤ / ٦.
(٦) البداية والنهاية ١٢٤ / ٨، الديلمي (كنز العمال ٥٨٧ / ١٣).
(٧) البداية والنهاية ١٢٥ / ٨، الطبري ١٨٤ / ٦.

أبوه: يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخيرنا، فصاروا قادة وسادة وصرنا أتباعا، قد ولوك جسيما من أمورهم، فلا تخالفهم، فإنك تجري إلى أمد، فنافس فإن بلغته أورثته عقبك (١).

لقد ذهب جيل عاصر حذيفة الذي كان يصلي سرا، وجاء جيل آخر على أكتافه تضيع الصلاة ويشق شعر الأديرة وشعر المجون طريقه على أيدي الأقيشر، وحنين الحيري، والثرفواني، وبكر بن خارجة، وغيرهم من الذين سلموا أعلامهم إلى خليفة ماجن متهتك خليع، نسي أنه خليفة للمسلمين، واندفع في حياة لاهية مستهترة، وهذا الخليفة هو الوليد بن يزيد، وهو فرع أخير من فروع شجرة بني أمية (٢).

والجيل الذي ذهب وضع على رقبة الأمة من هو أشد. وروي أن يزيد بن معاوية عندما جلس على أريكة الملك وقام بأبهته، استشار مستشاره النصراني سرجون. ذكر ابن كثير: أن سرجون الرومي كان كاتبا لمعاوية وصاحبا لأمره (٣). وقال: عندما تولى يزيد أقر نواب أبيه ولم يعزل أحدا منهم وهذا من ذكاء يزيد (٤). وقال ابن حجر في الإصابة: سرجون مستشار يزيد هو الذي أشار عليه بتولية عبيد الله بن زياد الكوفة ليتصدى لأتباع الحسين (٥). وذكر الطبري: لما اجتمعت الكتب عند يزيد، دعا يزيد سرجون وقال له: ما رأيك فإن حسينا قد توجه نحو الكوفة. فقال سرجون: أرأيت معاوية لو بعث لك كنت آخذا برأيه؟ قال يزيد: نعم. فأخرج سرجون عهد عبيد الله على الكوفة، وقال: هذا رأي معاوية وقد أمر بهذا

---

(١) البداية والنهاية ١١٨ / ٨.

(٢) راجع سيرته وأخباره وأقوال العلماء فيه في البداية والنهاية ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١ / ١٠.

(٣) البداية والنهاية ٢١ / ٨.

(٤) ابن كثير البداية والنهاية ١٤٦ / ٨.

(٥) الإصابة ١٦ / ٢.

الكتاب (١)، فمعاوية وسرجون كتبا الكتب وأودعوها الخزائن، فكل حدث يحدث له في الخزينة كتاب، وسنرى فيما بعد عهد معاوية ليزيد في أحداث الحرة، حيث أوصى معاوية لمسلم بن عقبة ليذل به الأنصار.

وبينما كان سرجون يخطط في دار الخلافة، كان مروان بن الحكم يخدمه في مكان آخر سواء أكان في الحكم أو في خارجه. فهو في هذه الآونة كبير بني أمية، وبكر أبناء الحكم بن العاص الذي لعنه النبي صلى الله عليه وسلم ومروان في صلبه. وبين هؤلاء وقف عبد الله بن الزبير، وكان قد تثاقل عن مبايعة يزيد، وذهب إلى مكة ودعا الناس إليه، وعبد الله كان علما من أعلام يوم الجمل، وهو الذي أفسد أبيه، وكان الكرسي أملا من آماله.

وبعيدا عن هؤلاء وقف عبد الله بن عمر بن الخطاب، ولم يكن مصدر خطورة لأحد، فهو لم ينصر علي وبايع يزيد، ووقف في وجه الخارجين عليه يوم الحرة، ثم بايع عبد الملك بن مروان. وبعد ضرب الكعبة طاف ابن عمر بها، وطاف معه الحجاج بن يوسف. وكان قد أمره عبد الملك أن يأخذ مناسكه عن عبد الله وسيأتي ذلك في موضعه.

والخلاصة: كانت الأحداث على أبواب خروج الحسين، يديرها سرجون ومعاوية – وإن كان قد مات – ويزيد، وكان ربان السفينة عبيد الله بن زياد، السفاح الذي تتوارى أمامه خجلا أفعال بسر بن أرطأة، وسمرة بن جندب، وغيرهما رغم قسوتها. وكانت الأحداث تبشر بثقافة لا تنتج إلا جيلا متسلقا يبحث عن السلطة، أو جيلا حاملا ليس عنده المقدرة ليميز بين الصالح وبين الطالح، وبين ما هو رجس وما هو طاهر. وبالجملة: كان الجيل الأول في القرن الأول أمام امتحان لا إجبار فيه، إما أن يختار يزيد ويقف معه لتصفية معارضيه، كابن الزبير والخوارج ليستقيم الملك للأسرة الأموية، وإما أن ينقبوا فيما حولهم ويقرؤون الأحداث على وجهها الفطري، بعيدا عن زخرف أعلام المعارضة، وبريق

---

(١) الطبري ٢٠٠ / ٦.

أهدافها التي ما هي إلا سراب. ويساعدهم في ذلك مخزونهم الفطري الذي هو حجة بذاته، وما حفر في دائرة ذهنهم من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يختاروا لأنفسهم الدائرة التي لا ترى عندها زخرفا أو بريقا، وإنما أخبار بحياة كريمة من ورائها موت وبعث وحساب، يترتب عليه أما جنة وإما نار...

لقد كانت الساحة تعج بأعلام الزينة والإغواء وعلى طرقها تسير قوافل الاحتناك، وكانت هناك حجة من الله على هذا الأعلام وهذه القوافل، حتى لا تكون لهم على الله حجة يوم القيامة. وحجة الله ظاهرة ولا تفرض نفسها على أحد، وإنما تأخذ الحجة بالأسباب في مخاطبة الناس كي يساعدهم ذلك في الالتفاف حول طوق النجاة.. وشاء الله أن يكون الحجة في هذه الساحة مقتولا، وشاء الله أن يكون الناس على علم بأنه مقتول حتما، وشاء سبحانه أن يكون في الخندق المقابل للحجة أهل دنيا معهم الأعلام التي يزينها البريق، وهنا يكون الابتلاء – فمن سيقف في ساحة الدماء؟ ومن سيقف في ساحة الدينار والدرهم؟

إن الجيل الأول في القرن الأول كان في مفترق طرق. لأن الحجة في سنن الوجود يحب أن يهرع إليه الناس ما دام فيه من الله برهان. لأن الناس مطالبون بحركة لينظر الله كيف يعملون، قال تعالى: " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا " (١). فالخطوة الأولى منهم، فإذا جاهدوا فيه عند المقدمة، ترتب على ذلك عطاء الله إن كانوا صادقين. وقال تعالى: " ولينصرن الله من ينصره " (٢)، وقال: " إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى " (٣)، لقد آمنوا أولا فزادهم الله هدى، فإذا هرع الناس إلى الحجة، سلك بهم طرق الدنيا عن طريق الدين.

فالدين طريقة خاصة في الحياة تؤمن صلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي، والحياة الدائمة الحقيقية. والسعادة الحقيقية يصل إليها الإنسان. أو يعمل في الوصول إليها. عندما يكون مؤمنا بالله وكافرا بالطاغوت.

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.
(٢) سورة الحج: الآية ٤٠.
(٣) سورة الكهف: الآية ١٣.

خامسا – الرسائل والحصار:
بعد وفاة معاوية، حدث ما توقعه الحسن بن علي، فلقد علم كثير من أهل الحجاز واليمن والعراق أن بني أمية ليسوا بأصحاب دين، بقدر ما هم أصحاب بغي ومكر – وكان الحسن بن علي، بعد أن صالح معاوية، يريد أن ينطلق أهل البيت فيما بعد من هذه الأرضية. فالذين علموا أن حركة بني أمية تدور حول توريث الكرسي وجمع الأموال، سيعيدون التفكير ويردون الحق إلى أصحابه لينالوا علما ونجاة. وأصحاب الحق لن يطمعوا في ما بين أيدي الناس، لأنهم لا يأكلون الصدقة، ولا يريدون إلا نصيبهم الذي كتبه الله لهم من الخمس. فوفقا لهذا التفكير ينال الناس العلم والمال، ويفتح الله عليهم بركات من السماء، ولكن معاوية قطع طريق هذا الخط بعد أن فرض ابنه على العقل.
وما يهمنا هنا هو إلقاء الضوء على حركة أهل العراق، كيف بدأت؟ وما هي القوة التي أدت إلى فشلها، ثم كيف كانت حركة أبي عبد الله الحسين مع البداية، وكيف كانت حركته مع القوة الغاشمة التي صدت عن سبيل الله؟
روي أن أبا عبد الله الحسين عليه السلام خرج إلى مكة، في الوقت الذي كانت الشيعة مجتمعة في العراق في منزل سليمان بن صرد صحابي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم – قال في الإصابة: كان سليمان خيرا فاضلا شهد صفين مع علي (١) – فقال سليمان: إن معاوية قد هلك، وإن حسينا قد تقبضه على القوم ببيعته، وقد خرج إلى مكة، وأنتم شيعته وشيعة أبيه، فإن كنتم تعلمون. أنكم ناصروه ومجاهدوا عدوه، فاكتبوا إليه. وإن خفتم الوهن والفشل، فلا تغروا الرجل من نفسه قالوا: بل نقاتل عدوه، ونقتل أنفسنا دونه. قال: فاكتبوا إليه. بسم الله الرحمن الرحيم. لحسين بن علي من سليمان بن صرد، والمسيب بن نجية (٢). ورفاعة بن شداد، وحبيب بن مظاهر، وشيعته من

---

(١) الإصابة ١٢٧ / ٣.
(٢) قال في الإصابة أدرك النبي وهو قول ابن سعد وقيل غير ذلك (الإصابة ١٧٥ / ٦).

المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة. سلام عليك. فإنا نحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو. أما بعد. فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد، الذي انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها، وغصبها فيأها، وتآمر عليها بغير رضى منها، ثم قتل خيارها واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبعدا له كما بعدت ثمود. إنه ليس علينا إمام، فاقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق... " (١).

ثم أرسلوا الكتاب مع عبد الله الهمداني، وبعد يومين بعثوا إليه بنحو من ثلاثة وخمسين صحيفة موقعة من الرجل والاثنين والأربعة. ثم لبثوا يومين آخرين، وبعثوا إليه بكتاب قالوا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، لحسين بن علي من شيعته من المؤمنين والمسلمين. أما بعد. فحي هلا. فإن الناس ينتظرونك ولا رأي لهم في غيرك فالعجل العجل والسلام عليك (٢)، ثم كتب إليه شبث بن ربعي ومن معه: أما بعد فقد أخضر الجناب، وأينعت الثمار، وطمت الجمام، فإذا شئت فاقدم على جند لك مجند. والسلام عليك (٣).

وروي أن الرسل تلاقت كلها عند الحسين عليه السلام، فقرأ الكتب، وسأل الرسل عن أمر الناس. ثم كتب مع هانئ بن هانئ السبيعي، وسعيد بن عبد الله. وكانا آخر الرسل: بسم الله الرحمن الرحيم. من حسين بن علي إلى الملاء من المؤمنين والمسلمين. أما بعد. فإن هانئا وسعيدا أقدما علي بكتبكم، وكانا آخر من قدم علي من رسلكم. وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم ومقالة جلكم، إنه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق. وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورأيكم. فإن كتب إلي أنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت علي به رسلكم وقرأت في كتبكم،

---

(١) الطبري ١٩٧ / ٦.
(٢) الطبري ١٩٧ / ٦.
(٣) الطبري ١٩٧ / ٦.

أقدم عليكم وشيكا أن شاء الله. فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب والأخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله. والسلام (١).

وبعث الحسين إليهم مسلم بن عقيل، وكان ذلك لثمان ليال ماضين من ذي الحجة سنة ٦٠. وكان الحسين قد خرج من المدينة إلى مكة لليلتين بقيتا من رجب سنة ٦٠. وأقام بمكة شعبان وشهر رمضان وشوال وذا القعدة، ثم خرج منها لثمان ماضين من ذي الحجة يوم التروية (٢)، وكان مسلم بن عقيل قد بعث إليه من الكوفة: " أما بعد، فإن الرائد لا يكذب أهله، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفا، فعجل الاقبال حين يأتيك كتابي، فإن الناس كلهم معك، ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوى والسلام (٣).

وروي أن الحسين بعد أن وصلت إليه رسائل أهل الكوفة، وعلم أن هوى أهل البصرة ليس مع آل معاوية، بعث مع مولى لهم يقال له سليمان بكتاب إلى رؤوس الأخماس بالبصرة وإلى الأشراف قال فيه: أما بعد. فإن الله اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم على خلقه، وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته ثم قبضة الله إليه. وقد نصح لعباده وبلغ ما أرسل به صلى الله عليه وسلم وكنا أهله وأولياءه وورثته، وأحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة، وأحببنا العافية. ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه، وقد أحسنوا وأصلحوا، وتحروا الحق فرحمهم الله وغفر لنا ولهم، وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب. وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، فإن السنة قد أميتت، وإن البدعة قد أحييت، وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد. والسلام عليكم ورحمة الله (٤). وروى أن أشراف أهل البصرة عندما قرؤا الكتاب كتم غير

---

(١) الطبري ١٩٨ / ٦.
(٢) الطبري ٣١٥ / ٦.
(٣) الطبري ٣١١ / ٦.
(٤) الطبري ٢٠٠ / ٦.

واحد منهم يدعى المنذر بن الجارود. الذي خشي أن يكون الكتاب مدسوس من قبل عبيد الله بن زياد ولذا توجه إلى مقر الإمارة، وأعطى الكتاب لابن زياد. فأمر بإحضار سليمان حامل رسالة الحسين وضرب عنقه (١). ثم صعد إلى المنبر وقال: إني لنكل لمن عاداني، وسم لمن حاربني.. يا أهل البصرة. إن أمير المؤمنين يزيد ولاني الكوفة، وأنا غاد إليها الغداة، وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أبي سفيان. وإياكم والخلاف والإرجاف، فوالذي لا إله غيره، لئن بلغني عن رجل منكم خلاف، لأقتلنه وعريفه ووليه. ولآخذن الأدنى بالأقصى حتى تسمعوا لي، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق. أنا ابن زياد. أشبهته من بين من وطئ الحصى. ولم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم (٢). ثم خرج من البصرة، واستخلف أخاه عثمان وأقبل إلى الكوفة. كما أوصى معاوية بن أبي سفيان. وروى أنه عندما دخل الكوفة كانت عليه عمامة سوداء. وكان متلثما، فظن الناس حين قدم عبيد الله بن زياد أنه الحسين، فأخذ لا يمر على جماعة من الناس إلا سلموا عليه وقالوا: مرحبا بك يا ابن رسول الله، قدمت خير مقدم. فرأى ابن زياد من تباشيرهم بالحسين عليه السلام ما ساءه. فلما دخل القصر وعلم الناس في الكوفة أنه عبيد الله بن زياد، دخلهم من ذلك كآبة وحزن شديد (٣). ولما نزل ابن زياد القصر، نودي الصلاة جامعة. فاجتمع الناس. فخرج وقال: إن أمير المؤمنين ولاني مصركم وثغركم. وأمرني بإنصاف مظلومكم.... وبالشدة على مريبكم وعاصيكم. وأنا متبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهده... (٤).

مما سبق علمنا أن الجموع بعثت بالرسائل إلى أبي عبد الله الحسين، ولم يكن النظام الحاكم بعيدا عن ما يحدث. فلقد أغلق الأبواب على البصرة، وأعلن قانونه بصراحة " لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعريفه ووليه ولآخذن

---

(١) الطبري ٢٠٠ / ٦.
(٢) الطبري ٢٠٠ / ٦.
(٣) الطبري ٢٠١ / ٦.
(٤) الطبري ٢٠١ / ٦.

الأدنى بالأقصى حتى تسمعوا ولا يكون فيكم مخالف "، إنه قانون له عند فقهاء السلطان والفتنة ألف تأويل. أما في الكوفة فلقد أعلن الأمير بأنه متبع فيهم أمر أمير المؤمنين يزيد ومنفذ فيهم عهده. ولعل في هذا كفاية لمن أراد أن يبرئ يزيد من دم الحسين أو أن يلتمسوا إليه الأعذار، وقيل أن نسلط الأضواء على أعمال ابن زياد في الكوفة. فلننظر مجريات الأحداث في مكة.

سادسا – العزيمة والإصرار:

كان الحسين يقف كحجر عثرة في طريق آمال عبد الله بن الزبير، الذي وضع مكة في اعتباره، لينطلق منها ويدعو إلى نفسه. روي أن ابن الزبير قال للحسين: ما تريد أن تصنع؟ فقال الحسين: والله لقد حدثت نفسي بإتيان الكوفة، ولقد كتب إلي شيعتي بها وأشراف أهلها، واستخير الله. فقال له ابن الزبير: أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت بها. وبعد أن قال ذلك، خشي أن يتهمه، فقال للحسين: أما إنك لو أقمت بالحجاز، ثم أردت هذا الأمر ههنا. ما خولف عليك إن شاء الله. وعندما خرج الحسين من عنده قال الحسين: ها إن هذا ليس شئ يؤتاه من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق. وقد علم أنه ليس له من الأمر معي شئ، وأن الناس لم يعدلوه بي فود أني خرجت منها لتخلو له (١). ولقد كان الحسين يعلم أن ابن الزبير سيقتل في مكة على طريق الفتن وذلك وفقا لإخبار النبي صلى الله عليه وسلم بالغيب عن ربه. وروي أن ابن الزبير الذي لزم الكعبة وقد عرف أن أهل الحجاز لا يبايعونه ولا يتابعونه أبدا ما دام حسين بالبلد، لأنه حسينا أعظم في أعينهم وأنفسهم منه قال للحسين: إن شئت أن تقيم أقمت فوليت هذا الأمر... فقال الحسين: إن أبي حدثني أن بها كبشا يستحل حرمتها. فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش (٢).

فالحسين يتعامل مع الأحداث وفقا لمعايير دقيقة، فابن الزبير يريد الحكم

---

(١) الطبري ٢١٦ / ٦.

(٢) الطبري ٢١٧ / ٦، البداية ١٦٦ / ٨.

ويعمل من أجله. وهذا قد حدث. وبما أنه ليس وحده الذي يقاتل في عالم القتن من أجل الحكم، فإن من يريد أن ينتزع منه هذا الحكم فسيقاتله. وفي جميع الأحوال ستكون مكة أرض الصراع، ومكة حرمها الله، لذا فالحسين تعامل مع الحدث من هذا الباب. فهو لا يريد أن يدخل في صراع مع ابن الزبير أو غيره داخل الحرم، لأن للحرم عنده مكانة وقداسة، ولأنه يعرف طريقة جيدا. اختار الذهاب إلى الكوفة فهناك أو على طريقها يواجه أصول البغي والإرهاب والفتن التي اجتمعت كلها في سلة واحدة. فهناك تكون الحركة لها معنى. أما في مكة ما أدرانا ماذا كان سيحدث لو واجه الحسين خصومه فيها. ولذا قال الحسين لابن الزبير: والله لأن أقتل خارجا منها – أي مكة – بشبر أحب إلي من أن أقتل داخلا منها بشبر (١).

وبعد أن عزم الحسين على الخروج إلى الكوفة، أشفق عليه الكثير من الناس، لأنهم كانوا يعلمون نتيجة هذا الخروج، وعندما كلموه في ذلك قال: إني رأيت رؤيا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمرت فيها بأمر. وأنا ماض له عله كان أولى. فقيل له: فما تلك الرؤيا؟ قال: ما حدثت أحدا بها وما أنا محدث بها حتى ألقى ربي (٢). وروي أنه قال لابن الزبير، وأيم الله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام، لاستخرجوني حتى يقضوا في حاجتهم، ووالله ليعتدن علي كما اعتدت اليهود في السبت (٣). وإني ماض في أمر رسول الله حيث أمرني. وإنا لله وإنا إليه راجعون (٤). ثم قال عليه السلام: والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا، سلط الله عليهم من يذلهم، حتى يكونوا أذل من فرم الأمة (٥).

---

(١) الطبري ٢١٧ / ٦.
(٢) الطبري ٢١٩ / ٦، أسد الغابة ٢١ / ٢، البداية ١٦٧ / ٢٨.
(٣) البداية والنهاية ١٦٩ / ٨، الطبري ٢١٧ / ٦.
(٤) مقتل الحسين / الخوارزمي ١٥٨ / ١.
(٥) الطبري ٢٢٣ / ٦، البداية والنهاية ١٦٩ / ٨.

ويبدو، والله أعلم، أن أجهزة التيار الأموي كانت تعد العدة من أجل القيام بعمل تخريبي للإضرار بالحسين في موسم الحج. ولا قدر الله لو حدث هذا، لوضعت الدماء على وجه فريضة إسلامية يحتشد فيها الناس، ولترتب على ذلك أمور الأمة في غنى عنها. ويبدو أن ابن عباس فطن لهذا الأمر عندما وجد الحسين طاف بالبيت، وبين الصفا والمروة، وقص شعره، وحل من عمرته بينما الناس يتوجهون إلى منى (١) ففي هذا الوقت يقول ابن عباس: كلمني حسين في الخروج فقلت: لولا أن يزري ذلك بي أو بك لشبكت بيدي في رأسك. فقال الحسين: لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلي من أن يستحل بي حرم الله ورسوله. قال ابن عباس: فذلك الذي سلى بنفسي عنه (٢).

وخرج الحسين ومعه أهل بيته، وروي أنه لما خرج من مكة، اعترضه رسل عمرو بن سعيد ابن العاص عامل يزيد بن معاوية على مكة، فقالوا له: انصرف، أين تذهب؟ كانوا يريدون أن يعود إلى مكة، فأبى عليهم ومضى، وتدافع الفريقان، فاضطربوا بالسياط، ثم إن الحسين وأصحابه امتنعوا منهم امتناعا قويا. ومضى الحسين عليه السلام على وجهه. فنادوه: يا حسين ألا تتقي الله، تخرج من الجماعة وتفرق هذه الأمة. فتلى قوله تعالى: (لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل. وأنا برئ مما تعملون) (٣).

وكان الحسين قد تلى قوله تعالى: " فخرج منها خائفا يترقب. قال: رب نجني من القوم الظالمين)، وذلك عندما سار نحو مكة بعد أن رفض بيعة يزيد، فلما دخل مكة تلى قوله تعالى: " فلما توجه تلقاء مدين، قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) (٤)، وعندما خرج من مكة تلى قوله تعالى: (لي عملي ولكم عملكم...) الآية.

---

(١) الطبري ٢١٧ / ٦.
(٢) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد ١٩٢ / ٩).
(٣) الطبري ٢١٨ / ٦، البداية والنهاية ١٦٦ / ٨.
(٤) الطبري ١٩١ / ٦.

وفي الطريق انتهى إلى ماء من مياه العرب، فإذا عليه عبد الله بن مطيع، فلما رأى الحسين قام إليه وقال: بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله. ما أقدمك؟ فقال له الحسين: كان من موت معاوية ما قد بلغك. فكتب إلي أهل العراق يدعونني إلى أنفسهم. فقال له ابن مطيع:... فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنك، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحدا أبدا. والله إنها لحرمة الإسلام تنتهك، وحرمة قريش، وحرمة العرب، فلا تفعل ولا تأت الكوفة، ولا تعرض لبني أمية. فأبى الحسين إلا أن يمضي (١). وقال له آخر: إني مشفق عليك من مسيرك، إنك تأتي بلدا فيه عماله وأمراؤه، ومعهم بيوت الأموال. وإنما الناس عبيد لهذا الدرهم والدينار. ولا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك بالنصر ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك (٢). فأبى الحسين إلا أن يمضي.

سابعا – التخويف والإرهاب:

كتب يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد: كتب إلي شيعتي من أهل الكوفة يخبرونني أن ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع لشق عصا المسلمين، فسر حين تقرأ كتابي هذا، حتى تأتي أهل الكوفة فتطلب ابن عقيل كطلب الخرزة، حتى تثقفه فتوثقه أو تقتله والسلام (٣). ولقد بينا كيف دخل ابن زياد الكوفة وعلى رأسه عمامة سوداء، وماذا قال للناس عندما خطبهم وكان قد خطب في أهل البصرة من قبل وهددهم.

وروي أن ابن عقيل نزل في الكوفة على دار هانئ بن عروة، وكان الشيعة يتكتمون أخباره خوفا عليه من ابن زياد. ولكي يصل ابن زياد إلى ابن عقيل وأصحابه، دعا مولى له يقال له: معقل وقال له: خذ ثلاثة آلاف درهم ثم اطلب مسلم بن عقيل، واطلب لنا أصحابه، ثم أعطهم هذه الثلاثة آلاف وقل لهم:

---

(١) الطبري ٢٢٤ / ٦.
(٢) الطبري ٢١٦ / ٦.
(٣) الطبري ٢٠٠ / ٦.

استعينوا بها على حرب عدوكم، وأعلمهم أنك منهم. ففعل الرجل ذلك، فجاء إلى المسجد وسمع الناس يقولون: هذا يبايع للحسين، فتقدم وقال: يا عبد الله إني أمرؤ من أهل الشام مولى لذي الكلاع. أنعم الله علي بحب هذا البيت وحب من أحبهم، فهذه ثلاثة آلاف درهم أردت بها لقاء رجل منهم بلغني أنه قدم الكوفة يبايع لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكنت أريد لقاءه، فلم أجد أحدا يدلني عليه ولا يعرف مكانه. وإني لجالس آنفا في المسجد. إذ سمعت نفرا من المسلمين يقولون. هذا رجل له علم بأهل البيت، وإني أتيتك لتقبض هذا المال. وتدخلني على صاحبك فأبايعه. وإن شئت أخذت بيعتي له قبل لقائه... فشكره الرجل ودعا له وقال له: لقد ساءني معرفتك إياي بهذا الأمر من قبل أن ينمى، مخافة هذا الطاغية وسطوته.. وأخذ بيعته وأخذ عليه المواثيق المغلظة ليناصحن وليكتمن. فأعطاه من ذلك ما رضي به (١)، ثم إن معقلا مولى ابن زياد ذهب إلى واحد من أتباع ابن عقيل، وهو مسلم بن عوسجة ليدخله على ابن عقيل. فأقبل به حتى أدخله عليه، وأصبح معقل أول داخل وآخر خارج يسمع أخبارهم ويعلم أسرارهم، ثم ينطلق بها حتى يقرها في أذن ابن زياد (١)، وروي أن ابن زياد بعد أن أخذ جميع احتياطاته الأمنية. بعث إلى هانئ بن عروة الذي ينزل في داره ابن عقيل وقال له: إيه يا هانئ بن عروة، ما هذه الأمور التي تربض في دورك لأمير المؤمنين وعامة المسلمين؟ جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك، وجمعت له السلاح والرجال في الدور حولك وظننت أن ذلك يخفى علي (٢).

ثم دعا ابن زياد معقلا ذلك العين، فجاء حتى وقف بين يديه فقال لهانئ: أتعرف هذا، قال: نعم. وعلم هانئ عند ذلك إنه كان عينا عليهم، وأنه قد أتاه بأخبارهم (٣). فقال هانئ: آمره أن يخرج من داري إلى حيث شاء من الأرض.

---

(١) الطبري ٢٠٤ / ٦، البداية والنهاية ١٥٣ / ٨.
(٢) الطبري ٢٠٥ / ٦، البداية ١٥٤ / ٨.
(٣) الطبري ٢٠٥ / ٦، البداية ١٥٤ / ٨.

فقال ابن زياد: لا والله لا تفارقني أبدا حتى تأتيني به. قال: لا والله لا أجيئك به أبدا، أنا أجيئك بضيفي تقتله. فقال: والله لتأتيني به، قال: والله لا آتيك به (١). فتدخل بينهما رجل فقال: أصلح الله الأمير خلني وإياه أكلمه. فقال له: يا هانئ إني أنشدك الله ألا تقتل نفسك، وتدخل البلاء على قومك وعشيرتك... فادفع الرجل إليه، فإنه ليس عليك بذلك، مخزاه ولا منقصة. إنما تدفعه إلى السلطان قال: بلى والله إن علي في ذلك للخزي والعار. أنا أدفع جاري وضيفي وأنا حي صحيح أسمع وأرى، شديد الساعد كثير الأعوان! والله لو لم أكن إلا واحدا ليس لي ناصر، لم أدفعه حتى أموت دونه. فسمع ابن زياد ذلك فقال: ادنوه مني فأدنوه فقال: والله لتأتيني به أو لأضربن عنقك... ثم قال للعسكر: ادنوه مني فأدنوه فاستعرض وجهه بالقضيب. فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وخده، حتى كسر أنفه وسيل الدماء على ثيابه ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته. ثم قال: خذوه فألقوه في بيت من البيوت وأغلقوا عليه بابه واجعلوا عليه حرسا (٢).

وعندما علم ابن عقيل بما حدث، أمر عبد الله بن حزم أن ينادي في أصحابه، وقد ملأ منهم الدور حوله. وقد بايعه ثمانية عشر ألفا. وفي الدور أربعة آلاف رجل. وتنادى أهل الكوفة فاجتمعوا إليه وعقد ابن عقيل للرجال على القبائل. وسارت الخيل في اتجاه القصر. فلما بلغ ابن زياد إقباله تحرز في القصر وغلق الأبواب. وروي عن عباس الجدلي أنه قال: خرجنا مع ابن عقيل في أربعة آلاف فما بلغنا القصر إلا ونحن ثلاثمائة (٣).

وبينما كانت خيل ابن عقيل تتقدم نحو القصر، كانت أبواق السلطان تتجه نحو دور الكوفة. روي أن ابن زياد دعا كثير بن شهاب وأمره أن يخرج فيمن أطاعه، فيسير بالكوفة، ويخذل الناس عن ابن عقيل، ويخوفهم ويحذرهم عقوبة

---

(١) الطبري ٢٠٥ / ٦.
(٢) الطبري ٢٠٦ / ٦، البداية ١٥٤ / ٨.
(٣) الطبري ٢٠٧ / ٦، البداية ١٥٤ / ٨.

السلطان (١). ووقف كثير بن شهاب فقال: أيها الناس الحقوا بأهليكم، ولا تعجلوا الشر، ولا تعرضوا أنفسكم للقتل. فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت. وقد أعطى الله الأمير عهدا، لئن أتممتم على حربه ولم تنصرفوا من عشيتكم. أن يحرم ذريتكم العطاء، ويفرق مقاتلتكم في مغازي أهل الشام على غير طمع، وأن يأخذ البرئ بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتى لا يبقى له فيكم بقية من أهل المعصية. إلا أذاقها وبال ما جرت أيديها (٢).

يقول الطبري: وتكلم الأشراف بنحو من كلام هذا. فلما سمع مقالتهم الناس أخذوا يتفرقون وأخذوا ينصرفون وروي أن المرأة كانت تأتي ابنها أو أخاها فتقول: انصرف، ويجيئ الرجل إلى ابنه أو أخيه فيقول: غدا يأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشر؟ انصرف، فما زالوا يتفرقون ويتصدعون، حتى أمسى ابن عقيل وما معه ثلاثون نفسا في المسجد، فلما أمسى وليس معه إلا أولئك النفر. خرج متوجها نحو أبواب كنده. فما بلغ الأبواب وما معه منهم عشرة، ثم خرج من الباب. وإذا ليس معه إنسان، والتفت فإذا هو لا يحس أحدا يدله على الطريق، ولا يدله على منزل ولا يواسيه بنفسه إن عرض له عدو.

فمضى على وجهه يتلدد في أزقة الكوفة لا يدري أين يذهب، حتى خرج إلى دور بني جبلة من كندة، فمشى حتى انتهى إلى باب امرأة يقال لها: طوعة كانت للأشعث بن قيس فأعتقها فتزوجها أسيد الحضرمي. فولدت له بلالا، وبعد أن عرفها بنفسه وأن القوم كذبوه، أدخلته بيتا في دارها غير البيت الذي تكون فيه (٣).

ومن قصر الإمارة أعلن ابن زياد على أهل الكوفة: إن برئت ذمة الله من رجل وجدنا ابن عقيل في داره ومن جاء به فله ديته. وقال: اتقوا الله عباد الله، والزموا طاعتكم وبيعتكم ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا، ثم نادى على صاحب

---

(١) الطبري ٢٠٧ / ٦، البداية ١٥٤ / ٨.
(٢) الطبري ٢٠٨ / ٦.
(٣) الطبري ٢٠٩ / ٦، البداية ١٥٥ / ٨.

الشرطة: يا حصين بن تميم ثكلتك أمك، إن صاح باب سكة من سكك الكوفة، أو خرج هذا الرجل ولم تأتني به، وقد سلطتك على دور أهل الكوفة، فابعث مراصدة على أفواه السكك، وأصبح غدا واستبر الدور وجس خلالها. حتى تأتيني بهذا الرجل (١)، وروي أن بلال بن أسيد الذي آوت أمه ابن عقيل أخبر الشرطة بمكان ابن عقيل وعندما علم ابن زياد بذلك أمر بإحضاره.. فلما سمع ابن عقيل وقع حوافر الخيل وأصوات الرجال عرف أنه قد أتى، فخرج إليهم بسيفه، واقتحموا عليه الدار. فشد عليهم يضربهم بسيفه. حتى أخرجهم من الدار. وأشرفوا عليه من فوق ظهر البيت، وأخذوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار في أطنان القصب. فلما رأى ذلك خرج عليهم مصلتا بسيفه في السكة فقاتلهم فأقبل عليه محمد بن الأشعث فقال: يا فتى لك الأمان، لا تقتل نفسك فأقبل يقاتلهم وهو يقول:

أقسمت لا أقتل إلا حرا * وإن رأيت الموت شيئا نكرا

وظل يقاتلهم وفد أثخن بالحجارة، وعجز عن القتال. وأسند ظهره إلى جدار الدار، فقال ابن الأشعث: لك الأمان واجتمعوا حوله فقال ابن عقيل: أما لو لم تؤمنوني ما وضعت يدي في أيديكم. وعندما انتزعوا سيفه، دمعت عيناه ثم قال: هذا أول الغدر... أين أمانكم أنا لله وإنا إليه راجعون... وبكى، فقيل له: إن من يطلب مثل الذي تطلب، إذ نزل به مثل الذي نزل بك لم يبك. فقال: والله ما لنفسي أبكي، ولا لها من القتل أرثي... ولكن أبكي لأهلي المقبلين إلي. أبكي الحسين وآل حسين. ثم أقبل علي بن الأشعث فقال: يا عبد الله إني أراك والله ستعجز عن أماني فهل عندك خير تستطيع أن تبعث من عندك رجلا على لساني يبلغ حسينا؟ فإني لا أراه إلا قد خرج إليكم اليوم مقبلا، أو هو خارج غدا هو وأهل بيته. فيقول: أن ابن عقيل بعثني إليك، وهو في أيدي القوم أسير، لا يرى أن تمشي حتى تقتل، وهو يقول لك ارجع بأهل بيتك، ولا يغرك أهل الكوفة، فإنهم أصحاب أبيك، الذي كان يتمنى فراقهم

---

(١) الطبري ٢١٠ / ٦، البداية ١٥٥ / ٨.

بالموت أو القتل، إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبوني وليس لمكذوب رأي. فقال ابن الأشعث: والله لأفعلن، ولأعلمن ابن زياد إني قد أمنتك (١).

وروي أن ابن عقيل عندما دخل على ابن زياد دار بينهما حوار طويل، منه أن ابن زياد قال له: إن نفسك تمنيك ما حال الله دونه ولم يرك أهله. فقال ابن عقيل: فمن أهله يا ابن زياد؟ قال: أمير المؤمنين يزيد. فقال: الحمد لله على كل حال، رضينا بالله حكما بيننا وبينكم. قال: كأنك تظن أن لكم في الأمر شيئا. فقال ابن عقيل: ما هو بالظن ولكنه باليقين. قال: قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد في الإسلام. فقال: أما أنك أحق من أحدث في الإسلام ما لم يكن فيه، أما أنك لا تدع سوء القتلة، وقبح المثلة، وخبث السيرة، ولؤم الغلبة، ولا أحد من الناس أحق بها منك. فأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم حسينا وعليا وعقيلا، وأخذ مسلم لا يكلمه (٢). وكان ابن عقيل قد عرى نظامه فقال له: إن أباك قتل خيار الناس، وسفك دماءهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر (٣). ووصفهم بأنهم يلغون في دماء المسلمين ولغا. ويقتلون النفس التي حرم الله قتلها، ويقتلون النفس بغير النفس. ويسفكون الدم الحرام. ويقتلون على الغضب والعداوة وسوء الظن. وهم يلهون ويلعبون كأن لم يصنعوا شيئا (٤).

وأمر ابن زياد بضرب عنق ابن عقيل فوق سطح القصر، فصعد به وهو يكبر ويستغفر ويصلي على ملائكة الله ورسله وهو يقول: " اللهم احكم بيننا وبين قوم غرونا وكذبونا وأذلونا وقتلونا " ثم ضرب عنقه (٥) وروي أنهم أحضروا هانئ بن عروة من السجن. حتى انتهوا به إلى مكان من السوق كان يباع فيه

---

(١) الطبري ٢١١ / ٦.
(٢) الطبري ٢١٣ / ٦، البداية ١٥٦ / ٨.
(٣) الطبري ٢١٣ / ٦، البداية ١٥٦ / ٨.
(٤) الطبري ٢١٣ / ٦، البداية ١٥٦ / ٨.
(٥) الطبري ٢١٣ / ٦، البداية ١٥٦ / ٨.

الغنم وهو مكتوف. وعندما لم يجد أحدا من قبيلته يدافع عنه، جذب يده فنزعها. من الكتاف ثم قال: أما من عصا أو سكين أو حجر أو عظم. فوثبوا عليه، فضربه رجل بالسيف فلم يصنع سيفه شيئا، فقال هانئ: إلى الله المعاد اللهم إلى رحمتك ورضوانك. ثم ضربه الرجل أخرى فقتله (١).

وكتب ابن زياد إلى يزيد بن معاوية: " الحمد لله الذي أخذ لأمير المؤمنين بحقه وكفاه مؤنة عدوه "، ثم أخبره بما تم من لجوء ابن عقيل إلى دار هانئ وإنه جعل عليهما العيون ودس إليهما الرجال، إلى آخر القصة، ثم قال: " وقد بعثت إليك برؤوسهما... " والسلام فكتب يزيد بن معاوية، فأخبره بأنه عنده قد عمل عمل الحازم، وصال صولة الشجاع الرابط الجأش ثم قال له: " إنه قد بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح واحترس على الظن. وخذ على التهمة غير أن لا تقتل إلا من قاتلك واكتب إلي - في كل ما يحدث من الخبر - والسلام " (٢)

وهكذا نزل الستار على رسول الحسين، ومما سبق رأينا أن الجماهير خذلت الحسين، لأن الدولة الأموية أرهبت الجماهير. أرهبتهم بصورة تأنف منها الفطرة. فإذا كان الخوف من الأمور الفطرية، فيجب أن يتم التعامل مع الإنسان بما لا يرعب الخوف الفطري، إن الإسلام نهى عن ترويع المسلم، بل ووضع أسس راقية للتعامل مع الحيوان والطير والنبات. فإذا جئت بقانون فيه: " أخذ البرئ بالسقيم، والشاهد بالغائب " و " لئن بلغني عن رجل منكم خلافا لأقتلنه وعريفه ووليه، ولآخذن الأدنى بالأقسى " و " احترس من السلطان فإنه يغضب غضب الصبيان، ويأخذ أخذ الأسد، وقليلة يغلب كثير من الناس " فمثل هذا القانون لا علاقة له بالإسلام. وقانون مثل هذا يكون حجر عثرة في طريق الفطرة لأن الاختيار فيه لا يتم إلا بعقل السلطان وعينه. بمعنى أن الناس لا يرون إلا ما يرى السلطان. وهذا في حد ذاته ضد طبيعة الوجود لأنه ينتج إنسانا مشوها.

---

(١) الطبري ٢١٤ / ٦، البداية ١٥٧ / ٨.

(٢) الطبري ٢١٥ / ٦، البداية والنهاية ١٦٥ / ٨.

والإنسان لا بد له من حركة لأن سنة الوجود أن ينظر الله إلى خلقه كيف يعملون.
إن التخويف والإرهاب يضرب بصورة أو بأخرى دائرة الاختيار، بل ويجتث شجرة الحرية الحقيقية التي تتغذى بماء الفطرة، ولما كانت الدولة الأموية قد عملت من أجل تنمية شجرة الارهاب، ولما كانت هذه الشجرة قد وضعت عليها عباءة القداسة والدين، بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بأقل من خمسين عاما، وهذا يمثل خطرا على الأجيال وحتى قيام الساعة، فإن الحسين بن علي إذا كان له رأي في الذين خذلوه، فإن حركته ستكون نحو الجذور أي نحو صناع الارهاب. وهذه الحركة ليست من أجل وقف الارهاب، وإنما لوضع لباس العار الذي ما بعده عار على رؤوس صناع التخويف والإرهاب حتى يرث الله الأرض ومن عليها.
ثامنها – صمود على الطريق:
كان الحسين عليه السلام في الطريق إلى الكوفة، ولم يكن يعلم بالأحداث التي جرت هناك، لذا بعث قيس بن مسهر إلى أهل الكوفة، وكتب معه إليه:
بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين. سلام عليكم. فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد. فإن كتاب مسلم بن عقبة قد جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم، واجتماع ملئكم على نصرنا والطلب بحقنا... فإذا قدم عليكم رسول فاكمشوا أمركم وجدوا، فإني قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله " (١)، وأقبل قيس بن مسهر إلى الكوفة بكتاب الحسين، حتى إذا انتهى إلى القادسية. أخذه الحصين بن نمير فبعث به إلى ابن زياد، الذي كان قد شدد الرقابة على جميع المنافذ والأبواب. وعندما علم ابن زياد بأسباب قدوم قيس بن مسهر، أمر قيس أن يصعد القصر حتى يراه الناس وقال له: سب الكذاب ابن الكذاب... فصعد ثم قال: أيها الناس، إن

---
(١) الطبري ٢٢٣ / ٦.

هذا الحسين بن علي خير خلق الله ابن فاطمة بنت رسول الله، وأنا رسوله إليكم. وقد فارقته بالحاجر فأجيبوه، ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه واستغفر لعلي بن أبي طالب. وعندئذ أمر ابن زياد أن يرمي به من فوق القصر فرمي به فتقطع فمات (١).

لقد كان بيان قيس بن مسهر فيه كفاية ليهب الناس هبة رجل واحد، ولكن القوى الطاغية كانت قد نشرت الذل في الطرقات بما فيه كفاية، ولكي يطوقهم الحسين بطوق الحجة مرة أخرى، بعث إليهم عبد الله بن يقطر. وما حدث لقيس حدث لابن يقطر. فلقد تلقته خيل الحصين بن نمير بالقادسية، وبعث به إلى ابن زياد، فأمره أن يصعد القصر، وأن يلعن الكذاب ابن الكذاب. فصعد فلما أشرف الناس قال: أيها الناس إني رسول الحسين بن فاطمة بن بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لتنصروه وتوازروه على ابن مرجانة بن سمية الدعي.

فأمر ابن زياد بأن يلقى من فوق القصر، فرمي به فكسرت عظامه وبقي به رمق، فأتاه رجل يقال له عبد الملك بن عمير. (٢) فذبحه فما عيب ذلك عليه قال: إنما أردت أن أريحه (٣).

فالطريق إلى الفطرة ودعوتها كان ابن زياد قد أغلقه تماما. في أثناء ذلك كان الحسين لا يمر بأهل ماء إلا اتبعوه (٤). وبينما هو في " ماء زبالة " سقط إليه خبر قتل رسله بالكوفة فأخرج الحسين للناس كتابا فقرأ عليهم وفيه: " بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإنه قد أتانا خبر فظيع، قتل مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة. وعبد الله بن يقطر. وقد خذلتنا شيعتنا. فمن أحب منكم الانصراف، فليس عليه منا ذمام " (٥). فتفرق الناس عنه تفرقا، فأخذوا يمينا

---

(١) الطبري ٢٢٤ / ٦، البداية ١١٨ / ٨.
(٢) وقيل إنه رجل غيره كان يشبهه.
(٣) الطبري ٢٢٦ / ٦، البداية ١٦٨ / ٨.
(٤) الطبري ٢٢٦ / ٦، البداية ١٦٨ / ٨.
(٥) الطبري ٢٢٦ / ٦.

وشمالا. حتى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه من المدينة. وذكر الطبري: وإنما فعل ذلك، لأنه ظن إنما اتبعه الأعراب، لأنهم ظنوا أنه يأتي بلدا قد استقامت له طاعة أهله، فكره أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون على ما يقدمون. وقد علم أنهم إذا بين لهم. لم يصحبه إلا من يريد مواساته والموت معه (١).

إلى هنا انتهت قصة الذين خذلوه في أصولها العريضة. فأي خطوة سيخطوها الحسين بعد ذلك فلن تكون بحال من أجل الذهاب إلى الذين خذلوه، وإنما ستكون نحو القوة الباغية التي تعوق تقدم الأمر الفطري بأحجار الكسروية وقيصرية وجاهلية. وانطلق الحسين حتى مر بطن العقبة فنزل بها، وبينما هو جالس جاءه أحد عمومته فسأله: أين تريد؟ فحدثه فقال للحسين: إني أنشدك الله لما انصرفت، فوالله لا تقدم إلا على الأسنة وحد السيوف، فإن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال، ووطئوا لك الأشياء فقدمت عليهم، كان ذلك رأيا. فأما على هذه الحال التي تذكرها، فإني لا أرى لك أن تفعل. فقال الحسين: يا عبد الله إنه ليس بخفي علي الرأي ما رأيت، ولكن الله لا يغلب على أمره (٢) ".

أي والله يا أبا عبد الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون. إن الناس لا يرون إلا أول الطريق أو وسطه أما نهاية الطريق فلا ترى إلا بعد أن تجئ. والله غالب على أمره. وروي أن ابن زياد بعث إلى الحصين بن نمير أن يبعث من القادسية الحر بن يزيد وبين يديه ألف من الجنود ليستقبل الحسين، وانطلق الحر بقواته لاستقبال الحسين ومراقبته.

وروي أن الحسين خرج فأمر مناديه فنادى بالعصر، وكان الحر وقواته يصلون مع الحسين وأتباعه، وبعد الصلاة: قام الحسين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس فإنكم أن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله. ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم والسائرين .

---

(١) الطبري ٢٢٦ / ٦، البداية ١٦٩ / ٨.

(٢) الطبري ٢٢٦ / ٦.

فيكم بالجور والعدوان. وإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا. وكان رأيكم غير ما أتتني كتبكم وقدمت به علي رسلكم انصرفت عنكم " (١)، فالحسين يوضح هنا أن الدعوة إليه كانت صادرة من صدور ماضيه، وعلى هذا الرضى جاءت الرسائل التي لم يجد أمامها إلا أن يتحرك، وإنه لو لم تأت هذه الرسائل ما كان له أن يتحرك. وكيف يتحرك نحو قوم كرهوه وجهلوا حقه. فالرسائل هي دليل الرضا، والحر وقواته دليلا على كبت هذا الرضا. ولذا قال له الحر: إنا والله ما ندري ما هذه الكب؟ التي تذكر. فقال الحسين: يا عقبة بن سمعان أخرج الخرجين اللذين فيهما كتبهم إلي، فأخرج خرجين مملوءين صحفا. فنشرها بين أيديهم. فقال الحر: فإنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، وقد أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك على عبيد الله بن زياد. فقال له الحسين: الموت أدنى إليك من ذلك. قال الحر: لم أؤمر بقتالك وإنما أمرت أن لا أفارقك حتى أقدمك الكوفة، فإذا أبيت فخذ طريقا لا تدخلك الكوفة ولا تردك إلى المدينة، تكون بيني وبينك نصفا، حتى أكتب إلى ابن زياد. وتكتب أنت إلى يزيد بن معاوية إن أردت أن تكتب إليه أو إلى عبيد الله بن زياد إن شئت فلعل الله إلى ذلك أن يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من أن أبتلى بشئ من أمرك (٢). وسار الحسين في طريق والحر في طريق آخر يسايره ويراقبه.

وروي أن الحسين خطب أصحابه وأصحاب الحر بالبيضة. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله، ناكثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول. كان حقا على الله أن يدخله مدخله. إلا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفئ، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله. وأنا أحق من غير، وقد آتتني

---

(١) الطبري ٢٢٨ / ٦، البداية ١٧٢ / ٨.
(٢) الطبري ٢٢٩ / ٦، البداية ١٧٣ / ٨.

كتبكم، وقدمت علي رسلكم ببيعتكم إنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن أتممتم علي بيعتكم تصيبوا رشدكم. فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم في أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر. لقد فعلتموها بأبي وأخي وأبن عمي مسلم، والمغرور من اغتر بكم، فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (١).

إن الحسين وهو يخاطب الجنود الذين لم يكتبوا إليه، خاطبهم من على أرضيه الحجة، فوضعهم مع الذين بعثوا إليه في مربع واحد. فالذين بعثوا إليهم هم أشراف القوم ورؤوسهم، والجنود لا ينفصلوا عنهم بحال، لذا كان الخطاب واحدا وموجه إلى مربع واحد.

وروي أنه خطب فيهم بمنطقة ذي حسم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون. وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفها، واستمرت جدا، فلم يبق منها إلا صبابة الإناء. وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقا. فإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برما. وعندئذ قام زهير بن القين فقال لأصحابه: تتكلمون أم أتكلم. قالوا: بل تكلم، فحمد الله فأثنى عليه ثم قال: قد سمعنا هداك الله يا ابن رسول الله مقالتك. والله لو كانت الدنيا لنا باقية، وكنا فيها مخلدين، إلا أن فراقها في نصرك ومواساتك لآثرنا الخروج معك على الإقامة فيها. فدعا له الحسين. فأقبل الحر وقال: يا حسين إني أذكرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن، ولئن قوتلت لتهلكن فيما أرى، فقال له الحسين: أفبالموت تخوفني؟ ما أدري ما أقول لك، ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه ولقيه وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له: أين تذهب

---

(١) الطبري ٢٢٩ / ٦، الكامل لابن الأثير ٢٨٥ / ٣، نهاية الإرب ٤١٩ / ٢٠.

فإنك مقتول فقال:
سأمضي وما بالموت عار على الفتي * إذا ما نوى حقا وجاهد مسلما.
وواسى الرجال الصالحين بنفسه * وفارق مثبورا وخالف مجرما
فلما سمع ذلك منه الحر تنحى عنه وسار، وكان يسير بأصحابه في ناحية وحسين في ناحية أخرى، وبينما هم على ذلك إذا بأربعة من الكوفة قد أقبلوا على رواحلهم، وعندما انتهوا إلى الحسين قال الحر بن يزيد: إن هؤلاء النفر الذي من أهل الكوفة، ليسوا ممن أقبل معك، وأنا حابسهم أو رادهم فقال الحسين: لأمنعنهم بما أمنع منه نفسي، إنما هؤلاء أنصاري وأعواني. وقد كنت أعطيتني أن لا تعرض لي بشئ حتى يأتيك كتاب من ابن زياد، فقال الحر: أجل ولكن لم يأتوا معك، قال: هم أصحابي وهم بمنزلة من جاء معي. فإن تممت علي ما كان بيني وبينك وإلا ناجزتك، فكف عنهم الحر (١).
وروي أن الحسين قال لهم: أخبروني خبر الناس وراءكم، فقال له مجمع بن عبد الله، وهو أحد النفر الأربعة الذين جاؤوه: أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، وملئت غرائرهم، يستمال ودهم، ويستخلص به نصيحهم، فهم ألب واحد عليك. وأما سائر الناس بعد. فإن أفئدتهم تهوى إليك، وسيوفهم غدا مشهورة عليك. قال أخبرني فهل لكم برسولي إليكم؟ قالوا: من هو؟ قال: قيس بن مسهر. فقالوا: نعم. أخذه الحصين بن نمير، فبعث به إلى ابن زياد، فأمره ابن زياد أن يلعنك ويلعن أباك، فصلى عليك وعلى أبيك. ولعن ابن زياد وأباه. ودعا إلى نصرتك. وأخبرهم بقدومك، فأمر به ابن زياد فألقى من طمار القصر، فترقرقت علينا حسين عليه السلام، ولم يملك دمعه، ثم قال: منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا. الله اجعل لنا ولهم الجنة نزلا، واجمع بيننا وبينهم في مستقر من رحمتك ورغائب مذخور ثوابك " (٢).
وكان الحسين قد علم بقتل مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة، وعبد الله بن يقطر.

---

(١) الطبري ٢٣٠ / ٦، البداية ١٧٣ / ٨.
(٢) الطبري ٢٣٠ / ٦، البداية ١٧٣ / ٨.

عندما نزل بزباله. ولم يكن يعلم بقتل قيس إلا هنا عندما قابل النفر الأربعة.
ولأن الحسن حجة وخطواته من أجل هدف ومن وراء الهدف حكمة، لم يلجأ إلى أي قوة لتحميه من بني أمية. فهو سائر على طريق، فمن شاء أن ينصره فلينصره، والموعد الله: لقد عرض عليه أن يلجأ إلى قرية أو إلى قبيلة من القبائل، ولكنه أبى إلا أن يسير نحو الهدف. روي أن الطرماح بن عدي قال له: إني لأنظر فما أرى معك أحدا، ولو لم يقاتلك إلا هؤلاء الذين أراهم ملازميك لكان كفى بهم - أي قوات الحر - وقد رأيت قبل خروجي من الكوفة إليك، ظهر الكوفة وفيه من الناس ما لم تر عيناي في صعيد واحد جمعا أكثر منه. فسألت عنهم. فقيل: إنهم اجتمعوا ليعرضوا، ثم يسرحون إلى الحسين. فأنشدك الله، إن قدرت على أن لا تقدم عليهم شبرا إلا فعلت، فإن أردت أن تنزل بلدا يمنعك الله به حتى ترى من رأيك، ويستبين لك ما أنت صانع. فسر حتى أنزلك مناع جبلنا، الذي يدعى أجا، امتنعنا والله به من ملوك غسان وحمير ومن النعمان بن المنذر ومن الأسود والأحمر. والله إن دخل علينا ذل قط فأسير معك. حتى أنزلك القرية. ثم نبعث إلى الرجال ممن بأجا وسلمى من طئ. فوالله لا يأتي عليك عشرة أيام حتى يأتيك طئ رجالا وركبانا. ثم أقم فينا ما بدا لك، فإن هاجاك هيج، فأنا زعيم لك بعشرين ألف طئ يضربون بين يديك بأسيافهم، والله لا يوصل إليك أبدا ومنهم عين تطرف (١).

إن هذا عرض سخي، ولكنه لا يستقيم مع الحجة في هذه الأحداث، لأن الهجرة إلى موطن آخر. تفرضها أحداث أخرى وإنسان آخر. أما الأحداث حول أبي عبد الله الحسين فتدور على ساحة يدعى تيار القوة أنه منار الهدى فيها، وأنه الجماعة التي أمر الله بالتزامها، لهذا فلا بد من المفاصلة لا إلى الهجرة. لهذا قال أبو عبد الله الحسين لمن عرض هذا العرض: جزاك الله وقومك خيرا. إنه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قول لسنا نقدر معه على الانصراف (٢).

---

(١) الطبري ٢٣١ / ٦.
(٢) الطبري ٢٣١ / ٦.

إن المفاضلة لا بد منها، والحق واضح وضوح الشمس، والأربعة الذين فارقوا؟ أهل الكوفة هم في حقيقة الأمر حجة على أهل الكوفة الذين خذلوا الحسين. فالحسين كان في حاجة إلى الناس، لأنه حجة ظاهرة فيه من الله برهان، ولم يكن في حاجة لكي يقتحم بنفسه على الناس، لأن الحركة حركة اختيار لينظر الله كيف يعملون. وفي هذا المقام نسلط الضوء على ثلاث حركات لها إيقاع واحدة في دائرة الحجة.

أولها: أن الطرماح بن عدي، الذي عرض عليه العرض السابق ذكره، قال للحسين بعد أن سمع منه: دفع الله عنك شر الجن والإنس، إني قد امترت لأهلي من الكوفة ميره ومعي نفقة لهم. فأتيهم فأضع ذلك فيهم ثم أقبل إليك إن شاء الله فإن ألحقك فوالله لأكونن من أنصارك. فقال له الحسين: فإن كنت فاعلا فعجل رحمك الله. يقول الطرماح: فعلمت أنه مستوحش إلى الرجال حتى يسألني التعجيل (١). فهو في هذه الحركة وهذا الايقاع يطلب الرجال. الذين يعلمون إلى أي هدف يسيرون.

ثانيها: ما رواه البغوي بسند صحيح أن أنس بن الحارث قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن ابني - يعني الحسين - يقتل بأرض يقال لها كربلاء، فمن شهد منكم ذلك فلينصره.

وخرج الحارث إلى كربلاء فقتل مع الحسين (٢). فالحارث عمل بما سمع، ما سمعه كان حجة ليس على الحارث وحده، وإنما حجة على طريق طويل. وعلى عصر ما الحارث فيه إلا فردا واحدا.

ثالثها: ما رواه الطبري من أن الحسين دخل إلى فسطاط عبيد الله بن الحر الجعفي. وقال: ادعوه لي فلما أتاه الرسول قال لعبيد الله بن الحر: هذا الحسين بن علي يدعوك. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون والله ما خرجت من

---

(١) الطبري ٢٣١ / ٦.

(٢) البداية والنهاية (١٩٩ / ٨).

الكوفة. إلا كراهة أن يدخلها الحسين وأنا بها. والله ما أريد أن أراه ولا يراني. فأخبر الرسول الحسين بذلك. فأخذ الحسين نعليه ثم قام فجاءه، فسلم وجلس، ثم دعاه إلى الخروج معه. فأعاد إليه ابن الحر تلك المقالة. فقال له الحسين: فإلا تنصرنا، فاتق الله فينا إن تكون ممن يقاتلنا، فوالله لا يسمع وأعيتنا أحد، ثم لا ينصرنا إلا هلك. فقال ابن الحر: أما هذا فلا يكون أبدا إن شاء الله (١)، فالحسين هنا دعا وذكر وأنذر. ولم يلوح بدينار ولا بدرهم. فمما سبق نرى أنه طلب الرجال الذين يعرفون الموقف على حقيقته. ولقد أوردنا قبل ذلك أنه قال في بيانه الذي ألقاه بعد أن علم بقتل رسله " فمن أحب منكم الانصراف، فليس عليه منا ذمام " لأنه كره أن يسير معه الأعراب وغيرهم، إلا وهم يعلمون حقيقة ما يقدمون عليه. أنه يريد الرجال الذين يسيرون بوقود فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم برهان، لأن هؤلاء ذروة الذين يؤمنون بالغيب. فأحاديث الإخبار بالغيب. بما أنها تفصل بين الحق والباطل، وبين الظلام والنور وبما أنها تبين ماذا يترتب على الانحراف. وأين تقع بصمات التزيين والإغواء، التي أخذ الشيطان على عاتقه أن يضعها ليقع عليها أكثر الناس ولا يؤمن منهم إلا القليل. وبما أنها حجة على الأكثرية، لأن الله تعالى كشف لهم بهذه الأحاديث أمورا حتى لا تكون لهم حجة على الله يوم القيامة. (أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون * وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) (٢). وبما أن في أحاديث الإخبار بالغيب مبشرات بعد أن ذهبت النبوة وفيها محذرات، فكذلك هي في عهد الحسين، إن فيها إخبار بالدم، ومن لبي النداء فهو إلى القتل أقرب. لهذا فمن يشهد الحسين ونصره، وهو على بينة من أمره، يكون في ذروة دائرة الذين يؤمنون بالغيب. وفي عصر الحسين يدخل في هذه الدائرة الذين كان هواهم فيه ولم يشهدوا خروجه، ويدخل فيها بني هاشم الذين شهدوا خروجه ولم يخرجوا - وذلك لأن الحسين أذن لهم في البقاء. ومنهم من كان يبعث إليه

---

(١) الطبري ٢٣١ / ٦.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٢ - ١٧٤.

بالرسائل ليحيطه علما بما وراءه من أحداث. وفي هذه الآونة كان بني أمية يطلبونه ليقتلوه ومنهم من كان يشرح قضيته للأشراف الذين جاؤوا من الأمصار إلى موسم الحج.

تاسعا – وجاء الطغاة:

في الكوفة بدأت القيادة العليا تعد العدة للقضاء على الحسين ومن معه، وكانت الخطوة الأولى نحو هذا الهدف أمر القيادة الصادر إلى الحر بن يزيد، الذي يلازم الحسين ويسير معه كظله، وفيه: أما بعد، فجعجع بالحسين حتى يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي، فلا تنزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء، وقد أمرت رسولي أن يلازمك ولا يفارقك حتى يأتيني بإنفاذك أمري " (١).

وبعد أن قرأ الحر البيان قال للحسين هذا كتاب الأمير عبيد الله بن زياد، وهذا رسوله. فنظر أحد أتباع الحسين إلى رسول ابن زياد فعرفه فقال له: ثكلتك أمك، ماذا جئت فيه؟ فقال له: وما جئت فيه أطعت إمامي ووفيت ببيعتي، فقال: عصيت ربك وأطعت إمامك في هلاك نفسك، كسبت العار والنار، قال تعالى: (وجعلنا منهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون) فهو إمامك (٢).

وسار الحسين والحر بن يزيد يرفض أن تنزل قافلة الحسين إلى أي مكان به ماء، وروي أن زهير بن القين قال للحسين: يا ابن رسول الله، إن قتال هؤلاء أهون من قتال من يأتينا من بعدهم... فقال الحسين: ما كنت لأبدأهم بالقتال، فقال له زهير: سر بنا إلى هذه القرية حتى ننزلها، فإنها حصينة، وهي على شاطئ الفرات، فإن منعونا قاتلناهم. فقال الحسين: وأية قرية هي قال: هي العقر، فقال: اللهم إني أعوذ بك من العقر (٣).

---

(١) الطبري ٢٣٢ / ٦.
(٢) الطبري ٢٣٢ / ٦.
(٣) الطبري ٢٣٢ / ٦.

وبينما كان الحسين في قرية العقر، كان ابن زياد قد بعث إليه بقوة عسكرية تحت قيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص. وكان ابن زياد قد كتب لعمر ولاية الري إذا رجع من حرب الحسنين، فجد الرجل وشمر عن ساعده (١). وعندما جاء بعث إلى الحسين يسأله ما الذي جاء به، وماذا يريد؟ فأخبر الحسين رسوله: كتب إلي أهل مصركم هذا أن أقدم، فأما إذ كرهوني فأنا انصرف عنهم (٢) وبهذا الرد طوق الحسين النظام بطوق الحجة، لقد أخبرهم أن الأشراف وغيرهم كتبوا إليه ومعه الدليل على ذلك. فإذا كانوا قد كرهوه فقد كان عليهم أن يبينوا له ذلك، وعندئذ ينصرف عنهم. ولكن الحال الآن أنه لا يراهم وإنما يرى جنودا مجندة تنتشر حوله في كل مكان. فإذا كان الجند قد جاؤوا ليبلغوه رد الذين كتبوا إليه، فهو على استعداد أيضا للانصراف.

ولقد كان في هذا الرد ما أزاح الستار عن وجه السياسة الأموية، فعندما كتب عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد: " أما بعد فإني حيث نزلت بالحسين بعثت إليه رسولي، فسألته عما أقدمه، وماذا يطلب ويسأل، فقال: كتب إلي أهل هذه البلاد، وآتتني رسلهم فسألوني القدوم ففعلت، فأما إذ كرهوني فبدا لهم غير ما أتتني به رسلهم. فأنا منصرف عنهم " (٣). قال ابن زياد:

الآن إذا علقت مخالبنا به * يرجو النجاة ولات حين مناص

وكتب إلى عمر بن سعد: أما بعد فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت. فأعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه. فإذا فعل ذلك رأينا رأينا والسلام (٤). فالتيار الأموي رفض تقديم أي دليل يثبت أن الناس كرهوا الحسين، بل ورفض أن تقوم قواته المسلحة بإبلاغ الحسين أن الناس قد كرهوه، لأن تقديم ذلك إليه سيؤدي إلى نجاته، وهم لا يريدون ذلك.

---

(١) الإصابة ١٧ / ٢، الطبري ٢٣٣ / ٦.
(٢) الطبري ٣٣٤ / ٦.
(٣) الطبري ٣٣٤ / ٦.
(٤) الطبري ٣٣٤ / ٦.

باختصار: كان التيار الأموي قد سبح شوطا طويلا في مستنقعات الأوحال. حيث البغي والنكث والفساد في الأرض... لقد رفضوا إظهار بينة، وهذا من أمور الدين. وطالبوه بمبايعة يزيد بن معاوية، وهذا ليس من أمور الفطرة. وأوصاف يزيد التي اتفق عليها العلماء تثبت ذلك. والذين قالوا إن الحسين طلب أن يضع يده في يد يزيد أو طلب منهم أن يسيروه إلى أي ثغر من ثغور المسلمين لم يصيبوا الحقيقة، لأن هذه الأقوال لا تستقيم مع المقدمات، وإذا كانت هناك أحاديث قد روت هذا، فإن هناك ما يعارضها فعن عقبة بن سمعان قال: صحبت حسينا فخرجت معه من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى العراق، ولم أفارقه حتى قتل. وليس من مخاطبته الناس كلمة بالمدينة ولا بمكة. ولا في الطريق ولا بالعراق ولا في عسكر إلى يوم مقتله إلا وقد سمعتها. ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس. وما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية، ولا أن يسير إلى ثغر من ثغور المسلمين ولكنه قال: دعوني فلأذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر ما يصير من أمر الناس (١). فهذا القول يستقيم مع المقدمة وفيه حجة على القوم الذي يريدون قتله.

وبعد وصول كتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد، صدر إليه الأمر التالي: من عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد. أما بعد، فخل بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ولا يذوقوا منه قطرة، كما صنع بالتقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان ". فبعث عمر بن سعد خمسمائة فارس، على رأسهم عمرو بن الحجاج، فنزلوا على الشريعة وحالوا بين حسين وأصحابه وبين الماء أن يسقوا منه قطرة، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث. وبينما جنود بني أمية عند الماء، نادى عبد الله بن أبي حصين على الحسين وقال: يا حسين ألا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء، والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشا. فقال الحسين: اللهم اقتله عطشا ولا تغفر له أبدا.

روي أن حميد بن مسلم قال: إنه شاهد ابن أبي حصين بعد ذلك في

---

(١) الطبري ٣٣٥ / ٦، البداية ١٧٥ / ٨.

مرضه. فوالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيته يشرب حتى يغر، ثم يقئ، ثم يعود فيشرب حق يقر، فما زال ذلك دأبه حتى لفظ نفسه (١).

ورغم قرار منع الماء عن الحسين إلا أن فوارس الحسين كانوا يحصلون على الماء، بدفع الحراس عنها بين حين وآخر (٢). وروي أن عمر بن سعد كان يريد أن يفتح بابا للسلامة والعافية، فكتب إلى ابن زياد بذلك، فبعث إليه ابن زياد كتاب مع شمر بن ذي الجوشن، وقال لشمر: أخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمي، فإن فعلوا فليبعث بهم إلي سلما، وإن هم أبو فليقاتلهم، فإن فعل فاسمع له وأطع، وإن هو أبى فقاتلهم، فأنت أمير الناس، وثب عليه فاضرب عنقه وابعث إلي برأسه (٣). وكانت الرسالة التي حملها شمر إلى عمر بن سعد، تحمل في مضمونها أمر القتال، وفيها: أما بعد، فإني لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه، ولا لتطاوله، ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا لتقعد له عندي شافعا. انظر، فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فأبث بهم إلي سلما. وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون، فإن قتل حسين فأوطئ الخيل صدره وظهره، فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم، إن أنت مضيت لأمرنا فيه، جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا، وخل بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر فإنا قد أمرناه بأمرنا... " (٤).

وعندما حمل شمر الرسالة إلى عمر بن سعد واطلع عليها قال شمر: أخبرني ما أنت صانع، أتمضي لأمر أميرك وتقتل عدوه، وإلا فخل بيني وبين الجند والعسكر، فقال له: لا ولا كرامة لك، وأنا أتولى ذلك (٥). ونادى

---

(١) الطبري ٣٣٤ / ٦.
(٢) الطبري ٣٣٤ / ٦.
(٣) الطبري ٣٣٦ / ٦، البداية ١٧٢ / ٨.
(٤) الطبري ٣٣٦ / ٦، البداية ١٧٥ / ٨.
(٥) الطبري ٣٣٧ / ٦، البداية ١٧٥ / ١.

عمر بن سعد: يا خيل الله اركبي وابشري! فركب في الناس، ثم زحف نحو الحسين بعد صلاة العصر وحسين جالس أمام بيته محتبيا بسيفه إذ خفق برأسه على ركبتيه، وسمعت أخته زينب الصيحة فدنت من أخيها فقالت: يا أخي أما تسمع الأصوات قد اقتربت. فرفع الحسين رأسه وقال: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي: إنك تروح إلينا (١).

وبينما كانت الخيل تتقدم، اتجه العباس بن علي إليهم، وعندما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء إن أبا عبد الله يسألكم أن تنصرفوا هذه العشية، حتى ينظر في هذا الأمر.... فإذا أصبحنا التقينا. وإنما أراد بذلك أن يردهم عنه تلك العشية حتى يأمر بأمره، ويوصي أهله. فجاء رسول من قبل عمر بن سعد إلى معسكر الحسين وقال: إنا قد أجلناكم إلى غد، فإن استسلمتم سرحنا بكم إلى أميرنا عبيد الله بن زياد وإن أبيتم فلسنا تاركيكم (٢). وأثناء الليل جمع الحسين أصحابه وقال: إني لا أعلم أصحابا أوفى ولا خيرا من أصحابي. ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعا خيرا. ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا. إلا وإني قد رأيت لكم، فانطلقوا جميعا في حل، ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله، فإن القوم إنما يطلبوني، ولو قد أصابوني لهوا عن طلب غير (٣).

فقال له أخوته وأبناؤه، وبنو أخيه، وابنا عبد الله بن جعفر: لم نفعل لنبقى بعدك، لا أرانا الله ذلك أبدا. وقام إليه مسلم بن عوسجة فقال: أنحن نخلي عنك، ولما نعذر إلى الله في أداء حقك، أما والله حتى أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمة في يدي، ولا أفارقك، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك. وتكلم جماعة

---

(١) الطبري ٣٣٧ / ٦.
(٢) الطبري ٢٣٨ / ٦.
(٣) البداية ١٧٦ / ٨، الطبري ٢٣٩ / ٦.

من أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضا في وجه واحد، فقالوا: والله لا نفارقك ولكن أنفسنا لك الفداء، نقيك بنحورنا، وجباهنا، وأيدينا، فإذا نحن قتلنا، كنا وفينا وقضينا ما علينا (١).

وقام الحسين وأصحابه إلى الصلاة، فقاموا الليل كله، يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون. والحسين يقرأ قوله تعالى: (ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خيرا لأنفسهم. إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) (٢).

وفي الصباح، وكان يوم سبت، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء، خرج الحسين فيمن معه من الناس. وكان معه اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا، فعبأهم وصلى بهم صلاة الغداة، وجعل البيوت في ظهورهم وأمر بحطب وقصب كان من وراء البيوت تحرق بالنار مخافة أن يأتوهم من ورائهم (٣). وكل ذلك من باب الأخذ بالأسباب. وروي أن الحسين رفع يده ودعا الله تعالى، فلما دنا منه القوم، دعا براحلته، فركبها ثم نادى بأعلى صوته: أيها الناس، اسمعوا قولي، ولا تعجلوني حتى أعظكم بما هو حق لكم علي، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري، وصدقتم قولي وأعطيتموني النصف، كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم علي سبيل. وإن لم تقبلوا مني العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم " فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة. ثم اقضوا إلي ولا تنظرون إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين. " فلما سمع أخواته كلامه هذا، صحن وبكين، وبكى بناته فارتفعت أصواتهن. فأرسل إليهن أخاه العباس بن علي، وعليا ابنه، وقال لهما: أسكتاهن فلعمري ليكثرن بكاؤهن. فلما سكتن حمد الله وأثنى عليه، وذكر الله بما هو أهله، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى ملائكته وأنبيائه، يقول الضحاك: فوالله ما

---

(١) البداية ١٧٧ / ٨، الطبري ٢٣٩ / ٦.
(٢) الطبري ٢٤٠ / ٦، البداية ١٧٨ / ٨.
(٣) الطبري ٢٤١ / ٦.

سمعت متكلما قط قبله ولا بعده أبلغ في منطق منه. ثم قال الحسين: أما بعد، فانسبوني، فانظروا من أنا؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا أهل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم صلى الله عليه وسلم، وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله، والمصدق لرسوله بما جاء من عند ربه. أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبي. أوليس جعفر الشهيد الطيار ذو الجناحين عمي، أولم يبلغكم قول مستفيض فيكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي ولأخي: " هذان سيدا شباب أهل الجنة "، فإن صدقتموني بما أقول، وهو الحق والله ما تعمدت كذبا مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضر به من اختلقه، وإن كذبتموني، فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، أو أبا سعيد الخدري، أو سهل بن سعد الساعدي، أو زيد بن أرقم، أو أنس بن مالك، يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لي ولأخي. أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي، فإن كنتم في شك من هذا القول أفتشكون أثرا ما أني ابن بنت نبيكم، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري لا منكم ولا من غيركم، أنا ابن بنت نبيكم خاصة، أخبروني أتطلبوني بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحه، ثم نادى: يا شبث بن ربعي، ويا حجار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إلي أن قد أينعت الثمار واخضر الجناب وطمت الجمام، وإنما تقدم على جند لك مجند فأقبل؟ فقالوا له: لم نفعل. فقال: سبحان الله، بل والله لقد فعلتم، ثم قال: أيها الناس إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض. فقال له قيس بن الأشعث: أولا تنزل على حكم بني عمك، فإنهم لن يروك إلا ما تحب ولن يصل إليك منهم مكروه. فقال الحسين: أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل، لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد، عباد الله " إني عذت بربي وربكم أن ترجمون "، " أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب "، ثم أناخ في راحلته، وأمر عقبة بن سمعان

فعقلها وأقبلوا يزحفون نحو (١).
قال كثير بن عبد الله الشعبي: لما زحفنا قبل الحسين، خرج إلينا زهير بن القين فقال: يا أهل الكوفة، نذار لكم من عذاب الله نذران. حقا على المسلم نصيحة أخيه المسلم. ونحن الآن إخوة وعلى دين واحد وملة واحدة، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا أمة وأنتم أمة، إن الله ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنا ندعوكم إلى نصرهم، وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما إلا بسوء عمر سلطانهما كله ليسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقراءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهانئ بن عروة وأشباهه. وعند ما قال لهم زهير ذلك، سبوه وأثنوا على عبيد الله بن زياد ودعوا له، وقالوا: والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلما. فقال لهم: عباد الله إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحق بالود والنصر من ابن سمية. فإن لم تنصروهم، فأعيذكم بالله أن تقتلوهم، فخلوا بين هذا الرجل وبين يزيد بن معاوية... فرماه شمر بن ذي الجوشن بسهم وقال: اسكت اسكت الله نأمتك أبرمتنا بكثرة كلامك. فأقبل زهير على الناس رافعا صوته: عباد الله، لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه فوالله لا تنال شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم قوما هرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذب عن حريمهم. فناداه رجل من معسكر الحسين: يا زهير، أن أبا عبد الله يقول لك أقبل، فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه وأبلغ في الدعاء، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ (٢).
وهكذا قامت الحجة عليهم من كل اتجاه، ليقفوا عراة أمام التاريخ، ويقفوا في الدائرة الأضيق عندما يعرضون على الله قاصم الجبارين. وبينما كان أبناء

---

(١) الطبري ٢٤٢ / ٦، البداية ١٧٩ / ٨.
(٢) الطبري ٢٤٤ / ٦، البداية ١٨٠ / ٨.

ثقافة السب وعبيد الدينار يستعدون لاجتياح معسكر الحسين، كان هناك رجل بين الرجال يراقب الأحداث ويسمع من هذا ومن ذاك، إنه الحر بن يزيد، الذي كانت مهمته، تنحصر في مراقبة الحسين على طول الطريق إلى الكوفة. وروي أن الحر ركب فرسه ونظر إلى معسكر الحسين، فقال له المهاجر بن أوس: ما تريد يا ابن يزيد؟ أتريد أن تحمل؟ فسكت. فقال له الرجل: يا ابن يزيد والله إن أمرك لمريب. فقال له: إني والله أخير نفسي بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنة شيئا ولو قطعت وحرقت، ثم ضرب فرسه فلحق بالحسين عليه السلام فقال له: جعلني الله فداك يا ابن رسول الله، أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع، وسايرتك في الطريق وجعجعت بك في هذا المكان.. وإني جئتك تائبا مما كان مني إلى ربي ومواسيا لك بنفسي حتى أموت بين يديك، أفترى ذلك لي توبة؟ قال: نعم يتوب الله عليك ويغفر لك (١).

عاشرا – القتلة واللصوص:

بعد أن وقف الحر بن يزيد في معسكر الحسين، خاطب القوات الأموية فقال: " ويحكم منعتم الحسين ونساءه وبناته ماء الفرات الذي يشرب منه اليهود والنصارى، ويتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه، فهو كالأسير في أيديكم لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا (٢). وبدأ الحسين بن علي عليه السلام، يتصرف وفقا لما أخبره النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بخصوص نهايته. فقال الحسين: إئتوني ثوبا لا يرغب فيه أحد، أجعله تحت ثيابي. فأتوه بتبان فقال: لا. ذاك لباس من ضربت عليه الذلة، فأخذ ثوبا مخرقة، فجعله تحت ثيابه حتى إذ قتل وجردوه من ثيابه بقي عليه هذا الثوب (٣).

وبدأت المعركة، معركة الطهر ضد الرجس، معركة قتلت فيها القوات الأموية الأطفال، واستعملت أساليب في القتال، يندى لها الجبين خجلا. ليس

---

(١) الطبري ٢٤٤ / ٦، البداية ١٨٠ / ٨.

(٢) البداية والنهاية ١٨١ / ٨.

(٣) سروال صغير يستر العورة المغلظة فقط، ويلبسه الفلاحون.

لأنها لا تستقيم مع تعاليم الإسلام، ولكن لأنها لا تستقيم مع المروءة العربية الجاهلية. ولقد حدثنا التاريخ عن معارك قادها جنكيزخان، وهولاكو، والقياصرة، والأكاسرة. وعلمنا سيرة قادتهم مع أبناء الملوك المهزومين، وكيف كانوا يتعاملون معهم وفقا لأعراف وقوانين متفق عليها. وعلمنا من تاريخهم أيضا أن الجبان ليس هو الإنسان الذي يفر من ساحة القتال وإنما هو ذلك الإنسان الذي إذا قدر كان أكثر جبنا أي أكثر قتلا. والتحرك الأموي في كربلاء ضد أبناء النبي صلى الله عليه وسلم، هو في كثير من بنوده، لا يرتقي إلى مستوى تعامل الجبابرة مع أبناء الملوك المنهزمين. ويلتقي مع تعريف الإنسان الأكثر جبنا.

وفيما سبق ألقينا الضوء على تحرك الحسين نحو كربلاء من مصادر معتمدة ومعتبرة، ألا وهي: الطبري في كتابه المسمى بتاريخ الأمم والملوك، والبداية والنهاية لابن كثير، ولقسوة بني أمية كقادة وأمراء، وأهل الكوفة كجنود لهذه السياسة، سيكون مصدرنا الأساسي في إلقاء الضوء على ساحة المعركة هو، البداية والنهاية لابن كثير. وما اتفق معه من مصادر سنبينه بالهامش. واختيارنا لهذا المصدر في هذا الموضع بالذات له أسبابه. منها حتى لا يقال إن الأحداث مبالغ فيها. ومنها أن ابن كثير في كتابه يميل ميلا كبيرا نحو السياسة الأموية في خطوطها العريضة، وإن كان ينتقدها في بعض الأمور الثانوية، إلا أنه مؤيد لرموزها بلا استثناء، وهذا يجعل تلقي أخبار القتال مقبولا ولا شبهة فيه. ولقد أجاد ابن كثير عندما تحدث عن مقتل الحسين تحت عنوان " وهذه صفة مقتله مأخوذة من كلام أئمة هذا الشأن، لا كما يزعمه أهل التشيع من الكذب " (١). وقدم نخبة من المرويات تكفي لما نريد أن نبينه في هذا المقام.

وعن تحديد الذي بدأ القتال، يقول ابن كثير: فتقدم عمر بن سعد بن أبي وقاص وقال لمولاه: يا دريد ادن رأيتك، فأدناها، ثم شمر عمر بن سعد عن ساعده، ورمى بسهم وقال: اشهدوا، إني أول من رمى القوم. فترامى الناس

---

(١) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٩٣ / ٩).

بالنبال (١). وبدأت المبارزة بين الفريقين، ووقف رجل وقال: يا حسين أبشر بالنار. فقال له الحسين: كلا، ويحك إني أقدم على رب رحيم وشفيع مطاع، بل أنت أولى بالنار، وكثرت المبارزة بين الفريقين والنصر في ذلك لأصحاب الحسين، لقوة بأسهم، وأنهم مستميتون لا عاصم لهم إلا سيوفهم. فأشار بعض الأمراء على عمر بن سعد بعدم المبارزة (٣). وبعث عمر نحوا من خمسمائة رجل فجعلوا يرمون خيول أصحاب الحسين فعقروها كلها، حتى بقي جميعهم رجالة. وأمر ابن سعد بحرق الأبنية التي تحمي أجناب قوات الحسين. فقال الحسين: دعوهم يحرقونها فإنهم لا يستطيعون أن يجوزوا منها وقد أحرقت (٤). ونادى ابن الحجاج أمير ميمنة جيش ابن زياد: قاتلوا من مرق من الدين وفارق الجماعة. فقال له الحسين: يا عمر بن الحجاج أعلي تحرض الناس، أنحن مرقنا وأنتم ثبتم عليه؟ أما والله لتعلمن لو قبضت أرواحكم، ومتم على أعمالكم، أينا مرق من الدين، ومن هو أولى بصلي النار (٥).

إن المعركة تكشف فيما تكسف عن سياسة الترقيع والتشويه، وعن انتاج ثقافة السب حيث الجيل والعصر الذي ضيع الصلاة. واتهام الحسين بأنه من أهل النار، وأنه مارق من الدين، دليل قاطع على أن الرحلة الأموية كارثة كبرى في بدايتها فما بالك بها عند نهاية الطريق، ففي أول الطريق ضاع الدين ورموز الدين، فبأي وقود تسير القاطرة بعد ذلك؟ ثم انظر إلى هذا الجندي الأموي الذي ضاعت الصلاة في عهودهم، ماذا قال عندما سمع الحسين يقول: مروهم فليكفوا عن القتال حتى نصلي. لقد قال للحسين إن الصلاة لا تقبل منكم. فرد عليه أحد جنود الحسين قال له: ويحكم أتقبل منكم ولا تقبل من آل رسول

---

(١) البداية ١٨١ / ٨.
(٢) البداية ١٨١ / ٨، والطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٩٣ / ٩)، والطبري ٢٤٦ / ٦.
(٣) البداية ١٨٢ / ٨.
(٤) البداية ١٨٢ / ٨، الطبري ٢٥٠ / ٦.
(٥) الطبري ٢٤٩ / ٦، البداية ١٨٥ / ٨.

الله (١). وفي رواية الطبري قال له: زعمت الصلاة من آل رسول الله لا تقبل، وتقبل منك يا حمار (٢). فهذا دليل على مدى السقوط الذي انحدرت إليه الأمة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأقل من خمسين عاما، وليس بعد ثلاثة قرون. وبعد أن قامت القوات الأموية برفض المبارزة، وهي قانون قتالي لا خلاف عليه. وبعد أن وجهت النبال إلى خيول الحسين، وحرقت الأبنية التي تحمي أجنابه. يقول ابن كثير: كان الرجل من أصحاب الحسين إذا قتل بان فيهم الخلل، وإذا قتل من أصحاب عبيد الله بن زياد الجماعة الكثيرة لم يتبين ذلك فيهم لكثرتهم (٣). فالقوات الأموية في الأساس يتمتعون بكثرة عددهم، ولكنهم كانوا أكثر جبنا، فهم خائفون ولكنهم بما لديهم من عتاد، يضربون في كل مكان حتى أخبية النساء ما سلمت منهم.

وروي أن حبيب بن مظاهر، قاتل بجانب الحسين قتالا شديدا، فضربه رجل بالسيف على رأسه فقتله. وحمل عليه آخر فطعنه فوقع، فنزل إليه الذي ضربه بالسيف فاحتز رأسه. فقال له الذي طعنه إني لشريكك في قتله. فقال الآخر: والله ما قتله غيري. فقال الذي طعنه وهو من بني تميم: أعطنيه أعلقه في عنق فرسي كيما يرى الناس ويعلموا أني شاركت في قتله، ثم خذه أنت بعد ذلك فامض به إلى عبيد الله بن زياد، فلا حاجة لي فيما تعطاه على قتلك إياه. فأبى عليه فأصلح قومه فيما بينهما على هذا، فدفع إليه الرأس، فجال به في العسكر وقد علقه في عنق فرسه. وبعد المعركة أقبل به إلى ابن زياد في القصر، وبينما هو يسير، شاهده ابن حبيب بن مظاهر فقال له: إن هذا الرأس الذي معك رأس أبي، أفتعطينيه حتى أدفنه؟ فقال له: يا بني لا يرضى الأمير أن يدفن، وأنا أريد أن يثيبني الأمير على قتله ثوابا حسنا. فقال له الغلام: لكن الله لا يثيبك على ذلك إلا أسوأ الثواب، وبكى الغلام. وروي أن هذا الغلام لم يكن له همه إلا

---

(١) البداية ١٨٣ / ٨.
(٢) الطبري ٢٥١ / ٦.
(٣) البداية ١٨٣ / ٨.

اتباع أثر قاتل أبيه. فلما كان زمان مصعب بن الزبير، دخل الغلام معسكر مصعب فوجد الرجل فقتله (١).

وبدأت جحافل بني أمية تتدفق على معسكر الحسين من كل ناحية، وقتل الحر بن يزيد. وبعد ذلك صلى الحسين صلاة الخوف، ثم اقتتلوا بعدها قتالا شديدا، فلما رأى أصحاب الحسين أنهم قد كثروا، وأنهم لا يقدرون عن أن يمنعوا حسينا ولا أنفسهم، تنافسوا في أن يقتلوا بين يديه. فجاء عبد الله، وعبد الرحمن ابنا عزرة الغفار، فقالا: يا أبا عبد الله عليك السلام، حازنا العدو إليك، فأحببنا أن نقتل بين يديك، نمنعك وندفع عنك. قال: مرحبا بكما ادنوا مني. فدنوا منه، فجعلا يقاتلان. وجاء الفتيان الجابريان، سيف بن الحارث، ومالك بن عبد، فأتيا حسينا، فدنوا منه وهما يبكيان. فقال: ما يبكيكما، فوالله إني لأرجو أن تكونا عن ساعة قريري عين. فقالا للحسين: جعلنا الله فداك، لا والله ما على أنفسنا نبكي ولكن نبكي عليك، نراك قد أحيط بك ولا نقدر أن نمنعك. فقال: جزاكما الله بوجدكما من ذلك ومواساتكما إياي بأنفسكما أحسن جزاء المتقين (٢).

وجاء حنظلة بن أسعد، فقام بين يدي حسين، فأخذ ينادي: يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب. مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم. وما الله يريد ظلما للعباد. ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم، ومن يضلل الله فما له من هاد. يا قوم لا تقتلوا حسينا فيسحتكم الله بعذاب وقد خاب من افترى. فقال له الحسين: يا ابن سعد رحمك الله. إنهم قد استوجبوا العذاب حين ردوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق، ونهضوا إليك ليستبيحوك وأصحابك. فكيف بهم الآن، وقد قتلوا إخوانك الصالحين. قال: صدقت جعلت فداك أنت أفقه مني. وأحق بذلك، أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بإخواننا. فقال له: رح إلى خير من الدنيا وما فيها.

.

---

(١) الطبري ٦٥٢ / ٦، البداية ١٨٣ / ٨.

(٢) الطبري ٢٥٣ / ٦، البداية ١٨٤ / ٨

وإلى ملك لا يبلى. فقال: السلام عليك يا أبا عبد الله وعلى أهل بيتك، وعرف بيننا وبينك في جنته. فقال: آمين آمين فاستقدم فقاتل حتى قتل (١).
ثم آتاه أصحابه مثنى، وفرادى يقاتلون بين يديه، وهو يدعو لهم ويقول:
جزاكم الله جزاء المتقين. فجعلوا يسلمون على الحسين ويقاتلون حتى يقتلوا. ثم جاء حبس بن أبي شبيب، فقال: يا أبا عبد الله، أما والله ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعز علي منك، ولو قدرت أن أدفع عنك الضيم أو القتل بشئ، أعز علي من نفسي ودمي لفعلته. السلام عليك يا أبا عبد الله، اشهد لي أني على هديك. ثم مشى بسيفه صلتا وبه ضربة على جبينه، فنادى: ألا رجل لرجل، ألا ابرزوا إلي. فعرفوه - وكان من أشجع الناس - فنكلوا عنه. ثم قال عمر بن سعد: أرضخوه بالحجارة، فرمي بالحجارة من كل جانب، فلما رأى ذلك ألقى درعه ومغفره، ثم شد على الناس، فكرد أكثر من مائتين بين يديه، ثم إنهم عطفوا عليه من كل جانب فقتل رحمه الله. وأخذ رأسه. عدد من الرجال، كل يدعي قتله، فأتوا به عمر بن سعد فقال لهم: لا تختصموا فيه فإنه لم يقتله إنسان واحد. ففرق بينهم بهذا القول (٢).
وقاتل زهير بن القين بين يدي الحسين قتالا شديدا، فشد عليه كثير بن عبد الله، ومهاجر بن أوس فقتلاه (٣). وكان آخر من بقي مع الحسين من أصحابه سويد بن عمر، وكان أول قتيل من بني أبي طالب يومئذ، على الأكبر بن الحسين بن علي. فلقد أخذ يشد على الناس وهو يقول:
أنا علي بن حسين بن علي * نحن ورب البيت أولى بالنبي
تالله لا يحكم فينا ابن الدعي
وبينما هو يقاتل، اعترضه مرة بن منقذ فطعنه، واجتمع عليه الناس فقطعوه بأسيافهم، فقال الحسين: قتل الله قوما قتلوك يا بني، ما أجرأهم على الرحمن .

---

(١) الطبري ٢٥٤ / ٦.
(٢) البداية ١٨٥ / ٨.
(٣) البداية ١٨٤ / ٨

وعلى انتهاك حرمة الرسول على الدنيا بعدك العفاء. وخرجت زينب، ابنة فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنادي: يا أخياه ويا ابن أخاه، فجاءت حتى أكبت عليه. فجاءها الحسين فأخذ بيدها فردها إلى الفسطاط. وأقبل الحسين إلى ابنه، وأقبل فتيانه إليه، فقال: احملوا أخاكم. فحملوه من مصرعه حتى وضعوه بين يدي الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه (١). ثم قتل عبد الله بن مسلم بن عقيل، ثم قتل عون، ومحمد ابنا عبد الله بن جعفر، ثم قتل عبد الرحمن وجعفر ابنا عقيل بن أبي طالب، ثم قتل القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب (٢). وعن حميد بن مسلم قال: وخرج غلام كأن وجهه شقة قمر في يده السيف. عليه قميص وإزار، ونعلاه قد انقطع " شسع أحدهما. فقال عمرو بن سعد بن نفيل: والله لأشدن عليه. فقيل له: سبحان الله وما تريد إلى ذلك، يكفيك قتل هؤلاء الذين تراهم قد احتولوهم. فقال: والله لأشدن عليه، فشد عليه، فما ولي حتى ضرب رأسه بالسيف، فوقع الغلام لوجهه، وقال: يا عماه. فجلى الحسين كما يجلى الصقر، ثم شد شدة ليث أغضب، فضرب عمر بالسيف فاتقاه بالساعد فأطنها من لدن المرفق، فصاح ثم تنح عنه. وحملت خيل الكوفة ليستنقذوا عمر من الحسين... فاستقبلت عمر بصدورها، وحركت حوافرها، وجلت الخيل بفرسانه عليه، فتوطأته حتى مات. وقام الحسين على رأس الغلام، والغلام يفحص برجليه. والحسين يقول: بعدا لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك. ثم قال: عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك ثم لا ينفعك، صوت والله كثر واتره وقل ناصره، ثم احتمله وكأني أنظر إلى رجلي الغلام يخطان في الأرض، وقد وضع الحسين صدره على صدره، ثم جاء به حتى ألقاه مع ابنه الأكبر ومع من قتل من أهل بيته فسألت عن الغلام فقيل: هو القاسم بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٣).

---

(١) البداية ١٨٥ / ٨، الطبري ٢٥٦ / ٦.
(٢) البداية ١٨٥ / ٨، الطبري ٢٥٦ / ٦.
(٣) البداية ١٨٦ / ٨، الطبري ٢٥٦ / ٦.

وقال هانئ بن ثبيت: خرج غلام من آل الحسين، وهو ممسك بعود - أي عود قصب - من تلك الأبنية، وعليه إزار وقميص وهو مذعور يلتفت يمينا وشمالا. فكأني أنظر إلى درتين في أذنييه، تذبذبان كلما التفت. إذ أقبل رجل يركض فرسه. حتى إذا دنا من الغلام، مال عن فرسه ثم أخذ الغلام فقطعه بالسيف. قال هشام السكوني: هانئ بن ثبيت هو الذي قتل الغلام، خاف أن يعاب ذلك عليه فكنى عن نفسه (١).

ومكث الحسين نهارا طويلا وحده لا يأتيه أحد، حتى آتاه رجل من كنده يقال له مالك بن النسير. أتاه فضربه على رأسه بالسيف، وعليه برنس له فقطع البرنس، وأصاب السيف رأسه فأدمى رأسه، فامتلأ البرنس دما. فقال له الحسين: لا أكلت بها ولا شربت، حشرك الله مع الظالمين، وألقى ذلك البرنس، ثم دعا بقلنسوة فلبسها واعتم. وقد أعيا. وجاء الكندي الذي ضربه حتى أخذ البرنس (٢).

وأتى الحسين بصبي له فأجلسه في حجره، ثم جعل يقبله ويودعه. فرماه رجل من بني أسد بسهم فذبح ذلك الغلام. فتلقى الحسين دمه في يده. وألقاه نحو السماء وقال: رب إن تك حبست عنا النصر من السماء، فاجعل ذلك لما هو خير وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين (٣). وأحاطوا بالحسين، وأقبل إلى الحسين غلام من أهله، فأخذته أخته زينب ابنة علي لتحبسه. فقال لها الحسين: أحبسيه، فأبى الغلام، وجاء يشتد إلى الحسين فقام إلى جنبه، فأهوى بحر بن كعب إلى الحسين بالسيف. فقال الغلام: أتقتل عمي، فضربه بالسيف فاتقاه الغلام بيده فأطنها سوى الجلدة، فإذا يده معلقة. فنادى الغلام: يا أمتاه، فأخذه الحسين فضمه إلى صدره، وقال: يا ابن أخي اصبر على ما نزل بك، واحتسب في ذلك الخير فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين، برسول الله صلى الله عليه

---

(١) البداية ١٨٦ / ٨، الطبري ٢٥٨ / ٦.
(٢) البداية ١٨٦ / ٨، الطبري ٢٥٦ / ٦.
(٣) البداية ١٨٦ / ٨، الطبري ٢٥٧ / ٦.

وسلم، وعلي بن أبي طالب، وحمزة، وجعفر، والحسن صلى الله عليهم أجمعين (١).

وبعد أن فرغت القوات الأموية من الخيول، ثم من الرجال، ثم من الأطفال، بدءوا يتفرغون للنساء، وكان هذا كله وفق خطة محكمة، هدفها أن يرى الحسين كل شئ قبل أن يقتلوه. يقول عبد الله بن عمار: فوالله ما رأيت مكسورا قط، قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشا، ولا أمضى جنانا منه، ولا أجرأ مقدما. والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله. إن كانت الرجالة لتنكشف من عن يمينه وشماله. انكشاف المعزى إذ شد فيها الذئب، فوالله إنه لكذلك (٢).

وتحرك شمر بن الجوشن في اتجاه منزل الحسين الذي فيه ثقله وعياله، ثم قام بقواته فحالوا بين الحسين وبين رحله. فقال الحسين: ويلكم إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون يوم المعاد فكونوا في أمر دنياكم أحرارا ذوي أحساب، منعوا رحلي وأهلي من طغاتكم وجهالكم. فقال له شمر: ذلك لك يا ابن فاطمة (٣).

إحدى عشر - سلام عليك أبا عبد الله:

وقف الحسين في ساحة المعركة وحده. وكان النبي صلى الله عليه وسلم، يراقب الحركة من عالم غير العالم الذي يعيش فيه الناس. فأم سلمة ستراه في المنام بعد قتل الحسين، وعلى لحيته التراب، ويقول لها: لقد شهدت قتل الحسين آنفا، لقد وقف الحسين في نهاية عمل أحسن أدائه، فأقام الحجة الدائمة التي شاء الله أن يجعلها حجة دامية لتقرع الذاكرة على امتداد التاريخ، وتدفع الذهن إلى طريق البحث عن الحقيقة، كان في مواجهة الحسين أنماط

---

(١) البدية ١٨٧ / ٨، الطبري ٢٥٩ / ٦.
(٢) الطبري ٢٥٩ / ٦، البداية ١٨٨ / ٨.
(٣) الطبري ٢٥٨ / ٦، البداية ١٨٧ / ٨.

بشرية أقوالها غير أفعالها، خرجت من خيام بها الكثير من التقيح والفساد، الذي يسد أبواب الأمل. ولم يرفع الحسين يده استسلاما لهذه الأنماط، لأنه ليس من شيمة الرجل الشريف أن يتردى في هوة هذا الخوف الذليل، وأي شريف يكون غير أسف على ترك عالم الباطل هو الشئ الوحيد الذي يسود فيه، لم يرفع الحسين يده، وإنما تصدى للخيام التي بها حشدا من الجرائم، ومكتظة بالقتل والآثام، وواجه العدوان البهيمي البربري الذي ليس له نظير، كان الحسين في أحلك الأوقات يدعو لإقامة الدين، وكان خصومه الذين ترعرعوا تحت ثقافة السب وأمام بيوت المال، يعملون من أجل الدنيا، كانوا يعملون من أجل كيس نقود، وكانوا يضعون العقبات أمام الحسين، حتى يظل عاجزا عن نيل ما يشتهي بينما يبلغ كل منهم ما يريد.

١ - صرخات الحسين:

أمام المجموع التي تقرقع أنيابها كرقعة أنياب الحيتان، وقف الحسين والدماء تغطي وجهه بعد أن ضربه رجل من كنده بالسيف على رأسه، فقطع البرنس وأدمى الرأس. فقال لهم: أعلى قتلي تحاثون؟ أما والله ولا تقتلون بعدي عبدا من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله مني. وأيم الله، إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون. أما والله إن لو قد قتلتموني لقد ألقى الله بأسكم بينكم وسفك دماءكم، ثم لا يرضى لكم بذلك حتى يضاعف لكم العذاب الأليم (١). وكان قد قال: إني لم أخرج أشرا ولا بطرا، ولا مفسدا ولا ظالما، وإنما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي، محمد صلى الله عليه وسلم، أريد أن آمر بالمعروف وأنهي عن المنكر، وأسير بسيرة جدي محمد صلى الله عليه وسلم، وأبي علي بن أبي طالب. فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق. ومن رد على هذا، أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم الظالمين (٢).

---

(١) البداية والنهاية ١٨٨ / ١، الطبري ٢٦٠ / ٦، الكامل ٢٦٤ / ٣.

(٢) مقتل الحسين / الخوارزمي ١٨٩ / ١.

كان الحسين يذكر ويقيم الحجة على امتداد الطريق، وكان الذين من حوله تلمع في عقولهم دنانير عبيد الله بن زياد. كما لمع العجل في قلوب بني إسرائيل، كان يلقي عليهم كلمات فيها حياتهم، وبها بعيشوا أحرارا. وكانوا يبحثون عن حجارة ليرجموه بها. هو يريد حياتهم، وهم يريدون قتله. وصاح الحسين: ما لك يا ابن سعد قطع الله رحمك، ولا بارك الله لك في أمرك، وسلط عليك بعدي من يذبحك على فراشك، كما قطعت رحمي ولم تحفظ قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم رفع صوته وتلي قوله تعالى (١):
(إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين * ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم " (٢).
كان يذكرهم بما يعرفون وبما يخفون. وتعالت الأصوات: الحق مع آل معاوية، وقطع ضجيجهم صوت الحسين: نعم الرب ربنا، وبئس العبيد أنتم.... يا أمة السوء بئسما خلفتم محمدا في عترته. ثم قال: أما إنكم لن تقتلوا بعدي عبدا من عباد الله فتهابوا قتله. بل يهون عليكم ذلك، عند قتلكم إياي، وأيم الله، إني لأرجو أن يكرمني الله بالشهادة، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون. فناداه الحصين بن مالك: وبماذا ينتقم لك منا يا ابن فاطمة فقال: يلقي بأسكم بينكم ويسفك دماءكم، ثم يصب عليكم العذاب الأليم (٣).
وبعد أن حذرهم الحسين التحذير الأخير، عطش الحسين حتى اشتد عطشه فدنا ليشرب من الماء، فرماه حصين بن تميم بسهم فوقع في فمه، فجعل يتلقى الدم من فمه، ويرمي به إلى السماء، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم جمع يديه فقال: اللهم احصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تذر على الأرض منهم أحدا (٤).

---

(١) مقتل الحسين / الخوارزمي ٣٠ / ٢.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٣ و ٣٤.
(٣) مقتل الحسين ٣٤ / ٢.
(٤) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٩٣ / ٩) والبداية والنهاية ١٨٧ / ٨، الطبري ٢٥٨ / ٦.

٢ - والله إنه ليحزنني قتل الحسين:
وقف الحسين أمام رحله الذي به، ما تركته السيوف من بقايا أجساد أبنائه. مكث نهارا طويلا وحده، لا يأتيه أحد، حتى نزف دمه. وبعد أن ارتوت الأرض من دمائه، نادى شمر بن ذي الجوشن: ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل؟ فاقتلوه ثكلتكم أمهاتكم. فحملت الرجال من كل جانب على الحسين. وضربه زرعه بن شريك على كتفه اليسرى، وضرب على عاتقه. ثم انصرفوا عنه، وهو ينوء ويكبو. ثم جاء إليه سنان بن أبي عمرو، فطعنه بالرمح فوقع (١). يقول عبد الله بن عمار: رأيت الحسين حين اجتمعوا عليه، يحمل على من على يمينه حتى انذعروا عنه. فوالله ما رأيت مكثورا قط قد قتل أولاده وأصحابه أربط جأشا منه، ولا أمضى جنانا منه، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله (٢) وروى الطبري: كان مع الحسين سكين، فعندما أخذ سيفه قاتلهم بسكينة ساعة (٣).
وعندما جاء شمر بن ذي الجوشن، نظر إليه الحسين وقال: صدق الله ورسوله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كأني أنظر إلى كلب أبقع يلغ في دماء أهل بيتي ". وكان شمر أبرص (٤). ثم قال: اللهم أحبس عنهم القطر، وابعث عليهم سنين كسني يوسف، وسلط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأسا مصيرة، فإنهم كذبونا وخذلونا. اللهم إن متعتهم إلى حين ففرقهم فرقا واجعلهم طرائق قددا، ولا ترضى الولاة عنهم أبدا. فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدوا علينا فقتلونا.. ثم أراد الحسين أن يقف، ولكن قضى الله أن تنتهي أعمال الحسين بالدعاء إليه سبحانه. وأن تنتهي حركته في هذه البقعة من الأرض، لتبدأ الحركة بصورة أخرى على امتداد الزمان. وروي أن الحسين سأل عن هذه البقعة فقالوا: كربلاء، فقال: صدق الله ورسوله كرب وبلاء - وفي

---

(١) البداية والنهاية ١٨٩ / ٨، الطبري ٣٦٠ / ٢.
(٢) البداية والنهاية ١٨٨ / ٨.
(٣) الطبري ٣٦٠ / ٦.
(٤) البداية والنهاية ١٨٨ / ٨، وابن عساكر (كنز العمال ٢٢٦ / ١٢).

راية - صدق رسول الله أرض كرب وبلاء (١).
وشاء الله أن تحفر في ذاكرة المسلمين أحداث كربلاء، فالأحداث والأرض حزمة واحدة. داخل الذهنية الإسلامية، واسم كربلاء اسم مقصود له معنى، وللمعنى حكمة، ومن وراء الحكمة هدف. قال في لسان العرب: الكرب: الحزن والغم، الذي يأخذ بالنفس. فإذا كان هذا وقودا لقاطرة، فإن هذه القاطرة ستدخل إلى دائرة البلاء، من مدخل الأمان. وقال في المجمع: البلاء على ثلاثة أوجه: نعمة، واختبار، ومكروه. قال تعالى: (لتبلون في أموالكم وفي أنفسكم) يريد توطين النفس على الصبر. وقال تعالى: (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات). أي اختبره، بما تعبده به من السنن. (فأتمهن) أي عمل بهن، ولم يدع منهن شيئا. والبلاء يكون حسنا وسيئا، وأصله المحنة. والله يبلوا العبد، بما يحبه ليمتحن شكره، وبما يكرهه ليمتحن صبره. قال تعالى: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة). وقال: (يوم تبلى السرائر)، أي تختبر السرائر في القلوب، من العقائد والنيات وغيرها. وما أسر وأخفى من الأعمال. فيتميز منها ما طاب وما خبث. وقال (ليبلوكم أيكم أحسن عملا)، أي ليعاملكم، معاملة المختبرين لكم، وإلا فعالم الغيب والشهادة، لا يخفى عليه شئ، وإنما يبلوا ويختبر من تخفى عليه العواقب. وقوله: (أيكم أحسن عملا) ليس يعني أكثركم عملا، ولكن أصوبكم عملا. وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة. وسنة البلاء لا يستثنى فيها المؤمن والكافر، والمحسن والمسئ. وفي الحديث القدسي: " إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك قومك، من يتبعك، ومن يتخلف عنك، ومن ينافق معك.
وهكذا تكون دائرة الكرب، مدخلا إلى دائرة البلاء. وهكذا كان للحدث كله حكمة من ورائها هدف. لقد أراد الحسين، أن يقف في وجه أعدائه، آخذا بكل سبب من الأسباب. ولكن الله قضى أن تقطع الأسباب، وأن يقع على أرض كربلاء. وروي أنهم تركوه نهارا طويلا وهو ينوء ويكبو، ثم التفوا حوله بعد أن

---

(١) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٨٩ / ٩).

صعدت الروح إلى بارئها، ونزل أحدهم من على فرسه، قيل إنه شمر بن ذي الجوشن. وقيل إنه سنان بن أنس. فاحتز رأسه، ورؤوس بقية من قتل معه.
يقول ابن كثير: كان معه رؤوس بقية أصحابه وهو المشهور، ومجموعها اثنان وسبعون رأسا. وذلك أنه ما قتل قتيل إلا احتزوا رأسه. وحملت هذه الرؤوس إلى ابن زياد. ثم بعث بها ابن زياد إلى يزيد بن معاوية إلى الشام (١).
وسلب الحسين ما كان عليه، فأخذ سرواله بحر بن كعب، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته، وأخذ نعليه رجل من بني أود يقال له الأسود، وأخذ سيفه رجل من بني نهشل بن دارم. ومال الناس على الورس والحلل والإبل وانتهبوها، ومال الناس على نساء الحسين وثقله ومتاعه. فإن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها، حتى تغلب عليه فيذهب به منها (٢). ووجد بالحسين عليه السلام، حين قتل ثلاث وثلاثون طعنة، وأربع وثلاثون ضربة (٣). وأمر عمر بن سعد عشرة فرسان، أن يدوسوا الحسين، فداسوا الحسين بحوافر خيولهم، حتى ألصقوه بالأرض يوم المعركة (٤). وكان عمر الحسين يوم قتل، ثمان وخمسين سنة (٥).
وقتل معه سبعة عشر كلهم، ارتكض في رحم فاطمة عليها السلام (٦). وجميع من قتل مع الحسن اثنان وسبعون رجلا (٧).
وعن حميد بن مسلم قال: انتهيت إلى علي بن الحسين بن علي الأصغر، وهو منبسط على فراش له وهو مريض. وإذا شمر بن الجوشن في رجاله معه يقولون: ألا تقتل هذا. فقال حميد: إنما هذا صبي، حتى جاء عمر بن سعد فقال: لا يعرضن لهذا الغلام المريض. فقال لي علي بن الحسين: جزيت من رجل خيرا. فوالله

---

(١) البداية ١٩٠ / ٨.
(٢) الطبري ٣٦٠ / ٦.
(٣) الطبري ٢٦٠ / ٦.
(٤) البداية ١٨٩ / ٨، الطبري ٢٦١ / ٦.
(٥) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد ١٩٨ / ٩).
(٦) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (١٩٨ / ٩) البداية ١٨٩ / ٨.
(٧) الطبري ٢٦١ / ٦، البداية ١٨٩ / ٨.

لقد دفع الله عني، بمقالتك شرا. وقال حميد: فقال الناس، لسنان بن أنس: قتلت حسين بن علي بن أبي طالب، وابن فاطمة ابنة رسول الله. قتلت أعظم رجال العرب خطرا، جاء إلى هؤلاء يريد أن يزيل ملكهم. فأت أمراءك فاطلب ثوابك منهم. وإنهم لو أعطوك، بيوت أموالهم في قتل الحسين كان قليلا. فأقبل على فرسه، فأقبل حتى وقف، على باب فسطاط عمر بن سعد، ثم نادى بأعلى صوته:

أوقر ركابي فضة وذهبا * أنا قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أما وأبا * وخيرهم إذ ينسبون نسبا

فقال عمر: أشهد أنك لمجنون، أدخلوه علي. فلما أدخل قال: يا مجنون أتتكلم بهذا الكلام أما والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك (١).

اثنى عشر - بكاء وأحداث:

* في دار أم سلمة رضي الله عنها:

عن سلمى قالت: دخلت على أم سلمة، وهي تبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قالت: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، وعلى رأسه ولحيته التراب. فقلت: ما لك يا رسول الله. قال: شهدت قتل الحسين آنفا (٢). وكان النبي صلى الله عليه وسلم، قد أعطى أم سلمة التربة التي أتى بها جبريل عليه السلام يوم أن أخبره، بأن أمته ستقتل حسينا، وقال لها: " إذا تحولت هذه التربة دما فاعلمي أن ابني قد قتل. فجعلتها في قارورة (٣) - وفي رواية - فأخذتها أم سلمة، فصرتها في خمارها (٤). وممكن أن تكون فعلت هذا وذاك، لأن الإخبار بالحدث تكرر أكثر من مرة.

---

(١) البداية والنهاية ١٨٩ / ٨، الطبري ٢٦١ / ١٦.
(٢) رواه الترمذي (البداية ٢١٧ / ٨) والحاكم والبيهقي (الخصائص الكبرى ٢١٤ / ٢) أسد الغابة ٢٣ / ٢.
(٣) أبو نعيم (الخصائص الكبرى ٢١٣ / ٢.
(٤) رواه أحمد وأبو يعلى وقال الهيثمي رجال أبو يعلى رجال الصحيح (الزوائد ١٨٧ / ٩).

وروي أن أم سلمة، عندما نظرت إلى التربة ووجدتها قد تحولت دما بكت، وقالت: " قد فعلوها ملأ الله قبورهم – أو – بيوتهم عليهم نارا. ووقعت مغشيا عليها (١). وفي رواية – لعنت أهل العراق، وقالت: قتلوه قتلهم الله عز وجل (٢). وتوفيت أم سلمة رضي الله عنها، في نفس العام الذي قتل فيه الحسين (٣). وكانت محبة لأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم. وإعطاء النبي التربة لها فيه إشارة، أن الله تعالى أخبره بأن حياتها، ممتدة إلى أن تسمع بهذه الأحداث. فتبين الحقيقة في عالم خيم عليه الظلام.

* في دار عبد الله بن عباس:

عن ابن عباس قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، نصف النهار أشعث أغبر، معه قارورة فيها دم. فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله، ما هذا؟ قال: هذا دم الحسين وأصحابه (٤). وهكذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، عن قتل الحسين. أخبر أثناء حياته، وفي مماته. ولا يحدث شئ في كون الله عبثا. إن جبريل عليه السلام، نزل وأخبر بأن الحسين سيقتل. ومعنى أنه يقتل، أن جريمة قد حدثت، ولكل جريمة عقوبة، بمعنى أن جبريل عليه السلام أخبر بجريمة، وعقوبتها. فمن دخل في دائرة الجريمة، ضربته العقوبة. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إن جبريل أخبرني أن ابني هذا يقتل، وأنه اشتد غضب الله على من يقتله " (٥). وكان النبي يحذر ويقول: " من آذى شعرة مني فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله " (٦). ولقد تحدثنا فيما سبق أن الله لا يجعل لقاتل مؤمن توبة. لأن هذا النمط من بني الإنسان، له ضربة لا بد أن ينالها في الدنيا،

---

(١) البداية ٢١٨ / ٨.
(٢) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١٩٤ / ٩).
(٣) البداية ٢٣٢ / ٨.
(٤) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد ١٩٤ / ٩) البداية ٢١٧ / ٨.
(٥) ابن عساكر (كنز العمال ١٢٧ / ١٢).
(٦) ابن عساكر (كنز العمال ٩٦ / ١٢).

ولعذاب الآخرة أكبر. سئل ابن عباس عن رجل قتل مؤمنا، ثم تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى. قال: ويحك وأنى له الهدى، سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول: يجئ المقتول متعلقا بالقاتل يوم القيامة، يقول يا رب سل هذا فيم قتلني. والله لقد أنزلها الله عز وجل على نبيكم (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما)، وما نسخها بعد أن أنزلها (١).

وعن مرثد قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم، عن القاتل والآمر، قالا: قسمت النار، سبعين جزءا فللآمر تسع وتسعون، وللقاتل جزء، وحسبه. (أي يكفيه هذا المقدار من العذاب) (٢). إنه عدل الله، الذي تحت سلطانه لا يفر الظالمين. إن العصفور سيبحث عن قاتله يوم القيامة. فما بالك بالمؤمن وقاتله.

روى الطبراني، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما من أحد يقتل عصفورا، إلا عج يوم القيامة، فقال: يا رب هذا قتلني عبثا، فلا هو انتفع بقتلي ولا هو تركني أعيش في أرضك " (٣).

* في قصر الإمارة:

عندما سارت القافلة الأموية، ومعها الرؤوس ومن بقي من آل الحسين، من كربلاء إلى الكوفة، كان لآل الحسين نداء، يقول قرة بن قيس: نظرت إلى تلك النسوة، لما مررن بحسين وأهله وولده، صحن ولطمن وجوههن. فما نسيت من الأشياء لا أنسى قول زينب ابنة فاطمة، حين مرت بأخيها الحسين صريعا وهي تقول: يا محمداه، يا محمداه صلى عليك ملائكة السماء، هذا حسين بالعراء مرمل مقطع الأعضاء، يا محمد وبناتك سبايا وذريتك مقتلة تسفي عليها الصبا " (٤) وبني أمية من قبل طافوا، برأس عمرو بن الحمق، وهي في

---

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة بسند صحيح (الفتح الرباني ٤ / ١٦).
(٢) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (الفتح الرباني ٥ / ١٦).
(٣) رواه الطبراني (الإصابة ٣٤٩ / ٦).
(٤) الطبري ٢٦٢ / ٦.

أيديهم. أما رأس الحسين عليه السلام، فهي أول رأس رفع على خشبة (١).
ودخل الموكب إلى قصر الإمارة. فقام عبيد الله بن زياد، ونودي الصلاة جامعة فاجتمع الناس في المسجد، فصعد المنبر ابن زياد فقال: الحمد لله الذي أظهر الحق ونصر أهله ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية، وحزبه وقتل الكذاب بن الكذاب، الحسين بن علي وشيعته. فلم يفرغ ابن زياد من مقالته، حتى وثب عليه عبد الله بن عفيف، وكان من شيعة علي عليه السلام، وكانت عينه اليسرى ذهبت يوم الجمل مع علي، فلما كان يوم صفين، ضرب على رأسه ضربة، وأخرى على حاجبه، فذهبت عينه الأخرى، فكان لا يفارق المسجد يصلى فيه إلى الليل، فلما سمع مقالة ابن زياد قال: يا ابن مرجانة إن الكذاب ابن الكذاب، أنت وأبوك، والذي ولاك وأبوه، يا ابن مرجانة أتقتلون أبناء النبيين وتتكلمون بكلام الصديقين! فقال ابن زياد علي به. فوثب عليه الجلاوزة فأخذوه، ثم أمر بقتله، وأمر بصلبه في السبخة، فصلب (٢).
وفي القصر جلس ابن زياد للناس، وجاءت الوفود فأدخلهم. يقول حميد بن مسلم: وأذن للناس، فدخلت معهم، فإذا رأس الحسين موضوع بين يديه، وإذا هو ينكث بقضيب بين ثنيتيه. فما رآه زيد بن أرقم، لا ينجم عن نكته بالقضيب قال له: أعل بهذا القضيب، عن هاتين الثنيتين، فوالذي لا إله غيره، لقد رأيت شفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، على هاتين الشفتين يقبلهما، ثم بكى زيد. فقال له ابن زياد: أبكى الله عينيك، فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت، وذهب عقلك لضربت عنقك. فنهض فخرج. فلما خرج قال الناس: والله لقد قال زيد بن أرقم قولا لو سمعه ابن زياد لقتله. فقلت: ما قال. قالوا: مر بنا وهو يقول: ملك عبد عبدا، فاتخذهم تلدا، أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة وأمرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل فبعدا لمن رضي

---

(١) البداية ١٩٣ / ٥٨، الطبري ٢٢٣ / ٦.
(٢) الطبري ٢٦٤ / ٦، البداية والنهاية ١٩١ / ٨.

بالذل (١).
وروي أنه لما دخل، برأس الحسين، وصبيانه، وأخوته، ونسائه، على عبيد الله بن زياد، لبست زينب بنت فاطمة أرذل ثيابها، فلما دخلت جلست، فقال ابن زياد: من هذه؟ فلم تكلمه. فقال ذلك ثلاث، كل ذلك لا تكلمه فقال بعض إمائها هذه زينب ابنة فاطمة. فقال لها ابن زياد: الحمد الله الذي فضحكم وقتلكم، وأكذب أحدوثتكم. فقالت: الحمد لله، الذي أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وطهرنا تطهيرا، لا كما تقول أنت، إنما يفتضح الفاسق، ويكذب الفاجر. فقال: فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟ قالت: كتب عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجون إليه، وتخاصمون عنده. فغضب ابن زياد. فقال له عمرو بن حريث: أصلح الله الأمير، إنما هي امرأة، وهل تؤاخذ المرأة بشئ من منطقها... فقال لها ابن زياد: قد أشفى الله نفسي من طاغيتك، والعصاة المردة من أهل بيتك. فبكت، ثم قالت: لعمري: لقد قتلت كهلي، وأبرت أهلي، وقطعت فرعي، واجتثثت أصلي، فإن يشفك هذا، فقد اشتفيت. فقال لها: هذه شجاعة قد لعمري كان أبوك شاعرا شجاعا. قالت: ما للمرأة والشجاعة إن لي عن الشجاعة لشغلا، ولكني نفثي ما أقول.
ونظر ابن زياد إلى علي بن الحسين، فقال له: ماسمك؟ قال: أنا علي بن الحسين. فقال: أولم يقتل الله علي بن الحسين؟ فسكت. فقال له: ما لك لا تتكلم؟ قال: قد كان لي أخ، يقال له أيضا علي فقتله الناس. فقال ابن زياد: إن الله قد قتله. قال: الله يتوفى الأنفس حين موتها، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله. فقال: أنت والله منهم، انظروا هل أدرك، والله إني لأحسبه رجلا. فقال مري بن معاذ: نعم قد أدرك. قال: اقتله. فتعلقت به زينب عمته، وقالت: حسبك منا أما رويت من دمائنا، وهل أبقيت منا أحدا، إن قتلته

---

(١) رواه أبو داوود والطبراني (البداية والنهاية ١٩٠ / ٨) الكامل ٢٩٦ / ٣.

اقتلني معه فتركه (١).
ثم نصب ابن زياد رأس الحسين بالكوفة، فجعل يدار به فيها، ثم دعا حر بن قيس. وأمره بحمل رأس الحسين، ورؤوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية (٢).

* في قصر الخلافة:

لقد كانت سياسة معاوية أن يكون الأمراء للشدة وهو للين (٣). وكذلك كان ابنه، لقد مزقوا الأمة، وعندما تعرض قضاياها عليهم، تراهم يرفعون الحقائق، ويبررون المصائب، ويلقون جميع الأخطاء على جهات خارجية، أو معارضة داخلية. ويزعمون أن هؤلاء سببا في كل مشكلة، نظرا لأنهم يحسدون بني أمية على ما آتاهم الله من فضله. وعندما قدمت القافلة التي تحمل الرؤوس، وتأسر الأحياء، وعلم يزيد بن معاوية بذلك. روي أنه قال: لعن الله ابن سمية أما والله، لو أني صاحبه لعفوت عنه، فرحم الله الحسين " (٤). فالذي يقول هذا، هو نفسه الذي قام بتعيين ابن زياد، وفقا لمشورة سرجون الرومي، من أجل التصدي لأهل الكوفة. وهو نفسه الذي أمر ابن زياد بمراقبة الحسين على جميع أبواب الكوفة. وهو نفسه الذي كشف عن وجهه الحقيقي، عندما دخل علي بن الحسين، وصبيان الحسين، ونساؤه عليه، والناس ينظرون. روي أنه قال لعلي: يا علي أبوك الذي قطع رحمي، وجهل حقي، ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما قد رأيت. فقال علي: ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها. فقال يزيد لابنه خالد رد عليه. فما درى خالد ما يرد عليه، فقال يزيد لابنه قل: ما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم (٥).

---

(١) الطبري ٢٦٢ / ٦.
(٢) الطبري ٢٦٤ / ٦.
(٣) البداية والنهاية ١٣٦ / ٨.
(٤) البداية ١٩١ / ٨، الطبري ٢٦٤ / ٦.
(٥) رواه الطبراني ورجاله ثقات (الزوائد ١٩٥ / ٩) الطبري ٢٦٥ / ٦، البداية ١٩٤ / ٨.

بل إن يزيد كشف عن أعماقه، عندما دخل رجل من أهل الشام، ونظر إلى فاطمة بنت علي، فقال ليزيد، يا أمير المؤمنين هب لي هذه. وعندما قال الرجل ذلك، خافت فاطمة وأخذت بثياب أختها زينب. فقالت زينب للرجل: كذبت، والله ولؤمت، ما ذلك لك وله. فعندئذ، غضب يزيد بن معاوية وقال لها: كذبت والله إن ذلك لي، وإن شئت أفعله، لفعلت. قالت: كلا والله، ما جعل الله ذلك لك، إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا. فقال يزيد، إياي تستقبلين بهذا، إنما خرج من الدين أبوك وأخوك. فقالت: بدين الله، ودين أبي، ودين أخي، وجدي، اهتديت أنت وأبوك وجدك. فقال يزيد، كذبت يا عدوة الله. قالت: أنت أمير مسلط، تشتم ظالما، وتقهر بسلطانك (١).

إنها خبايا تعرف في لحن القول. وروي عن مجاهد قال: لما جئ برأس الحسين فوضع بين يدي يزيد، تمثل بهذه الأبيات:

ليت أشياخي ببدر شهدوا * جزع الخزرج في وقع الأسل
فأهلوا واستهلوا فرحا * ثم قالوا لي هنيا لا تسل
حين حكت بفناء بركها * واستحر القتل في عبد الأسل
قد قتلنا الضعف من أشرافكم * وعدلنا ميل بدر فاعتدل

قال مجاهد: نافق فيها. والله ثم والله ما بقي في جيشة، أحد إلا ذمه وعابه (٢)، على هذا الشعر، وروي أن يزيد قال أيضا ورأس الحسين بين يديه، ينكتها بقضيب كان في يده: إن هذا وإيانا كما قال الحصين بن الحمام:

يغلقن هاما من رجال أعزة * علينا وهم كانوا أعق وأظلما

فقال له أبو برزة الأسلمي: ارفع قضيبك، فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلثمه (٣). وروى الطبري أن يزيد، كان مسرورا بقتل

---

(١) رواه الطبراني (الزوائد ١٩٥ / ٩) والبداية ١٩٥ / ٨، الطبري ٢٦٥ / ٦.
(٢) البداية ١٩٢ / ٨.
(٣) البداية ١٩٢ / ٨.

الحسين (١). وعندما أمر بتجهيز أهل البيت، والذهاب بهم إلى المدينة قالت السيدة سكينة: ما رأيت رجلا كافرا بالله، خير من يزيد بن معاوية (٢). وروي عن الكلبي أنه قال: نشأت، وهم يقولون: ضحى بنو أمية يوم كربلاء بالدين (٣). وقال اليافعي وأما حكم من قتل الحسين، أو أمر بقتله، ممن استحل ذلك فهو كافر. (٤) وقال التفتازاني، في شرح العقائد النفسية: والحق أن رضا يزيد بقتل الحسين، واستبشاره بذلك، وإهانته أهل بيت الرسول مما تواتر معناه، لعنة الله عليه، وعلى أنصاره، وأعوانه (٥). وقال الذهبي: كان ناصبيا، فظا، غليظا، يتناول المسكر ويفعل المنكر، افتتح دولته بقتل الحسين، وختمها بوقعة الحرة (٦). وقال ابن كثير: كان في يزيد خصال محمودة، من الكرم، والحلم الفصاحة، والشعر، والشجاعة، وحسن الرأي في الملك، وكان ذا جمال حسن، وكان حسن المعاشرة، وكان فيه أيضا إقبال على الشهوات، وترك بعض الصلوات، في بعض الأوقات، وإماتتها في غالب الأوقات (٧)، وابن كثير في كتاباته التاريخية، يقدم في كثير من الأحيان آراء، لو أراد الباحث أن يقيم عليها دليل واحد، ما وجد هذا الدليل في كتب المسلمين المعتمدة. وذلك يعود إلى منهج ابن كثير الخاص به، في رؤيته للأحداث التاريخية. فمن المعروف أن الحسين، وأهل الحرة وغيرهم خرجوا من أجل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فإذا عرضنا هذا الأمر، على تفكير ابن كثير نجد أنه لا يقره. بل ويوهن خروج الذين خرجوا، بجميع أسمائهم، فيقول: إن يزيد كان إماما فاسقا، والإمام الفاسق، لا يعزل بمجرد فسقه، ولا يجوز الخروج عليه، لما في ذلك

---

(١) الطبري ١٩ / ٧.
(٢) الطبري ٢٦٧ / ٦.
(٣) تاريخ الخلفاء ٢٢٩ / ١.
(٤) شذرات من ذهب / ابن العماد الحنبلي ص ٦٨ / ١.
(٥) المصدر السابق ٦٧ / ١.
(٦) المصدر السابق ٦٧ / ١.
(٧) البداية ٢٣٠ / ٨.

من إثارة الفتنة " (١). فهذه رؤيته للمسار التاريخي. بمعنى: ليس في الإمكان. أبدع مما كان. لقد جاء يزيد، وعليه أن يستمر. وأن يورث الخلافة لولده ولولده أن يفعل من يشاء، فهذا حقه الذي كتبه الله له. ومن أراد أن ينهاه عن المنكر، فمن حق أبناء معاوية، أن يؤدبونه، حتى يرجع إلى الطاعة، ولزوم الجماعة (٢).

* الظهور والتشويه:

تحركت قافلة أهل البيت إلى المدينة. وفي المدينة نادى المنادي: قتل الحسين بن علي. يقول عبد الملك: لم أسمع والله واعية قط، مثل واعية نساء بني هاشم في دورهن على الحسين. فقال عمر بن سعيد بن العاص: هذه واعية، بواعية عثمان بن عفان (٣). وبكى ابن عباس. على آل البيت، حتى فقد بصره في آخر عمره (٤). وروي أن رأس الحسين مكث في خزائن السلاح حتى ولي سليمان، فبعث فجئ به، فكفنه ودفنه في مقابر المسلمين. فلما دخل العباسيون سألوا عن موضع الرأس، وأخذوه. وقيل غير ذلك، وليس هذا مجال بحثنا وبعد قتل الحسين، بدأ الشعر يشق طريقه وهو يحمل معالم الألم على هذه الجريمة الشنعاء، ومن هذا قالت ابنة عقيل بن أبي طالب:

ماذا تقولون إن قال النبي لكم * ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم.

بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي * منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم (٥)

وأنشد الحاكم أبو عبد الله النيسابوري:

جاؤوا برأسك يا ابن بنت محمد * متزملا بدمائه تزميلا

وكأنما بك يا ابن بنت محمد * قتلوا جهارا عامدين رسولا

---

(١) البداية ٢٢٣ / ٨.

(٢) البداية ٢٢٤ / ٨.

(٣) الطبري ٢٦٨ / ٨.

(٤) مروج الذهب ١٢١ / ٣.

(٥) رواه الطبراني (الزوائد ٢٠٠ / ٩) الطبري ٢٦٨ / ٦، البداية ١٩٨ / ٨.

قتلوك عطشانا ولم يتدبروا * في قتلك القرآن والتنزيلا
ويكبرون بأن قتلت وإنما * قتلوا بك التكبير والتهليلا (١)
وفي دور أهل الإيمان بدأت أحاديث الحوض، تطفوا على الساحة، بجانب الشعر، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: " إني تارك فيكم ثقلين، أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء والأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض " (٢). وقوله صلى الله عليه وسلم: " أنا فرطكم على الحوض من ورد شرب ومن شرب لم يظمأ. وليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم " (٣)
وهذه الأحاديث، كانت تمثل صفعة قوية للتيار الأموي، الذين قتلوا أهل البيت فإذا كانت مهمتهم سهلة في مواجهة الشعر، فإنها لم تكن كذلك مع أحاديث الحوض، التي أصبحت، كمنشور سري يقره صحابة النبي صلى الله عليه وسلم الأوفياء. ويشق طريقه في الساحة التي بدأت تشعر بالندم بعد قتل الحسين، وتبحث عن مدخلا تقدم توبتها منه، إلى الله جل وعلا. ولم يجد التيار الأموي، غير عبيد الله بن زياد ليتصدى، لما استجد في الساحة بعد قتل الحسين. فبدأ ابن زياد صده بإنكار هذه الأحاديث، ثم مواجهة الذين يروونها بكل قسوة وكل عنف.
روي أنه ذكر الحوض عند ابن زياد، فأنكر ذلك. فبلغ ذلك أنسا فقال: ما أنكرتم من الحوض؟ قالوا: سمعت النبي يذكره؟ قال: نعم. ولقد أدركت عجائز بالمدينة، لا يصلين صلاة، إلا سألن الله تعالى أن يوردهن حوض محمد صلى الله عليه

---

(١) البداية ١٩٨ / ٨.
(٢) رواه أحمد والترمذي وحسنه والطبراني وقال المناوي رجاله موثقون " الفتح الرباني ١٨٦ / ١ ".
(٣) البخاري ك الدعوات ب الصراط جسر جهنم (الصحيح ١٤١ / ٤) مسلم (الصحيح ٥٣ / ١٥).

وسلم (١). وفي رواية قال ابن زياد: ولمحمد حوض؟ قالوا: هذا أنس بن مالك، يحدث أن له حوضا. فجاء أنس فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن لي حوضا وأنا فرطكم عليه " (٢).
وعن زيد بن أرقم قال: بعث إلي، عبيد الله بن زياد فأتيته. فقال: ما أحاديث تبلغنا وتروونها عن رسول الله لا نسمعها في كتاب الله، وتحدث أن له حوضا. قال زيد: لقد حدثنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوعدناه. فقال ابن زياد: كذلك ولكنك شيخ قد خرفت. قال زيد: إني قد سمعته أذناي، ووعاه قلبي من رسول الله صلى الله عليه وسلم - وفي رواية - سمعته أول خطبة النبي في غدير خم، في الوصية بكتاب الله وأهل بيته (٣). وفي رواية قال ابن زياد: أرأيتم الحوض الذي تذكرون، ما أراه شيئا. فقال له ناس من أصحابه: عندك رهط من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل إليهم فسلهم. فأرسل إلى زيد بن أرقم، فسأله عن الحوض. فحدثه حديثا موثقا. فقال: أنت سمعت هذا من رسول الله... " الحديث (٤).
وعن أبي سبرة الهذلي قال: كان عبيد الله بن زياد، يكذب بالحوض، بعدما سأل عنه أبا برزة والبراء بن عازب، وعائذ بن عمرو، ورجلا آخر (٥).
وكان تكذيب ابن زياد بالحوض تكذيبا له ثقافته الواسعة، على أرض اتخذت من قبل ثقافة سب أمير المؤمنين علي عنوانا لها، وتحت خيام هذه الثقافات، نشأت أجيال يقرؤن القرآن، لا يجاوز تراقيبهم، وهذه الأجيال ما خرجت إلا من تحت

---

(١) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني إسناده صحيح على شرط مسلم وأخرجه أحمد (كتاب السنة ٣٢١ / ٢.
(٢) قال الألباني أخرجه الآجري في الشريعة وإسناده صحيح رجاله كلهم ثقات (كتاب السنة ٣٢٢ / ٢).
(٣) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني إسناده صحيح على شرط مسلم (كتاب السنة ٣٢٢ / ٢).
(٤) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني رجاله ثقات رجال الشيخين (كتاب السنة ٣٢٢ / ٢).
(٥) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني إسناده ثقات (كتاب السنة ٣٢٣ / ٢).

خيام بني أمية. وثقافة إنكار الحوض، شقها ابن زياد بالسكين، وبالسيف وجلد عليها الظهور، ومنع العطايا عن كل من قال إن للنبي حوض. لأنه يعلم أن إثبات الحوض، سيترتب عليه أمور تدينه، وتدين ملك بني أمية الطويل العريض، وإذا كان ابن زياد قد جمع من حوله، أتباع يقولون بقوله. فإن طائفة الحق، كان يدوي في أسماعهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: " اسمعوا " قالوا: سمعنا. فقال: " اسمعوا " قالوا: سمعنا، فقال: " إنه سيكون عليكم أمراء فلا تعينوهم على ظلمهم. فمن صدقهم بكذبهم فلن يرد علي الحوض " (١).
وكان في ذاكرتهم أيضا قوله صلى الله عليه وسلم: " أنا فرطكم على الحوض، ولأنازعن أقواما، ثم لأغلبن عليهم فأقول: يا رب أصحابي أصحابي. فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك " (٢). وقوله: " إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهم لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض " (٣).
لقد كان في ذاكرة طائفة الحق، الذين لا يضرهم من خذلهم أو من ناوأهم أو من عاداهم، الكثير من أقوال النبي صلى الله عليه آله وسلم. وكانوا يعلمون أن في الحبل الممدود من السماء إلى الأرض، عنوان أصيل للأخذ بأسباب المعرفة. لهذا هرولوا إلى دائرة الطهر، في وسط هذا الليل الذي لا نجوم فيه.
ولقد صدق في هؤلاء قول النبي صلى الله عليه وسلم لحذيفة: " يا حذيفة، إن في كل طائفة من أمتي قوما شعثا غبرا. إياي يريدون، وإياي يتبعون، ويقيمون كتاب الله أولئك مني وأنا منهم وإن لم يروني " (٤).

---

(١) رواه أحمد وابن أبي عاصم وابن حبان في صحيحه (الفتح الرباني ٣٠ / ٢٣) (كتاب السنة ٣٥٢ / ٢).
(٢) رواه البخاري ك الدعوات ب الصراط جسر جهنم (الصحيح ١٤١ / ٤) ومسلم (الصحيح ٥٩ / ١٥).
(٣) رواه أحمد والترمذي وحسنه والطبراني وقال المناوي رجاله موثقون (الفتح الرباني ١٨٦ / ١).
(٤) رواه أبو نعيم (كنز العمال ١٨٤ / ١٢).

* نظرات على كربلاء:
عندما خرج الحسين كان خروجه، من تحت مظلة المثل الأعلى المرتفع. وكان خصومه قد خرجوا من كهف المثل الأعلى المنخفض. ولم يكن خروج الحسين، نتيجة لوجود المجتمع الحر، وإنما كان الخروج من أجل خلق المجتمع الحر، لأن المجتمع الحر هو الذي يقيم الحضارة الحق. والحضارة لا تقاس بسجونها وبريق ذهبها، وإنما تقاس بعدلها. وعندما توجه الحسين إلى الكوفة، وعلم بمقتل رسله هناك، وبأن الذين أرسلوا إليه قد خذلوه، لم يتراجع وسار في اتجاه الطريق، الذي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن مقتله فيه. وذلك بعد أن حدد مصدر البلاء، الذي أكره الناس على عدم إقامة الحق والعدل. لقد توجه الحسين إلى كربلاء، ليس من أجل مقاومة الجماهير، وإنما من أجل مواجهة السلطة التي اتخذت مال الله دولا، ودين الله دغلا، وعباد الله خولا، وأصبحت تفرخ الذين يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم. أي تفرخ خوارج جدد، ولكن تحت مظلة بني أمية. لقد اتجه الحسين نحو كربلاء، على امتداد الطريق كان يعلم أنه يسير، بين حراب الذين يكرهون، ويخافون أن يفقدوا ما يحبون. ولكنه واصل المسير، وحوله نداء خالد من الرسول الأعظم يقول فيه: " من حضره فلينصره "، وفيه أيضا: " أنا حرب لمن حاربتم... "، كان الحسين في خطاه، يقيم الحجة على كل صامت، أو متراجع، أو متردد اعتلالا بفساد المناخ، وسطوة القبائل، وتقاليدها وقوانينها، وتمادى الارهاب، وقطع الرؤوس وقتل الأطفال والنساء، كما فعل بسر بن أرطاة وغيره
وعلى أرض كربلاء، فاض الدم ألقاني، الذي أراد صاحبه، أن يخرج الأمة من خيام القبائل حيث الحقد والحسد والإرهاب، الذي رفع بنو أمية أعلامه زمنا طويلا. وعلى مقربة من الوادي الذي يفيض بالدم ألقاني، تربع قاضي، على كرسي من الصلب، والنحاس الأصفر، وكأنه يصرخ في أتباعه: اسلكوا هذا السبيل، فلن تجدوا أنفسكم إلا فيه، ومن أبى فإن له من خنجري معولا ولأمزقن به أحشاء الأرض.

لقد كان القاضي يمسك بين أسنانه بقطعة من ذهب، وكأنها جمرة ملتهبة.
ويتحدث عن العدل، ولم يكن يعلم أن من العدل أن يقتص الله من الظالم. ومن العدل، أن دم القتيل لا تضيع سدى.. إن ساعة الانتقام، ومكانه، وكيفيته، هي في علم الله تعالى، الذي أخبر عن مقتل الحسين، وساعته، ومكانه، وكيفيته. لقد ركب أتباع بني أمية بسفينة التي ربانها معاوية ويزيد ومروان. ولن يرى للسفينة شراع، إذا ما قلب البحر الهائج سطحه، وقد عبثت به الرياح والمد كيما تستمر حركة الأمواج. وعندئذ سيعلم ركاب السفينة وأن من العبث أن ينشد المرء العدالة على ظهرها. وسيعلمون، أن معنى نزول جبريل عليه السلام بخبر مقتل الحسين، يعني في مقدمته الأولى، أن هذه الجريمة عليها من الله عقوبة. وعلى الجميع أن يأخذوا بأسباب السلامة، حتى لا يدخلوا تحت العقوبة. وأسباب السلامة، أصل أصيل في دائرة الاختيار. لكنهم صادروا السلامة وأسبابها، وصرخ فيهم صارخهم: لا مناص من موت الحسين، إذا أردنا نحن أن نعيش.
وبين الأمواج، سيعلمون أن السماء عادلة، وأن القتل لا يمكن إخفاؤه وسيخرج الزمان فعلتهم الغادرة إلى الضوء، لترى الأجيال أن الجراح ما زالت تتفجر منها الدماء. دماء تنادي بالحرية الحقيقية، تحت مظلة العبادة الحق. وتعلم الأجيال أن خروج الحسين، وضع على الجبابرة، والعتاة، وقواتهم الضاربة، لباس الذل والعار. ويا له من عار تخجل منه أي قوة ضاربة على امتداد الزمان.

٥ – الاستعباد:

بعد قتل الحسين، في إمكان كل رسام أن يرسم لك دمعة، أو جرحا، أو آهة. في إمكانه أن يرسم لك شجرة كهذه، أو يرسم لك شابا، اخترقت جسده سيوف المجرمين من كل جهة، وقد علقوه على هذه الشجرة، ومن حوله الغيوم تتلبد، والقمر معتما. يستطيع الرسام، أن يقوم بذلك، لتكرار الجرائم بعد الحسين. فلم يكن يمر يوما، إلا وترى فيه رجلا مصلوبا، أو رأس معلقة تتطوح

بعد أن هزت الرياح حبلها، ويستطيع الرسام أن يفهم ذلك، لذهاب الإنصاف من ساحة بني أمية، حتى أنه لا يستطاع أن تشترى أوقية من العدالة داخل خيامهم بعد أن زرع بنو أمية شجرة، وتعهدوها برعايتهم، لتكون مشنقة لكل من طعن في عدالتهم. ونحن هنا سنسلط الضوء على الأحداث التي تثبت ذلك.

أولا – يوم الحرة أو يوم الأنصار:

حدر النبي صلى الله عليه وسلم من الكيد لأهل المدينة، أو من فعل أي عمل يؤدي إلى خوفهم، فقال: " لا يكيد أهل المدينة أحد. إلا انماع كما ينماع الملح في الماء " (١). وقال: " لا يريد أحد المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص. (٢) وقال: " من أخاف أهل المدينة ظلما، أخافه الله وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا " (٣). وبعد هذا التحذير أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أن الحرة سيقتل بها خيار الناس من أصحابه الذين ساروا على هديه. فماذا حدث لأهل المدينة يوم الحرة؟

روي أن معاوية حين حضره الموت قال ليزيد: قد وطأت لك البلاد، وفرشت لك الناس، ولست أخاف عليكم إلا أهل الحجاز، فإن رابك منهم ريب، فوجه إليهم مسلم بن عقبة. فإني قد جربته مرة، فلم أجد له مثلا لطاعته (٤).

فمعاوية أوصى، وهو على فراش الموت بالكيد، ويضرب أهل المدينة إذا

---

(١) قال ابن كثير رواه البخاري (البداية ٢٢٣ / ٨) البخاري (الصحيح ٣٢٢ / ١) ك الحجج ب إثم من كاد للمدينة.

(٢) قال ابن كثير رواه مسلم (البداية ٢٢٣ / ٨) مسلم (الصحيح ١٢١ / ٤).

(٣) قال ابن كثير رواه أحمد (البداية ٢٢٣ / ٨)، (كنز العمال ٢٣٨ / ١٢).

(٤) رواه الطبراني ورجاله ثقات (الزوائد ٢٥٠ / ٧) وابن كثير (البداية ٢٣٩ / ٨) والطبري ١٧٩ / ٦، فتح الباري ٧١ / ١٣، الكامل ٣١١ / ٣.

هددوا سلطان ابنه يزيد. وعلى هذه الوصية سار يزيد. يقول المسعودي: كان يزيد صاحب طرب، وجوارح، وكلاب، وقرود، وفهود، ومنادمة على الشراب، وجلس ذات يوم على شرابه، وعن يمينه ابن زياد، وذلك بعد مقتل الحسين فأقبل على ساقيه فقال:

اسقني شربة تروي مشاشي * ثم مل فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السر والأمانة عندي * ولتسديد مغنمي وجهادي

ثم أمر المغنيين فغنوا، وغلب على أصحاب يزيد وعماله، ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الشراب، وكان له قرد يكنى، بأبي قيس يحضره مجلس منادمته، ويطرح له متكئا (١). وقال المسعودي: ولما شمل الناس جور يزيد وعماله، وعمهم ظلمه، وما ظهر من فسقه، ومن قتله ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنصاره، وما أظهر من شرب الخمر، سيره سيرة فرعون، بل كان فرعون أعدل منه في رعيته، وأنصف منه لخاصته وعامته، أخرج أهل المدينة عامله عليهم، وهو: عثمان بن محمد بن أبي سفيان (٢).

وروي أن عبد الله بن حنظلة الغسيل قال: والله ما خرجنا على يزيد، حتى خفنا. أن نرمى بالحجارة من السماء، إنه رجل ينكح أمهات الأولاد، والبنات، والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة (٣).

وبدأ يزيد في تنفيذ وصية والده معاوية، وأرسل إلى مسلم بن عقبة، ووضعه على رأس الجيش وقال له: إذا قدمت إلى المدينة، فمن عاقك عن دخولها أو نصب لك حربا، فالسيف السيف، ولا تبقي عليهم، وانتهبها عليهم ثلاثا، واجهز على جريحهم، واقتل مدبرهم. وإن لم يعرضوا لك، فامض إلى مكة، فقاتل ابن الزبير، فأرجو أن يظفرك الله

---

(١) مروج الذهب ٨٢ / ٣.
(٢) مروج الذهب ٨٣ / ٣، الكامل ٣١٠ / ٣.
(٣) تاريخ الخلفاء ١٩٥ / ١.

به (١). وسار مسلم بن عقبة إلى المدينة، وكان أهلها قد حفروا خندق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي كان حفره يوم الأحزاب، ووقف شاعر المدينة مخاطبا يزيد فقال:

أن بالخندق المكلل بالمجد * لضربا بيدي عن النشوات
لست منا وليس خالك منا * يا مضيع الصلوات للشهوات
فإذا ما قتلتنا فتنضر * واشرب الخمر واترك الجمعات (٢)

وتقدم مسلم بن عقبة، واجتاح أهل المدينة، وكانت وقعة عظيمة. قتل فيها خلق كثير من الناس، من بني هاشم، وسائر قريش، والأنصار، وغيرهم من سائر الناس (٣). وأباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام... وانتهبت أموالا كثيرة منها، ووقع شر عظيم، وفساد عريض، على ما ذكره غير واحد (٤) وذكر ابن كثير أن ابن عقبة قتل ألف بكر (٥)، وقتل سبعمائة رجل من حملة القرآن (٦). وقال المسعودي: قتل بضع وتسعون رجلا، من سائر قريش ومثلهم من الأنصار، وأربعة آلاف من سائر الناس، ممن أدركه الاحصاء دون من لم يعرف (٧). وقال صاحب كتاب المحن: كان مسلم بن عقبة يقول: من جاء برأس فله كذا وكذا، ومن جاء بأسير فله كذا وكذا، وجعل يغري قوما لا دين لهم، فقتلوا ما لا يحصى ولا يعد (٨)، وقتل يوم الحرة، من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ثمانون، ولم يبق بعد ذلك بدري (٩). وروى ابن كثير أن ألف امرأة من أهل

---

(١) التنبيه والإشراف / المسعودي ٢٨٠ / ١، كتاب المحن ١٤٩ / ١، الكامل ٣١١ / ٣.
(٢) التنبيه والإشراف / المسعودي ٢٨٠ / ١.
(٣) مروج الذهب ٨٤ / ٣.
(٤) البداية والنهاية ٢٣٨ / ٨.
(٥) البداية والنهاية ٢٦٥ / ٨.
(٦) البداية والنهاية ٢٦٦ / ٨.
(٧) مروج الذهب ٨٥ / ٣.
(٨) كتاب المحن ١٥١ / ١.
(٩) كتاب المحن ١٥٨ / ١.

المدينة، ولدت بعد وقعة الحرة، من غير زوج (١)، وكان الناس يلبسون المصبوغ، من الثياب قبل الحرة. فلما قتل الناس بالحرة، استحيوا أن يفعلوا ذلك (٢).

وهرب يوم الحرة إلى كهوف الجبال، العديد من الصحابة، منهم جابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدري (٣). وأنشد شاعر الأنصار فقال:

فإن تقتلونا يوم حرة وأقم * فنحن على الإسلام أول من قتل

ونحن تركناكم ببدر أذلة * وأبنا بأسياف لنا منكم تفل (٤).

وروي أن مسلم بن عقبة، أتي بعلي بن الحسين، فتبرأ منه ومن آبائه ثم أقعده وقال له: سلني حوائجك، فلم يسأله في أحد ممن قدم إلى السيف إلا شفعه فيه، ثم انصرف عنه. فقيل لعلي: رأيناك تحرك شفتيك، فما الذي قلت؟ قال: قلت: اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن، رب العرش العظيم، رب محمد وآله الطاهرين، أعوذ بك من شره، وأدرأ بك من نحره، أسألك أن تؤتيني خبره، وتكفيني شره. وقيل لمسلم بن عقبة: رأيناك تسب هذا الغلام وسلفه، فلما أتى رفعت منزلته. فقال: ما كان الرأي مني، لقد ملئ قلبي منه رعبا (٥).

ولم تكن الكارثة في قتل أهل المدينة فقط، وإنما كانت الكارثة أيضا في أن الناس بايعوا يزيد على أنهم عبيد له (٦). روى الطبري أن مسلم بن عقبة أتى بقرشيان، ومعهم ناس من أهل المدينة، فقال لهم: بايعوا فقال القرشيان: نبايعك على كتاب الله وسنة نبيه. فقال: لا والله لا أقيلكم هذا أبدا، فقدمهما

---

(١) البداية ٢٣٩ / ٨، الخصائص الكبرى ٢٤٠ / ٣.
(٢) كتاب المحن ١٥٩ / ١.
(٣) البداية ٢٣٩ / ٨، الطبري ١١ / ٧.
(٤) مروج الذهب ٨٥ / ٣، شذرات الذهب / ابن المعاد ٧١ / ١.
(٥) مروج الذهب ٨٥ / ٣.
(٦) فتح الباري ٧٠ / ١٣، مروج الذهب ٨٥ / ٣، كتاب المحن ١٥٥ / ١، والطبري ١٣ / ٧.

فضرب أعناقهما (١). وروي أن ابن عقبة قال لأهل المدينة: أتبايعون ليزيد أمير المؤمنين، ولمن استخلف بعده على أن دماءكم، وأموالكم، وأنفسكم، خول له يقضي ما شاء فيها؟ فقال له يزيد بن عبد الله بن زمعة: إنما نحن نفر من المسلمين لنا ما لهم وعلينا ما عليهم. فقال مسلم: والله لأقتلنك، والله لا تشرب البارد أبدا فأمر به فضربت عنقه (٢).

وهكذا اكتملت الدائرة، باتخاذ بني أمية عبيد الله خولا، بعد أن اتخذوا دين الله دخلا، ومال الله دولا، ولم يكن هذا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بألف عام. لا. لأن هذه الأحداث جرت عام ٦٣ ه، ورواها أصحاب التواريخ والتراجم والسير، وأجمعوا على أن يزيد أباح المدينة ونهب الأموال، وهتك الأعراض، وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وبايعه الناس، على أنهم عبيد له!! وفي إجمالي أحداث يوم الحرة يقول ابن حزم:

" قتل يزيد بجيوشه، بقايا المهاجرين، والأنصار، يوم الحرة، وهي أكبر مصائب الإسلام وخرومه. لأن أفاضل المسلمين، وبقية الصحابة، وخيار المسلمين من جلة التابعين، قتلوا جهرا، ظلما في الحرب، وصبرا. وجالت الخيل في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وراثت، وبالت في الروضة بين القبر والمنبر، ولم تصل جماعة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم... وأكره الناس على أن يبايعوا، يزيد بن معاوية، على أنهم عبيد له، إن شاء باع وإن شاء أعتق، وذكر له بعضهم البيعة على حكم القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأمر بقتله، فضرب عنقه صبرا. وهتك مسرف (٣)، أو مجرم الإسلام هتكا، وأنهب المدينة ثلاثا، واستخف بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومدت الأيادي إليهم، انتهبت دورهم. ثم انتقل الجيش بعد ذلك، إلى مكة شرفها الله تعالى، فحوصرت، ورمى البيت بحجارة

---

(١) الطبري ١١ / ٧.
(٢) كتاب المحن ١٥٥ / ١.
(٣) إشارة إلى ابن عقبة.

المنجنيق (١).
مما سبق، يمكن القول إن عدم مناصرة الحسين، فتح أبواب، للابتلاء، والعقاب وأن الحسين الذي رفض يزيد، كان أبعد نظرا من الذين جمعوا حريمهم وأولادهم، وأمروهم بعدم الخروج على يزيد، لأن في ذلك شق عصا الجماعة كما قالوا. لقد كان الحسين، أعلم بيزيد وبخطه منهم، لأنه كان يتحرك بعلم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. أما الكثرة، فكانت حركتهم غير مضبوطة، لأن زيت حركتهم اختلطت به شوائب كثيرة.
لقد رفع يزيد الحراب في وجه الحسين، ثم قام بتوسيع الدائرة بعد ذلك، فرفعها ضد الرأي العام الذي يسير في خط، معاكس للسلطة. وعندما قيل للحسين أن يذهب إلى يزيد ويبايعه. أقسم الحسين أنهم لن يتركوه. فهم لا يريدون البيعة، وإنما يريدون رأسه، ويوم الحرة علمنا أن البعض طلب البيعة على حكم القرآن وسنة رسول الله، فكان جزاؤهم أن ضربت أعناقهم صبرا.
وبايع الناس على أنهم عبيد ليزيد، الذي كان عمره في هذا الوقت، نيف وثلاثون سنة، إن شاء باع وإن شاء أعتق.
وإذا كان يزيد قد أخاف الحسين، وأهله، يوم كربلاء، فلقد قام بتوسيع الدائرة يوم الحرة، فأخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم. روي عن محمد وعبد الرحمن، ابن جابر بن عبد الله قالا: خرجنا مع أبينا يوم الحرة، وقد كف بصره، فقال: تعس من أخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلنا: وهل يخيف أحد رسول الله؟ قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من أخاف أهل هذا الحي من الأنصار، فقد أخاف ما بين هذين، ووضع يده على جنبيه (٢).
ثم قام يزيد، بتوسيع الدائرة، واقتحم الباب الأخير الذي يدخل من

---

(١) رسائل ابن حزم ١٤٠ / ٢.
(٢) قال ابن كثير رواه الدارقطني (البداية ٢٢٣ / ٨).

اقتحمه، أو كاد له، أو رماه، في دائرة الذين يؤذون الله. قال تعالى: " إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا " (١). فيزيد سير الجيوش نحو مكة، ورمى جنوده بيت الله بالحجارة. وقبل ذلك، كانوا قد أخافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحرة. وقبل ذلك آذوه في قتل الحسين، وهو من عترة رسول الله، من أصحاب الكساء والمباهلة، وابن فاطمة ريحانة رسول الله، التي يقول فيها النبي صلى الله عليه وسلم: " إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني من آذاها " (٢).

إن يزيد دخل إلى جميع الدوائر بعد قتله للحسين، فآذى الخط الذي يسوق الناس إلى الله، ووجه ضربات إلى الثقل، الذي لا ينفصل عن القرآن حتى يردا الحوض، ومن البديهي أن أحدا لن يستطيع أن يؤذي الله سبحانه ولكن صورة الأذى هنا، هي عرقلة الطريق، وعدم احترام المقدسات التي فيها نصوص من الله ورسوله. فأي أذى يصيب الخط الرسالي، المادي أو المعنوي، هو في الحقيقة، موجه إلى المشرع.

ويزيد أعلن، يوم أن نصبه والده، وليا للعهد. بأنه سيسير في الناس بسيرة عمر بن الخطاب، وعمر رضي الله عنه كان له مفهومه الخاص، في الكعبة والحجر، ولكنه كان يعظم أمرهما. فعن الحسن قال: ذكر عمر بن الخطاب الكعبة فقال: والله ما هي إلا حجارة نصبها الله قبلة لأحيائنا، وتوجه إليها موتانا (٣). ولكي لا يفتتن الناس بالكعبة، وفي نفس الوقت لكي يحافظ عليها عمر. روى البخاري: " لم يكن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم حول البيت حائط، فكانوا يصلون حول البيت، حتى كان عمر، فبنى حوله حائطا جدره قصير، فبناه ابن الزبير " (٤). وروى البخاري أن عمر بن الخطاب قال

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٧.
(٢) رواه مسلم (الصحيح ٣ / ١٦).
(٣) المروزي في الجنائز (كنز العمال ١٠٠ / ١٤).
(٤) البخاري (كنز العمال ١٠٠ / ١٤).

للركن: " أما والله إني لأعلم أنك حجر، لا تضر، ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم استلمك، ما استلمتك. فاستلمه " (١).
فأين يزيد من سيرة عمر؟ وقد أخذ على عاتقه أن يقوم في الناس بها. إن يزيد تعامل مع المقدسات. على أساس أنها حجارة، ولم ينظر في أعماق رؤية عمر لهذه المقدسات. بل إنه لم يهتم بما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه المقدسات. فعن ابن عباس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحجر: " والله ليبعثنه الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق " (٢). وروى الطبراني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الكعبة: " لا يزال الناس بخير ما عظموا هذه الحرمة - يعني الكعبة (٣).
وقال: " إذا رأيتم قريشا قد هدموا البيت ثم بنوه، فزوقوه، فإن استطعت أن تموت فمت " (٤).
ولقد ضرب يزيد المعول الأول، في الكعبة، ثم قام ابن الزبير بعملية الهدم، والتعمير. فجاء إليه الحجاج بن يوسف حامل سيف عبد الملك بن مروان، فقام بهدم البيت على رأس ابن الزبير. وبعد ذلك، قام بعمليات الترميم، والتعمير، والتزويق. وليس معنى قوله صلى الله عليه وسلم: " فإن استطعت أن تموت فمت " أن يسارع الناس إلى الانتحار، بأي طريقة من الطرق، وإنما المقصود أن تموت في سبيل الله تحت راية مبصرة.
لقد تعاملوا مع عترة النبي، التعامل الذي لا يليق بهم. ثم تعاملوا مع المقدسات، من منظور حماية السلطة من الخارجين عنها، قد خلت خيولهم المسجد النبوي، وهدموا البيت العتيق، وفي جميع الحالات لم يصب ابن

---

(١) قال في تحفة الأحوذي رواه البخاري. ورواه أحمد وأبو عوانة (كنز ١٧٥ / ٥).
(٢) رواه الترمذي وصححه ورواه ابن ماجة والدارمي، وابن خزيمة في صحيحه (تحفة الأحوذي ٣٠٥ / ٤).
(٣) ذكره ابن حجر في ترجمة عامر بن ربيعة (الإصابة ٨ / ٤) وابن ماجة (كنز ١٩٨ / ١٤).
(٤) رواه ابن أبي شيبة (كنز العمال ٢٥١ / ١١).

الزبير، وغيره في الاحتماء بالبيت، من أجل الملك، فعلى امتداد التاريخ، لم نسمع بواحد من أهل البيت الأطهار، قد احتمى بالمساجد. وإنما كانت حركتهم مضبوطة، لأنها حركة في جميع الحالات لا علاقة لها بالملك، وإنما بإقامة الحجة. وهل يسعى قتيل يعلم مكان قتله من أجل الملك؟

ثانيا - الوحل:

لقد بدأ يزيد شق الطريق إلى مكة التي كان ابن الزبير فيها وفي هذا الحصار، احترقت الكعبة، واحترق فيها قرنا الكبش، الذي فدي به إسماعيل بن إبراهيم. ودام الحصار إلى أن مات يزيد (١). وقال المسعودي في حرق البيت: نصب أهل الشام المجانيق، والعرادات (٢)، على مكة والمسجد من الجبال والفجاج... فتواردت أحجار المجانيق، والعرادات، على البيت ورمي مع الأحجار، بالنار، والنفط، ومشاقات الكتان، وغير ذلك من المحرقات وانهدمت الكعبة واحترقت البنية (٣).

وبعد وفاة يزيد بن معاوية، جلس على العرش معاوية بن يزيد بن معاوية. فكانت أيامه أربعين يوما، إلى أن مات. ولما حضرته الوفاة، اجتمعت إليه بنو أمية فقالوا له: أعهد إلى من رأيت من أهل بيتك. فقال: والله ما ذقت حلاوة خلافتكم، فكيف أتقلد وزرها، وتتعجلون أنتم حلاوتها، وأتعجل مرارتها، اللهم إن برئ منها، متخل عنها. اللهم إني لا أجد نفرا كأهل الشورى، فأجعلها إليهم، ينصبون لها من يرونه أهلا لها (٤).

وقد اختلفوا في سبب وفاته، فمنهم من رأى أنه سقي شربة، ومنهم من رأى أنه مات حتف أنفه، ومنهم من رأى أنه طعن. وقبض وهو ابن

---

(١) أسد الغابة ٢٤٣ / ٣.
(٢) العرادات / آلة حربية لدك الحصون.
(٣) مروج الذهب ٨٦ / ٣.
(٤) مروج الذهب ٨٨ / ٣.

اثنين وعشرين سنة (١). وبعد معاوية بن يزيد، بدأ نجم مروان بن الحكم طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظهور. ومروان سبب من الأسباب الرئيسية في قتل عثمان، وهو أيضا قاتل طلحة يوم الجمل، وكان يعلم أن الخلافة، ستكون له في يوم من الأيام، وعلى هذا الأساس كان يتصرف، ويفسح الطريق لنفسه. كما كان معاوية يصلح الطريق لنفسه بعد أن ألقى إليه كعب الأحبار، بما كان يتمناه.

ومروان هو إنتاج الفرع الثاني من بني أمية، أما معاوية فكان إنتاج الفرع الأول. والنبي صلى الله عليه وسلم حذر من الفرعين. فقال: " إذا بلغ بنو أمية أربعين رجلا... وفي رواية، ثلاثين رجلا – اتخذوا مال الله دولا ودين الله دخلا، وعباد الله خولا " (٢). فهذا تحذير من الفرع الأول. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: " إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلا، اتخذوا مال الله دولا ودين الله دخلا، وعباد الله خولا " (٣). وهذا تحذير من الفرع الثاني. ولقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بالأسباب، فوضع أبا سفيان، عميد الفرع الأول، في دائرة المؤلفة قلوبهم، ووضع الحكم بن العاص، عميد الفرع الثاني، على طريق النفي فنفاه، ليكون في إبعاده علامة وإرشاده ولكن الذي حدث، أن سهم المؤلفة بعد النبي لم يكن لوجود. فظهر أبو سفيان ولمع ولده. ثم جاء الحكم بن العاص من منفاه، فظهر الحكم " ولمع ولده، ومروان أخبر النبي بأنه أبو الجبابرة الأربعة (٤). وروي أن علي بن أبي طالب قال لمروان: " ويل لأمتك منك، ومن بنيك، إذا شابت ذراعاك " (٥)، ومروان الذي كان يمهد الطريق

---

(١) مروج الذهب ٨٩ / ٣.

(٢) ذكره ابن كثير في البداية (٢٧٤ / ٦، ٢٧٩ / ٨) ورواه ابن عساكر (كنز العمال ١٦٥ / ١١).

(٣) ذكره ابن كثير في البداية (٢٧٩ / ٨، ٢٥٨ / ٨) ورواه الطبراني والبيهقي (كنز ١٦٢ / ١١).

(٤) رواه البيهقي في الدلائل وابن عساكر (كنز ٣٦١ / ١١).

(٥) ابن عساكر (كنز العمال ٣٦١ / ١١).

لنفسه، عليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم علامة. فلقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الحكم وما ولد (١). وروي أن الحسن بن علي قال لمروان: لقد لعنك الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وأنت في صلب أبيك (٢).

وكانت ولاية مروان، تسعة أشهر وأياما، دق فيها أوتادا لا يستهان بها. وروي أنه أول من أخذ البيعة بالسيف، كرها بغير رضا من الناس... وقد كان غيره ممن سلف، يأخذها بعدد وأعوان. إلا مروان (٣). وذكر ابن عبد البر والذهبي وغيرهما مخازي مروان بأنه أول من شق عصا المسلمين بلا شبهة (٤).

وفي عهد مروان، خرج سليمان بن صرد، وهو صحابي على رأس جماعة عرفت في التاريخ باسم " التوابين " (٥). ولقد رأى بن صرد وأتباعه أنهم كانوا سببا في قدوم الحسين، وأنهم خذلوه حتى قتل هو، وأهل بيته، لذلك أقدموا على التوبة من هذا الذنب، بأخذ خطوة في اتجاه السلطة، لأنهم رأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه (٦). وتوجه إليهم من الشام لحربهم، عبيد الله بن زياد على رأس جيش من ثلاثين ألفا. ودارت بين الطرفين المعارك في موقعة عين الوردة، فحمل سليمان وأتباعه على جيش الشام.

واستشهد سليمان بن صرد. وروي أنه عندما وقع على الأرض قال: فزت ورب الكعبة. وكان عمره يوم قتل، ثلاث وتسعين سنة. وعندما قتل سليمان استقتل أتباعه وكسروا أجفان السيوف، وخاضوا معارك عظيمة، وقتل منهم خلق كثير. ولما علم من بقي من التوابين أن لا طاقة لهم بمن بإزائهم من أهل الشام،

---

(١) رواه البزار وأحمد بلفظ: لعن رسول الله فلانا وما ولد من صلبه. وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد ٢٤١ / ٥).

(٢) رواه أبو يعلى (الزوائد ٢٤٠ / ٥).

(٣) مروج الذهب ١٠٣ / ٣.

(٤) شذرات الذهب / ابن العمال الحنبلي ٦٩ / ١.

(٥) وعند المسعودي (الترابين) أي أصحاب أبي تراب علي بن أبي طالب.

(٦) مروج الذهب ١١١ / ٣.

انحازوا عنهم. وطلب منهم أهل الشام المكافة، والمتاركة، لما رأوا من بأسهم وصبرهم مع قلتهم. فلحق أهل الكوفة بمصرهم، وأهل المدائن والبصرة ببلادهم (١).

وحمل أهل الشام رأس ابن صرد إلى مروان بن الحكم، فجمع الناس وقال: أهلك الله رؤوس الضلال، ابن صرد وأتباعه. ثم أمر فعلقت الرؤوس بدمشق (٢). وكانت حركة ابن صرد في عام ٦٥ ه، وهو نفس العام الذي مات فيه مروان بن الحكم، واختلفوا في سبب وفاته، فمنهم من رأى أنه مات مطعونا، ومنهم من رأى أنه مات حتف أنفه، ومنهم من رأى أن أم خالد بن يزيد بن معاوية هي التي قتلته (٣).

لقد كانت حركة سليمان بن صرد، مقدمة صحيحة، لو تكاتف الناس فيها لأعطت نتائج أفضل. وأقوى. إنه الرأي العام داخل مربع سليمان بن صرد، كان قد احتقن احتقانا شديدا، ما لبث أن عبر عن نفسه وأشهد الله على ذلك بينما كان الرأي العام في مكان آخر، تقع عليه الضربات من كل جانب، ورغم هذا، لم يقم من نومه، وينشط ذاكرته، ويتحرك التحرك الذي يستقيم مع سنة الابتلاء، لينظر الله كيف يعمل عباده. فيصيبهم إما الثواب وإما العقاب.

ولما كان الغالب الأعم من الرأي العام في سبات عميق، مكبلين بنصوص ليس فيها من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم برهان، تدعوهم للاستسلام، وترك الدنيا، وهذه النصوص لا يستفيد منها إلا الذين يتخذون مال الله دولا، ودين الله دخلا، وعباد الله خولا. ولما كان الغالب الأعم يتصرف على اعتبار أنه كحصى على الأرض تلهو بها كل ريح، ولا يملك لنفسه سببا من الأسباب ليدفع المخاطر عن نفسه، تاركا الساحة للذين يأخذون بالأسباب للوصول إلى أهداف أهوائهم، في الوقت الذي يرى من حوله نجوم

---

(١) مروج الذهب ١١٤ / ٣.
(٢) البداية والنهاية ٢٥٤، ٢٥٥ / ٨.
(٣) مروج الذهب ١٠٧ / ٣.

الهدى يأخذون بالأسباب، وهم يعلمون نتائج حركتهم مسبقا، ولم يدعوهم هذا إلى الاستسلام والترهب. لما كان الغالب الأعم على هذا النحو في القرن الأول الهجري، توالت الابتلاءات من الله سبحانه لتكون حركة التاريخ، حركة صحيحة أمام كل باحث.... وفي هذه الامتحانات يضرب العذاب أقواما، ويقتل أقوام في سبيل الله، وتسير طائفة الحق شامخة، لا يضرها من خذلها، أو من عاداه، أو من ناوأها. وبعد مروان، جاء ابنه عبد الملك، الذي وصف قبل أن يولد بأنه أحد الجبابرة الأربعة وعبد الملك اختار من بين الناس الحجاج ابن يوسف الثقفي الذي وصف قبل أن يولد بأنه فتى ثقيف الذيال الميال.

وقبل أن يتقلد عبد الملك بن مروان السلطة، كان الناس يعلمون أنه سيصير خليفة (١). وذلك بعد أن وضعوا أحاديث التحذير، في دائرة التبشير. وروي أن يزيد بن معاوية قال: إن الناس يزعمون أن هذا يصير خليفة، فإن صدقوا، فقد صانعناه. وإن كذبوا، فقد وصلناه، وكان يزيد قد أعطى لعبد الملك قطعة أرض (٢).

وذكر ابن كثير، أنه لما سلم على عبد الملك بالخلافة، كان في حجره مصحف فأطبقه، هذا فراق بيني وبينك (٣). وقال السيوطي: عبد الملك هو أول خليفة بخل، وهو أول من غدر في الإسلام، وأول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء، وأول من نهى عن الأمر بالمعروف (٤). وذكر ابن كثير: أن عبد الملك كان له إقدام على سفك الدماء، وكان حازما، فطنا لأمور الدنيا لا يكل أمر دنياه إلى غيره (٥). وقال المسعودي: وكان له إقدام على الدماء وكان عماله على مثل مذهبه (٦). وروى صاحب الفتح الرباني: أن عبد الملك منع

---

(١) مروج الذهب ٨٢ / ٣.
(٢) مروج الذهب ٨٢ / ٣.
(٣) البداية والنهاية ٦٣ / ٩، تاريخ الخلفاء / السيوطي ٢٠٢ / ١.
(٤) تاريخ الخلفاء / ٢٠٣ / ١.
(٥) البداية والنهاية ٦٣ / ٩.
(٦) مروج الذهب ١٠٩ / ٣.

الناس من الحج، خوفا أن يبايعوا ابن الزبير (١).
وروي أن عبد الملك بن مروان، هادن ملك الروم، وبعث إليه بأموال وهدايا ليتفرغ للأمة. وكان عبيد الله بن زياد، أمير بني أمية المطيع قد قتل، بعد موقعة عين الوردة وقتل معه أشراف أهل الشام، عندما التقى هو وإبراهيم بن الأشتر النخعي (٢)، وبينما كان عبد الملك يعيد ترتيب أوراقه، وأوتاده، كانت الأحداث في الحجاز والعراق تشتعل. فعبد الله بن الزبير كان قد بسط يده على رقعة كبيرة من الأرض، وكان يريد أن يضم الشام إلى سلطانه. وروي أن المختار بن أبي عبيد الثقفي، قال لابن الزبير: إني لأعرف قوما، لو أن لهم رجل له رفق، وعلم مما يأتي، لاستخرج لك منهم جندا تغلب بهم أهل الشام. قال: من هم. فقال: شيعة بني هاشم بالكوفة. فقال له: كن أنت ذلك الرجل. وبعثه إلى الكوفة.
فنزل ناحية منها، وجعل يظهر البكاء على الطالبيين وشيعتهم، ويظهر الحنين والجزع لهم، ويحث على أخذ الثأر لهم، المطالبة بدمائهم (٣). وبهذه المقدمة سار إلى قصر الإمارة، وغلب على الكوفة، وابتنى لنفسه دارا، وفرق الأموال على الناس، وخلع طاعته لابن الزبير، وجحد بيعته، وكان من قبل قد بايعه.
وتتبع المختار قتلة الحسين فقتلهم. قتل عمر بن سعد بن أبي وقاص، وهو الذي تولى حرب الحسين يوم كربلاء. فزاد ميل أهل الكوفة إليه ومحبتهم له. ولقد حاول المختار أن يضع على حركته رداء أهل البيت، فكتب إلى علي بن الحسين يريد أن يبايعه، ولكن علي بن الحسين أبى أن يقبل ذلك منه، وأظهر كذبه وفجوره، ودخوله على الناس بإظهار الميل إلى آل أبي طالب. فلما يئس المختار من علي بن الحسين، كتب إلى عمه محمد بن الحنفية، يريده على

---

(١) الفتح الرباني ١٧١ / ١١.
(٢) مروج الذهب ١١٦ / ٣.
(٣) مروج الذهب ٨٩ / ٣.

مثل ذلك، فأشار عليه علي بن الحسين ألا يجيبه إلى شئ من ذلك، فإن الذي يحمله على ذلك، اجتذابه لقلوب الناس بهم، وتقربه إليهم بمحبتهم، وباطنة مخالف لظاهره، في الميل إليهم والتولي لهم والبراءة من أعدائهم. بل هو من أعدائهم لا من أوليائهم، والواجب عليه، أن يشهر أمره، ويظهر كذبه على حسب ما فعل هو، عندما أظهر للناس كذب المختار (١).

وأتى محمد بن الحنفية ابن عباس، يستشيره في هذا الأمر. فأوصاه بالسكوت لأن تأييد حركة المختار التي لا تقوم على أرضية إيمانية لا قيمة لها، ثم إن إظهار حقيقة المختار، لن تأتي بفائدة من عند ابن الزبير، خصم المختار الأول. لأن ابن الزبير بايعه كل الناس إلا محمد بن الحنفية (٢). وابن الزبير من المبغضين لأهل البيت. فكان ينال من علي بن أبي طالب في خطبه (٣). وكان ينتقص بن عباس (٤). وبالجملة: كانت حركة المختار، وابن الزبير، حركة هدفها الدنيا وليس لأهل البيت فيها أي نصيب اللهم إلا قتل أعدائهم، تحت راية المختار. ولقد جعل ابن حزم هذا القتل من مناقب المختار فقال: تتبع المختار بعض الذين شاركوا في قتل ابن الزهراء الحسين، فقتل منهم ما أقدره الله عليهم، وفعل أفاعيل يعفى فيها على هذه الحسنة (٥).

وحركة المختار، دليل عظيم على أن أهل البيت لا يركبون باطلا ليصلوا به إلى حق. فلو كانوا طلاب دنيا، لهرولوا إلى المختار، في وقت كان البيت الأموي يعيد ترتيب أوراقه وأوتاده، بعد الخسائر التي مني بها في موقعة مرج راهط بين مروان والضحاك بن قيس، ثم الخسائر التي أصابته في موقعة عين الوردة، وما بعدها لكنهم لم يفعلوا ذلك، لأن الدين لا يخضع للتجارة، وحركة

---

(١) مروج الذهب ٩٠ / ٣.
(٢) مروج الذهب ٩٣ / ٣.
(٣) مروج الذهب ٩٧ / ٣.
(٤) مروج الذهب ٩٧ / ٣.
(٥) رسائل ابن حزم ١٤١ / ٢.

أهل البيت حركة واحدة على امتداد التاريخ، فهم في انتظار الناس، فإذا جاء الناس، على الإمام أن يتحرك بهذه الحركة التي تستقيم مع الواقع لإقامة الحجة بهم على من خالفهم. وفي عالم القتال على الدنيا، يكون التحرك خاضعا لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا رأيت رجلين من أمتي يقتتلان على المال، فأعدد عند ذلك سيفا من خشب " (١)، وقوله: " إذا رأيت الأخوين المسلمين يختصمان في شبر من أرض، فاخرج من تلك الأرض " (٢). فكل حركة في هذه الأمور لا بد لها من فقه، وفقيه على بصيرة.

والدليل على أن الدولة الأموية، وابن الزبير وغيرهما كانوا يقاتلون على الدنيا، ما رواه البخاري عن أبي المنهال قال: لما كان ابن زياد ومروان بالشام، ووثب ابن الزبير بمكة، ووثب القراء بالبصرة. انطلقت مع أبي، إلى أبي برزة الأسلمي حتى دخلنا عليه في داره. فقال أبي: يا أبا برزة، ألا ترى ما وقع فيه الناس. فقال: إني احتسبت عند الله كأني أصبحت ساخطا على أحياء قريش، إنكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذي علمتم من الذلة، والقلة، والضلالة، وأن الله أنقذكم بالإسلام، وبمحمد صلى الله عليه وسلم، حتى بلغ بكم ما ترون، وهذه الدنيا التي أفسدت بينكم. إن ذاك الذي بالشام والله إن يقاتل إلا على الدنيا. وإن هؤلاء الذين بين أظهركم والله إن يقاتلون إلا على الدنيا، وإن ذاك الذي بمكة، والله أن يقاتل إلا على الدنيا (٣). ورواه الحاكم بزيادة: فقيل له: فما تأمرنا؟ قال: لا أرى خير الناس إلا عصابة ملبدة، خماص البطون من أموال الناس، خفاف الظهور من دمائهم " (٤). وفي هذه الدائرة ترى أعلام أهل البيت، الذين لا يأخذون من أموال الناس إلا ما كتب الله لهم.

ومن أجل المصالح دارت المعارك بين المختار، وبين ابن الزبير، سنة

---

(١) رواه الطبراني (كنز العمال ١٤٨ / ١١).
(٢) رواه الطبراني (كنز ١٤٩ / ١١).
(٣) البخاري (الصحيح ٢٣٠ / ٤) ك الأحكام.
(٤) رواه الحاكم وصححه (المستدرك ٤٧١ / ٤).

سبع وستين هجرية. وانتهت المعارك بقتل المختار، وقتل معه سبعة آلاف رجل. وتتبعت قوات ابن الزبير الشيعة، بالكوفة وغيرها، وقتلت منهم خلقا كثيرا (١)، ولم يبق بالساحة سوى بني أمية وابن الزبير. ودخلت سنة سبعين هجرية، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال عن فترة الستينيات " تعوذوا بالله من رأس الستين ومن إمارة الصبيان " (٢). وكما علمنا أن الحسين قتل على رأس الستين، ثم اجتاح صبيان قريش الحرة، وحاصروا مكة، ثم وقعت معارك عديدة من أجل الدنيا، حتى دخل عام ٧٠ ه. وفي الاستفتاح يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " تعوذوا بالله من رأس السبعين ومن إمارة الصبيان " (٣).

وعلى رأس السبعين، قويت شوكة الروم يقول الطبري: في هذه السنة ثارت الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين، فصالح عبد الملك بن مروان ملك الروم، على أن يؤدي إليه في كل جمعة ألف دينار، خوفا منه على المسلمين " (٤). وفي هذا الصلح، تسلل العديد من أهل الديانة النصرانية إلى بلاد الشام، وتقربوا إلى أمراء الأمصار، وفي هذا العام أيضا قتل عبد الملك، عمرو بن سعيد الأشدق، وكان عبد الملك يظن بأن ابن الأشدق يزاحمه على الخلافة. وبدأ عبد الملك يعد العدة لبسط نفوذه على الأراضي التي يسيطر عليها ابن الزبير، فخرج متوجها إلى العراق وعلى مقدمته، الحجاج بن يوسف الثقفي، وقيل كان على ساقته (٥). واجتاحت خيل عبد الملك الكوفة، وقتل مصعب بن الزبير، وبايعه الناس. وغرس عبد الملك ولاته على أرض العراق، وكان على رأسهم الحجاج بن يوسف. وكانت وصية عبد الملك للحجاج: إن أردت أن يستقيم لك من قبلك، فخذهم بالجماعة، وأعطهم عطاء الفرقة وألصق بهم

---

(١) مروج الذهب ١١٩ / ٣.
(٢) رواه الإمام أحمد وأبو يعلى (كنز العمال ١١٩ / ١١).
(٣) رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله ثقات (الزوائد ٢٢٠ / ٧) (الفتح الرباني ٣٤ / ٢٣)، (البداية والنهاية ٢٣٤ / ٦)، (كنز العمال ١١٩ / ١١).
(٤) الطبري ١٨٤ / ٧.
(٥) مروج الذهب ١٢٥ / ٣.

الحاجة (١).
والحجاج أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بمجيئه، كعقاب لأمة، رفعت سيوفها وألسنتها على الحق. لينظر الله إلى أين يفر الناس من العذاب، إلى الله، أم إلى بيوت المال؟ حيث الانحناء إلى السلطان؟ إن العذاب ليس من أجل العذاب، ولكن العذاب امتحان تظهر فيه المعادن، وهو في خطوطه العريضة رحمة، لأنه يدعو الناس إلى الشكر لأن الشكر نجاة من عذاب يوم عظيم، فمن فر إلى الله من عذاب الدنيا، لم يجمع الله عليه عذاب الآخرة. أما المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات، فإنهم بعذاب الدنيا يعبرون إلى عذاب القبر، إلى عذاب يوم أليم، لأنهم يتعاملون مع العذاب، وفقا لأهوائهم، فتحت العذاب تراهم يصالحون ويحاربون، وليس لله في أعمالهم نصيب. وفي سنة العذاب يقول تعالى: (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) (٢). وقال: (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) (٣)، وقال: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) (٤)، والحجاج عذاب، ولقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنه، لأن هوى الحجاج لن يكون على خط الهدى، وإنما سيختار خط الكذب، وسفك الدماء. وهذا إخبار بالغيب، ولقد شهدت حركة التاريخ بذلك.
قال النبي صلى الله عليه وسلم " سيخرج من ثقيف كذابان الآخر منهما شر من الأول. وهو مبير " (٥). قيل إن الأول هو المختار الثقفي، الذي تتبع قتلة الحسين. أما الثاني فهو الحجاج. وكان الإمام علي، قد دعى على أهل العراق، بأن يبعث الله عليهم فتى ثقيف. وأخرج البيهقي. أن عليا قال لرجل: لا مت حتى تدرك فتى ثقيف. قال: وما فتى ثقيف؟ قال: ليقالن له يوم القيامة، أكفنا

---

(١) مروج الذهب ١٤٣ / ٣.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٣٣.
(٣) سورة النساء: الآية ١٤٧.
(٤) سورة الإسراء: الآية ١٥.
(٥) رواه ابن سعد ونعيم ابن حماد والحاكم والطبراني (كنز العمال ٢٠١، ٢٠٢ / ٢١٤).

زاوية من زوايا جهنم، رجل يملك عشرين أو بضعا وعشرين، لا يدع لله معصية إلا ارتكبها. حتى لو لم يبق إلا معصية واحدة، وكان بينه وبينها باب مغلق، لكسره حتى يرتكبها، يقتل بمن أطاعه من عصاه (١). وروي أن الإمام علي قال لأهل الكوفة، فيما أخرجه الإمام أحمد عن الحسن: " اللهم كما ائتمنتهم فخانوني، ونصحت لهم فغشوني، فسلط عليهم فتى ثقيف الذيال الميال، يأكل خضرتها ويلبس فروتها، ويحكم فيهم بحكم الجاهلية. قال الحسن: ما خلق الحجاج يومئذ (٢). وكان الإمام الحسين قد دعا عليهم يوم كربلاء فقال: اللهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسنين يوسف، وسلط عليهم غلام ثقيف يسقهم كأسا مصبرة، فإنهم كذبونا وخذلونا (٣). فالحجاج عذاب دق أوتاده نظام. وحكمة الوجود عمودها الفقري، لينظر الله كيف تعملون. إن الحجاج بقعة حمراء جاهلية في ثوب به جميع الألوان، كلها تحمل زخارف الدنيا، فإلى أين يكون الفرار؟ وكيف سيدون القرن الأول الهجري تاريخه في هذه الحقبة الزمنية، التي عليها تنبت عقائد، وعلى مساحتها تشق أكثر من سبعين فرقة طريقها.

والحجاج وضع شذوذا، وارتكب جرائم من شأنها أن تحرك الناس، طلبا للتغيير على طريق العودة إلى الله. ويكفي أن يقول عمر بن عبد العزيز في أعمال الحجاج: " لو جاءت كل أمة بخبثها وجئناهم بالحجاج لغلبناهم " (٤). وقال أبي النجود: " ما بقيت لله حرمة إلا وقد ارتكبها الحجاج " (٥). وسألوا مجاهد عن الحجاج فقال: تسألون عن الشيخ الكافر (٦). وقال الشعبي: الحجاج يؤمن بالجبت والطاغوت كافر بالله

---

(١) الخصائص الكبرى ٢٢٦ / ٢، البداية ١٣٢ / ٩.
(٢) الخصائص الكبرى ٢٢٥ / ٢، البداية ١٣٢ / ٩.
(٣) الطبري ٣٥٩ / ٦.
(٤) رواه البيهقي (البداية والنهاية ٢٧٠ / ٦).
(٥) البداية والنهاية ٢٧٠ / ٦.
(٦) البداية والنهاية ١٣٦ / ٩.

العظيم (١). وقال الأوزاعي سمعت القاسم بن ضميرة يقول: كان الحجاج ينقض عرى الإسلام (٢).
فهذا هو الحجاج في نظر علماء الإسلام. أما القيادة التي دقت وتد الحجاج في جسد الأمة روي أنه قيل للوليد بن عبد الملك: ما تقول في عبد الملك بن مروان؟ فقال: ما أقول في رجل الحجاج خطيئة من بعض خطاياه (٣). ونحن هنا سنسلط الضوء على أهم الأقوال والأفعال التي أتى بها الحجاج، والتي تعتبر دعوة صريحة للخروج عليه، والالتفاف حول راية الهدى التي لم تكن خافية على أحد في هذا الزمان.
روى أبو داود عن جعفر بن عوف قال: سمعت الحجاج يخطب وهو يقول: إن مثل عثمان عبد الله كمثل عيسى بن مريم، ثم قرأ هذه الآية ويفسرها (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا)، يشير إلينا بيده، وإلى أهل الشام (٤). ثم قام الحجاج بتوسيع الدائرة، فروي عن سليمان الأعمش، أن الحجاج قال: " اسمعوا وأطيعوا لخليفة الله، وصفيه عبد الملك بن مروان " (٥). وقال: " اسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير المؤمنين عبد الملك، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب من أبواب المسجد فخرجوا من باب آخر، لحلت لي دماؤهم وأموالهم " (٦).
وذكر الجاحظ أن الحجاج قال: والله لطاعتي أوجب من طاعة الله، لأن الله يقول: (اتقوا الله ما استطعتم)، فجعل منها مثنوية (٧). وقال الله: " واسمعوا وأطيعوا)، ولم يجعل منها مثنوية ولو قلت لرجل: ادخل من هذا الباب فلم

---

(١) البداية والنهاية ١٣٦ / ٩.
(٢) البداية والنهاية ١٣٦ / ٩.
(٣) البداية والنهاية ١٣٥ / ٩.
(٤) أبو داوود حديث رقم ٤٦٤١ ص ٢٠٩ / ٤.
(٥) أبو داوود حديث ٤٦٤٥ ص ٢١٠ / ٤.
(٦) أبو داوود حديث ٤٦٤٣، ص ٢١٠ / ٤.
(٧) المثنوية / الاستثناء.

يدخل لحل لي دمه (١). قال الجاحظ: لقد فهم الحجاج أن المراد طاعة أولي الأمر. وليس كما ظن. بل المراد: اسمعوا المواعظ وأطيعوا الأوامر الإلهية. أو اسمعوا لله ولرسوله وأطيعوا الله فيما يأمركم (٢).

وروي أن سجون الحجاج كان يوجد فيها شئ يلجأ الناس إليه، من حر، أو برد، وأن المسجونين كانوا يسقون الماء مشوبا بالرماد (٣). وذكر أن الحجاج مر في يوم جمعة، فسمع استغاثة فقال: ما هذا؟ فقيل له: أهل السجون يقولون، قتلنا الحر، قال: قولوا لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون (٤).

ولم تقف أعمال الحجاج عند هذا الحد. ففي عصره كان الصحابة يعايرون بالصحبة. وروي أنه كان يختم الصحابة بخاتم، حتى يعرفهم الناس، ويعايرونهم بصحبتهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم. يقول السيوطي: في سنة أربع وسبعين. سار الحجاج إلى المدينة، وصار ينعت على أهلها ويستخف ببقايا من فيها من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وختم أعناقهم وأيديهم يذلهم بذلك، كأنس، وجابر، وسهل بن سعد (٥). وقد قتل من الصحابة والتابعين ما لا يحصى (٦). وهذه الأمور كانت دعوة في حقيقة الأمر ليتحرك الناس الحركة التي يحبون أن ينظر الله إليهم، وهم يقومون بها. كان هذا دعوة مفتوحة، للفراو إلى الله، موجه إلى جيل حديث عهد برائحة النبوة الزكية. ونحن هنا سنلقي الضوء على صور محددة لحركة الناس في هذا الجيل.

١ - حركة عبد الله بن عمر بن الخطاب:

فعبد الله عند المقدمة، رفض القتال مع أمير المؤمنين علي بن أبي

---

(١) حياة الحيوان ١٦ / ٣.
(٢) أنظر تفسير الزمخشري والرازي والبيضاوي.
(٣) التنبيه والإشراف / المسعودي ٢٩١ / ١.
(٤) البداية والنهاية ١٣٧ / ٩.
(٥) تاريخ الخلفاء ٢٠٠ / ١.
(٦) تاريخ الخلفاء ٢٠٥ / ١.

طالب (١). وفي أكثر الأقوال رفض أن يبايع علي. ويقول ابن حزم في الذين لم يبايعوا عليا: وتأخر عن بيعة علي، قوم من الصحابة بغير عذر شرعي، إذ لا شك في إمامته (٢). وعبد الله الذي لم يبايع عليا. بايع فيما بعد معاوية، ثم يزيد بن معاوية، ثم عبد الملك بن مروان. وكان عنوان عبد الله بن عمر على امتداد هذه الأحداث، من عثمان إلى عبد الملك بن مروان هو: " لا أقاتل، وأصلي وراء من غلب " (٣). وكان على امتداد هذا الزمان لا يأتي أمير إلا صلى خلفه، وأدى إليه زكاة ماله (٤).

روي أن عليا طلب من ابن عمر الخروج معه لقتال أهل الشام فقال: أنا رجل من أهل المدينة إن خرجت خرجوا، ولكن لا أخرج للقتال في هذا العام (٥). والمعنى: هو مع أهل المدينة ما يجري عليهم، جرى عليه، فإن خرج أهل المدينة مع علي، فإن ابن عمر لن يخرج هذا العام. وبعد مقتل الإمام علي، لم يبايع ابن عمر الحسن بن علي، فلما تم الصلح بين الحسن ومعاوية بايع معاوية. وعندما أراد معاوية أن يبايع ليزيد من بعده، بعث إلى ابن عمر وقال: يا ابن عمر إنك كنت تحدثني أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء، ليس عليك فيها أمير. وإني أحذرك أن تشق عصا المسلمين، أو تسعى في فساد ذات بينهم.. فقال ابن عمر: إنك تحذرني أن أشق عصا المسلمين، ولم أكن أفعل، وإنما أنا رجل من المسلمين، فإذا اجتمعوا على أمر فأنا رجل منهم. فقال له معاوية: يرحمك الله (٦).

وذكر ابن كثير: حين قدم نعي معاوية، لم يكن ابن عمر بالمدينة. وعندما لقي الحسين وابن الزبير قال: ما وراءكما؟ قالا: موت معاوية، والبيعة ليزيد.

---

(١) البداية والنهاية ٢٣١ / ٧.
(٢) رسائل ابن حزم الأندلسي ١٣٨ / ٢.
(٣) الطبقات الكبرى ١٤٩ / ٤.
(٤) الطبقات الكبرى ١٤٩ / ٤.
(٥) البداية والنهاية ٢٣١ / ٧.
(٦) تاريخ الخلفاء ١١٣ / ١.

فقال لهما: اتقيا الله ولا تفرقا بين جماعة المسلمين. وعندما قدم ابن عمر إلى المدينة، بايع يزيد (١). وعن محمد بن المنكدر قال: لما بويع يزيد بن معاوية، قال ابن عمر: إن كان خيرا رضينا، وإن كان بلاء صبرنا (٢).

وعندما خلع أهل المدينة يزيد، روى أحمد، ومسلم، والترمذي، أن ابن عمر أنكر على أهل المدينة خلعهم ليزيد. وروي أنه دعا بنيه، وجمعهم وقال: أنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة، فيقول هذه غدرة فلان.... فلا يخلعن أحد منكم يزيد، ولا يسرعن أحد منكم في هذا الأمر فتكون الصيلم بيني وبينه (٣).

وبعد مجزرة الحرة، وموت يزيد. وعندما جاءت دولة مروان التي لعن النبي صلى الله عليه وسلم رأسها في أحاديث صحيحة، منها قول عائشة: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم، ومروان في صلبه. فمروان قصص من لعنة الله عز وجل (٤)، بعد أن جاءت هذه الدولة. روى البخاري عن عبد الله بن دينار قال: شهدت ابن عمر، حيث اجتمع الناس على عبد الملك كتب: إني أقر بالسمع والطاعة لعبد الملك أمير المؤمنين، على سنة الله وسنة رسوله، ما استطعت، وإن بني قد أقروا بذلك (٥).

إن ما قدمناه ما هو إلا ضوء على حركة ابن عمر خلال هذه الأحداث، وللأسف الشديد، أن هذه الحركة أصبحت فيما بعد أصلا من أصول الدين، زرعه فقهاء السلاطين، والغائر الوحيد تحت شجرتهم هم الطلقاء، والملعونين، والمطرودين، وأعداء الفطرة، والإنسانية، إن فقهاء السوء التقطوا موقف ابن

---

(١) البداية والنهاية ١٤٨ / غير واضح في المصدر (٥٤١).
(٢) الطبقات الكبرى ١٨٤ / ٤.
(٣) البداية والنهاية ٢٣٣، ٢٥١ / ٨، الطبقات الكبرى ١٨٣ / ٤.
(٤) رواه الحاكم وصححه (المستدرك ٤٨١ / ٤).
(٥) البخاري (الصحيح ٢٤٥ / ٤) ك الأحكام.

عمر، وجعلوه كمامة في عالم التلجيم والاحتناك، وعلى هذه الكمامة، تعددت الفرق، وافترقت الأمة إلى أكثر من سبعين شعبة، بعد أن أصبح للجدل أسواق. لقد سلطوا الأضواء على موقف ابن عمر، وعتموا على مواقف أبي ذر، وعمار، والمقداد، وحجر بن عدي، وزيد بن صوحان، وغيرهم، ولا تخفى الأسباب على أصحاب الضمائر والأفهام والأبصار. وفوق هذا التعتيم، وضعوا عباءة عبد الله بن سبأ. فقالوا: إن ابن سبأ هو السبب في جميع الأحداث التي عصفت بالأمة. وأشهد أن ابن سبأ ما هو إلا أقصوصة، جاء بها عالم القص ليعتم بها على حركة التاريخ.

لم ينظر أصحاب الاحتناك إلا في مقدمة ابن عمر، ولم ينظروا إليه في نهاية الطريق، حيث كان يعلوه الندم. فعن الزهري عن حمزة بن عبد الله بن عمر. أنه بينما هو جالس مع عبد الله بن عمر، إذ جاءه رجل من أهل العراق فقال: يا أبا عبد الله، إني والله لقد حرصت أن أتسم بسمتك، وأقتدي بك في أمر فرقة الناس، واعتزال الشر ما استطعت، وإني أقرأ آية من كتاب الله محكمة، قد أخذت بقلبي فأخبرني عنها، أرأيت قوله عز وجل: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما. فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر الله)، أخبرني عن هذه الآية.

فقال ابن عمر: ما لك ولذلك. انصرف عني. فانطلق الرجل حتى تواري عنا سواده. وعندما أقبل علينا عبد الله قال: ما وجدت في نفسي شيئا من أمر هذه الآية، ما وجدت في نفسي أني لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله عز وجل (١). وفي رواية قال: لم أجدني آسي على شئ، إلا أني، لم أقاتل الفئة الباغية مع علي (٢).

---

(١) رواه الحاكم وقال: هذا باب كبير، وقد رواه عن عبد الله بن عمر جماعة من كبار التابعين وإنما قدمت حديث شعيب بن أبي حمزة عن الزهري واقتصرت عليه لأنه صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (المستدرك ١١٦ / ٣).

(٢) رواه الطبراني بإسنادين ورجاله رجال الصحيح (الزوائد ٢٤٢ / ٧)، ورواه ابن سعد في الطبقات بإسنادين (الطبقات الكبرى ١٨٥، ١٨٧ / ٤).

لقد كان هذا آخر مواقف ابن عمر، بعد أن صلى وراء الحجاج، وأخذ عنه الحجاج مناسكه يوم أن كانت الكعبة تحترق، وهم يطوفون بها كما سيأتي.

٢ - حركة أنس بن مالك:

كان أنس من الذين كتموا حديث الغدير، يوم أن قال علي بن أبي طالب في الرحبة: " أنشد الله رجلا سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول يوم الغدير إلا قام " وقام الناس ولم يقم أنس. فدعا علي بن أبي طالب على كل من كتم، ولم يشارك أنس في معارك علي. لكنه تحدث بعد علي عن مناقب أهل البيت، وذلك عندما علم أن مقدمته كانت مقدمة خطأ. روى ابن كثير أن أنس بن مالك جاء إلى الحجاج بن يوسف. فقال له الحجاج، هي يا خبيث، جوال في الفتن، مرة مع ابن الزبير، ومرة مع ابن الأشعث، أما والذي نفس الحجاج بيده لأستأصلنك كما تستأصل الصمغة، ولأجردنك كما تجرد الضب. فقال أنس: إياي يعني الأمير، قال الحجاج: إياك أعني أصم الله سمعك.

فاسترجع أنس، وشغل الحجاج. فخرج أنس، فتتبعناه. فقال: لولا أني ذكرت أولادي الصغار، وخفت عليهم، ما باليت أي قتل أقتل، وكلمته بكلام في مقامي هذا لا يستخفني بعده أبدا. وروي أن أنسا بعث إلى عبد الملك بن مروان يشكو إليه الحجاج. فكتب عبد الملك إلى الحجاج أن يترضاه (١). وروى ابن سعد: كان أنس بن مالك من أحرص أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم على المال (٢).

وفقهاء السلطان وقفوا عند المقدمة، وعزلوا غزلهم، ونسجوا نسيجهم، ولم ينظروا في الخاتمة، حيث كان أنس يبكي في آخر أيام حياته، وهو آخر من مات من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) البداية والنهاية ٩١ / ٩.

(٢) الطبقات الكبرى ١٨ / ٧.

بالبصرة (١). وكان أنس يقول: ما بقي أحد صلى القبلتين كلتيهما غيري (٢). ولو تدبر أصحاب الغزل والنسيج، في أقوال أنس في آخر حياته، لرؤا فيها الندم. ولعلموا أن غرسهم بعد الندم لا قيمة له إلا في خزائن السلطان. فعن ابن عمران الجوني قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ما أعرف شيئا اليوم، مما كنا عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلنا: فأين الصلاة؟ قال: أولم تصنعوا في الصلاة، ما قد علمتم (٣). وروى البخاري أن الزهري دخل على أنس، فوجده يبكي. فقال ما يبكيك قال: لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضيعت (٤)، إن معنى أن يضيع كل شئ عند النتيجة، أن المقدمة بعد وفاة الرسول يجب البحث فيها لنقف على الداء.

وما نسجوه على موقف أنس وابن عمر، فعلوه أيضا في حركة عائشة.

تلك الحركة التي قام فقهاء السلطان بترقيعها، وتلوينها، حتى لا يصل أحد إلى حقيقة، وكان يكفيهم أن ينظروا إلى موقف عائشة في المحطة الأخيرة، حيث التوبة والندم. فعائشة بعد قتل محمد بن أبي بكر وحجر بن عدي، تبينت الحقيقة، واعترفت بأنه لولا موافقها السابقة، لكان لها شأن آخر في مقابل هذه الأحداث (٥). ثم بدأت في نشر فضائل أهل البيت، وقيل أن حديثها ينشر الفضائل، كان بعد وفاة الحسن بن علي. وقيل غير ذلك. وروي أنها قالت عند وفاتها: إني قد أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقالت: ليتني لم أخلق. يا ليتني كنت شجرة أسبح وأقضي ما علي (٦).

وإذا كنا قد ذكرنا أن الحجاج عقاب، وتحت هذا العقاب ينظر الله تعالى

---

(١) الطبقات الكبرى ٢٦ / ٧.
(٢) الطبقات الكبرى ٢٠ / ٧.
(٣) رواه أحمد والترمذي وحسنه وقال في الفتح الرباني ١٩٩ / ١، روي من غير وجه عن أنس.
(٤) الفتح الرباني ٢٠٠ / ١.
(٥) راجع الطبري ١٥٦ / ٦، ابن أبي الحديد ٢٧٢ / ٣.
(٦) رواه الطبراني (الزوائد ٧٤ / ٨) وابن سعد (الطبقات ٢٣٨ / ٧).

إلى عباده، كيف يعملون وإلى أين يفرون. وإذا كنا قد ذكرنا أن العقاب، على الجيل الأول، عموده الفقري أن يقوم هذا الجيل بتصحيح خطواته، وترتيب أوراقه، لأن على أوراقه ستأتي أجيال سيأخذون من ممارستهم، وأعمالهم، وقودا، ويتخذونهم قدوة، فإذا لم يصحح الأوائل خطاياهم، حتما سيقع فيها الأواخر، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها كم غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها " (١)، وقوله: " المرء مع من أحب " (٢). وإذا كنا قد ذكرنا، أن العمود الفقري لحركة الإنسان العاقل في هذا الكون، هو الأخذ بالأسباب، لأن فيها يظهر الإنسان الذي يخشى الله بالغيب، والإيمان بالغيب هو وعاء المؤمنين الوحيد على هذا الكون المنظور، وعلى طريق الإيمان سار علي بن أبي طالب، وعمار، والحسين، وكل منهم كان يعلم بأنه مقتول في نهاية الطريق. فلم ينظروا إلى النتائج، لأن النتائج بيد الله، والله تعالى لا يضيع عمل الصالحين، الذين يخشونه بالغيب. وهؤلاء وغيرهم، هم الذين اشترى الله منهم أنفسهم، وأخبرهم على لسان رسول صلى الله عليه وآله وسلم، بمكان وكيفية قتلهم. فلم يتكاسلوا، وأخذوا بأسباب الحياة الأبدية، حتى قتلوا وربح بيعهم. فإذا كنا قد ذكرنا ذلك في أكثر من موضع فلم يبق إلا إلقاء ضوء يسير على رجل من الرجال، أخذ بأسباب النجاة، وكتمها في نفسه، وذلك عندما خطب الحجاج وجعل مرتبة عبد الملك فوق مرتبة النبوة. روى أبو داوود عن الربيع بن خالد قال: سمعت الحجاج يخطب فقال في خطبته: رسول أحدكم في حاجته أكرم عليه، أم خليفته في أهله؟ قال الربيع: فقلت في نفسي: لله علي ألا أصلي خلفك أبدا، وإن وجدت قوما يجاهدونك، لأجاهدنك معهم. وروي أنه قاتل بعد ذلك في موقعة الجماجم حتى قتل (٣).

---

(١) رواه أبو داوود حديث ٤٣٤٥ ص ١٢٤ / ٤.
(٢) البخاري (الصحيح ٧٧ / ٤) والترمذي وصححه (الجامع ٥٩٦ / ٤).
(٣) رواه أبو داوود حديث ٤٦٤٢ ص ٢٠٩ / ٤، البداية ١٣١ / ٩.

لقد كانت أقوال الحجاج وأفعاله، تصطدم مع العقيدة، وهنا يكمن الامتحان الإلهي. وتحت هذا الامتحان، كان هناك من يدافع عن دينه، بيده، أو بلسانه، أو بقلبه، وكان هناك من فدى الحجاج بالمال والولد، وقاتل تحت راياته. وكان هناك أيضا من يريد أن يركب موجة المعارضة، ليصل إلى كرسي الحكم، كالمختار مثلا الذي انطلق من عباءة قال أنها هاشمية، وبتصريح من محمد بن الحنفية. والحقيقة تخالف ذلك. باختصار: كانت هناك معارضة، ولكنها بلا رأس فيه من الله برهان. لقد كان علي بن الحسين، يعيش في عالم الغربة، وكان في هذا العالم كثير البكاء. وقيل له في ذلك فقال: أن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف، ولم يعلم أنه مات. وإني رأيت بضعة عشر من أهل بيتي يذبحون في غداة واحدة، فترون حزنهم يذهب من قلبي أبدا (١). وفي رواية قال: إنني كلما شربت الماء تذكرت ابن فاطمة.

وعلي بن الحسين كان علما وحده في هذه الساحة، ودليلا ينير لمن أراد أن يتوجه إليه، روي أن الزهري قارف ذنبا فاستوحش منه وهام على وجهه، وترك أهله وماله فلما اجتمع بعلي بن الحسين قال له علي: يا زهري قنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شئ، أعظم من ذنبك. فقال الزهري: " والله أعلم حيث يجعل رسالاته "، وفي رواية: أنه كان أصاب دما حراما خطأ، فأمره بالتوبة والاستغفار، وأن يبعث الدية إلى أهله. وعندما سمع منه الزهري قال: " والله أعلم حيث يجعل رسالاته " (٢). لقد كان علي بن الحسين علما في الساحة. روي أن هشام بن عبد الملك حج في خلافة أبيه، فطاف بالبيت، فلما أراد أن يستلم الحجر لم يتمكن حتى نصب له منبر، فاستلم وجلس عليه. وقام أهل الشام حوله، فبينما هو كذلك إذ أقبل علي بن الحسين، فلما دنا من الحجر ليستلمه. تنحى عنه الناس إجلالا له وهيبة واحتراما. فقال أهل الشام لهشام: من هذا؟ فقال: لا أعرفه استنقاصا به، واحتقارا، لئلا يرغب فيه أهل الشام. فقال

---

(١) البداية والنهاية ١٠٧ / ٩.

(٢) البداية والنهاية ١٠٧ / ٩.

الفرزدق وكان حاضرا. أنا أعرفه. فقالوا: ومن هو؟ فأشار الفرزدق يقول:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته * والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم * هذا التقي النقي الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها * إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
ينمي إلى ذروة العز التي قصرت * عن نيلها عرب الإسلام والعجم

إلى أن قال:

هذا ابن فاطمة إن كنت تجهله * بجده أنبياء الله قد ختموا
من جده دان فضل الأنبياء له * وفضل أمته دانت لها الأمم
عم البرية بالإحسان فانقشعت * عنها الغواية والإملاق والظلم

إلى أن قال:

من معشر حبهم دين وبغضهم * كفر وقربهم منجي ومعتصم
يستدفع السوء والبلوى بحبهم * ويستزاد به الاحسان والنعم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم * في كل حكم ومختوم به الكلم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم * أو قيل من خير أهل الأرض؟ قيل: هم
لا يستطيع جواد بعد غايتهم * ولا يدانيهم قوم وإن كرموا
هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت * والأسد أسد الشرى والبأس محتدم
يأبى لهم أن يحل الذم ساحتهم * خيم كرام وأيد بالندي هضم
لا ينقص العدم بسطا من أكفهم * سيان ذلك أن آثروا وإن عدموا
أي الخلائق ليست في رقابهم * لأولية هذا أوله نعم
فليس قولك من هذا؟ بضائرة * العرب تعرف من أنكرت والعجم
من يعرف الله أولية ذا * فالدين من بيت هذا ناله الأمم

يقول ابن كثير: فغضب هشام من ذلك، وأمر بحبس الفرزدق بين مكة والمدينة، فلما بلغ ذلك علي بن الحسين، بعث إلى الفرزدق باثني عشر ألف درهم، فلم يقبلها، وقال: إنما قلت ما قلت لله عز وجل، ونصرة للحق، وقياما بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذريته، ولست أعتاض عن ذلك بشئ. فأرسل إليه علي بن الحسين يقول: قد علم الله صدق نيتك في ذلك

وأقسمت عليك بالله لتقبلها. فقبلها منه (١).
لقد كانت هناك معارضة، للذين يقاتلون من أجل الدنيا، ولكن هذه المعارضة لم يكن لها رأس هدفها الآخرة، وتسوق الناس في الدنيا إلى عالم البركات، وشرط عالم البركات أن يؤمن أهل القرى وأن يتقوا. أهل القرى كلهم، وليس قبيلة من القبائل، أو فردا من الأفراد، فالدعوة عالمية. وتتحرك بعالميتها تحركا واحدا، على امتداد العصور. وهذا التحرك على أرض إذا سقط عليها الماء، اهتزت وأنبتت نبات عالم البركات، وليس نبات عالم الضنك.
فالإنسان مرتبط بالكون، فإن استقام على الفطرة التي فطر الله الناس عليها، التقي مع فطرة الكون في معزوفة واحدة. أما إذا شذ، فإنه بهذا الشذوذ يصطدم من فطره الله في خلقه، فتضربه جميع الأسباب
وفي عالم الفرية، وفي عالم القتال من أجل الدنيا، وفتح أبواب الفتن،
ونشر ثقافة السب، روي أن يحيى بن سعيد قال: سمعت علي بن الحسين، وهو أفضل هاشمي أدركته يقول: يا أيها الناس، أحبونا حب الإسلام، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارا. وفي رواية: حتى بغضونا إلى الناس (٢).
وفي عالم البغض والحقد والكراهية. مارس الحجاج بن يوسف مهمته بكل ارتياح. فصد عن سبيل الله، وتتبع أصحاب الإمام علي في كل مكان، وشكك في أهل البيت. روي أنه طلب كميل بن زياد ليقتله، وكان كميل صحابي أدرك من الحياة النبوية، ثمان عشرة سنة، وشهد صفين مع علي (٣)، وكان شجاعا، فاتكا، وزاهدا عابدا (٤). وعندما وقف كميل أمام الحجاج، نال الحجاج من علي، فصلي كميل عليه. فقال له الحجاج: والله لا بعثن إليك من يبغض عليا أكثر مما تحبه، فأرسل إليه ابن أدهم، وكان من أهل

---

(١) البداية والنهاية ١٠٨ / ٩.
(٢) البداية والنهاية ١٠٤ / ٩.
(٣) الإصابة ٣١٨ / ٣.
(٤) البداية والنهاية ٤٦ / ٩.

حمص (١). وأمر الحجاج بقتله صبرا بين يديه. فقال كميل: فاقض من أنت قاض، فإن الموعد الله، وقد أخبرني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنك قاتلي. فقال: اضربوا عنقه. فضربت عنقه (٢).

وفي عالم البغض والكراهية، أنكر الحجاج أن يكون الحسين من ذرية النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه ابن ابنته. فقال له يحيى بن معمر: كذبت. فقال الحجاج. لتأتيني على ما قتل ببينة من كتاب الله أو لأضربن عنقك فقال: قال تعالى: (ومن ذريته داوود وسليمان) إلى قوله: (وزكريا ويحيى وعيسى) ثم قال للحجاج: فعيسى من ذرية إبراهيم، وهو إنما ينتسب إلى أمه مريم. والحسين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الحجاج: صدقت، ونفاه إلى خرسان (٣).

وعلى ساحة البغض والكراهية، كان الحجاج ينال من عبد الله بن مسعود ويقول: والله لو أدركت عبد هذيل، لأضربن عنقه (٤). وكان يمنع الناس من القراءة في المصحف بقراءة ابن مسعود. ويقول: لا أجد أحدا يقرأ على قراءة ابن عبد إلا ضربت عنقه. ولأحكنها من المصحف، ولو بضلع خنزير!! (٥)، وقال ابن كثير: وإنما نقم على قراءة ابن مسعود لكونه خالف القراءة، على المصحف الإمام الذي جمع الناس عليه عثمان (٦). وروي أن الحجاج قال على المنبر: عبد الله بن مسعود رأس المنافقين، لو أدركته لأسقيت الأرض من دمه (٧). وروي أنه تلا على المنبر هذه الآية: (هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي)، وقال: والله إن كان سليمان لحسودا. قال ابن كثير: وهذا جراءة

---

(١) البداية والنهاية ٤٧ / ٩.
(٢) الإصابة ٣١٨ / ٣.
(٣) البداية والنهاية ١٢٦ / ٩.
(٤) البداية والنهاية ١٢٨ / ٩.
(٥) البداية والنهاية ١٢٨ / ٩، وقال ابن كثير رواه غير واحد.
(٦) البداية ١٢٨ / ٩.
(٧) البداية والنهاية ١٢٨ / ٩.

عظيمة تقضي به إلى الكفر (١).
من كل ما سبق، نعلم أن الحجاج اقتحم على الناس من الباب الذي لا ينبغي للناس أن يسمحوا له بالدخول منه، ولكن الغالب الأعم تعامى عن حركة الحجاج، كما تعاموا من قبل، عن أعمال يزيد، ومن قبله عن أعمال معاوية.
وتعامى الرأي العام وإن كان يعود إلى ثقافة السب، ورشوة النبلاء، إلا أنه عذر لا تقبله الفطرة التي هي حجة بذاتها على الإنسان.
وفي عالم البغض والتعامي، تحركت جيوش الحجاج، بعد أن صدرت الأوامر إليها من عبد الملك بن مروان. وكان تحركها في اتجاه مكة لقتل ابن الزبير، وابن الزبير لم يدع شيئا مقدسا، أو راية نقية، إلا تاجر بها لبسط نفوذه، وعبد الملك ما ترك سجنا، ولا سيفا، إلا واستعمله من أجل بسط نفوذه. لقد كانت المواجهة بين الطرفين في مكة. وعلى مكة تحذير من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن الله حرم مكة. يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي، ولا تحل لي قط إلا ساعة من الدهر، لا ينفر صيدها، ولا يعضد شوكها، ولا يختلي خلاها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد (٢). وفي رواية قالوا: إلا الأذخر يا رسول الله، فإنه لا بد منه للقين، والبيوت. قال: إلا الإذخر فإنه حلال.
وفي رواية قال صلى الله عليه وسلم: وهي اليوم حرام كما حرمها الله عز وجل أول مرة، وإن أعتى الناس على الله عز وجل ثلاثة: رجل قتل فيها، ورجل قتل غير قاتله، ورجل طلب بذحل (٣) الجاهلية (٤).
ومن أجل هذا، تحرك أهل البيت بعيدا عن الدائرة الحرام، وكانت حركتهم من أجل أن يدخلوا بالناس إلى المنطقة الأمان. أما غيرهم فقد تسلق

---

(١) البداية والنهاية ١٢٩ / ٩.
(٢) رواه البخاري (كنز العمال ١٩٨ / ١٢).
(٣) ذحل / أي ثأر.
(٤) رواه الإمام أحمد والبيهقي (كنز العمال ٢٠٦ / ١٢).

على الدائرة الحرام طمعا في الدنيا، حتى جاء يزيد وعبد الملك في زمن القهر، واتخاذ عباد الله خولا، فوجهوا الجيوش إلى الدائرة الحرام، لينالوا الدنيا على دخان الكعبة.

روي أن الحجاج زحف إلى مكة. فحاصر ابن الزبير بها وكتب إلى عبد الملك: أني ظفرت بأبي قبيس. فلما ورد كتابه على عبد الملك بحصار ابن الزبير، كبر عبد الملك، فكبر من معه في داره، واتصل التكبير بمن في جامع دمشق فكبروا، واتصل ذلك بأهل الأسواق فكبروا ثم سألوا عن الخبر فقيل لهم: إن الحجاج حاصر ابن الزبير بمكة، وظفر بأبي قبيس (١). منع ابن الزبير الحجاج أن يطوف بالبيت. ووقف الحجاج بعرفة محرما في درع مغفر (٢)، وكانت مدة الحصار خمسين ليلة (٣). ثم بدأ الحجاج يصب الحجارة على مسكة صبا، وابن الزبير متحصن بالكعبة، وتفرق عن ابن الزبير أصحابه، وخذله من معه خذلانا شديدا. وجعلوا يخرجون إلى الحجاج، حتى خرج إليه نحو من عشرة آلاف، وذكر أنه كان ممن فارقه وخرج إلى الحجاج ابنا الزبير، وخبيب، فأخذا منه لأنفسهما أمانا (٤).

وروي أنه عندما رمى البيت بالحجارة والمنجنيق، أرسل الله تعالى الصواعق والبروق والرعود. فنزلت الصواعق على المنجنيق وأحرقته، فوقف أهل الشام عن الرمي، فقال لهم الحجاج، ويحكم ألم تعلموا أن النار كانت تنزل على من كان قبلنا. فتأكل قربانهم إذا تقبل منهم. فلولا أن عملكم مقبول ما نزلت النار فأكلته. فعاد أهل الشام للضرب. وقتل ابن الزبير (٥). وأمر الحجاج بصلب الزبير بمكة. وكان مقتله سنة ثلاث وسبعين. (٦)

---

(١) مروج الذهب ١٣٥ / ٣.
(٢) المغفر / الدرع الذي يغطى به الرأس.
(٣) مروج الذهب ١٣٥ / ٣.
(٤) الطبري ٢٠٢ / ٧.
(٥) البداية والنهاية ٢٢٢، ٢٢٩ / ٨.
(٦) مروج الذهب ١٣٨ / ٣.

وأعطى عبد الملك للحجاج الجائزة، فأقامه واليا على مكة، والمدينة، والحجاز، واليمن، واليمامة، ثم جمع له العراق بعد موت بشر بن مروان بالبصرة (١). وبدأ عبد الملك يعيد بناء البيت الذي قام برميه من فوق الجبال، ولم يدخر عبد الملك جهدا في تشييد البيت وزخرفته. وهذا كله شاهد صدق على حركة التاريخ. حيث يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا رأيتم قريشا قد هدموا البيت ثم بنوه فزوقوه. فإن استطعت أن تموت فمت " (٢)، والدعوة إلى الموت ليست دعوة إلى الانتحار، وإنما أن تختار الموتة، التي يكون لله فيها رضا. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " كيف أنتم إذا مرج الدين، فظهرت الرغبة، واختلف الإخوان، وحرق البيت العتيق " (٣). وكيف أنتم أي كيف تكون حركتكم، التي تحبون. أن ينظر الله إليكم وأنتم عليها. إنه توجيه خاص، بأجيال القرن الأول، لأن على خيرتهم ستأتي أجيال وأجيال.

وبعد أن شيد عبد الملك البيت وزوقه، أمر عبد الملك الحجاج أن يقتدي بعبد الله بن عمر في مناسك الحج (٤). وروي أنه لما مات عبد الله بن عمر، صلى عليه الحجاج بن يوسف (٥)، وأن عبد الملك حج في بعض أعوامه، فأمر للناس بالعطاء. فخرجت بدرة مكتوب عليها: " من الصدقة " فأبي أهل المدينة من قبولها. وقالوا: إنما كان عطاؤنا من الفئ. فقال عبد الملك: نعلم أنكم لا تحبوننا أبدا. وأنتم تذكرون يوم الحرة. نحن لا نحبكم أبدا، ونحن نذكر مقتل عثمان (٦).

وعلى بساط البغض والحقد، دارت الأحداث. وفي نهايتها مات

---

(١) مروج الذهب ١٣٨ / ٣.
(٢) ابن أبي شيبة (كنز ٢٥١ / ١١).
(٣) ابن أبي شيبة (كنز ٢٥١ / ١١).
(٤) ثبت ذلك في الصحيحين راجع: فتح الباري ١٩٥ / ١٣، البداية والنهاية ٣٥٣ / ٨.
(٥) أسد الغابة ٣٤٤ / ٣.
(٦) مروج الذهب ١٤٦ / ١٤٧ / ٥.

عبد الملك بن مروان. وروي أنه وصى ابنه بالحجاج فقال له: انظر إلى الحجاج فإنه هو الذي وطأ لكم المنابر، وهو سيفك يا وليد، ويدك على من ناوأك، فلا تسمعن فيه قول أحد، وأنت إليه أحوج منه إليك، وادع الناس إذا مت إلى البيعة. فمن قال برأسه هكذا. فقل بسيفك هكذا (١). ولما احتضر عبد الملك دخل عليه ابنه الوليد فبكى. فقال عبد الملك: أتحن حنين الجارية. إذا أنا مت فشمر وائتزر، والبس جلد النمر، وضع سيفك على عاتقك، فمن أبدى ذات نفسه لك، فاضرب عنقه، ومن سكت مات بدائه (٢).

---

(١) تاريخ الخلفاء ٢٠٥ / ١.
(٢) تاريخ الخلفاء ٢٠٥ / ١.

ما أشبه الليلة بالبارحة

أولا – رياح الفرعونية
لكل شئ في الوجود مقدمة، ولم يعد من المقبول أن نقف عند النتيجة ونقول: ما الذي جاء بهؤلاء؟ لأن الفطرة لا تسمح بهذا الشطط، ومعركة التاريخ تصرخ من حولنا وتقول: إن ثغرة صغيرة عند المقدمة، قد تؤدي إلى فيضان كبير عند النتيجة. ولم يعد مقبولا أن نمر على الأحداث التاريخية بفكر يقدم أسوا الحلول، لأن الحقيقة لا تقبل إلا أن تكون كلمة الله هي العليا.
فعند مقدمة ما، قتل الحسين بن علي، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: " والذي نفسي بيده، لا تقتلوه بين ظهراني قوم لا يمنعونه، إلا خالف الله بين صدروهم وقلوبهم. وسلط عليهم شرارهم وألبسهم شيعا " (١). ولقد جاؤوا وجلسوا فوق الرقاب عذابا واختبارا، وفي دولتهم يقول الإمام علي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "... تطول دولتهم حتى لا يدعون لله محرما إلا استحلوه، ولا يبقى بيت ولا مدد ولا وبر، إلا دخله ظلمهم. وحتى يكون أحدكم تابعا لهم، وحتى تكون نصرة أحدكم منهم كنصرة العبد من سيده. إذا شهد أطاعه، وإذا غاب سبه، وحتى يكون أعظمكم فيها – أي في دولتهم – غنا أحسنكم بالله ظنا، فإن آتاكم الله بالعافية فاقبلوا (٢)، فإن ابتليتم فاصبروا، فإن .

---

(١) رواه الطبراني (الزوائد ١٩٠ / ٩).
(٢) فاقبلوا / أي تقدموا

العاقبة للمتقين (١). وتحت أعلامهم أتى الله بالعافية، فلم يقبل عليها إلا القليل، وتحت السيوف حبسوا وقتلوا وتأبى السماء أن تترك قتلهم بغير عقاب.
وجاء الوليد بن عبد الملك كنتيجة لمقدمة، كما جاء فرعون موسى في الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ٩٤٥ قبل الميلاد) هاضما للتجربة الفرعونية كلها، منذ بدأت في العصور التاريخية (٢٧٨٠ قبل الميلاد). فكان تجسيدا حيا للشذوذ الذي دونه آباءه في عالم الانحراف. وعلى امتداد تاريخ الفرعون، غرست بذور لم تمت شجرتها بموت الفرعون، وإنما امتدت ظلال الشجرة لتشمل عصور الدولة الفرعونية المتأخرة (٩٤٥ - ٣٤٣ ق. م). ثم تمتد بعد ذلك إلى دولة الإغريق، ودولة الرومان، بعد اندحار دولة الفراعنة أمام الغزاة الإغريق.
فالفراعنة كانوا في عالم الأموات، وشذوذهم له أعلام في عالم الأحياء. وفيهم يقول تعالى: (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون * وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) (٢). قال المفسرون: الدعوة إلى النار، هي الدعوة إلى ما يستوجب النار من الكفر والمعاصي. ومعنى جعلهم أئمة يدعون إلى النار، تعييرهم سابقين في النار، يقتدي بهم اللاحقون. وقوله تعالى: (وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة....)، أي لكونهم أئمة يقتدى بهم من خلفهم في الكفر والمعاصي، لا يزال يتبعهم ضلال الكفر والمعاصي، من مقتديهم ومتبعيهم، وعليهم من الأوزار مثل ما للمتبعين فيتبعهم لعن مستمر، باستمرار الكفر والمعاصي بعدهم. فالآية في معنى قوله تعالى: (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) (٣).
ففرعون امتص التجربة والوليد بن عبد الملك امتصها أيضا. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " ليكونن في هذه الأمة رجل يقال له الوليد، لهو أشر

---

(١) رواه الطبراني ورجاله ثقات (الزوائد ١٩١ / ٩).
(٢) سورة القصص: الآية ٤١ و ٤٢.
(٣) سورة العنكبوت: الآية ١٣.

على هذه الأمة من فرعون لقومه " (١) وقال ابن حزم: الوليد بن عبد الملك، كان يركب حمارا ويمشي في الأسواق، ويحتسب على البقالين وهو أحد الفراعنة (٢). والوليد ملأ الأمة رعبا، واعتمد لها بذرة فكرية ما زالت تعمل حتى زماننا هذا، أما كونه الأمة رعبا، فلقد عده ابن حزم في المسرفين في الدماء (٣). وذكر غير واحد أن الوليد كان جبارا عنيدا (٤). وكان شديد السطوة لا يتوقف عند الغضب. ولا ينظر في عاقبة، وتهون عليه الدماء (٥). وروي أن عمر بن عبد العزيز قبل أن يتقلد الخلافة وكان الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، وعثمان بن حبارة بالحجاز، وقرة بن شريك بمصر. قال: امتلأت الأرض والله جورا (٦).

وعندما تقلد الوليد الخلافة قال: الحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة، قوموا فبايعوا (٧) وقال: أيها الناس، عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد. أيها الناس،، من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه " (٨) وعاصفة الدماء التي أقرها الوليد، أشرف على تنفيذها الحجاج بن يوسف. وروي أن الحجاج وفد على الوليد بن عبد الملك، فلما رأى الوليد ترجل له وقبل يده، وجعل يمشي وعليه درع، وكنانة، وقوس عربية. فقال له الوليد: إركب يا أبا محمد. فقال له الحجاج: دعني يا أمير المؤمنين استكثر من الجهاد، فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني

---

(١) رواه الإمام أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٢٤٠ / ٥، ٣١٣ / ٧) ورواه البيهقي، (الخصائص الكبرى ٢٢٧ / ٢)

(٢) رسائل ابن حزم ٧١ / ٢.

(٣) رسائل ابن حزم ٧٥ / ٢.

(٤) مروج الذهب ١٩٢ / ٣، البداية والنهاية ١٦٤ / ٩.

(٥) التنبيه والإشراف ٢٩٠ / ١.

(٦) تاريخ الخلفاء ٢٠٨ / ١.

(٧) البداية ٧٠ / ٩.

(٨) البداية ٧٠ / ٩.

عنك (١).
وسار الجلاد وراء رفيق لا يطمع في أحسن منه، وفي هذا الوقت كان علي بن الحسين يقيم الحجة على أرضية ثقافة السب، ويتحرك تحركا لا تمليه إلا الدعوة. وكان علي بن الحسين كما ذكرنا من قبل، راية هدى يعرفها الخاص والعام. وروي أن هشام بن إسماعيل، كان أحد ولاة الوليد بن عبد الملك على المدينة، وعندما عزله الوليد. مر به علي بن الحسين. فناداه هشام قائلا: " الله يعلم حيث يجعل رسالته " (٢). فالحجة ظاهره. وفي نفس الوقت بيوت المال مفتوحة، والسيوف مرفوعة، والله ينظر إلى عباده كيف يعملون.
وفي الوقت الذي كانت فيه حجة الله ظاهرة، كان خدام الوليد، يرفعونه فوق مرتبة النبوة كما رفعوا والده من قبل. وروي عن نافع مولى بني مخزوم قال: سمعت خالد بن عبد الله القسري يقول: على منبر مكة، وهو يخاطب الناس: أيها الناس. أيهما أعظم، خليفة الرجل على أهله أم رسوله إليهم؟ والله لم تعلموا فضل الخليفة. إن إبراهيم خليل الرحمن استسقاه فسقاه ملحا أجاجا. واستسقى الخليفة فسقاه عذبا فراتا. قال ابن كثير: وهذا الكلام يتضمن كفرا إن صح عن قائله. قد قيل أن الحجاج بن يوسف نحو هذا الكلام، من أنه جعل الخليفة أفضل من رسول الله الذي أرسله الله. وكل هذه الأقوال تتضمن كفر قائلها (٣). ويبدو أن الوليد قد انتفخ بهذه الأقوال، كما انتفخ فرعون بأقوال الكهنة والرعاع من قبل. فروي أن الوليد قال لإبراهيم بن أبي زرعة: أيحاسب الخليفة؟ فقال: يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أم داوود. إن الله جمع له النبوة والخلافة، ثم توعده في كتابه فقال: يا داوود " (٤).
لقد كان الفرعون يدعي أنه ابن آمون، وأبناء آمون فوق المسألة، لما قال

---

(١) مروج الذهب ١٩٤ / ٣.
(٢) البداية ٧١ / ٩.
(٣) البداية ٧٦ / ٩.
(٤) تاريخ الخلفاء ٢٠٨ / ١.

هامان، وكهنة الترقيع والتلجيم والاحتناك، على امتداد التاريخ الفرعوني الذين دونوا شذوذ الانحراف تحت أعلام، حور، ورع، وآمون رع، وغير هؤلاء من أعلام الشيطان والدجل (١). وها نحن قد رأينا الوليد يجلس على أفخم كرسي، وهو لا يعلم هل يحاسب الخليفة أم لا. وقد وصفه الذهبي في دول الإسلام، بأنه: كان دميما، سائل الأنف، يختال في مشيته، قليل العلم (٢)، وقال ابن كثير: كان لا يحسن العربية، فجمع جماعة من أهل النحو فأقاموا عنده سنة. وقيل: ستة أشهر. فخرج يوم خرج أجهل مما كان (٣). وفرعون موسى كان أشد جهلا، فهو الذي طلب من هامان أن يوقد له على الطين، وأن يجعل له صرحا كي يطلع إلى إله موسى. ولقد شهد الله بجهل فرعون فقال: (وأضل فرعون قومه وما هدى) (٤). ومن دائرة الجهل قاد فرعون المسيرة، ولكن بأعلام الدين، فقال لقومه وهو يصد عن السبيل طمعا في أن يبعدهم عن دعوة موسى عليه السلام: (إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) (٥). وقام بتنفير قومه من خط موسى، وهارون عليهما السلام فقال: (إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) (٦). وعلى طريق فرعون سار الرعاع، (فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد) (٧). ورفعت أعلام وصيحات الفرعونية (قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) (٨). وذهب فرعون وقومه. ثم جاءت الأيام على امتداد التاريخ لتحمل معالمهم، لأن الاستخلاف من سنة الوجود لينظر الله كيف تعملون، وكما أن الأيام تتشابه، فكذلك تكون القلوب (كذلك قال الذين من

---

(١) الخوف والجوع / للمؤلف - تحت الطبع.
(٢) دول الإسلام / الذهبي ٥٥ / ١.
(٣) البداية والنهاية ١٦١ / ٩.
(٤) سورة طه: الآية ٧٩.
(٥) سورة غافر: الآية ٢٦.
(٦) سورة طه: الآية ٦٣.
(٧) سورة هود: الآية ٩٧.
(٨) سورة غافر: الآية ٢٥.

قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون) (١). وتحت مظلة الأيام تختبر القلوب على امتداد التاريخ الإنساني... (وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء) (٢)، وكما كان في عالم الفرعون ابتلاء، كذلك كان في عهد الوليد بن عبد الملك امتحان، فالوليد جلس على كرسي الحكم أحد عشر سنة تقريبا، وقبل وفاته بستة أشهر، مات ذراعه الأيمن الحجاج بن يوسف الثقفي. وكان عد من قتله الحجاج صبرا، سوى من قتل في زحوفه، وحروبه مائة ألف وعشرين ألفا (٣). وروي أن الحجاج مات وفي حبسه خمسين ألف رجل وثلاثين ألف امرأة (٤). منهن ستة عشر ألفا مجردة (٥). وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد (٦).

١ - تشابه القلوب:

إذا كان الوليد قد ارتكب الجرائم، التي ارتكبها آبائه من قبل، وزادوا عليه أنهم اقتحموا المساجد ورموا الكعبة وقتلوا الذين اشترى الله أنفسهم. فماذا كان الوليد من دونهم جميعا الذي وضع في دائرة الفرعون، وكان خطره على الأمة أشد من خطر فرعون على قومه؟ في البداية نقول: إن القرآن الكريم أشار إلى أن الرسالة الخاتمة جاءت لتخاطب الجميع، وعلى رأسهم الفراعنة الجدد. ولعلمه سبحانه أن الفراعنة الجدد سيسحقون شعوبهم، ويتخذون مال الله دولا، ودين الله دخلا، وعباد الله خولا، جعل خطاب الرسالة الخاتمة موجه إلى الفراعنة وشعوبهم بمعنى أنه خاطب الشعوب باعتبار أن منهم الفراعنة، وخاطب الفراعنة على اعتبار أنهم يمسكون برقبة شعوبهم. فالشعوب والفراعنة جزء واحد في

---

(١) سورة البقرة: الآية ١١٨.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٠.
(٣) التنبيه والإشراف ٢٩٠ / ١.
(٤) المصدر السابق ٢٩١ / ١.
(٥) المجردة / التي نزع شعرها.
(٦) مروج الذهب ٢٠٤ / ٣.

جسد واحد، قال تعالى: (إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا * فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا) (١).
فالخطاب لجبابرة قريش، ولم يقل لهم مثلا: كما أرسلنا إلى مدين رسولا، أو إلى ثمود رسولا، وإنما قال: (كما أرسلنا إلى فرعون رسولا)، لقد وضعهم في كفة النمط البشري المستكبر الذي يتسلق من أجل العلو في الأرض.
وليس معنى هذا أن المجتمع القرشي كله في صدر الدعوة كان يحمل البصمة الفرعونية، لأن مجتمع فرعون موسى كان به مؤمن آل فرعون والسيدة آسية وفي هذا كفاية، لأن الدعوة لا تقاس باللحوم وكثرة العدد وإنما تقاس بالصدق والثبات على المبدأ. فقريش كانت تقف في الصدر الأول على أرضية الفراعنة. وهم على نفس الأرضية خاطبهم القرآن، وذكرهم أن فرعون عصى الرسول وخطه المتمثل في هارون. ولما كانت المقدمة تحمل عصيان فإن النتيجة جاءت بالأخذ الوبيل.
والوليد بن عبد الملك كما ذكرنا كان الشخص الذي امتص التجربة كلها، داخل النفسية القرشية المتمثلة في الظالمين من بني أمية. وإذا كنا قد علمنا أن أوتاد الخيمة الفرعونية القديمة تقويم على أرضية مصالح الفرعون. والتي هي نفسها مصالح الدائرة الفرعونية من كهنة وغوغاء ورعاع. وأن أهم هذه الأوتاد قول فرعون (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري) (٢). وأن فرعون بقوله هذا قام بتعطيل منهاج الفطرة، وجعل من نفسه مصدرا للتشريع. ثم قوله: (ما أريكم إلا ما أرى) (٣)، قال المفسرون: أي ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي. وإنه على يقين مما يهدي إليه قومه..... وأنه بهذا القول جعل من مقعده حيث الجهل والظلام منبرا للعلم، وأن هذه الأوتاد ما كان لها أن تقوم إلا على أرضية ثقافية استخفت بالعقول على دروب المتاجرة بالدين. ألم يقل لهم:

---

(١) سورة المزمل: الآية ١٥ - ١٦.
(٢) سورة القصص: الآية ٣٨.
(٣) سورة غافر: الآية ٢٩.

(إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) (١). فطريقه إلى عقولهم كي يستخفهم كان يحمل عنوان الدين الذي التقى مع أهوائهم.
إذا كنا قد علمنا ذلك من سيرة الفرعون كما قصها القرآن الكريم، وعلمنا أيضا أن هذه الحركة الفرعونية كانت تجري على أرضية الفتنة، لقوله تعالى: (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم) (٢)، فإن الوليد بن عبد الملك الذي امتص تجربة بني أمية وضع هو وقائمة المنتفعين والمتسلقين معه منهجا يلتقي في خطوطه العريضة مع المنهج الفرعوني الذي يقوم على قوله: (ما أريكم إلا ما أرى) (٣). وهذا المنهج دخل إلى الغالب الأعم في الأمة كما دخل إلى قوم فرعون من قبل، وذلك لأنه دخل من باب قوله: (إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) (٤)، وكانت حركة منهج الوليد تستقيم مع حركة المنهج الفرعوني في اتجاه الفتنة يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) (٥).
ولقد ذكرنا من قبل أن القرآن الكريم كتاب طاهر ولا يمسه بتأويل إلا طاهر، وهذا الطاهر لا بد أن يكون بنص وإلا ادعى كل إنسان الطهارة. وذكرنا أن أجر الرسالة الخاتمة لا يصب إلا في وعاء مودة ذي القربى، وأن دائرة ذي القربى دائرة لها رأس. وكما أن لكل قوم سادة حتى النحل له سادة، كذلك دائرة ذي القربى فإن لها سادة يرتبطون بالقرآن ولا ينفصلا حتى يردا على الحوض. فهؤلاء رفعهم الله يعلمهم درجات، بمعنى أنهم يمتازون عن بقية الأمة بعلمهم

---

(١) سورة غافر: الآية ٢٦.
(٢) سورة يونس: الآية ٨٣.
(٣) سورة غافر: الآية ٢٩.
(٤) سورة غافر: الآية ٢٦.
(٥) سورة آل عمران: الآية ٧.

الذي رفعهم به الله درجات، فإذا ذهبوا ذهب العلم، لأن ذهاب العلم ذهاب حملته ويترتب على ذلك التيه قال النبي صلى الله عليه وسلم: " مثل العلماء في الأرض، مثل النجوم في السماء، إذا ظهرت ساروا بها وإذا توارت عنهم تاهوا " (١). فالعلماء تحت سقف الأمة شربوا من علوم دائرة ذي القربى وساروا بمشاعلهم حتى لا يسقطوا في حفر الفتن يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأمتي " (٢). فتحت مشاعل أهل البيت يكون الأمان من الفتن ومن كل مكروه، لأنهم مع كتاب الله الهادي ثقلين في حبل واحد. يقول الزرقاني في شرح المواهب: أما الكتاب فلأنه معدن العلوم الدينية، والأسرار والحكم الشرعية، وكنوز الحقائق، وخفايا الدقائق. وأما العترة، فلأن العنصر إذا طاب أعان على فهم الدين، فطيب العنصر يؤدي إلى حسن الأخلاق، ومحاسنها يؤدي إلى صفاء القلب ونزاهته وطهارته (٣).
وقال صاحب التاج الجامع للأصول: قال النبي صلى الله عليه وسلم:
" أحسنوا خلافتي فيهما باحترامهما، والعمل بكتاب الله وما يراه أهل العلم من آل البيت أكثر من غيرهم " (٤).
فإذا كنا قد علمنا ذلك، وعلمنا كيف حورب أهل البيت حتى لا يقوموا في الأمة بالعمل الذي يستقيم مع مرتبة العلم التي فضلهم الله بها وبغيرها، وكيف قتل أمير المؤمنين الذي عليه نص بأنه يقاتل على التأويل حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فإذا كنا قد علمنا هذا وغيره على امتداد هذا الكتاب، فلم يبق إلا أن نقول إن ذهاب العلم، وذهاب حملته، يفتح الطريق أمام الذين يبتغون الفتنة. ولدينا العديد من النصوص التي تقول بأن حركة بني أمية ما هي إلا حركة فتنة على طريقها ترفع أعلام أغيلمة وسفهاء قريش الذين يتخذون ما الله دولا، وعباد الله خولا، ودين الله دخلا. وفي عالمهم يقتل المتقين، وتضيع الصلاة،

---

(١) رواه الإمام أحمد (كشف الخفاء ٤٠٥ / ٢)
(٢) رواه أبو يعلى (كشف الخفاء ٤٣٦ / ٢)، (كنز العمال ١٠٢ / ١٢).
(٣) شرح المواهب ٢ / ٨.
(٤) التاج الجامع للأصول ٤٨ / ١.

ويقرأ القرآن خلف لا يجاوز تراقيهم، ويكون القتال فيه على الملك. فعلوم الفتن إنتاج طبيعي لمقدمة ذهب فيها العلم. ومعنى: ذهب فيها العلم. أنه لا يوجد إلا في المكان الذي ذهب إليه. ومشاعله لا توجد إلا في المكان الذي توارت فيه.

٢ - دائرة الرؤية الفرعونية:

والوليد بن عبد الملك الذي وصف بأنه " قليل العلم " (١)، وأنه كان " لا يحسن العربية، وجمع أهل النحو فأقاموا عنده فخرج يوم خرج أجهل مما كان " (٢)، الوليد هذا كان رأس دائرة تتأول كتاب الله على طريق الفتنة، كما تأول فرعون صفحة الوجود فنادى " ما أريكم إلا ما أرى "، وكما التقط الفرعون الزاد من تراث آبائه. كذلك فعل الوليد بن عبد الملك. لقد كانت دائرة القدر أهم دائرة تجول فيها بني أمية والتقطوا منها كل ما يستقيم مع أعمالهم، ثم قذفوا بما التقطوه إلى علمائهم ليتأولوه، ويضعوا عليه رداء الدين ليعبر إلى الغالب الأعم من الأمة بكل سهولة وبكل يسر. والكلام في القدر كلام قديم. قال تعالى: (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم ألا تخرصون) (٣). يقول الآلوسي في تفسيره: ولم يريدوا بهذا الكلام الاعتذار عن ارتكاب القبيح... بل هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وأنهم يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى، وإن ما ارتكبوه حق ومشروع، ورضي الله عنه بناء على أن المشيئة والإرادة تساوي الأمر وتستلزم الرضا. فيكون حاصل كلامهم: إن ما ارتكبوه من الشرك والتحريم وغيرهما مما تعلقت به مشيئة الله وإرادته، وكل ما تعلقت به مشيئة الله وإرادته فيه مشروع

---

(١) دول الإسلام / الذهب ٢٠٨ / ١.

(٢) ابن كثير (البداية والنهاية ١٦١ / ٩).

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٤٨.

مرضي عنه (١). ولقد رد عليهم القرآن الكريم وبين أن الذين من قبلهم قالوا مثل قولهم فذاقوا العذاب، والعذاب لا يكون نتيجة لفعل رضي الله عنه.
ثم بين أن قولهم لا يستند إلا على الوهم والخيال. وتحداهم إن كان عندهم علم بهذا فليخرجوه. ولقد أراد طابور الشرك في مكة أن ينسج من مسائل القدر عقبات أمام الرسالة الخاتمة، ولكن القرآن الكريم أطاح بنسيجهم في آيات كثيرة ومنهم أيضا قوله تعالى: (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه شئ)، ثم صرف الله تعالى الخطاب عنهم لسقوط فهمهم وقال لنبيه: (كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين * ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) (٢)، قال المفسرون: فكأنهم يقولون: لو كانت النواهي التي جاءت بها الرسالة حقة، وإن النواهي لله سبحانه، كان الله سبحانه شاء أن لا نعبد شيئا غيره، وأن لا نحرم دونه شيئا، ولو شاء الله سبحانه أن لا نعبد غيره ولا نحرم شيئا، لم تعبد ولم نحرم لاستحالة تخلف مراده عن إرادته، لكنا نعبد غيره، ونحرم أشياء، فليس يشاء شيئا من ذلك، فلا نهي ولا أمر منه تعالى، ولا شريعة ولا رسالة من قبله.
هذا تقرير حجتهم على ما يعطيه السياق ومغزى مرادهم. إن عبادتهم لغير الله وتحريمهم لما حرموه، وبالجملة عامة أعمالهم، لم تتعلق بها مشيئة من الله ينهي، ولو تعلقت لم يعملوها. ثم قال تعالى لنبيه: (كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسول إلا البلاغ المبين)، خطاب للنبي يأمره تعالى أن يبلغ رسالته بلاغا مبينا، ولا يعتني بما لفقوه من الحجة، فإنها داحضة والحجة التامة عليهم بالبلاغ. فالذين من قبلهم قالوا بهذا ولو كان قولهم صحيحا ما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم. وهؤلاء ركبوا سنن الذين من قبلهم وقالوا قولهم، ولقد أرسل الله لهم رسولا ليزيل من عقولهم بصمات سلفهم الضال. فالبلاغ حجة

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية / محمد أبو زهرة ٩٩.
(٢) سورة النحل: الآية ٣٥ - ٣٦.

عليهم بأن حركتهم نحو الأصنام والطاغوت حركة ليس لله فيها أي نصيب.
لقد كان القول القدر يدور في إحياء المشركين عند بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وبعد النبي حمل تركه القول بالقدر طابور النفاق وجميع تيارات الهدم والصد عن سبيل الله. وظهر القول بالقدر في عصر عمر بن الخطاب عندما دخل أحبار اليهود في الإسلام، وعندما اتسعت دائرة الفتوحات وتسربت المفاهيم الغير إسلامية إلى ديار المسلمين، ولما جاء عصر الإمام علي، واجه الإمام هذه التيارات... روي أن الإمام علي عند مسيره إلى صفين قيل له: أخبرنا عن مسيرنا إلى صفين أكان بقضاء الله وقدره؟ فقال: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما وطأنا موطئا، ولا هبطنا واديا، إلا بقضاء الله وقدره. فقال السائل: فعند الله أحتسب عناي، ما أرى من الأجر شيئا. فقال الإمام: مه أيها الشيخ: لقد عظم الله أجركم في سيركم وأنتم سائرون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شئ من أحوالكم مكرهين ولا مضطرين، فقال الشيخ: وكيف القضاء والقدر ساقنا؟ فقال الإمام: ويحك، لعلك ظننت قضاء لازما وقدرا حتما، لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب، والوعد والوعيد، والأمر والنهي. ولم تأت لائمة من الله لمذنب. ولا محمدة لمحسن. ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسئ. ولا المسئ أولى بالذم من المحسن. تلك مقالة عباد الأوثان، وجنود الشيطان، وشهود الزور أهل العمي عن الصواب. وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها. إن الله أمر تخييرا ونهى تحذيرا، وكلف تسييرا، ولم يعصه مقلوبا، ولم يطع كارها. ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثا، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا. ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار.
فقال الشيخ: فيما القضاء والقدر اللذان ما سرنا إلا بهما؟ فقال الإمام: هو الأمر من الله تعالى والحكم، ثم تلا قوله تعالى: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) (١).
وروي أن سائلا قال للإمام علي: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر. فقال

---

(١) الصواعق / ابن حجر ص ١٣٠.

الإمام: يا سائل. إن الله خلقك كما شاء أو كما شئت؟ قال: كما شاء فقال الإمام: إن الله يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما يشاء؟ قال: كما يشاء، فقال الإمام: يا سائل. ألك مشيئة مع الله أو فوق مشيئته. أو دون مشيئته. فإن قلت مع مشيئته، أدعيت الشركة معه، وإن قلت دون مشيئته، استغنيت عن مشيئته وإن قلت فوق مشيئته كل مشيئتك غالبة على مشيئته. ثم قال الإمام: يا سائل. ألست تسأل العافية؟ قال السائل: نعم، فقال الإمام: عن ماذا تسأله العافية؟ أمن بلاء هو ابتلاك به، أو من بلاء غيره ابتلاك به؟ قال الرجل: من بلاء ابتلاني به. فقال الإمام: ألست تقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. قال السائل: بلي، فقال الإمام: أتعرف تفسيرها؟ قال: لا يا أمير المؤمنين علمني مما علمك الله. فقال: تفسيره إن العبد لا قدرة له على طاعة الله ولا على معصيته. يا سائل، إن الله يسقم ويداوي، منه الداء ومنه الدواء، ثم قال: لو وجدت رجلا من أهل القدر لأخذت بعنقه ولا أزال أضربه حتى أكسر عنقه، فإنهم يهود هذه الأمة (١)

وظلت تيارات القول بالقدر تحفر في جدار الأمة حتى بعد وفاة الإمام علي. روي أن الإمام الحسن بن علي بعث برسالة إلى قوم من أهل البصرة ادعوا الجبر فقال: من لم يؤمن بقضاء الله وقدره فقد كفر، ومن حمل ذنبه عليه ربه فقد كفر. إن الله لا يطاع استكراها، ولا يعصى لغلبة، لأنه المليك لما ملكهم، والقادر على ما أقدرهم عليه. فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا، وإن عملوا بالمعصية فلو شاء لحال بينهم وبين ما فعلوا. فإن لم يفعلوا، فليس هو الذي أجبرهم على ذلك، فلو أجبر الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب. ولو أجبرهم على المعاصي، لأسقط عنهم العقاب (٢).

فهذا الكلام صادر من عند سادة أهل البيت، فإذا ذهبوا ذهب العلم الذي إذا ضبط المرء حدوده خصم من خالفه. ومع بروز الدولة الأموية انشغل الأمراء

---

(١) تاريخ الفرق الإسلامية / محمد خليل الزين ص ٧٣.
(٢) تاريخ الفرق الإسلامية / محمد خليل الزين ٧٠.

بالقتال على الدنيا، وتفرق المسلمون أثر السياسة التي اتبعتها الدولة، وضعف أمر الدين وتغلبت المطامع والأهواء على عقول المسلمين، وصدت الدولة كل دعوة تدعو المسلمين للاحتفاظ بعقيدتهم الحقة، ووقف العامة والغوغاء حاجزا أمام الدعاة المصلحين الذين دعوا الأمة للتمسك بسيرة السلف الصالح من المهاجرين والأنصار. وكان الرعاع دعاة سوء. وملتقى كل من يريد هدم الإسلام، وحولوا القوة التي حصنها الإسلام لصالحهم الخاص، وجردوا السيف على رقاب الأئمة والقادة والعلماء لأنهم لم يسيروا في ركابهم.

وعندما اشتغل المسلمون بالفتن الداخلية، وجانبوا تعاليم القرآن، اندس بين المسلمين رجال دخلوا في الإسلام من فرس ونساطرة ويعاقبه ويهود، وتزينوا بزي العلماء وأظهروا المحافظة على تعاليم القرآن. ثم أدخلوا عقائدهم السابقة من القول بالحلول والقدر والجبر في عقيدة المسلمين، وفسروا آيات كتاب الله حسب ما يؤيد ما يذهبون إليه. ففريق أخذ بظاهر تلك الآيات، وفريق آخر أولها، فنشأت القدرية في ثوبها الجديد، وبالغ القدري في القدر، فجعل العبد خالقا لأفعاله، وبالغ الجبري في مقابلته فسلب عنه الفعل والاختيار، وبالغ المعطل في التنزيه فسلب عن الله صفات الجلال ونعوت الكمال، وبالغ المشبه في مقابلته، فجعله كواحد من البشر له وجه ويدين (١).

وهكذا عصفت رياح الفتن داخل الجماجم البشرية في الدولة الأموية التي قاتلت أصحاب العلم وجاؤوا بما قاله المشركون عند البعثة النبوية ولكن في ثوب جديد براق. ولقد اتفق العلماء كافة على أن القول بالقدر شاع في الدولة الأموية، وأن الدولة احتضنت هذا التيار وتبنته حتى ترعرع على تربتها (٢)، وفكرة القضاء والقدر التي طرحتها أجهزة الصد عن سبيل الله هدفها وضع العالم في حيرة واضطراب فكري، ينتج عن ذلك عدم تقديس الشرائع، وعدم التقيد

---

(١) المصدر السابق ٤٢.

(٢) راجع: تاريخ المذاهب الإسلامية / محمد أبو زهرة ص ١٠٤ - ١١١، وتاريخ الفرق الإسلامية / خليل الزين ص ٦٦.

بنواميسها، وإلى ارتكاب المحظورات التي حظرتها الديانات السماوية بحجة أنها بقضاء الله تعالى. واحتضان الدولة الأموية لهذا التيار الهدف منه التعتيم على ما ورد في شأنهم، وخضوع المسلمين لهم بحجة أن قيادتهم مفروضة عليهم بقضاء الله وقدره، وأن أي تمرد عليهم هو تمرد على قضاء الله

وعن أول من قال بالجبر في ثوبه الجديد يقول الشيخ محمد أبو زهرة: إننا نجزم بأن القول في الجبر شاع في أول العصر الأموي وكثر حتى صار مذهبا في آخره... وقد قالوا إن أول من فعل ذلك بعض اليهود، فقد علموه بعض المسلمين وهؤلاء أخذوا ينشرونه. ويقال إن أول من دعا إلى هذه النحلة من المسلمين " الجعد بن درهم "، وقد تلقاه عن يهودي بالشام، ونشره بين الناس بالبصرة. ثم تلقاه منه " الجهم بن صفوان " (١)، ولم يكن الجهم يقول بالجبر يقول بالجبر فقط بل إن جهما كان يدعو إلى آراء أخرى (٢)، تتعلق بالجنة والنار، ورؤية الله يوم القيامة وغير ذلك. وهكذا تشابكت فروع الشجرة الأموية مع فروع شجرة أهل الكتاب. بعد أن التقطوا منهم فكرة الجبر في ثوبها الجديد، لأنها تتلائم ومبدأهم السياسي. ومن المعلوم أن الشام عاصمة الخلافة الأموية كانت متبعا للديانات والآراء المختلفة. كان الأمويون يتسامحون مع رؤوساء الأديان، ويعقدون مع القياصرة معاهدات الصلح ليتفرغوا للمسلمين في قتالهم على الملك. وفي أثناء هذه المعاهدات كان الأحبار الجدد يتسللون لتكملة بناء الأحبار الأوائل. وكان الأمويون يقربون الأحبار إليهم. ومن الثابت أيضا أن سرجون النصراني كاتب معاوية ومن بعده يزيد ثم مروان بن الحكم (٣)، وكاتم أسرار الدولة الأموية كان على رأس الجبرية (٤).

فالدولة الأموية باتفاق جميع علماء الفرق تبنت تيار الجبرية، لأن تحت

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٠٢، تاريخ الفرق الإسلامية / محمد خليل ص ٦٨.
(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية ١٠٦.
(٣) التنبيه والإشراف / المسعودي ٢٨٥ / ١.
(٤) تاريخ الفرق الإسلامية / الزين ص ٦٩.

خيمتهم لا تظهر عورات بني أمية، وعلى منابرهم يجد فقهاؤهم أبوابا للخروج من كل مأزق. فإذا قيل لهم لماذا قاتلتم عليا ثم قمتم بسبه بعد ذلك؟ أو لماذا قتلتم حجر بن عدي واستلحقتم زياد وقتلتم الحسين؟ أو لماذا اجتحتم المدينة يوم الحرة ثم توجهتم إلى مكة لرميها بالحجارة، أو لماذا استخذتم مال الله دولا وعباد الله خولا ودين الله دخلا وضيعتم الصلاة؟. فإذا قيل لهم هذا أو غيره قالوا: كل هذا بقضاء الله وقدره. وعلى هذا أجمعت الأمة. فمن أبى فالسيف.

ولما كانت الدولة الأموية قد أخذت الخطوة الرسمية في اتجاه سنن الذين خلو من قبل، فإن أهل الكتاب قد أخذوا خطوة إضافية تتفق مع أهدافهم التي يسارعون من أجل تنفيذها في الفساد، فقاموا بتغذية الساحة بتيار مضاد لتيار الجبرية لسبب رئيسي هو وضع المسلمين في حلقة من الحيرة والاضطراب الفكري حتى لا يصلوا إلى الحقيقة التي تغذي الفطرة. في التيار الذي قذفوا به هو تيار القدرية وهذا التيار يعمل تحت عنوان: إن كل فعل للإنسان هو إرادته المستقلة عن إرادة الله سبحانه وتعالى (١). وهذا العنوان يعارض تيار الجبرية معارضة تامة. فبينما تقوم الجبرية على تحجر الإنسان والوقوف كحجر عثرة أمام سعيه ونضاله وتدعو الإنسان للخضوع والاستسلام لأولياء الأمر، بدعوى أن الله قدر عليهم أزلا. أن يكونوا محكومين للطغاة، وكما قال الشاعر:

جرى قلم القضاء بما يكون * سيان منك التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق * ويرزق في غشاوته الجنين (٢)

فإن تيار القدرية يعمل على الخط المقابل، والهدف من وراء ذلك العمل على اشتغال الساحة وفي جميع الحالات فالنتيجة لصالح أهل الكتاب. ويقول الشيخ أبو زهرة عن أول من تكلم في القدر ووضع وتد هذا التيار على أرض الواقع: أول من تكلم في القدر رجل من أهل العراق كان نصرانيا، فأسلم ثم تنصر. وأخذ عنه معيد الجهني، وغيلان

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١١١، تاريخ الفرق الإسلامية ص ٧٩.
(٢) تاريخ الفرق الإسلامية / الزين ص ٨١.

الدمشقي (١) وأخذ بني أمية من هذا التيار كل ما يتفق مع طروحاتهم السياسية فيما يتعلق بالخلافة والأسماء والصفات، ثم تصدوا بعد ذلك لأتباع هذا التيار فقتل منهم من قتل وهرب من هرب. ولكن المذهب لم يمت بل دام بعد ذلك في البصرة قرونا طويلة فرخ فيها، بل تحول عند طائفة منهم إلى ما يشبه مذهب الثنوية الذين جعلوا العالم محكوما بقوتين النور والظلمة (٢).

وظلت طائفة الجبرية رافعة لأعلامها التي لا تطاولها أعلام، وظلت تتقدم لجعل دين؟ الله دخلا ولاتخاذ عباد الله خولا، وكانت في تقدمها ترتدي ثياب الدين وفي يدها سيف فرعون. وفي هذا الوقت الذي تزاحمت فيه الأفكار ظهر بالساحة أسئلة تبحث لها عن إجابات مثل: هل مرتكب الكبيرة مؤمن أم غير مؤمن؟ وهل يضر مع الإيمان ذنب؟ وكان مصدر هذه التساؤلات تلك الجرائم البشعة التي ارتكبها الخلفاء والأمراء ابتداء من مقتل الحسين، ومرورا باجتياح المدينة، وانتهاءا برمي الكعبة. فجميع هذه الجرائم تتم باسم الدين، والفطرة السوية ترفض جميع التبريرات والترقيعات التي تدافع هذه الأعمال الوحشية.

وأمام هذه الأسئلة برز تيار " المرجئة " ليباشر عمليات التكميم والتعمية. وبذور المرجئة وضعت في عهد عبد الملك بن مروان (٣). ثم احتضن الوليد بن عبد الملك هذه البذور تحت إشراف أهل الكتاب، حتى ترعرع شجرها ثم أصبح غابة. وذهب العديد من العلماء إلى أن بذور وضعها الصحابة الذين اعتزلوا أحداث عثمان، ولم يشاركوا في القتال بين أمير المؤمنين علي ومعاوية أمثال: سعيد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأبو بكرة (٤). فهؤلاء الصحابة يقول النووي في موقفهم: إن القضايا كانت بين الصحابة مشبهة، حتى أن جماعة منهم تحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين، ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا الصواب " (٥).

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١١٢، تاريخ الفرق الإسلامية ص ٤٠.
(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١١٧.
(٣) رسائل ابن حزم ص ١٦٣.
(٤) تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٢٠.
(٥) تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٢٠.

وقالوا إن هؤلاء الصحابة الذين اعتزلوا الطائفتين، أرجئوا الحكم في أي الطائفتين أحق، وفوضوا أمورهم إلى الله تعالى، وعلى هذا تكون هذه الطائفة من الصحابة أول من وضع بذرة الإرجاء.

ومن وجهة نظري فأنا لا أوافق على هذا التصور، لأن من الصحابة من تأول الأحداث بصورة خاطئة ثم ندم بعد ذلك. ومنهم من كان يخاف من سيوف الجلادين، ويعلم أنهم سيجلسون على الكراسي الأولى في نهاية الأحداث كما أخبر النبي. فآثر الصمت والسكون ومنهم من اكتفى بمراقبة الأحداث من بعيد، خوفا على رأسه من سيف أبي الحسن في الوقت الذي كان يحشد فيه الناس ليقفوا وراء معاوية. وبالجملة: لم يكن هناك إرجاء، وإنما كانت هناك مصالح. ولا يوجد صحابي اعتزل القتال إلا وهو يعلم أن عليا كان صاحب الحق في جميع معاركه التي خاضها. ولا يوجد صحابي وضع عليا في كفة ومعاوية في كفة ليرى أيهما أرجح. فأين الإرجاء والنبي صلى الله عليه وسلم ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، والأحداث في عهد الصحابة كان فيها من الله برهان يجذب العقل إليه ويدعوه إلى التمييز؟ والقول بأن الصحابة كانوا يخافون من الوقوع في الفتن فأرجئوا الحكم في الأحداث إلى الله تعالى، لا يتعادل من أصناف الفتن، يقول تعالى: (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) (١) فهل خافوا من الوقوع في هذه الفتن؟ إن التاريخ لم يسجل ذلك للكثير منهم. فلماذا خافوا هناك ولم يخافوا هنا. ثم كيف يهربون من الفتن وتحت سقفها يختبر الله تعالى عباده، قال تعالى: (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) (٢).

إن الله تعالى يبتلي ما في الصدور، ويمحص ما في القلوب بأحداث تجري على صفحة الوجود. ومخاصمة الفتن في القرن الأول لا يستقيم مع حركة هذا الوجود، لأن هناك أحداث لا بد فيها من القتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين

---

(١) سورة التغابن: الآية ١٥.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٢ - ٣.

كله الله، وهناك فتن يقذف بها تيارات الهدم، فلا بد من التصدي لها وكشف أوتاد النفاق فيها (١). والمال والبنون لا يمكن مخاصمتهما وهما من الفتن، إنما يتم التعامل معهما بميزان الله تعالى. إن المخاصمة لا يستقيم مع حركة الوجود، والذي يستقيم هو التعوذ من مضلات الفتن.

وعلى ما سبق لا نوافق بأن توضع بذرة الإرجاء على أرضية اعتزال الصحابة أيام قتال أمير المؤمنين علي ومعاوية، لأن التاريخ يشهد بأن هذه البذرة وضعت من أجل احتناك الكثير من عباد الله، ولتتعانق شجرتها مع شجرة الجبرية في ليل واحد. وبذرة المرجئة أمام الناقد البصير شربت من نفس الماء الذي شرب منه الجبرية، وصبت ثمارها في سلتهم بصورة أو بأخرى. لقد دخلوا من باب الفلسفة، والفلسفة عندما تكون أجوبتها عقلية أو منطقية، تولد عن الإنسان قناعة فكرية بما سمع. أما إذا جعلت الجمود لها مادة والمتاهات لها ديار، ثم دخلت من باب القضاء والقدر، فهنا تكمن الكارثة. لأن هناك الكثير من بني الإنسان يؤثر عليهم الكلام في القضاء والقدر، وينتهي بهم التفكير في مسائله إلى عدة طرق: إما متشائمين، وإما مستسلمين، أو مضطربين فكرا أو سلوكا. وهذا التفكير يدفع بأصحابه في أحد طريقين: إما طريق الاستسلام للقدر نتيجة لفهمهم الخاص، وإما أن ينسبوا إلى الله تعالى الظلم أو يكفروا به مطلقا، أو يكفروا به وهم لا يشعرون. وإذا كان بنو أمية وأهل الكتاب هم الذين يشرفون على مطبخ الفلسفة فلا خير يرجى من عندهم.

لقد التقط الوليد بن عبد الملك بذرة الإرجاء التي تركها له والده (٢). ومن الذين جهزوا وزودوا تيار الإرجاء يوحنا الدمشقي، الذي كان يتمتع بشهرة كبيرة في عاصمة الأمويين، وكان يقوم ببحوث دينية في الوقت الذي كان الناس يتحدثون فيه عن الإرجاء (٣)، ولقد ذكر أكثر من واحد أن هناك صلة بين مبادئ

---

(١) روي عن علي أنه قال: " لا تكرهوا الفتنة في آخر الزمان فإنها تبير المنافقين " رواه أبو نعيم كنز العمال ١٨٩ / ١١.

(٢) رسائل ابن حزم ص ١٦٣.

(٣) حياة الشعر في الكوفة / د. يوسف خليف ص ٣١٢.

المرجئة، وبين تعاليم الكنيسة الشرقية التي ينتمي إليها يوحنا الدمشقي. (١) هذا عن الأصابع التي وراء تيار المرجئة. أما عن ظروف ظهور التيار يقول د. خليف: إن نزعة الإرجاء اشتدت في الفترة التي تبدأ من مصرع الحسين، وتمتد إلى خلافة عمر بن عبد العزيز - أي فترة يزيد، ومروان، وعبد الملك والوليد، وسليمان بن عبد الملك - ومن الطبيعي أن تشتد نزعة الإرجاء في هذه الفترة. لأنها فترة اضطراب سياسي وقلق نفسي. وأخذ الناس فيها بالشبهة والظنة (٢). ومن المعروف أن الأمور في الكوفة ازدادت سوء وشدة في أعقاب مصرع الحسين، وانتشرت الثورات فيها بشكل قوي.. وأدركت الدولة الأموية أن الأمر لا بد مفلت من يدها، إن لم تقابل هؤلاء المتمردين بمنتهى القسوة والعنف. فسلطت عليهم أشد ولاتها عتوا وجبروتا، عبيد الله بن زياد، والحجاج بن يوسف، وترتب على هذا أن الكوفة عاشت في ظلال حكم دكتاتوري رهيب (٣).

وأمام هذا برزت التساؤلات، هل مرتكب الكبيرة مؤمن أم غير مؤمن؟ وهل يضر مع الإيمان ذنب؟ إن القوم قتلوا الحسين وكانوا يرفعون أعلاما إسلامية، والقوم فتحوا السجون وأخذ البرئ بذنب المذنب. ولم يعد الإنسان يأمن إذا أصبح أن يمسي، وإذا أمسى أن يصبح... كل هذا يتم باسم الإسلام، فأين الحقيقة؟ هل الذين يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس يعتبروا في دائرة الأمان؟ كيف والله قال في كتابه (فبشرهم بعذاب أليم) (٤)؟ هل من يقتل مؤمنا متعمدا لا يضره شئ، كيف والله تعالى قال: (فجزاؤه جهنم خالدا فيها) (٥)؟ هل الذين يشهدون الزور ويقيمون كل يوم خيمة للهو، وإذا مروا بآية من آيات الله مروا عليها كأنهم صما وعميانا هل هؤلاء لا يضر مع إيمانهم ذنب؟

---

(١) المصدر السابق ص ٣١٢.
(٢) المصدر السابق ٣١٣.
(٣) المصدر السابق ٣١٤.
(٤) سورة آل عمران: الآية ٢١.
(٥) سورة النساء: الآية ٩٣.

كيف وهؤلاء لا يجزون الفرقة ولا يلقون تحية ولا سلاما. وكانت هناك أسئلة عن قيمة العمل وقيمة حركة الإنسان في عالم الابتلاء والاختبار. فالله تعالى قرن الإيمان والعمل في حبل واحد فقال: (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات) (١). وميز سبحانه بين عمل المؤمن وبين عمل المفسد، فقال: (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض) (٢)، وقال: (وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسئ) (٣). فأين هذا من الذي يجري في الساحة؟ فهذه الأسئلة وغيرها كانت تطرح على أرض الواقع، الذي اعتمد حكامه مذهب الجبرية إماما لهم، وأمام هذه الأسئلة تجرح القاضي وهو في الوقت نفسه السياف، لإيجاد الدواء المناسب لهذه الأسئلة وغيرها. والضمير الآثم إذا بحث عن الدواء، جاء به من حركة أوزاره الماضية. يقول د. خليف: في هذا الجو السياسي المضطرب، ظهرت المرجئة.. مذهبا سياسيا مسالما... والدولة الأموية كانت عاملا قويا على استقرار مذهب المرجئة... وسارع الناس إلى اعتناق المذهب الذي وجدوا فيه وسيلة للعيش في سلام واطمئنان مع الحكومة الدكتاتورية.

ووجد الأمويون في هذا المذهب ضالتهم المنشودة، التي كانوا يتمنون أن يعثروا عليها وسط الاتجاهات والمذاهب المتعددة المعادية لهم (٤). ويقول د. شوقي ضيف عن هذه الاتجاهات: إن أفكار المرجئة تخدم البيت الأموي، الذي كان في رأي الشيعة وكثير من الأتقياء منحرفا عن الجادة الدينية، وينبغي أن يغيره المسلمون ويضعوا مكانه البيت العلوي. والمرجئة لم يكونوا يوافقونهم على هذا الرأي، لأنهم لا يريدون المفاضلة بين المسلمين ولا الحكم على أحد بتقوى وغير تقوى، فالمسلم يكفي أن يكون مسلما " (٥).

---

(١) سورة الحج: الآية ١٤.
(٢) سورة ص: الآية ٢٨.
(٣) سورة غافر: الآية ٥٨.
(٤) المصدر السابق ٣٠٩.
(٥) التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ٥٠.

فالمذهب جاء لينضم إلى بقية المعاول التي عملت من أجل ضياع الحقيقة وتشويه الدين. جاء ليقف بالناس على أرضية واحدة. ولأن الناس ينظرون إلى أعمال بني أمية نظرات ارتياب وشكوك. قام المذهب بذبح الأعمال التي تميز هذا عن ذاك. وليس معنى هذا أن بني أمية وأصحاب المقاعد الأولى قد تساوت رؤوسهم مع بقية الناس، لأن مذهب الجبرية فصل بين الناس وجعلهم يستسلمون لبني أمية وأصحاب مقاعدهم.

يقول د. خليف: ومسألة الإيمان مسألة تتصل اتصالا وثيقا بمبادئ المرجئة السياسية، فقالت طائفة: إن الإيمان مصدره القلب، فيكفي إن يكون الإنسان مؤمنا في قلبه، وليس الاقرار باللسان ولا الأعمال من صلاة وصوم ونحوهما جزء من الإيمان. وقالت طائفة أخرى: الإيمان ركنان: تصديق بالقلب، وإقرار باللسان. لا بد منهما معا ليكون المرء مؤمنا كامل الإيمان صحيح العقيدة. ومعنى هذا أن المرجئة جميعا يتفقون على أن العمل ليس ركنا من أركان الإيمان (١). ويقول الشيخ أبو زهرة عن عقائدهم: قرروا أنه لا يضر مع الإيمان ذنب فقالوا: إن الإيمان إقرار وتصديق واعتقاد ومعرفة، ولا يضر مع هذه الحقائق معصية. فالإيمان منفصل عن العمل، بل منهم زعم أن الإيمان اعتقاد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه وعبد الأوثان، أو لزم اليهودية والنصرانية في دار الإسلام وعبد الصليب. وأعلن التثليث في دار الإسلام، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل ومن أهل الجنة! بل إن بعضهم زعم أن لو قال قائل: اعلم أن الله قد حرم أكل الخنزير، ولا أدري هل الخنزير الذي حرمه هو هذه الشاة أم غيرها كان مؤمنا. ولو قال: أعلم أنه قد فرض الحج إلى الكعبة. غير أني لا أدري أين الكعبة ولعلها بالهند كان مؤمنا.. ويظهر من هذا أنهم تجاوزوا الحد في الاستهانة بالعمل، من حيث اتصاله بأصل الإيمان. ومن حيث أثره في دخول الجنة إن كان صالحا، ودخول النار إن كان غير صالح. بل كان إثما منفيا. فاستهانوا أيضا بأصل الإيمان فحرفوا حقيقة، وجعلوه مجرد

---

(١) تاريخ الشعر في الكوفة ٣١٠.

الاذعان القلبي وإن خالفته الجوارح.... وفي وسط تلك الأقوال غير السليمة وجد من المتعقبين لهذا المذهب من يستهين بحقائق الإيمان وأعمال الطاعات. ومن يستهين بالفضائل، واتخذه مذهبا له كل مفسد مستهتر. حتى لقد ذكر فيه المفسدون واتخذوه ذريعة لمآثمهم ومنهلا لمفاسدهم، ومسايرا لنياتهم الخبيثة، وصادف هوى أكثر المفسدين (١).

وهكذا تعانقت الأشجار على سنن الأولين، وهكذا فرضت الدولة المذهب الذي تراه يستقيم مع مبادئها على طريق فرعون. لقد أعطت المرجئة للطغاة ثياب المؤمنين، وأعطت الجبرية لهم سيفا قاطعا. ويا له من عالم لم يمت فيه فرعون وهامان، عالم تخصص في الاحتيال على الناس بالعنف أو بالحسنى لتحتفظ فيه الجبارين بالكراسي، ويا له من فقه بالخديعة يستلب الأرواح. وكأن صوت فرعون قد جاء من بعيد ويقول: كل هذا يلائم سياستنا المرسومة، هذا هو منطق التجربة الذي يتصرف بوحيه كل من سار على طريقي. فأنا أضع الخطة وأنتم تقومون بالتنفيذ. أنا أنصب الشرك وأنتم تحطمون الفروع الزائدة على الحاجة حتى يتم اقتناص الطائر.. وهكذا فإن على القائد الطموح إن أراد أن يحافظ على مركزه أن يتصرف كصائد مع شعبه.

وكما حذر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من بني أمية، ووضع الوليد في كفة الفراعنة. فإن صلى الله عليه وسلم ذم القدرية والمرجئة من قبل أن يعرف الناس عنهما شيئا. وذلك وهو يقيم الحجة على القرون من بعده بصفة عامة وعلى القرن الأول بصفة خاصة. فقال: " صنفان من أمتي ليس لهم من الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية " (٢). وقال: " اتقوا القدر فإنه شعبة من النصرانية " (٣). ولقد رأينا بصمات أهل الكتاب على هذه المذاهب.. وقال

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٢٢.

(٢) رواه البخاري في التاريخ والنسائي وابن ماجة والخطيب والطبراني (كنز العمال ١١٨ / ١).

(٣) رواه ابن أبي عاصم والطبراني وابن عدي (كنز العمال ١١٩ / ١).

رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ينعق الشيطان بالشام نعقه يكذب ثلثاهم بالقدر " (١). وقال صلى الله عليه وسلم: " صنفان من أمتي لعنهم الله على لسان سبعين نبيا، القدرية والمرجئة الذين يقولون الإيمان إقرار ليس فيه عمل " (٢). وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام: " الإيمان بالقلب واللسان والهجرة بالنفس والمال " (٣). وقال: " ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن: هو ما وقر في القلب وصدقه العمل " (٤). وقال: " الإيمان والعمل أخوان شريكان في قرن لا يقبل الله أحدهما إلا بصاحبه " (٥). وقال " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين " (٦). وقال: " لا يقبل إيمان بلا عمل ولا عمل بلا إيمان " (٧). وقال: " لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة حتى يؤمن جاره بوائقه " (٨).

وهكذا أقام النبي صلى الله عليه وسلم الحجة، وفيها ظهرت بصمات أهل الكتاب على هذه المذاهب، وتم تعرية الذين ذبحوا العمل على طريق الاحتناك. وهذه المذاهب التي صنعت من أجل حماية الطغاة ما جاءت إلا من طريق الذين لعنهم الله، وعلى رأسهم الشيطان قال تعالى بعد أن رفض الشيطان السجود لآدم (وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين) (٩)، وقال عن فرعون وقومه أصحاب طروحات الاستكبار والجهل (وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة) (١٠)، وقال

---

(١) رواه البيهقي وابن عساكر (كنز العمال ١٤٠ / ١).
(٢) رواه الديلمي عن حذيفة، والحاكم عن أبي أمامة (كنز ١٣٥ / ٤).
(٣) رواه عبد الخالق بن زاهر في الأربعين (كنز ٢٤ / ١).
(٤) ابن النجار (كنز ٢٥ / ١).
(٥) ابن شاهين (كنز ٣٦ / ١).
(٦) رواه أحمد والبيهقي والنسائي وابن ماجة (كنز ٣٧ / ١).
(٧) رواه الطبراني (كنز العمال ٦٨ / ١).
(٨) رواه الإمام أحمد (الزوائد ٥٣ / ١).
(٩) سورة ص: الآية ٧٨.
(١٠) سورة القصص: الآية ٤٢.

عن الظالمين من أهل الكتاب الذي يسعون في الأرض فسادا (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم) (١). وقال عن المنافقين: (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة) (٢)، إنه طريق واحد لأنماط متعددة (أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) (٣).

من علامات طريق اللعن القردية والخنزيرية، قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير...) (٤). والقردية هي التقليد للشئ دون الوقوف على بدايته ونهايته ووسائله وأهدافه، والخنزيرية هي البحث عن المادة والتهامها من بين القاذورات، وعدم العفة، وعدم الطهارة، وبلادة الحس، وعدم التبصر في الأمور للوقوف على حقيقة الأمور. والظالمين من أهل الكتاب لهم علامات على طريق اللعن فعندما نهاهم الله أن يعتدوا في السبت، لم يلتزموا بما أمر الله به. فجاءهم العقاب قال تعالى: (فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) (٥)، وكما اعتدت اليهود في السبت اعتدى بني أمية أيضا في السبت.. روي أن الحسين قال قبل كربلاء " لو كنت في جحر لأخرجوني واعتدوا علي كما اعتدت اليهود يوم السبت " (٦). وعلى هذا فطريق القردية طريق مفتوح. ولقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يمسخ قوم من أمتي آخر الزمان قردة وخنازير. قالوا: يا رسول الله ويشهدون أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. قال: نعم (٧).

وطريق اللعن في نهايته يجلس المسيح الدجال ليستقبل القردة والخنازير،

---

(١) سورة المائدة: الآية ١٤.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥٧.
(٣) سورة النساء: الآية ٥٢.
(٤) سورة المائدة: الآية ٦٠.
(٥) سورة الأعراف: الآية ١٦٦.
(٦) الطبري ٢١٧ / ٦، البداية والنهاية ١٦٩ / ٨.
(٧) رواه نعيم ابن حماد (كنز العمال ٢٨٠ / ١٤).

وأصحاب القدر الذين ساروا على نهج بني أمية. هم بلا شك في مقدمة الطابور إلى الدجال، قال النبي صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء: " فإذا لقيتموهم فلا تسلموا عليهم، وإن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوا جنائزهم، فإنهم شيعة الدجال " (١). وكشف النبي صلى الله عليه وسلم خطوات هؤلاء وما سيترتب على هذه الخطوات داخل الأمة، وكيف ستنتهي الحلقات جميعا إلى الدجال في حديث رواه البغوي قال:

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: يكون قوم من أمتي يكفرون بالقرآن وهم لا يشعرون، كما كفرت اليهود والنصارى. يقرون ببعض القدر ويكفرون ببعضه. يقولون: الخير من الله والشر من إبليس، فيقرؤن على ذلك كتاب الله، ويكفرون بالقرآن بعد الإيمان والمعرفة. فما تلقى أمتي منهم إلا العداوة والبغضاء والجدل. أولئك زنادقة هذه الأمة، في زمانهم يكون ظلم السلطان، فيا له من ظلم وحيف وآثره. ثم يبعث الله طاعونا فيفني عامتهم، ثم يكون الخسف، فما أقل من ينجوا منهم. المؤمن يومئذ قليل فرحه شديد غمه، ثم يكون المسخ، فيمسخ الله هؤلاء قردة وخنازير، ثم يخرج المسيح الدجال على إثر ذلك قريبا. ثم بكى رسول الله، حتى بكينا لبكائه وقلنا: ما يبكيك؟ قال: رحمة لأولئك القوم، لأن فيهم المقتصد وفيهم المجتهد " (٢).

إن الدجال لن يستقبل قردة وخنازير، وإنما يستقبل أنماطا بشرية فيها من القردية والخنزيرية الكثير. وهؤلاء إنتاج لحلقات كثيرة (٣). على رأسها أصحاب القدر الذين جلسوا على موائد أهل الكتاب، فأملوا عليهم من سننهم الكثير.

وعلى هذه التصورات قرأوا كتاب الله، في عالم العداوة والبغضاء والجدل وظلم السلطان. إنه طريق اللعن والجدل العقيم والبصيرة المطموسة. وفي نهاية هذا الطريق يجلس في ليل احتجبت نجومه وتوارى قمره. فاحتضن ظلامه

---

(١) رواه الحاكم (كنز العمال ١٣٨ / ١).

(٢) رواه الطبراني والبغوي كنز العمال حديث ٣٨٨٢٨.

(٣) راجع شرح الحديث في كتابنا عقيدة المسيح الدجال، ط دار الهادي بيروت.

الذين تشابهت قلوبهم على امتداد التاريخ الإنساني. فالدجال فتنة في سلتها تقع جميع الفتن وذيولها منذ كانت الدنيا.

نظرات على الأطلال:

أ: صدود وردود:

لم يقف تيار الحق موقف الذليل على امتداد هذه الأحداث، فالاضطهاد لم يقل عزيمة الذين يسيرون على طريق علي بن أبي طالب، فكانوا يصرخون في وجه الباطل ويضحون بالغالي والنفيس في سبيل المحافظة على الإسلام والوقوف في وجه أعداء الحق. وكانت ثورة الحسين وحجته قد علمت الناس التضحية، وعلم الناس أن بني أمية يعاملون الذين يجهرون بمخالفتهم إما بالسيف، وإما على أنهم من المؤلفة قلوبهم، وعن طريق المال تتلاشى مقاومة خصومهم. ورفض اتباع الحق أن يقفوا داخل مربع المؤلفة قلوبهم لحساب بني أمية، وجاءت الأيام بثورة زيد بن علي بن الحسين عام ١٢٢ ه، ذكر ابن الأثير: إن ثورة زيد بن علي جاءت في وقت بدت البغضاء للأمويين بنفوس الشعب (١). ودعا زيد إلى العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وجهاد الظالمين، وإعطاء المحرومين، وقسم الفئ بين أهل بالسوية، ورد المظالم. ووطد زيد ثورته ببث الدعاة والرسل، وضاعف اتصاله بزعماء البلاد والعلماء وزعماء العشائر وحملة القرآن والحديث، ومن كان له أثر فعال في توجيه الرأي العام. ولم يقف الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بن مروان من هذه الثورة موقفا يختلف عن موقف آبائه وهم يدافعون عن دنياهم، فبعث جيشا جرارا لقتال زيد بن علي يقول المسعودي: فلما قامت الحرب انهزم أصحاب زيد... وحال المساء بين الفريقين، فراح زيد مثخنا بالجراح وقد أصابه سهم في جبهته. فأتى بحجام من بعض القرى فأخرج النصل، ومات زيد، فدفنوه في ساقية ماء، وجعلوا على قبره التراب والحشيش، وأجرى الماء على ذلك. وذهب الحجام

---

(١) راجع ابن الأثير ٩٢ / ٥، البداية والنهاية ٣٣٠ / ٩.

فأخبر يوسف بن عمر الثقفي قائد جيش هشام بن عبد الملك، ودله على قبره، فاستخرجه يوسف وبعث برأسه إلى هشام. فكتب إليه هشام: أن اصلبه عريانا. – صلبه يوسف كذلك (١). وظل مصلوبا حتى أيام الوليد بن يزيد الذي أمر بإنزاله وحرق جثته ويقال إن زيدا مكث مصلوبا أربع سنين (٢).

وعندما مضى عهد هشام بن عبد الملك وجاء من بعده عهد الوليد بن يزيد، الذي يقول فيه الذهبي: اشتهر الوليد بالخمر والتلوط فخرجوا عليه لذلك (٣). وقال فيه أيضا: كان الوليد فاسقا مهتكا (٤)، فعندما جاء عهد هذا الخليفة، قام يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بثورته. ولكن الخليفة الفاسق تصدى لها بعامته وغوغائه، وبعث جيشا جرارا فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال، حتى قتل أصحاب يحيى كلهم، وقتل يحيى واحتزت رأسه، وصلب بالجوزجان من بلاد خرسان، وبعثت رأسه إلى نصر بن سيار، فبعث به نصر إلى الوليد بن يزيد (٥). ويقول المسعودي كان ظهور يحيى في آخر سنة ١٢٥ ه وقيل في أول سنة ١٢٦ ه (٦).

ويقول المسعودي عن الخليفة الأموي الوليد بن يزيد الذي ثار عليه يحيى بن زيد: كان الوليد بن يزيد صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء، وهو أول من حمل المغنيين من البلدان إليه، وجالس الملهين، وأظهر الشراب والملاهي والعزف، وفي أيامه غلبت شهوة الغناء على الخاص والعام، واتخذ القيان وكان متهتكا ماجنا خليعا (٧). وذكر أن الوليد ألحد في شعر له ذكر فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وإن الوحي لم يأته عن ربه. كذب أخزاه الله

---

(١) مروج الذهب ٢٥١ / ٣، البداية والنهاية ٣٣١ / ٩.
(٢) البداية والنهاية ٣٣١ / ٩، مقاتل الطالبين ص ١٣٩ / ١.
(٣) تاريخ الخلفاء ٢٣٣.
(٤) دول الإسلام / الذهبي ٧٥ / ١.
(٥) مقاتل الطالبين ١٥٠ / ١.
(٦) مروج الذهب ٢٥٩ / ٣.
(٧) مروج الذهب ٢٦٣ / ٣.

ومن ذلك الشعر:
تلعب بالخلافة هاشمي * بلا وحي أتاه ولا كتاب
فقل لله يمنعني طعامي * وقل لله يمنعني شرابي
وقال ابن كثير: في خلافة هشام أمر الوليد بن يزيد على الحج سنة ١١٦ ه، فأخذ معه كلاب الصيد خفية ولكن أمرها قد انكشف واصطنع الوليد قبة على قدر الكعبة، وعزم أن ينصب تلك القبة فوق سطح الكعبة ويجلس هو وأصحابه هنالك، واستصحب معه الخمور وآلات الملاهي وغير ذلك من المنكرات. فلما وصل إلى مكة هاب أن يفعل ما كان قد عزم عليه من الجلوس فوق ظهر الكعبة. خوفا من الناس ومن إنكارهم عليه ذلك (١). وقال ابن كثير: وبعد موت هشام قصد الوليد دمشق، واستعمل العمال وجاءته البيعة من الآفاق وجاءته الوفود، وكتب إليه نائب أرمنية يبارك له في خلافة الله له على عباده والتمكين في بلاده (٢).
وقال ابن كثير: كان هذا الرجل مجاهرا بالفواحش مصرا عليها، منتهكا محارم الله عز وجل لا يتحاشى من معصية، وربما اتهمه بعضهم بالزندقة والانحلال من الدين فالله أعلم. لكن الذي يظهر أنه كان عاصيا شاعرا ماجنا متعاطيا للمعاصي. لا يتحاشاها من أحد، ولا يستحي من أحد، قبل أن يلي الخلافة وبعد أن ولي (٣)، وذكر ابن كثير أن الوليد كان يحب نصرانية، وكان يذهب متنكرا إلى بستان قريب من الكنيسة للقائها. وفي لقاء من اللقاءات قال الوليد شعرا منه:
أضحك فؤادك يا وليد عميدا * صبا قديما للحسان صيودا
في حب واضحة العوارض طفلة * رزت لنا نحو الكنيسة عيدا
ما زلت أرمقها بعيني دامعة * حتى بصرت بها تقبل عودا

---

(١) البداية والنهاية ٢ / ١٠.
(٢) البداية والنهاية ٤ / ١٠.
(٣) البداية والنهاية ٦ / ١٠.

عود الصليب فويح نفسي من رأى * منكم صليبا مثله معبودا
فسألت ربي أن أكون مكانه * وأكون في لهيب الجحيم وقودا (١)
وقال ابن كثير: قال القاضي أبو الفرج: أخبار الوليد كثيرة، قد جمعها الإخباريون مجموعة ومفردة، وقد جمعت شيئا من سيرته وأخباره، ومن شعره الذي ضمنه ما فجر به من جرأته وسفاهته وحمقه وهزله ومجونه وسخافة دينه، وما صرح به من الالحاد في القرآن العزيز، والكفر بمن أنزله وأنزل عليه (٢).
هذا هو الخليفة الذي يصدر القوانين، وقيل: الذي يقوم بأمر الدين،
وقيل: صاحب الجماعة التي إذا خرج منها واحد مات ميتة جاهلية. فمن الذي يجرؤ أن يقيم الحد على الوليد أعلى سلطة في الدولة؟ إن الوليد ما كان يرتعد إلا من صوت الحق. كانت دقات قلبه تقشعر من رعدة الخوف، لهذا كان يبعث بمن يأتيه بخبر أي تحرك. وما أن يخبروه، حتى يصدر أوامره للجلادين وقطاع الطرق والرقاب، وعلى الأعواد تصلب الأجساد، وبعد ذلك يخرج الوليد إلى مستنقع الرجل الذي لا يقام للقتل وإنما للهو الذي خرج من معطف المرجئة الذين فصلوا الإيمان عن العمل.
وأفعال الوليد وأقواله لم تأت فجأة ولم تذهب سدى، فكما أن الوليد استلم مشاعلها فكذلك قام بتسليم مشاعلها وعلى امتداد هذا الطريق صلب أكثر من واحد من الذين عارضوا هذا العبث. وعن مشاعل الوليد يقول د. خليف: إننا أمام ظاهره اجتماعية شديدة الخطر لمن يسبق للمجتمع الإسلامي أن شهد مثلها، فلأول مرة في تاريخ هذا المجتمع، نجد أنفسنا أمام خليفة ماجن متهتك خليع، نسي أنه أميرا للمؤمنين وأنه أمام المسلمين. فاندفع في حياة لاهية مستهترة حتى أطلق عليه " الخليع " والناس على دين ملوكهم. وفعلا اندفع كثير من الناس يقلدون خليفتهم. دون أن يجدوا في ذلك حرجا عليهم، أو يخشوا تنفيذ الحدود فيهم.. فإن الخليفة الوليد بن يزيد. لم يجد أحدا ينفذ فيه الحد،

---

(١) البداية والنهاية ٧ / ١٠.
(٢) البداية والنهاية ٧ / ١٠.

لأنه هو نفسه صاحب الحق الشرعي في تنفيذ الحدود، ولم يكن من المعقول أن ينفذ الحد في نفسه، ولم يكن من المعقول أيضا أن ينفذه فيه غيره (١).

إن الناس لم يشعروا بالخجل بفضل عقيدة المرجئة، والوليد لم يشعر بالخجل بفضل عقيدة الجبرية. وفي موجة الغناء والشعر والمجون استجاب كثير من الشباب إلى النداء، ومضوا يغرقون همومهم في هذه الحياة الصاخبة المعربدة، يقول د. خليف: وكثرت جماعات المجون، ودوت معزوفات ضخمة اشترك فيها مجموعات هائلة من العزاف. وعلى الجسر الذي يصل الشاطئين الأموي والعباسي أخذت جماعات من المجان والخلعاء تمر فوقه لتستقبل على الشاطئ الآخر الرذيلة. وقد تجردت من ثيابها جميعا. وبسطت ذراعيها إلى أقصاها، لتضم إلى أحضانها هؤلاء الوافدين من طلابها، وتبلغ الغاوية مداها، ويتساقط الشباب تساقط الفراش المتهافت على النار. وكلما اشتدت ظلمة الهاوية، زاد عدد المتخبطين فيها، وفي أعماقها السحيقة، مضت جماعات من الشعراء تضرب على غير هدى. وقد ألف اللهو بينهم، وربط المجون بين أسبابهم. كلهم فاسق، وكلهم خليع، وكلهم سكير. وهذه المدرسة اللاهية، هي التي أرست قواعد غزل النساء، وغزل الغلمان. فالغزل في هذه المدرسة لم يكن حديث العاطفة، وإنما كان حديث الغريزة، ولم يكن نجوى الروح. وإنما كان نداء الجسد. وعلى بناء هذه المدرسة كثرة طائفة الجواري والمغنيات في المجتمع الإسلامي، وعلى أكتاف هذه المدرسة انتشرت الزندقة ودقت أوتادها، وراج شعر الأديرة (٢). وكان الوليد بن عقبة، وصاحبة أو زبيد النصراني أول من حفر الحفرة لهذه البذرة في عهد عثمان بن عفان.

فمع شعر الأديرة، ومع الجواري، سبحت الدولة الأموية في آخر أيامها، ثم قامت بتسليم هذه الآفة الاجتماعية إلى الدولة العباسية، حيث كثر الرقيق في هذه الدولة. وكانن الجواري والغلمان والإيماء فيها من أجناس وثقافات وديانات

---

(١) حياة الشعر في الكوفة ص ٢٠٥.

(٢) المصدر السابق ٦٣٣، ٦٣٤.

وحضارات مختلفة. فأثر هذا في الحكام وأبنائهم. وكثر الجواري في القصور وكان بينهن من يعلقن الصلبان (١).

وكانت هذه الحلقة عضوا مهما في اتباع سنن الأولين، وعلى امتداد المسيرة التاريخية، ولم يقف خط علي بن أبي طالب من هذه الظاهرة وغيرها موقف الصامت. فمع بداية الدولة كان بنو العباس، وبنو علي كشئ واحد، وتكاتفوا سويا من أجل تقديم الصورة الأفضل لحركة المسلمين على طريق الإسلام. وعندما جاء عهد أبي جعفر المنصور آخر عام ١٣٦ ه وتغير الحال. فلقد أحاط المنصور نفسه بهالة كبيرة من القداسة، كان لها أسوأ الأثر في خنوع الناس، وخضوعهم للظلم والفساد. وفي ظل حكمه الاستبدادي لم يحسب أي حساب للرعية. يقول الحافظ السيوطي: قتل المنصور خلقا كثيرا حتى استقام ملكه، وهو الذي ضرب أبا حنيفة على القضاء، ثم سجنه فمات بعد أيام، وقيل إنه قتله بالسم لكونه أفتى بالخروج عليه (٢). وإنه أول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين وكانوا قبل شيئا واحدا (٣). وقتل المنصور جماعة كثيرة من آل البيت، فإن لله وإنا إليه راجعون (٤). وكان يقول: لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو، لأن بني مروان لم تبل رمحهم. وآل أبي طالب لم تغمد سيوفهم، ونحن من قوم رأونا أمس سوقه واليوم خلفاء. فليس تتمهد هيبتنا في صدروهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة (٥)

وفي عهد المنصور خرجت العديد من الرايات العلوية تطالب بأن تكون حركة المسلمين في عالم الاختبار حركة إسلامية ليفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة. وكان من هؤلاء محمد بن عبد الله بن الحسن (عام ١٤٥ ه)، وكان يدعى بالنفس

---

(١) العصر العباسي الأول / د. شوقي ضيف ص ٢١.
(٢) تاريخ الخلفاء ٢٤١.
(٣) تاريخ الخلفاء ٢٤٣.
(٤) تاريخ الخلفاء ٢٤٣.
(٥) تاريخ الخلفاء ٢٤٨.

الزكية لزهده ونسكه، وبويع له في كثير من الأمصار. وتصدت جيوش الدولة لحركة محمد بن عبد الله، وانتهى الأمر بقتله لينضم إلى الشهداء الذين سبقوه وروي أن أبا جعفر المنصور جمع قادة حرسه وجيوشه وقال لهم: والله ما رأيت رجلا أنصح من الحجاج بن يوسف لبني مروان، فقال له المسيب بن زهير: يا أمير المؤمنين، ما سبقنا الحجاج بأمر تخلفنا عنه، والله ما خلق الله على جديد الأرض (١) خلقا أعز علينا من نبينا صلى الله عليه وسلم. وقد أمرتنا بقتل أولاده فأطعناك وفعلنا ذلك، فهل نصحناك أم لا؟ فقال له المنصور: اجلس لا جلست (٢).

وهكذا عاد الحجاج من جديد، ولكن في عالم يغلب عليه حياة الجواري تلك الحياة التي خرجت بذرتها من غابة بني أمية ليستظل تحتها القادم الجديد.

وسارت أحوال خط علي بن أبي طالب في النظام العباسي بين أذى الدولة المكشوف، وبين أذى الطرق الخفية المضمونة النتائج والتي تتدثر في رداء من الطيبة الظاهرة. حتى جاء عهد المتوكل فأمر بهدم قبر الحسين، وهدم ما حوله من الدور. يقول السيوطي: وكان المتوكل معروفا بالتعصب، فتألم المسلمون من ذلك، وهجاه الشعراء، فمما قيل في ذلك:

بالله إن كانت أمية قد أتت * قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله * هذا لعمري قبره مهدوما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا * في قتله فتتبعوه رميما (٣)

وقال السيوطي: قتل المتوكل يعقوب بن السكيت، الإمام في العربية، فإنه ندبه إلى تعليم أولاده، فنظر المتوكل يوما إلى ولديه. المعتز والمؤيد وقال لابن السكيت: من أحب إليك هما أو الحسن والحسين. فقال: قنبر مولى علي بن أبي طالب خيرا منهما. وعندئذ أمر المتوكل الأتراك فداسوا بطنه حتى مات،

---

(١) جديد الأرض / وجهها.
(٢) موج الذهب ٣٦٤ / ٣.
(٣) تاريخ الخلفاء ٣٢١.

وقيل: أمر بسل لسانه فمات (١).
وهكذا جمع بني العباس في منتصف رحلتهم الهلع المروع إلى الخوف المرتجف وألقوه على خط الإمام علي بن أبي طالب. وعلى الرغم من ذلك ظل هذا الخط يعمل على امتداد الثلاثة قرون الأولى يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم: " سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي الناس خير؟ قال: قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم... " (٢)، وفي رواية عدد أربعة قرون (٣). وقال النووي: قال الحسن وغيره القرن عشر سنين، وقال قتادة: سبعون، وقال النخعي أربعون، وقال زرارة: مائة وعشرون، وقال عبد الملك: مائة (٤).
والخيرية هنا لا تقاس بالفتوحات أو بالهجوم على المدينة أو مكة من أجل الملك، وإنما الخيرية عمودها الفقري هو دعوة الناس إلى الخير والعمل على إصلاح ما أفسدوه. والخيرية هي التي تعمل من أجل بناء الإنسان العابد الصالح أولا. لأن شرط التمكين في الأرض أن يكون العابد صالحين. قال تعالى: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون * إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين) (٥)، وشرط نزول البركات أن يكون الناس مؤمنين قال تعالى: (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) (٦). فالخيرية تسوق الناس إلى الله وتذكرهم بما نسوه، كي يرفع الله عنهم العذاب الذي تعددت أشكاله وألوانه، لأن من السنن الإلهية أن الذين نسوا ما ذكروا به، كان حقا على الله أن يفتح عليهم أبواب كل شئ حتى إذا فرحوا بما

---

(١) راجع كتاب مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني (٢٨٤ - ٣٥٦ ه).
(٢) رواه مسلم (الصحيح ٨٥ / ١٦).
(٣) مسلم (الصحيح ٨٧ / ١٦).
(٤) النووي شرح مسلم ٨٥ / ١٦.
(٥) سورة الأنبياء: الآية ١٠٥ - ١٠٦.
(٦) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) (١).
والخيرية لها أعلام ومشاعل روى الترمذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يكون بعدي اثنا عشر أميرا كلهم من قريش " (٢). وروى الطبراني: " لا يزال هذا الأمر ظاهرا على من ناوأه لا يضره مخالف ولا مفارق حتى يمضي اثنا عشر خليفة من قريش " (٣)، وروى ابن عساكر: " لا يزال أمر أمتي صالحا حتى يمضي منهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش " (٤).
وروى نعيم بن حماد: " يكون بعدي من الخلفاء عدة نقباء موسى " (٥).
والطريق إلى نقباء بني إسرائيل لا بد وأن يأخذ في حسابه منزلة هارون من موسى، ودائرة الخيرية لا يضرها من خذلها أو من عاداها أو من ناوأها. روى البخاري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون. وهم أهل العلم (٦) ولقد علمنا من هم أهل العلم الذين قاتلوا، ولم يقاتل أحد من أهل العلم من أجل إقامة الدين، أو على تأويل القرآن إلا خط علي بن أبي طالب. وروى مسلم: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي من الله أمر الله وهم كذلك " (٧). وفي رواية: " لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٤٤ و ٤٥.
(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح (كنز العمال ٢٤ / ١٢) والبخاري بلفظ: يكون اثنا عشر أميرا فقال كلمة لم أسمعها. فقال أبي أنه قال: كلهم من قريش (الصحيح ٢٤٨ / ٤).
(٣) رواه الطبراني (كنز العمال ٢٣ / ١٢).
(٤) رواه ابن عساكر (كنز العمال ٣٢ / ١٢).
(٥) كنز العمال ٣٣ / ١٢ ورواه أحمد والحاكم (كنز العمال ٣٣ / ١٢).
(٦) البخاري (الصحيح ٢٦٣ / ٤) ك الاعتصام.
(٧) مسلم (الصحيح ٦٥ / ١٣) ك البهاء.

الناس " (١). وفي رواية عند الإمام أحمد والحاكم وأبو داوود بزيادة " حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى وينزل عيسى بن مريم " (٢). وكثير من الشراح ذكر أن أمر الله هنا هو المهدي المنتظر الذي ينزل عيسى بن مريم في زمانه. ومن المحفوظ أن المهدي من أبناء علي بن أبي طالب وفاطمة ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإذا كان المهدي خاتمة فلا بد من البحث عن المقدمة لنعرف من هم أصحاب هذه الطائفة.

إن دائرة الخيرية دائرة أصيلة في الوجود، لم يكسرها ظلم بني أمية وبني العباس. ولا تعرف الدائرة بالكثرة، لأن الحق حق وإن قل أتباعه، والباطل باطل وإن كثر أتباعه. ولا يمكن لباحث أن يهمل الكثرة من هذه الأمة، وأن يحسبها ضمن مربع الحكام. فالتاريخ يشهد بأن الحكام كانوا في واد والجماهير في واد آخر. إن السواد الأعظم من الجماهير لم يلتف حول الحكام، وإنما انطلقوا في ربوع الأرض ينشرون الإسلام وتعاليمه السمحة التي تحتضنها فطرة الباحثين عن الحقيقة. لقد التفت الجماهير حول الزهاد الأوائل الذين لا يملكون من حطام الدنيا شيئا، وبنوا لهم الأضرحة بينما لم يلتفوا حول الطغاة ولم يسألوا عنهم أين دفنوا. وبصرف النظر عن شرعية بنا الأضرحة إلا أن هذا العمل كان تعبيرا مقصودا أو غير مقصود للنفسية الإسلامية المحتقنة من دائرة الحكام الذين فرضوا أنفسهم فرضا على الجماهير وساقوهم إلى عالم الجبرية والطاغوت.

إن الجماهير الإسلامية قامت بنشر الدعوة، وأقامت حضارة فطرية غير حضارة الملوك، وهذه الحضارة هي الباقية ولن تعلوا عليها حضارة حتى يأتي أمر الله.

ب - إفرازات فكرية:

ذكرنا فيما سبق المذاهب القديمة التي قامت في العصر الأموي، ونبتت

---

(١) مسلم (الصحيح ٦٧ / ١٣) ك الجهاد.

(٢) (الفتح الرباني ٢١٠ / ٢٣).

جذورها قبل ذلك. ونحن هنا سنلقي بعض من الضوء على مذاهب فكرية أخرى، كان لها الأثر البالغ بعد الدولة الأموية. ومن هذه المذاهب مذهب المعتزلة. يقول الشيخ أبو زهرة: نشأت هذه الفرقة في أواخر العصر الأموي. وفي هذا الوقت دخل الإسلام طوائف من المجوس واليهود والنصارى وغير هؤلاء وأولئك، رؤوسهم ممتلئة بكل ما في هذه الأديان من تعاليم جرت في نفوسهم مجرى الدم. ومنهم من كان يظهر الإسلام ويبطن غيره. إما خوفا ورهبة، أو رجاء نفع دنيوي، وإما بقصد الفساد والإفساد وتضليل المسلمين. وقد أخذ ذلك الفريق ينشر بين المسلمين ما يشككهم في عقائدهم. وظهرت ثمار غرسهم في فرق هادمة للإسلام تحمل اسمه ظاهرا وهي معاول هدمه في الحقيقة... وقد تصدى للدفاع عن الإسلام أمام هؤلاء، فرقة درست المعقول وفهمت المنقول فكانت المعتزلة (١). ولم يجد المعتزلة من الأمويين معارضة. لأنهم لم يثيروا شغبا عليهم ولا حربا. إذ أنهم كانوا فرقة لا عمل لها إلا الفكر وقرع الحجة، ووزن الأمور بمقاييسها الصحيحة. ومع أن الأمويين لم يعارضوهم فهم أيضا لم يعاونوهم (٢).

ويختلف العلماء في أساس بذرة المعتزلة. فبعضهم يرى أنها ابتدأت في قوم من أصحاب علي بن أبي طالب اعتزلوا السياسة، وانصرفوا إلى العقائد عندما صالح الحسن معاوية، ولزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا: نشتغل بالعلم والعبادة. وبعضهم يرى أن رأس المعتزلة هو واصل بن عطاء... والمعتزلة في كتبهم يرون أن مذهبهم أقدم في نشأته من " واصل " ويعدون من رجال مذهبهم كثيرين من آل البيت (٣). ويقول الشيخ أبو زهرة: والذي نراه أن المذهب أقدم من " واصل " وأن كثيرين من آل البيت قد نهجوا منهجه، كزيد بن علي الذي كان صديقا لواصل. ولكن واصلا من أبرز الدعاة، فكان عند الأكثرين رأسه لأنه أبرز

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ١٣١ / ١.
(٢) المصدر السابق ١٣٢ / ١.
(٣) المصدر السابق ١٢٤ / ١.

من دعا إليه (١).
ومذهب المعتزلة يقوم على أصول خمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
والتوحيد، هو لب مذهبهم وأس نحلتهم، فقالوا: إن الله واحد أحد. ليس كمثله شئ، وهو السميع البصير. وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة، ولا لحم ودم، ولا شخص ولا جوهر ولا غرض. ولا بذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة. ولا بذي حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة. ولا طول ولا عرض ولا عمق. ولا اجتماع ولا افتراق. ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض. ولا بذي أبعاض وأجزاء. ولا جوارح وأعضاء. وليس ذي جهات. ولا بذي يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت ولا يحيط به مكان. ولا يجري عليه زمان. ولا تجوز عليه المماسة ولا العزلة. ولا الحلول في الأماكن. ولا يوصف بشئ من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ولا يوصف بأنه متناه. ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات. وليس بمحدود ولا والد ولا مولود. لا تحيط به الأقدار، ولا تحجبه الأستار. ولا تدركه الحواس. ولا يقاس بالناس ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه. ولا تجري عليه الأوقات. ولا تحل به العاهات، وكل ما يخطر بالبال وتصور بالوهم فغير مشبه له. ولم يزل أولا سابقا. متقدما للمحدثات. موجودا قبل المخلوقات. ولم يزل عالما قادرا حيا. ولا يزال كذلك لا تراه العيون. ولا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأوهام. ولا يسمع بالأسماع. شئ لا كالأشياء عالم قادر حي. لا كالعلماء القادرين الأحياء. وأنه القديم وحده. ولا قديم غيره. ولا إله سواه ولا شريك له في ملكه ولا وزير له في سلطانه. ولا معين له على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق. لم يخلق الخلق على مثال سابق. وليس خلق شئ بأهون عليه من خلقه شئ آخر. ولا بأصعب عليه منه. ولا يجوز عليه اجترار المنافع، ولا تلحقه المضار ولا يناله السرور واللذات. ولا يصل إليه الأذى والآلام. ليس بذي غاية فيتناهى. ولا يجوز عليه

---

(١) المصدر السابق ١٢٤ / ١.

الفناء. ولا يلحقه العجز والنقص. تقدس عن ملامسة النساء. وعن اتخاذ الصاحبة والأبناء.
وقد بنوا على هذا الأصل استحالة رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، لاقتضاء ذلك الجسمية والجهة (١). أما قولهم في العدل بينه المسعودي في مروج الذهب فقال: هو أن الله لا يحب الفساد. ولا يخلق أفعال العباد. بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم. وأنه لا يأمر إلا بما أراد. ولم ينه إلا عما كره. وأنه ولي كل حسنة أمر بها. وبرئ عن كل سيئة نهي عنها (٢). لم يكلفهم ما لا يطيقون. ولا أراد لهم ما لا يقدرون. وأن أحدا لا يقدر على قبض ولا بسط إلا بقدرة الله تعالى التي أعطاهم إياها. وهو المالك لها دونهم يفنيها إذا شاء. ولو شاء لجبر الخلق على طاعته. ومنعهم اضطرارا عن معصيته. ولكنه لا يفعل. إذ كان في ذلك رفع للمحنة وإزالة للبلوى.
وقد ردوا بهذا الأصل على الجبرية الذين قالوا: أن العبد في أفعاله غير مختار. فعدوا العقاب على ذلك يكون ظلما، إذ لا معنى لأمر الشخص بأمر هو مضطر إلى مخالفته، ونهيه عن أمر هو مضطر إلى فعله (٣).
وفيما يتعلق بالعدل يقول الشيخ محمد خليل الزين: قال المعتزلة: إن الله عادل لا يصدر منه الظلم ولا يجدر أن يتصف به. وقالوا: إن الأجسام تدل بما فيها من العقول والنعم التي أنعم الله بها على خلقه، تدل أن الله لا يصدر منه الظلم والعقول تدل بأنفسها على أن الله ليس بظالم. ولا يجوز أن يجامع الظلم ما دل بنفسه على أن الظلم لا يقع منه تعالى.
والظلم والجور منفيان عنه، بدليل قوله تعالى: (وما ربك بظلام للعبيد).
وقد فرعوا على العدل غايات ثلاث:

---

(١) المصدر السابق ١٢٦ / ١.
(٢) استدلوا على هذا بقوله تعالى: (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك).
(٣) المصدر السابق ١٢٧ / ١.

الأولى: أن الله يسير بالخلق إلى غاية ومصلحة، وهو حكيم ولا يصدر من الحكيم فعل لا تكون فيه مصلحة وغاية. وتلك المصلحة عائدة للمخلوقين. وسبحانه لا يفعل شيئا به غاية لنفسه. فالوجود ومن فيه يسير ويمشي وراء غاية ومصلحة. والغاية تختلف بحسب المعنى وأهميته، فتارة تكون ظاهرة المنفعة ففعلها صلاح، وتارة تكون خفية لا تدرك العقول مصلحتها، وهذه إما أن يقنع العقل بوجودها، أو يشكك، فإن شكك يجب تزن بالمقياس البرهاني، فإن توافقا وإلا وجب طرحها.

الثانية: من لوازم العدل، أن الأوامر والنواهي الشرعية، ذات حسن وقبح ذاتي. وهي قبل أمر الشارع فيها حسن وقبح ذاتي – فالوديعة إذا ردت فيها حسن ذاتي قبل أمر الشارع فالحسن والقبح في الموجودات من الأمور الذاتية. وقالوا: إن العقل هو المرجح، فما حكم بقبحه فلا بد أن يأتي به نهي من الشارع. فالحسن من مقومات الذات لأنه عرض يتحكم به الشارع. وقالوا: إنا نعلم بالضرورة حسن بعض الأشياء وقبح بعضها من غير نظر إلى أمر الشارع. فإن كل عاقل يجزم بحسن الاحسان ويمدح فاعله، ويعلم بقبح الإساءة والظلم. وهذا الحكم ضروري لا يقبل الشك. وقالوا: لم نعلم حسن الأشياء وقبحها عقلا. وقالوا: إن الله داعيا لفعل الحسن وليس له صارف عنه. وله صارف عن فعل القبيح وليس له داع إليه، وهو قادر على كل مقدور، ومع وجود المقدرة والداعي يجب الفعل. لأنه تعالى غني يستحيل عليه الحاجة وهو عالم بحسن الحسن وقبح القبيح. ومن المعلوم بالضرورة، أن العالم بالقبيح الغني عنه لا يصدر عنه. وأن العالم بالحسن القادر عليه إذا خلا عن جهات المفسدة فإنه يوجد. وتحريره أن الفعل بالنظر لذاته ممكن وواجب النظر إلى علته، وكل ممكن مستند إلى قادر. وعلته تتم بواسطة القدرة والداعي، فإذا وجد ما تقدم تم السبب. وعند تمام السبب يجب وجود الفعل. ولو جاز فعل القبيح منه تعالى أو الاخلال بالواجب، لارتفع الوثوق بوعده ووعيده، وأمكن تطرف الكذب عليه تعالى. ولجاز منه إظهار المعجزة على يد الكاذب. وذلك يقتضي الشك في صدق الأنبياء. وبطل الاستدلال بالمعجزة.

الثالثة: التي يتفرع على القول بالعدل مسألة الأفعال الصادرة منا، هل نفعلها باختيار أو نحن مسيرون إليها. فقد ذهبت المعتزلة إلى أن الإنسان مختار في أفعاله. وأن أفعال العباد مخلوقة لهم وهي من كسب أنفهسم... وشبهوا أفعال الإنسان بالحركة الاختيارية، فإن الإنسان يفعلها على اختياره. وفرعوا على هذا القول أن الإنسان لو لم يكن مختارا في أفعاله لما جاز عذابه على عدم امتثاله، لأن العذاب متفرع عن عدم امتثال الأوامر الممكن إثباتها بمطلق إرادة العبد. وقالوا: أن العقل لا يجوز أن يكلف الإنسان بالإتيان بشئ هو مسلوب القدرة عنه، فإن قصر بالإتيان بشئ مسلوب القدرة عنه يعاقب ويعذب فإن هذا تكليف بالمحال. وقالوا: إن الإنسان المسلوب الاختيار لا يأتي الوعيد بحقه لأن الوعيد إنما يجئ في المسائل المقدورة للإنسان. والمسائل التي لا قدرة للخلق على الإتيان بها يقبح العقل العقاب عليها. ولا معنى لأن يقال للعبد. افعل وهو مسلوب الاختيار.. إنما يصح لمن يكون له حرية الاختيار، هذا من الوجهة العقلية، وأما النقل فقد استدلوا على حجة دعواهم بالآيات القرآنية. مثل قوله تعالى: (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله)، فهذه الآية من الآيات التي تذم عمل من الأعمال، وأما الآيات التي بها مدح للمؤمنين وذم للكافرين مثل قوله: (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت اليوم تجزون بما كنتم تعملون) (١).

وقالوا في الوعد والوعيد: إن الوعد والوعيد نازلان لا محالة. فوعد الله بالثواب واقع. ووعيده بالعقاب واقع أيضا. ووعده بقبول التوبة النصوح واقع أيضا. وهكذا فمن أحسن يجازي بالإحسان إحسانا، ومن أساء يجازي بالإساءة عذابا أليما. فلا عفو عن كبيرة من غير توبة، كما لا حرمان من ثواب لمن عمل خيرا. وإن هذا فيه رد على المرجئة الذين قالوا: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة. إذ لو صح هذا، لكان وعيد الله في مقام اللغو. قال

---

(١) تاريخ الفرق ص ١٣٧، ١٣٨.

تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا (١).
ومن قولهم في المنزلة بين المنزلتين: إن الإيمان إقرار باللسان ومعرفة وعمل بالجوارح. وإن كل عمل فرضا أو نقلا هو إيمان، وكلما ازداد الإنسان خيرا ازداد إيمانا، وكلما عصى نقص إيمانه.
فالإيمان مركب من أمور، فلو أخل المكلف بأحدها يسلب عنه اسم الإيمان. فلا يقال له مؤمن أو كافر. بل هو بمنزلة من المنزلتين. ومرتكب الكبيرة لا كافر ولا مؤمن. والكبيرة عندهم أنواع، منها ما تؤول إلى الكفر. ومنها ما يطلق على مرتكبها اسم الفسوق فقط (٢). ويقول الشيخ أبو زهرة: من اعتقادهم، أن العاصي من أهل القبلة في منزلة بين المنزلتين. يرون أنه لا مانع من أن يطلق عليه اسم المسلم تمييزا له عن الذميين لا مدحا ولا تكريما. وأنه في الدنيا يعامل معاملة المسلمين، لأن التوبة له مطلوبة. والهداية مرجوة. وقد قال في ذلك " ابن أبي الحديد " وهو من شيوخ المعتزلة: إنا وإن كنا نذهب إلى أن صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمنا ولا مسلما. نجيز أن يطلق عليه هذا اللفظ. إذا قصد به تمييزه عن أهل الذمة وعابدي الأوثان، فيطلق مع قرينة حال أو لفظ يخرجه عن أن يكون مقصودا به التعظيم والثناء أو المدح (٣).
ومن قولهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أنهما واجبان عقلا ونقلا. ويذهبون إلى أنهما واجبان باللسان والقلب واليد، وقد فسر الزمخشري صاحب الكشاف. إلى أن الأمر بهما من فروض الكفاية، لأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يباشره. وأن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر وقد يغلط في موضع اللين ويلين بموضع الغلظة. وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تحاديا. والأمر بالمعروف تابع للمأمور به، إن كان واجبا فواجب، وإن كان ندبا فندب، وأما النهي عن المنكر

---

(١) المصدر السابق ١٢٨ / ١.
(٢) تاريخ الفرق الإسلامية / الزين ص ١٤١.
(٣) تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٢٨ / ١.

كله لأن جميع المنكر تركه واجب، لاتصافه بالقبح وشرط الوجوب أن يغلب على ظنه وقوع المعصية (١)...

وقالوا في النبوة يقول فيه ابن أبي الحديد: إن الذي عليه أصحابنا، أن النبي منزه قبل البعثة. عما فيه تنفير عن الحق الذي يدعو إليه. وعما فيه غضاضة وعيب. مثل: الكفر أو الفسق، لأنا نجد أن التائب العائد إلى الصلاح بعد أن عهد منه السخف والمجون والفسق لا يقع بالمعروف ونهيه عن المنكر عند الناس موقعهما ممن لم يعهدوه، إلا على السعد والصلاح. كما أنه لا يجوز أن يكون محترفا بحرفة يستخفون الناس بصاحبها. هذا قبل البعثة، أما بعد البعثة. فقد منع أصحابنا وقوع الكبائر منهم عليهم السلام أصلا. ومنعوا أيضا وقوع الصغائر المستخفة منهم (٢).

مما سبق نعلم أن المعتزلة لم يهضموا نظرية الجبر، ونفوا القول بالقدر. ورفضوا أن يكون الإنسان مجرد آلة صماء، لا رأي له ولا حرية ولا اختيار، إنما تسيره يد القضاء من وراء ستار، فأثبتوا أنهم يحترمون الحرية الفردية. حرية الفكر والعمل. ويقدرون المواهب العقلية. ويقول الشيخ / محمد خليل: وإني لأعتقد أن المعتزلة بنفيهم القدر عن أفعال العباد الاختيارية المكتسبة، قد أصابوا هدفين في وقت واحد، فإنهم لم ينفوا الظلم عن الله ودافعوا عن العدالة الإلهية فحسب، بل دافعوا أيضا عن الحرية الإنسانية. لأنهم اعتبروا الإنسان حرا في أفعاله فرفعوا من شأنه. وجعلوه مخلوقا عاقلا حرا جديرا بتحمل المسؤولية (٣).

والمعتزلة لم تظهر شجرتهم في العهد الأموي على الرغم من أنهم بدؤوا في هذا العهد، فما كانت الدولة لتسمح بهذه الأفكار. وهي التي تحارب كل فكر لا يتفق مع سياستها. ولكن الشجرة بدأت في الظهور عندما شاخت الدولة الأموية، ثم تفرعت شجرتهم وأورقت عندما جاء العهد العباسي، ففي هذا العهد

---

(١) تاريخ الفرق الإسلامية ١٤٣.
(٢) المصدر السابق ١٤٥.
(٣) المصدر السابق ١٣٤.

طم سيل الالحاد والزندقة. فوجد الخلفاء في المعتزلة سيفا مسلولا على الزنادقة لم يغلوه، بل شجعوهم على الاستمرار في نهجهم. ويقول الشيخ أبو زهرة: كان جدال المعتزلة بقوة وحسن دليل. وفصاحة وبيان وقدرة على الإقناع اكتسبوها من علومهم وممارستهم الجدال، حتى أن بعض خصومهم من غير المسلمين كانوا يسلمون بعد مناقشتهم، ولقد قال مؤرخو المعتزلة: أن أبا الهذيل العلاف أسلم على يديه أكثر من ثلاثة آلاف رجل من من المجوس، لحذقه وبراعته في المناظرة، وقوة ما يدعو إليه وضعف ما يدعون إليه (١). وظل المعتزلة يحطمون أسوار الجهل الذي ألقي على كاهل الأمة من كل مكان، فلما جاء المأمون وقد كان يعتبر نفسه من علماء المعتزلة شايعهم وقربهم وأدناهم وجعل منهم حجابه ووزراءه. وكان يعقد المناظرات بينهم وبين الفقهاء لينتهوا إلى رأي متفق. واستمر على ذلك حتى توفى سنة ٢١٨ ه (٢). ومن أقوال المأمون: من علامة الشريف أن يظلم من فوقه ويظلمه من هو دونه. وقال أيضا: لوددت أن أهل الجرائم عرفوا رأيي في العفو، ليذهب عنهم الخوف. ويخلص السرور إلى قلوبهم (٣). وقال: أول العدل أن يعدل الرجل في بطانته، ثم الذين يلونهم حتى يبلغ إلى الطبقة السفلى. وقال: غلبة الحجة أحب إلي من غلبة القدرة، لأن غلبة القدرة تزول بزوالها. وغلبة الحجة لا يزيلها شئ. وقال: لا نزهة ألذ من النظر في عقول الرجال (٤).

وكان المأمون يقرب آل البيت إليه، وعلى رأسهم الإمام أبي الحسن الرضا رضي الله عنه. وروي أن المأمون أراد أن يقلد الرضا ولاية العهد من بعده، لتكون الخلافة في أفضل آل أبي طالب. ولكن الرضا أبى عليه إباءا شديدا لأسباب عديدة نراها. منها: أن قرار مثل هذا هو بمثابة قرار فوقي. وهذا لا يستقيم مع حركة أهل البيت التي لا تبحث عن الحكم وإنما تبحث عن الجماهير

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ١٤٠ / ١.
(٢) المصدر السابق ١٣٢ / ١.
(٣) تاريخ الخلفاء ٢٩٧، ٢٩٨ / ١.
(٤) المصدر السابق ٣٠٨ / ١.

الذين يتحركون الحركة التي يحبوا أن يراهم الله فيها، فالإمام إذا هتف باسمه أهل القرى عليه أن يلبي النداء، ويسير بهم نحو طريق البركات لأن الحركة في أصولها العريضة حركة حجة في عالم الابتلاء، لينظر الله إلى عباده كيف يعملون. ومنها أيضا لا يختلفوا عن بني أمية من ناحية القتال على الملك.

وروي أنه في أيام المأمون أحصيت أولاد العباس، فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفا، ما بين ذكر وأنثى وذلك عام مأتين. الكثير منهم على رأس العسكر وعلى بيوت المال، وكل منهم ينتظر دوره في الحكم. والإمام الرضا يرى أن لكل زمان حركة، ولكل أحداث فقه. وربما تتطلب هذه الحركة أن يجلس في دائرة الضوء، بينما تتطلب الأحداث أن لا يكون له أي نشاط ملحوظ.

وعندما أصر المأمون على أن يكون الرضا وليا للعهد، قال له الرضا: إني أجيبك إلى ما تريد على أني لا آمر ولا أنهي ولا أفتي ولا أقضي ولا أولي ولا أعزل. فأجابه المأمون إلى ذلك كله.

وعلى الرغم من أن الرضا لم يباشر أي سلطة إلا أن هذا لم يلق قبولا من بني العباس. يقول المسعودي: بايع المأمون للرضا علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالعهد من بعده، فاضطرب من بمدينة السلام من الهاشميين. وعظم ذلك على أهل بغداد عامة، وعلى الهاشميين خاصة. لزوال الملك عنهم ومصيره إلى ولد أبي طالب، فأخرجوا الحسن بن سهل وكان خليفة المأمون على العراق. وبايعوا المنصور بن المهدي، فلم يتم له أمر، وكان مضعفا فبايعوا أخاه إبراهيم بن المهدي بالخلافة لخمس من المحرم سنة ٢٠٢ ه، ودعي له على المنابر بمدينة السلام وغيرها، فوجه الجيوش لمحاربة الحسن بن سهل خليفة المأمون على العراق، وهو يناجيه المدائن، فكانت الحروب بينهم سجالا سنة ٢٠١ ه (١). ومات الإمام الرضا عام ٢٠٣ ه. وقيل قتل (٢). وبعد وفاة المأمون عام ٢١٨ ه. بدأت شجرة المعتزلة

---

(١) التنبيه والإشراف ٣١٨ / ١، دول الإسلام / الذهبي ١١٣.

(٢) قال المسعودي: قبض الرضا بطوس لعنب أكله وقيل أنه كان مسموما (مروج الذهب ٢٣٣ / ٤).

تجف. وعندما جاء عهد المتوكل سنة ٢٣٢ ه يقول المسعودي: أمر المتوكل يترك النظر والمباحثة في الجدال. والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق والمأمون وأمر الناس بالتسليم والتقليد وأمر شيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة (١). وبايع المتوكل لبنيه الثلاثة: محمد المنتصر بالله، وأبي عبد الله المعتز بالله، والمستعين بالله. وفي ذلك يقول ابن المدبر في ذكره لهذه البيعة:

يا بيعة مثل بيعة الشجرة * فيها لكل الخلائق الخيرة
آلدها جعفر وصيرها * إلى بنيه الثلاثة البررة (٢).

وفي ذلك يقول علي بن الجهم:

قل للخليفة جعفر يا ذا الندى * وابن الخلائف والأئمة والهدى
لما أردت صلاح دين محمد * وليت عهد المسلمين محمدا
وثنيت بالمعتز بعد محمد * وجعلت ثالثهم أعز مؤيدا (٣).

وفي عام ٢٣٥ ه أمر المتوكل بهدم قبر الحسين وهدم ما حوله من الدور، وخرب وبقي صحراء. يقول السيوطي: وكان المتوكل معروفا بالتعصب (٤). وسارت الأمور بعد المتوكل إلى ما ذكرناه. يقول الدكتور أحمد أمين: إن السلطات الحكومية من عهد المتوكل. قد تخلت عن نصرة المعتزلة، وأغلب الناس يمالؤون السلطة أينما كانت ويخافون أن يعتنقوا مذهبا لا ترضاه. فهربوا من الاعتزال إلى من يهاجم الاعتزال (٥). وفي أثناء ذلك، ظهر أبو الحسن الأشعري، الذي ولد بالبصرة عام ٢٦٠ ه. وكان قد التحق بالمعتزلة مبكرا

---

(١) مروج الذهب ٩٨ / ٣، دول الإسلام ١٢٦ / ١.
(٢) المصدر السابق ١٠٠ / ٤.
(٣) المصدر السابق ١٠٠ / ٤.
(٤) تاريخ الخلفاء ٣٢١ / ١.
(٥) تاريخ الفرق الإسلامية ص ١٥٠.

ودرس مذهب الاعتزال على الجبائي رئيس معتزلة البصرة أربعين سنة (١). وظل الأشعري يؤمن بآراء أستاذه ويناضل عنها بحماس، ولكن الناس شاهدوا عليه تغييرا مفاجئا، حيث اعتكف في منزله بضعة أيام لا يرى أحد. ثم خرج على إثر ذلك فصعد المنبر في وسط جموع حاشدة من الناس ثم قال بعد أن نزع عباءته: إني كما خرجت من هذه العباءة، أعلن برائتي من كل أخطائي السابقة، وأصرح بأن جميع آرائي الماضية باطلة (٢). ويقول الشيخ أبو زهرة: إن الأشعري وجد من نفسه ما يبعده عن المعتزلة، مع أنه تغذى من موائدهم. ونال من ثمرات تفكيرهم، ثم وجد ميلا إلى آراء الفقهاء والمحدثين، مع أنه لم يغش مجالسهم ولم يدرس العقائد على طريقتهم (٣).

وبدأ الأشعري يشن هجومه على المعتزلة. يقول الصعيدي في كتاب المجد دون في الإسلام: أنه كان الأجدر بالأشعري ألا يتنكر لمذهب مكث معتنقا صوابه أربعين سنة، كل هذا التنكر، لأنه بلا شك كان مخلصا في اعتقاده له كل هذه المدة، بل كان له وجهه من النظر يعتمد عليها فيه. ويرى معها أنه لا تنافي في الإسلام إن لم يكن هو الإسلام، فلا يصح أن ينفي الإسلام عن المعتزلة أو يقال أنهم فساق مسلمون، وإنما هم يثابون على صوابهم ويعذرون في خطأهم. وقد انتفع) بهم خلقا كثيرا.. لم يكن من اللائق أن يبالغ في خصومتهم بعد مخالفته لهم لأنهم كانوا أساتذته (٤). ويقول الدكتور حمودة في كتابه الأشعري: كثير من الباحثين تعرض لأسباب تحول الأشعري. ويذكره ناقدوه تبعا لبعض الروايات عن معاصريه، أنه كان خاضعا في ذلك لضغط من أفراد أسرته، كما يحاول البعض الآخر تعليل ذلك برغبة إلى الحسن أن يستغل كراهة الشعب للمعتزلة، وأن يظفر بالبطولة والمجد على حسابهم (٥).

---

(١) تاريخ بغداد ٣٤٧ / ١١.
(٢) تاريخ الفرق الإسلامية، ص ١٥١.
(٣) تاريخ المذاهب الإسلامية ١٦٠ / ١.
(٤) تاريخ الفرق الإسلامية ص ١٥٢.
(٥) المصدر السابق ١٥٣ / ١.

وإذا كانت هذه مقدمة الأشعري، فيحب أن نلقي نظرة على النتيجة. يقول الشيخ أبو زهرة: وقد نال الأشعري منزلة عظيمة. وصار له أنصار كثيرون ولقي من الحكام تأييدا ونصرة. فتعقب خصومه من المعتزلة وغيرهم. وبث أنصاره في الأقاليم يحاربون خصوم الجماعة ومخالفيها. ولقبه أكثر علماء عصره بإمام أهل السنة والجماعة (١). وقد استمرت عقيدة الأشعري وكتب لها البقاء (٢). وإذا كنا قد عرفنا بداية الحركة ونتيجتها الخاصة بالأشعري، فإننا نلقي هنا بعض الضوء على هذه العقيدة.

يقول الشيخ أبو زهرة: إن الأشعري جاء لإحياء آراء الإمام أحمد بن حنبل في نظره إذ يعتبر منهاجه هو منهاجه (٣). وأنه يرى أن ما يعتقده هو رأي الإمام أحمد. ويعتبره الإمام المقدم والعالم المفهم (٤). وأن الدارس لحياة الأشعري يجد أن الذي يتفق مع اطلاعه هو أن يختار مذهبا وسطا (٥). فرأيه في الصفات وسط بين المعتزلة ومعهم الجهمية، وبين الحشوية والمجسمة. فالأولون نفوا الصفات ولم يثبتوا إلا الوجود والقدم والبقاء والوحدانية، ونفوا السمع والبصر والكلام وغيرها من الأوصاف الذاتية، وقالوا: ليست شيئا غير الذات وإنها في القرآن أسماء لله تعالى كالرحمن والرحيم. وجاء الأشعري فأثبت الصفات التي وردت كلها في القرآن والسنة، وقرر أنها صفات تليق بذات الله.. فسمع الله ليس كسمع الحوادث وبصره ليس كبصرهم وكلامه ليس ككلامهم.

ويقول الشيخ خليل الزين في هذا المجال: وجاء في دائرة المعارف الإسلامية. أن الأشعري خالف المعتزلة بقوله: إن لله صفات أزلية مثل العلم والبصر والكلام. وأنه عالم بعلم بصير يبصر متكلم بكلام وينكر المعتزلة أن لله

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ١٦٨.
(٢) تاريخ الفرق الإسلامية ١٦٤.
(٣) تاريخ المذاهب الإسلامية ١٦٢.
(٤) المصدر السابق ١٦٥.
(٥) المصدر السابق ١٦٥.

صفات ويقولون: أنه عالم بذاته متكلم بذاته. وقالت المعتزلة إن ما جاء في القرآن الكريم مثل: يد الله ووجهه يجب أن تفسر على أنها لطفه وذاته، أما الأشعري فمع تسليمه بأنه ليس ذلك شئ من المفهوم التجسيدي فإنه يرى أن هذه الصفات حقيقة لا نعلم طبيعتها بدقة. وهو يرى مثل هذا الرأي مثل استواء الله على العرش. فهو يقول إن الاستواء على العرش ليس معناه الاستيلاء أو القهر أو الغلبة، بل المراد الاستواء حقيقة، وليس للمعتزلة أن ينكروا ذلك. إذ كيف يجوز لهم أن يسلموا بوجود الله في كل مكان وينكرون أنه عليه العرش. ويقول: لو كان الاستواء على العرش هو القدرة والاستيلاء لما كان هناك فارق بين العرش والأرض (١).

أما عقيدته في مرتكب الكبيرة، يقول الشيخ أبو زهرة: وبالنسبة لمرتكب الكبيرة قال المعتزلة: إن صاحب الكبيرة مع إيمانه وطاعته إذا لم يتب عن كبيرته لا يخرج من النار. وقال المرجئة: من أخلص لله وآمن فلا تضره كبيرة مهما تكن. فسلك الأشعري طريقا وسطا وقال: المؤمن الموحد الفاسق هو في مشيئة الله تعالى، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عاقبه بفسقه ثم أدخله النار (٢).

وأما عقيدته في قدرة الله يقول الشيخ أبو زهرة: ورأيه في قدرة الله وأفعال الإنسان وسط بين الجبرية والمعتزلة. فالمعتزلة قالوا: أن العبد هو الذي يخلق أفعال نفسه بقوة أودعها الله تعالى إياه. والجبرية قالوا: أن الإنسان لا يستطيع إحداث شئ ولا كسب شئ، بل هو كالريشة في مهب الريح فقال الأشعري: إن الإنسان لا يستطيع إحداث شئ ولكن يقدر على الكسب (٣).

وبالنسبة لرؤية الله يوم القيامة يقول الشيخ أبو زهرة: قال المعتزلة: الله سبحانه وتعالى لا يرى... وقال الأشعري، يرى من غير حلول ولا

---

(١) تاريخ الفرق الإسلامية ١٥٨.
(٢) تاريخ المذاهب ص ١٦٧.
(٣) المصدر السابق ١٦٦.

حدود (١). ويقول الشيخ خليل الزين: نزه المعتزلة ذات الباري عن كل آفة. وعرضوا واستدلوا على صحة دعواهم بالكثير من الأدلة. نفوا رؤية الباري تعالى بنفي الجسمية، فإذا انتفت الجسمية انتفت الجهة، وإذا انتفت الجهة انتفت الرؤية، لأن المرئي له حيز وجهه وشكل، والجميع محال تحققها في ذات الله. نفوا الجسمية بقولهم: أن كل جسم حادث ومحتاج إلى الإعراض، وأن الذي لا يتخلى عن الحوادث لا بد أن يكون حادثا. نفوا الرؤية بالدليل العقلي والنقلي بقول تعالى: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك) وقوله تعالى مخاطبا موسى عليه السلام: (لن تراني) فأدلتهم في التوحيد مركبة من العقلية والنقلية (٢). وذهب الأشعري إلى جواز رؤية الله تعالى في الآخرة، وقال: إن كل موجود يصح أن يرى. فإن المصحح للرؤية هي إنما هو الوجود. والباري موجود فيصح أن يرى (٣).

ويقول الشيخ أبو زهرة: وبالنسبة للألفاظ التي وردت موهمة للتشبه في القرآن مثل... (يد الله فوق أيديهم)، وقال المعتزلة: المراد سلطان الله فوقهم. وقال الحشوية: يده يد جارحة. وقال الأشعري: يده يد تليق بذاته (٤).

كانت هذه أهم ملامح مذهب الأشعري. ويقول الشيخ أبو زهرة: وجاء من بعد الأشعري علماء يخالفونه. فابن حزم يعد الأشعري من الجبرية، لأن رأيه في أفعال الإنسان لا يثبت الاختيار للعبد (٥)، وعن منهج الأشاعرة يقول الدكتور محمود قاسم في كتاب مناهج الأدلة في عقائد الملة: إنهم أنكروا ضرورة وجود الغاية والحكمة والصلاح في العالم. وحقروا من شأن العقل في التفرقة بين الحسن والقبيح. وزعموا أن الشرع لو مدح الكاذب لكان حسنا ولو ذم الصدق

---

(١) المصدر السابق ١٦٦.
(٢) تاريخ الفرق ١٣٦.
(٣) المصدر السابق ١٥٦.
(٤) تاريخ المذاهب ١٦٦.
(٥) تاريخ المذاهب الإسلامية ١٩٩.

لكان قبيحا، كذلك نفت هذه المدرسة أن يكون للفرد حرية واختيار وقدرة على خلق أفعاله. ومع ذلك فهي ترى أنه من الممكن أن المكلف الكافر بالإيمان مع عدم استطاعته له. بناء على إرادة الله ومشيئته (١)

ومما سبق يمكن القول أن الاختلاف بين المذاهب قد وقع. وأن هناك من أصاب الحقيقة أو اقترب منها. وأن هناك من ابتعد عنها وقطع شوطا كبيرا في عالم الفتنة والتأويل. ذلك العالم الذي يدخله الذين في قلوبهم زيغ. وأن العمود الفقري لهذا الاختلاف، تلك الآراء التي تعارض بعضها بعضا فيما يختص بمعرفة الله عز وجل. بمعنى أن الاختلاف في معرفة الله هو عمدة الاختلافات. والله تعالى لم يترك معرفته للعباد كي يقولوا فيها بآرائهم، وإنما بعث الأنبياء والرسل ليبينوا ذلك لأممهم، لأن الهدف من خلق الجن والإنس أن يعبدوا الله. ولا تصح عبادة لله إلا بمعرفة الله. فالمنحرفين من أهل الكتاب يعبدون الله، ولكنهم انحرفوا عن المعرفة الحقة. فأصبحت العبادة هباء ضائع في خلاء.

. في رأينا أن أسباب هذا الاختلاف، يعود إلى إبعاد الراسخين في العلم عن مزاولة عملهم الرسالي وسوق الناس إلى صراط العزيز الحميد، لينالوا سعادة الدنيا بما يتوافق مع الكمال الأخروي. وهذا الاختلاف يصرخ في أعمال الوجود. إن الكتاب لو كان في غير حاجة إلى الراسخين في العلم أصحاب التأويل، لأجمع الناس على مدلوله ولم تفترق الأمة. ولكن الاختلاف قد وقع عندما جلس الذين يحتاجون إلى التعليم والإرشاد على المقاعد الأولى. ليصبحوا قرين القرآن الذي اشتمل تبيان كل شئ، وأول هذه الأشياء معرفة الباري جل وعلا. ولقد تحدثنا من قبل أن الله تعالى جعل المودة والرحمة بين الزوجين. لتكون أرضية إنشاء البيت المسلم وانتصارا للفطرة. وأخر مودة ذي القربى أجرا للرسالة الخاتمة. والفرق بين المودة بين الزوجين وبين مودة ذي القربى، أن الأولى مجعولة داخل النسيج الإنساني. أما الثانية فمأمور بها لتكون حركة لينظر الله إلى عباده كيف يعملون. فالدائرة الأولى وقود للدائرة الثانية،

---

(١) تاريخ الفرق الإسلامية ١٥٧.

وكل دائرة هي حجة بذاتها على الإنسان.
وعندما أبعد أهل العلم الذين رفعهم الله درجات وجعلهم قرين الكتاب ولا ينفصلا حتى يردا على الحوض. والله يزكي من يشاء. عندما أبعدوا وانتهى المطاف بعدم رواية الحديث. وظهور الذين وضعهم الرسول في دائرة التحذير، بعد أن خمد التحذير منهم في عالم اللارواية، بدأ هؤلاء يضعون الحديث على رسول الله. ومن هذه التربة خرجت القدرية والجبرية والمرجئة وغيرهم، فكل مذهب كان له وقوده من الحديث والتأويل. ويشرف على أكثرهم علماء أهل الكتاب الذين لا يتركون فتنة إلا سارعوا إليها. ومن تربة الأحاديث الموضوعة جاء اختلاف الرواية والفتيا والسيرة والأخلاق وطريق الهداية والإرشاد وكل شئ، ونحن نرى أن الكثير من الحديث وضع الخدمة أصحاب المقاعد الأولى وتحقيق أهدافهم. وأن الكثير من الحديث الصحيح تم تأويله لخدمة نفس الأهداف، التي منها اتخاذ مال الله دولا ودين الله دخلا وعباد الله خولا، وأول خطوة لتحقيق هذه الأهداف كانت فتح باب المواجهة مع أهل البيت ولا اختلاف ولا خلاف بين أهل العلم على أن عليا كان مصيبا في قتاله لأهل البغي وأن أهل البغي عندما ركبوا على رقبة الأمة قاموا بسب الإمام على منابرهم وقتلوا أتباعه، ثم فتحوا الأبواب أمام أغيلمة قريش الذين أقاموا لجعل الإمام على المجازر.
لقد كان أهل البيت حلقة وجهوا إليها الضربات ليكون الطريق أمام الحلقة الثانية مفتوحا فتوجه إليها الضربات بما يستقيم معها، وبما يتقبله العامة في هدوء. وذلك بطرح مجموعة من الأحاديث يكون الهدف منها التقليل من شأن النبوة ومن تحت عباءة ثقافة التقليل يحققون هدف التماس الأعذار. بمعنى إذا كان هذا هو شأن النبي فلا عصمة لأحد. ومن هذا الباب تلتقي هذه الأعذار مع العقائد التي تشرف عليها الدولة. بمعنى يكفي أن يكون قلبك عامرا بالإيمان وأنت على طريق ضاعت فيه الصلاة.
روي البخاري عن أبي هريرة قال: أقيمت الصلاة. وعدلت الصفوف قياما. فخرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قام في مصلاه ذكر أنه جنب. فقال لنا: مكانكم. ثم رجع فاغتسل. ثم خرج إلينا ورأسه يقطر.

فكبر فصلينا معه (١). وروى البخاري عن أبي هريرة قال: صلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم الظهر أو العصر. فسلم. فقال له ذو اليدين: أنسيت أم قصرت؟ قال النبي: لم أنس ولم أقصر. فقال ذو اليدين: بلى قد نسيت (٢).
وفي رواية: فقال له ذو اليدين: أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟ قال النبي: أصدق ذو اليدين قال الناس: نعم. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى اثنتين أخريين ثم سلم... الحديث (٣).
وروى البخاري أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، وقال: يا رسول الله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال النبي: والله ما صليتها... الحديث (٤). وروى البخاري عن قتادة قال: سرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة فقال بعض القوم: لو عرست بنا يا رسول الله. قال: أخاف أن تناموا عن الصلاة. فقال بلال: أنا أوقظكم فاضطجعوا. وأسند بلال ظهره إلى راحلته فغلبته عيناه فنام. فاستيقظ النبي صلى الله عليه وسلم. وقد طلع حاجب الشمس. فقال: يا بلال أين ما قلت... الحديث (٥).
روى مسلم عن عائشة: اعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رقد ناس واستيقظوا. ورقدوا واستيقظوا فقام عمر بن الخطاب فقال: الصلاة. وفي رواية: الصلاة نام النساء والصبيان. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما كان لكم أن تنزروا رسول الله على الصلاة.. الحديث (٦). معنى ما كان لكم أن تنزروا: أي تلحوا عليه فيها.

---

(١) البخاري (الصحيح ٦٠ / ١) ك الغسل.
(٢) البخاري (الصحيح ٢١٢ / ١) ك الكسوف باب ما جاء في السهو.
(٣) البخاري (الصحيح ٢١٢ / ١) ب ما جاء في السهو.
(٤) البخاري (الصحيح ١١٢ / ١).
(٥) البخاري (الصحيح ١١٢ / ١) ك الصلاة، باب الأذان بعد ذهاب الوقت.
(٦) رواه مسلم (١٣٧، ١٣٨ / ٥ الصحيح)، في كتاب المساجد وقت العشاء.

ولم يقتصر نسيان النبي كما قالوا على الطهارة وعدد الركعات والصلاة في وقتها، وإنما شمل النسيان أشياء أخرى. روى البخاري عن عائشة قالت: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقرأ القرآن. فقال: يرحمه الله. لقد أذكرني كذا وكذا آية من سورة كذا (١) وفي رواية يرحمها الله لقد اذكرني كذا وكذا آية كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا (٢).

لا حرج على أصحاب المقاعد الأولى في نسيان كل شئ ما دام القلب عامرا بالإيمان وهذا باب كبير في عقيدة المرجئة التي نسجت خيوطها على حساب الدعوة. إن هذه الأحاديث وغيرها تم تأويلها لخدمة أهداف الذين ضيعوا الصلاة، ثم كيف يجري على النبي صلى الله عليه وسلم النسيان وهو القائم بدعوة الناس إلى صراط العزيز الحميد. وما هي الحكمة من محافظة عمر بن الخطاب على الصلاة بينما رسول الله إما ناسيا أو نائما.

ولم يقفوا في التأويل عند هذه الأحاديث وإنما ذهبوا إلى أبعد من هذا.

روى البخاري عن عائشة قالت: سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بني زريق يقال له: لبيد بن الأعصم، حتى كان النبي صلى الله عليه وسلم يخيل إليه أن يفعل الشئ وما فعله.. الحديث (٣). كيف تكون هناك قدرة للساحر على نبي الله ورسوله؟ كيف والله تعالى نفى السحر عن رسوله فقال: (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) (٤).

ومن دائرة السحر هبطوا، فرفعوا بعض الصحابة على مقام النبوة. ليعطوا لأنفسهم المبرر في ركوب رقبة الأمة مع وجود السابقين عليهم والأفضل منهم.

روى البخاري: استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه

---

(١) البخاري (الصحيح ٢٣٣ / ٣) في فضائل القرآن باب نسيان القرآن.
(٢) البخاري (الصحيح ٢٣٣ / ٣).
(٣) البخاري ك الطب باب هل يستخرج السحر (الصحيح ٢٠ / ٤).
(٤) سورة الفرقان: الآية ٧، ٨.

وسلم. وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر قمن فبادرن الحجاب (١)، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم. فدخل عمر ورسول الله يضحك!! فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله. قال النبي: عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب. فقال عمر: فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله.. فقال رسول الله: إيها يا ابن الخطاب. والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك (٢). وروى الترمذي عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا. فسمعنا لغطا وصوت صبيان. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإذا حبشية تزف والصبيان حولها. فقال النبي: يا عائشة تعالي فانظري. فجئت فوضعت لحيي على منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجعلت أنظر إلى ما بين المنكب إلى رأسه فقال لي: أما شبعت. فقلت، لا. لأنظر منزلتي عنده. إذ طلع عمر بن الخطاب. فأرقص الناس عنها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر.. الحديث (٣). وروى البخاري عن عائشة قالت: دخل علي النبي صلى الله عليه وسلم. وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع النبي صلى الله عليه وسلم على الفراش وحول وجهه. فدخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأقبل عليه النبي صلى الله عليه وسلم قال: دعهما... الحديث (٤).

وهكذا رأينا رواية يقول فيها النبي صلى الله عليه وسلم لعمر: والذي

---

(١) إن المبادرة بالحجاب لازمة عند دخول الأجنبي سواء كان عمر أولا. هذا إذا كانت هذه الواقعة بعد نزول آية الحجاب، أما إذا كانت قبل نزول آية الحجاب، فما الداعي لأن يقمن ويبادرن الحجاب. كان يكفي القيام ولا حاجة للحجاب (السندي شرح البخاري ٢٩٤ / ١).

(٢) البخاري (الصحيح ٢٩٤ / ٢) ك بدء الخلق ب مناقب عمر.

(٣) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٦٢٢ / ٥).

(٤) البخاري ك الجهاد والسير، باب الدرق (الصحيح ١٥٤ / ٢).

نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك. ورأينا في رواية أن النبي نسي كم صلى، وعند البخاري قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن أحدكم إذا قام يصلي جاء الشيطان فلبس عليه حتى لا يدري كم صلى. فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس (١)، وروى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما منكم من أحد إلا ومعه شيطان. قالوا: وأنت يا رسول الله. قال: وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم (٢) - وفي رواية بزيادة: فلا يأمرني إلا بخير (٣). ويا للعجب عمر يفر الشيطان منه. بينما يأمر النبي بخير. كيف والله تعالى هو الآمر ولا آمر سواه. قال تعالى: (إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه) (٤). كيف وليس للشيطان على الرسول سبيلا. قال تعالى: (وما ينطق عن الهوى). ومنذ متى والشيطان يأمر بالخير والله تعالى يقول: (فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر) (٥). وقال: (إن الشيطان كان للرحمن عصيا) (٦). وقال: (وكان الشيطان للإنسان خذولا) (٧). وقال: (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم) (٨). أما خير خلق الله محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول له الباري تبارك وتعالى: (وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين * إنه هو السميع العليم) (٩). ويقول له: (فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) (١٠).

---

(١) البخاري ك الكسوف باب إذ لم يدر كم صلى (الصحيح ٢١٣ / ١).
(٢) رواه مسلم (كنز العمال ٢٤٧ / ١).
(٣) رواه أحمد ومسلم (كنز العمال ٢٤٧ / ١).
(٤) سورة يوسف: الآية ٤٠.
(٥) سورة النور: الآية ٢١.
(٦) سورة مريم: الآية ٤٤.
(٧) سورة الفرقان: الآية ٢٩.
(٨) سورة الشعراء: الآية ٢٢١ - ٢٢٢.
(٩) سورة الشعراء: الآية ٢١٧ - ٢٢٠.
(١٠) سورة الحجر: الآية ٩٨ - ٩٩.

ولم تقف الحركة عند زمن البعثة حيث فضلوا على النبي بعض صحابته. وإنما تتبعوا الحركة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وقدموا مواقف ترفع من شأن الباحثين عن الحقيقة أمثال زيد بن عمرو بن نفيل. روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي زيد بن عمرو قبل أن ينزل الوحي على النبي. فقدم إليه النبي سفرة. فأبى زيد أن يأكل منها وقال: إني لست آكل ما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه (١).

وروى الديلمي قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " سمعت زيد بن عمرو، يعيب أكل ما ذبح لغير الله فما ذقت شيئا ذبح على النصب حتى أكرمني الله تعالى بما أكرمني به من رسالته (٢). وكما أظهروا فضل زيد بن عمرو. أظهروا فضل قس بن ساعدة الأيادي، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " رحم الله قسا كأني انظر إليه على جمل أورق تكلم بكلام له حلاوة ولا أحفظه " (٣).

كيف وهو النبي الأعظم الذي اصطفاه على أرضية الجذور الطاهرة. لقد قال النبي الأعظم: إن الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم فرقة. ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقه. ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة. ثم جعلهم بيوتا تجعلني في خيرهم بيتا وخيرهم نفسا (٤). كيف وقد سألوه: يا رسول الله هل أتيت في الجاهلية شيئا حراما؟ قال: لا (٥). وقيل له: هل عبدت وثنا قط؟ قال: لا، قالوا: فهل شربت خمرا قط؟ قال: لا. وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر، وما كنت أدري ما الكتاب (٦).

---

(١) البخاري ك بدء الخلق ب حديث زيد بن عمرو (الصحيح ٣١٦ / ٢).
(٢) الديلمي (كنز ٧٩ / ١٢).
(٣) الأزدي (كنز ٧٧ / ١٢).
(٤) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٥٨٤ / ٥).
(٥) رواه ابن عساكر (كنز ٣٤٨ / ١٢) وقال الهيثمي رواه الطبراني في الثلاثة (الزوائد ٢٢٦ / ٨).
(٦) رواه أبو نعيم (كنز العمال ٤٠٦ / ٣.)

والخلاصة: أن الهدف كان من أجل نشر ثقافة لا تقود إلى حقيقة، ولا تدين الذين ركبوا رقبة الأمة.. بمعنى أن القامات متساوية. ولم يكن الهدف من وراء هذه الثقافة نشرها على العامة في الطرقات، وإنما دقها أمام الباحثين ليفوز المرجئة والجبرية وجميع المذاهب التي تنادي بالمقامات المتساوية. ولقد رأينا على أرضية هذه الأحاديث أن هناك من يتقدم خطوة فيصلي بينما الرسول ينام. ويتذكر كم صلى بينما الرسول ينسى ويخاف منه النسوة بينما الرسول يضحك ويتعجب ويفر منه الشيطان بينما زماره في بيت الرسول. ورأينا قبل البعثة كيف كان أصحاب الورع لا يأكلون إلا ما ذكر عليه اسم الله، وكيف أن المعصوم استفاد منهم الكثير. وأنه سمع من قسا كلام له حلاوة وطلاوة. ورأينا كيف نسبوا إليه أنه سحر فكان يخيل إليه أنه يفعل الشئ وما يفعله.

فإذا أضيف إلى هذا كله أنه كان ينسى آيات القرآن وأنه لم يأمر بجمعه ولا بجمع السنة وأنه لم يعين نائبا له ليسوق الناس إلى صراط العزيز الحميد، فلنا أن نتوجه بسؤال إلى بني أمية ومن شايعهم ومن شربوا من إنائهم فنقول: ماذا أبقيتم من النبوة؟ بعد أن اتخذتم مال الله دولا ودين الله دخلا وعباد الله خولا.

ومن دائرة النبي صلى الله عليه وسلم هبطوا إلى دائرة القرآن الكريم.

روى البخاري عن عمر بن الخطاب قال: إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق. وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم. فقرأناها وعقلناها ووعيناها. رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله. فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله. والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء.. ثم إنا كنا نقرأ من كتاب الله: أن لا ترغبوا عن آبائكم فإن كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم... الحديث (١). وأخرج مسلم عن عائشة أنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم

---

(١) البخاري ك الحدود ب رجم الحبلى (الصحيح ١٧٩ / ٤).

نسخن بخمس معلومات. فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي فيما يقرأ من القرآن (١). وروى البخاري عن علقمة. قال: قدمنا الشام، فأتانا أبو الدرداء فقال: أفيكم أحد يقرأ علي قراءة عبد الله، فقلت: نعم أنا، قال: فكيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية (والليل إذا يغشى)، قلت: (والليل إذا يغشى. والذكر والأنثى). فقال: وأنا والله هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرؤها. ولكن هؤلاء يريدون أن أقرأ (وما خلق) فلا أتابعهم (٢). فهذه الأحاديث لها تأويلها، ولكن لتأويل الجبرية والمرجئة طرق أخرى ولبني أمية ومن شايعهم أهداف أخرى.

وبالإضافة إلى هذه الأحاديث، يوجد كم غير قليل من الأحاديث التي تدعو إلى التسليم بالأمر الواقع، الأمر الذي أدى إلى دخول الأمة إلى دائرة القهر التاريخي. أو إلى دائرة الاحتقان التاريخية. وهناك أحاديث كثيرة تدعو إلى ترك الدنيا والترهب وترتب على ذلك ظهور طبقات من الصوفية. منها ما هو قريب. ومنها ما هو بعيد، وعلى هذا تعمقت جذور الطاغوت الذي يرقع أعلام الجبرية، ويرتدي ملابس المرجئة وغيرهم. وعلى هذا تقدم الطابور الذي يتخذ تهويد الفطرة أو تنصيرها هدفا له. وبعد أن طرحت الأحاديث لينال كل طابور ما يتفق مع أهوائه، وبعد أن دقوا الأوتاد حول دائرة الطهر وحول كتاب الله وحول عباد الله. هبطوا درجات، ودخلوا من باب الأسماء والصفات، فتأولوا الأحاديث الخاصة بها. وترتب على ذلك حدوث التباس في معرفة الباري جل وعلا، والتي على قوائمها تبنى العبادة الحق. ومن هذه الأحاديث التي تحدث الالتباس وتحير العقول كان ابن عباس ينتفض. فعن طاووس عن أبيه عن ابن عباس قال: حدث رجل بحديث أبي هريرة فانتفض ابن عباس وقال: ما بال أقوام يجدون (٣) عند محكمة ويهلكون عند متشابهة " (٤). قال الألباني: لم أقف عن حديث أبي

---

(١) مسلم (الصحيح ٢٩ / ١٠).
(٢) رواه البخاري ك التفسير (الصحيح ٢١٥ / ٣).
(٣) يجدون / أي يجتهدون.
(٤) رواه ابن أبي عاصم (كتاب السنة ٢١٢ / ١) وقال الألباني إسناده صحيح.

هريرة... ويغلب الظن أنه حديث " إن الله خلق آدم على صورته " وهو حديث صحيح (١).
وهذا النوع من الحديث قامت عليه مذاهب ومدارس وعلى قاعدتهم حدث الاختلاف والافتراق، وكما ذكرنا من قبل أن حزمة الأحاديث التي ذكرناها في هذا الباب أحاديث صحيحة تم تأولها لخدمة أهداف سياسية. من هذه الأحاديث ما رواه البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا. حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له. من يسألني فاعطيه. ومن يستغفر فأغفر له (٢). وما رواه البخاري عن رؤية الله تعالى يوم القيامة. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه ليلة البدر فقال: إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته (٣). وروى البخاري أن الله يجمع الناس يوم القيامة. فيقول: (من كان يعبد شيئا فليتبعه " إلى أن قال: " وتبقي هذه الأمة فيها منافقوها. فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون. فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك! هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا. فإذا أتانا ربنا عرفناه. فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه " (٤). وروى البخاري أن حديثا سيجري بين الله وبين أحد عباده يقول فيه العبد: " إي رب أدخلني الجنة " إلى أن يقول له الله: " ويلك يا ابن آدم ما أغدرك. فيقول إي رب لأكونن أشقى خلقك، فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه. فإذا ضحك منه قال له: ادخل الجنة " (٥). وما رواه البخاري أيضا يقال لجهنم يوم القيامة: " هل امتلأت. تقول: هل من مزيد. فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها فتقول: قط ".

---

(١) رواه البخاري (الصحيح ٨٥ / ٤).
(٢) البخاري ك الدعوات ب الدعاء ونصف الليل (الصحيح ١٠١ / ٤).
(٣) البخاري ك التوحيد ب وجوه يومئذ ناضرة (الصحيح ٢٤٣ / ٤).
(٤) البخاري ك الدعوات ب الصراط جسر جهنم (الصحيح ١٤٠ / ٤).
(٥) البخاري ك التوحيد باب وجوه يومئذ ناضرة (الصحيح ٢٨٤ / ٤)

قط (١) وفي رواية: فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قط قط قط. فهنالك تمتلئ ويزوي بعضها إلى بعض " (٢).
فهذه الروايات وأمثالها تم تأويلها على رقعة كبيرة من أرض الاختلاف. واستغلها الذين لا يؤمنون بالعقل، فأثبتوا لله النزول إلى الناس في ظلل من الغمام والاستقرار على العرش. وأثبتوا الله الضحك والسرور والحزن وأثبتوا له الوجه واليد والقدم. من غير تأويل ولا تفسير ومن أهم أعلام الذين لا يؤمنون بالعقل " ابن تيمية " الذي زعم أن هذا هو مذهب السلف الصالح. يقول الشيخ أبو زهرة: وما أقره ابن تيمية. أن مذهب السلف إثبات كل ما جاء في القرآن الكريم من فوقية وتحتية واستواء على العرش. ووجه ويد ومحبة وبغض وما جاء في السنة أيضا. من غير تأويل. وبالظاهر الحرفي (٣). ثم يتساءل الشيخ أبو زهرة: هل هذا هو مذهب السلف حقا؟ ونقول في الإجابة على ذلك. لقد سبقه بهذا الحنابلة في القرن الرابع الهجري وادعوا أن ذلك مذهب السلف، وناقشهم العلماء في هذا الوقت. وأثبتوا إنه يؤدي إلى التشبيه والجسمية لا محالة. وكيف لا يؤدي إليهما والإشارة الحسية إليه جائزة، لذا تصدى لهم الإمام الحنبلي ابن الجوزي. ونفى أن يكون ذلك مذهب السلف. ونفى أيضا أن يكون ذلك رأي الإمام أحمد. وقال: رأيت من أصحابنا من تكلم في الأصول بما لا يصح. فصنفوا كتبا شانوا بها المذهب، ورأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام فحملوا الصفات على مقتضى الحس. سمعوا حديث أن الله خلق آدم على صورته، فأثبتوا له صورة ووجها زائدا عن الذات. وفما ولهوات وأضراس وأضواء لوجهه. ويدين وأصبعين وكفا وخنصرا وإبهاما. وصدرا وفخذا وساقين ورجلين وقالوا: ما سمعنا بذكر الرأس! وقد أخذوا بالظاهر في الأسماء والصفات... ويقولون: نحن أهل السنة. وكلامهم صريح في التشبيه. وقد تبعهم خلق من

---

(١) البخاري في تفسير سورة ق (الصحيح ١٩٢ / ٣).
(٢) البخاري (الصحيح ١٩٢ / ٣).
(٣) تاريخ المذاهب الإسلامية ١٩٣ / ١، وراجع العقيدة الواسطية لابن تيمية / محمد خليل هراس ص ١٠٦.

العوام. وقد نصحت التابع والمتبوع وقلت: يا أصحابنا أنتم أصحاب وأتباع. وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل يقول: كيف أقول ما لم يقل. فإياكم أن تبتدعوا في مذهبه ما ليس منه (١).

كان هذا رد ابن الجوزي عليهم عندما خرجت شجرتهم. ويقول الشيخ أبو زهرة: ولقد قال في ذلك القول الذي ينتقده ابن الجوزي. القاضي أبو يعلى الحنبلي المتوفى ٤٥٧ ه وابن الزاغوني المتوفى ٥٢٧ ه. وهكذا استنكر الحنابلة ذلك الاتجاه عندما شاع في القرن الرابع والخامس الهجري، ولذلك استتر هذا المذاهب. حتى أعلنه ابن تيمية المتوفى ٧٦٨ ه في جرأة وقوة. وزاد آراءه انتشارا اضطهاده بسببها. فإن الاضطهاد يذيع الآراء وينشرها، ولذلك كثر أتباعه بسبب الاضطهاد وكسب الرأي ذيوعا وانتشارا. ونرى هنا أنه يجب أن تذكر أن الادعاء بأن هذا مذهب السلف موضع نظر (٢).

ويقول ابن حجر الهيثمي المتوفى ٩٧٤ ه -: ابن تيمية عبد خذله الله وأضله وأعماه وأصمه وأذله، وبذلك صرح الأئمة الذين بينوا فساد أحوال وكذب أقواله. ومن أراد ذلك فعليه بمطالعة كلام أبي الحسن السبكي... والحاصل أن لا يقام لكلامه وزن. بل يرمي في كل وعر وحزن. ويعتقد فيه أنه مبتدع ضال ومضل. جاهل غال. عامله الله بعدله وأجاره من مثل طريقته وعقيدته وفعله آمين (٣). وذكر ابن حجر عقيدة ابن تيمية وفيها: أن ربنا محل الحوادث وأنه مركب تفتقر ذاته افتقار الكل للجزء. ويقول بالجسمية والجهة والانتقال. وأن الله بقدر العرش لا أصغر ولا أكبر. ويقول: أن النار تفنى وأن الأنبياء غير معصومين. وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا جاه له. ولا يتوسل به. وأن إنشاء السفر إليه بسبب الزيارة معصية. وأن التوراة والإنجيل لم تبدل

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ١٩٤ / ١.

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية ١٩٤ / ١.

(٣) الفتاوى الحديثية / ابن حجر الهيثمي ص ١١٤ ط البابلي الحلبي القاهرة طبعة سنة ١٩٧٠ م.

ألفاظهما وإنما بدلت معانيهما.. وبعد أن عد ابن حجر عقائد ابن تيمية قال: أنه قال بالجهة وله في إثباتها جزء، ويلزم أهل هذا المذهب الجسمية والمحاذاة والاستقرار (١). وقال ابن حجر: وأدى اعتقاد ابن تيمية إلى قيامه بتبديع كل من خالفه، ولا يزال يتتبع الأكابر حتى تمالأ عليه أهل عصره ففسقوه وبدعوه بل كفره كثير منهم (٢). ولم يقف عداوته على أكابر أهل عصره. وأخبر عنه بعض السلف إنه ذكر علي بن أبي طالب في مجلس فقال: إن عليا أخطأ في أكثر من ثلاثمائة مكان، ويعلق ابن حجر على ذلك بقوله: فيا ليت شعري من أين يحصل لك الصواب إذا أخطأ علي بزعمك رضي الله عنه (٣).

وقال ابن حجر: عقيدة إمام السنة أحمد بن حنبل موافقة لعقيدة أهل السنة والجماعة.. وما اشتهر بين جهلة المنسوبين إلى هذا الإمام من أنه قائل بشئ من الجهة أو نحوها فكذب وبهتان وافتراء عليه. ولقد بين الإمام ابن الجوزي من أئمة مذهبه أن كل ما نسب إليه من ذلك كذب عليه وافتراء... وإياك أن تصغي إلى ما في كتب ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية وغيرهما ممن اتخذ إلهه هواه. وأضله الله على علم. وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة (٤).

وفيما يتعلق بعدم شرعية زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، كما تقول عقيدة ابن تيمية يقول الشيخ أبو زهرة: ولقد خالف ابن تيمية بقوله هذا جمهور المسلمين، بل تحداهم في عنف بالنسبة لزيارة قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم... ونحن نخالفه مخالفة تامة في زيارة الروضة الشريفة، وذلك لأن الأساس الذي بني عليه منع الزيارة هو خشية الوثنية. وأن ذلك خوف في غير مخاف. فإنه إذا كان في ذلك تقديس لرسول الله صلى الله عليه وسلم،

---

(١) المصدر السابق ١١٦، ١١٧.
(٢) المصدر السابق ١١٥.
(٣) المصدر السابق ١١٦.
(٤) المصدر السابق ٢٠٣.

فهو تقديس لنبي الوحدانية وتقديس نبي الوحدانية إحياء لها. إذ هو تقديس للمعاني التي بعث بها.. وقد روى ابن تيمية نفسه أن السلف الصالح كانوا يسلمون على النبي صلى الله عليه وسلم كلما مروا على الروضة الشريفة، ونحن لنعجب من استذكاره لزيارة الروضة مع ما رواه عن الأئمة الأعلام من تسليمهم على النبي كلما مروا بقبره (١).

ج – من مقدمات الإفرازات الفكرية:

لقد سيطرت السياسة على جميع الشؤون حتى الدينية منها، وذلك لأن للسياسة طابعها الديني. ومن أجل ذلك كان الحكام يشعرون بالحاجة الماسة إلى الدعم الديني لإغراء الجماهير بشرعية حكمهم، ومن غير الممكن أن يجدوا هم وأعوانهم بين النصوص الدينية من كتاب أو سنة. ما يشعر ولو من بعيد بشرعية حكم يقوم على الظلم والجور واغتصاب الحقوق والاستهتار بالمقدسات وحرية الفرد والجماعة، وليس أدل على ذلك من تحوير مفهوم الخلافة عمليا ونظريا إلى حكم فردي يستمد قوته وبقاءه من الاسراف في بذل الأموال. وإراقة الدماء لا من النصوص الإسلامية ولا من رغبة الشعب وإرادة الجماهير. وقد ظهرت بوادر هذا النظام في مطلع العهد الأموي.

فهذا النظام بدأ في استمال أعوانه لتحوير الحقائق وخلق المبررات لتصرفاته وإعطائها صفة الشرعية، وكانت الدولة الأموية في أمس الحاجة لشراء الضمائر وتسخير المرتزقة والحاقدين لينسجوا لهم ثوبا من الفضائل والمكرمات ليستروا به ماضيهم الأسود وحاضرهم الملوث عن أعين الناس، الذين لا يملكون من الوعي والتفكير ما يفرقون بين الناقة والجمل. ومع وجود دائرة الحاقدين الذي عملوا من أجل تثبيت الحزب الأموي برزت دوائر أخرى، باشرت وضع الحديث لأهداف أخرى لا تختلف كثيرا عن أهداف بني أمية. وقد أوجز القاضي عياض الحالة التي وصل إليها الحديث في العصر الأموي والدوافع على

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ٢٠٥ / ١.

الكذب فيه بما حاصله: أن الوضاعين على حد تعبيره، كانوا أقساما. فمنهم من كان يضع على النبي ترفعا واستخفافا كالزنادقة وأشباههم. ومنهم من كان يضع خشية وتدينا كجهلة المتعبدين الذين وضعوا الأحاديث في الرغائب. ومنهم من كان يضع الحديث إغرابا وسمعة وتعصبا كفسقة المحدثين ومتعصبي المذاهب. ومنهم من كان يضع الحديث تنفيذا لرغبة الحكام وطلب العذر لهم فيما ارتكبوه من الجرائم والمنكرات. ومنهم من كان يأخذ كلام العرب والصحابة وينسبه إلى الرسول لهوى في نفسه (١). ولا يمكن إغفال دور القص الذي وضعه كعب الأحبار، فالقصاصون كانت لهم مقدرة وبراعة في العرض، وخيالا واسعا في التصوير والإغراء. قل أن تجد أسطورة من أساطيرهم بدون سند يربطها بصحابي يسندها إلى النبي. وحتى لا يتسرب الشك إلى هذه الموضوعات، وتبقى عنصرا مؤثرا على العامة. ساعدت الدولة هذا الصنف وفتحت له المساجد والنوادي ووفرت لهم الهبات والعطاء.

وبعد أن دق الوضاعون أوتاد الأحاديث الموضوعة. وظهرت الأحزاب السياسية والعقائدية، لتدلي بالدلو وتحرج ما يؤيد اتجاهها الذي يتفق بصورة أو بأخرى مع اتجاه الحزب الحاكم الذي يعارض الحاكم الشرعي علي بن أبي طالب، بعد كل هذا جاء الفقهاء ووضعوا خيمة على على هذا كله، تحت عنوان " تقديس الصحابة " ومنهم من تطرف في عنوانه فقال: " تقديس أصحاب القرون الثلاثة الأولى ". وعلى فكرة تقديس الصحابة درس العلماء الحديث ووضعوا أصوله وقواعده. وهذا الاسراف بالغلو في تنزيه جميع الصحابة عن الكذب ووضعهم في مستوى القديسين والملائكة الأبرار جاء بنتائج شوهت معالم السنة، وقامت بتحصين البغاة والقتلة والمجرمين في حصن منيع لا يجوز الاقتراب منه، لأن البغاة في خيمة القديسين والملائكة الأبرار. وأصحاب اللافتة المرفوعة. يعلمون جيدا، أن المعاصرين للنبي من الصحابة لم يكونوا في مستوى واحد، وكانوا كغيرهم من سائر الناس في مختلف العصور. فمنهم الصديقون الأبرار

---

(١) الموضوعات في الآثار والأخبار / هاشم معروف ١٤٧.

الذين طهرت نفوسهم الصحبة من الفجور والآثام. ومنهم المسلم الذي لم يبلغ مرتبة هؤلاء، ومنهم المتستر بالإسلام الذي يستبيح كل شئ في سبيل تحقيق أهدافه ورغباته. وأصحاب اللافتة يعلمون أحاديث الارتداد التي اتفق عليها الشيخان البخاري ومسلم. والتي تنص على أن هناك من ارتد عن الدين بعد النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينج منهم إلا مثل همل النعم كما جاء في بعض مرويات الشيخين الجليلين. ويعلم أصحاب اللافتة أيضا أن بعض الصحابة أمثال معاوية، ومروان، والمغيرة، وابن العاص، وولده عبد الله، وطلحة، والزبير، اللذين تزعما حركة المعارضة لخلافة علي بن أبي طالب. بقيادة السيدة عائشة، وكان من نتائجها أن استشهد ما يقرب من خمسين ألفا أكثرهم من المسلمين الأبرياء الذي غررتهم السيدة عائشة بوقوفها هذا الموقف الذي حذرها منه الرسول في أكثر من مناسبة، يعلم أصحاب اللافتة أن الكثير من الصحابة كانوا مدخلا لتحريف السنة وتجاهل أحكام الدين، ونحن نسأل: إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم جعل أصحابه دون استثناء فوق البشر من حيث العدالة والصدق والإخلاص إلى غير ذلك. وإذا افترضنا أن الساحة لم يكن بها منافقون. وأن الجميع أطهار. فبأي من هؤلاء نقتدي. بالذين بايعوا أبو بكر أم بالذين تخلفوا عنه؟ بمن يمكن الاقتداء بالذين كانوا مع عثمان أم الذين أنكروا عليه أعماله؟ ومن المسؤول عن سفك الدماء يوم الجمل وبأي الفريقين نقتدي؟ وابن آكلة الأكباد وقرينة ابن العاص الذين نسبوا أنفسهم إلى الصحبة فخاضوا في دماء المسلمين، فبمن نقتدي؟ نقتدي بأمير المؤمنين أم بالقاسطين وكلهم صحابة؟ بمن نقتدي بالحكم بن العاص وكعب الأحبار وأمثالهم من الذين بشروا بملك بني أمية، أم بأبي ذر وحذيفة وغيرهم من الذين حذروا من ملك بني أمية؟ بمن نقتدي بالمقتول حجر بن عدي، أم بالقاتل معاوية بن أبي سفيان؟ والخلاصة: لو صح حديث أصحابي كالنجوم. فلا شك أنه لم يرد به العموم. وإنما يرد به الذين كالنجوم في ظلمة الليل يحذرون ويبشرون، لكي يعيد الناس ترتيب أوراقهم وتنظيم حركتهم، لأن الله ينظر إليهم كيف يعملون.

إن لافتة القداسة جعلت للقرآن ثقلا آخر هو الصحابة. كيف؟ وفي حبل

هذا الثقل الذين أذلوا الأمة ودفعوها إلى دائرة المقهور. وفيه الذين كذبوا على الرسول ووضعوا مئات الأحاديث ليدعموا بها فريقا أو رأيا أو ليشوشوا على الإسلام ومبادئه والقرآن الكريم شن عليهم حملات عنيفة، ووصفهم بالنفاق والفسق. وفضح مؤامرتهم ودسائسهم التي كانوا يحيكونها في الظلام للقضاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته. فضلا إلى عشرات الأحاديث التي وصفتهم بالارتداد عن الدين والتمرد على أصوله ومبادئه.

لقد وضع الحزب الأموي الصحابة داخل هالة من القداسة. ومنحهم صفة العداة. وأشاع ذلك بين الناس على اختلاف فئاتهم وطبقاتهم. وجدوا في تثبتها وتركيزها في النفوس بالمال والسلاح وكل المغريات. وظلت هذه الفكرية تسير مع الأجيال جيلا بعد جيل. إلى أن جاء دور المؤلفين من الرجال وأحوال الرواة في عصر يختلف عن أي عصر مضى. من حيث الصراع الفكري والعقائدي الذي شاع وانتشر بين أوساط المسلمين خلال القرن الثاني من الهجرة، فوجد هؤلاء أن محاكمة الصحابة وتجريحهم كغيرهم يؤدي إلى الإطاحة بأكثر المرويات عن الرسول. لأن أكثرها مروي بواسطتهم، وفي ذلك انتصارا للعناصر الأخرى التي لم ترض للعقل بأن يبقى بعيدا عن المسرح. وأعطوا للعقل الحق في أن يتدخل في كل شئ، ما لم يكن من الضرورات التي لا تقبل الشك والمراجعة، هذا بالإضافة إلى أن السياسيين وغيرهم يعلمون أن انتقاد الصحابة ومحاكمتهم كغيرهم، يؤدي بالنتيجة إلى انتقاد الخلافة الإسلامية بالنحو الذي سارت عليه، لأن عدالة الصحابة وعدم اجتماعهم على ضلال كما يزعمون. من أوفر الأدلة حظا على شرعيتها، فإذا التزموا بأنهم كغيرهم من سائر الناس وضعوهم في قفص الاتهام، كان ذلك انتصارا للحزب المعارض لخلافة الثلاثة، وبالتالي تبطل خلافة الأمويين من أساسها حتى على منطقهم الذي ضللوا به الجماهير المغلوبة على أمرها.

فبعد أن وضعت الأحاديث ونصبت خيمة القداسة وظهرت الفرق وجاء عصر التدوين، اهتم القائمين على هذا الأمر بأحاديث الأحكام. وتجاهلوا التيارات المتضاربة والآراء الغربية عن تعاليم الإسلام، والافتراضات التي أيدتها

وروجتها بعض الفرق والأحزاب التي لبست المسوح ومضت تفلسف المعتقدات والمبادئ الإسلامية. إلى غير ذلك من الاتجاهات التي كان لها أكبر الأثر في تحوير الحقائق والتلاعب في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بالإضافة إلى دور القصاصين والمرتزقة الذين اتخذوا القصص مهنة. فأخذ القائمين على هذا الأمر هذه المرويات ودونوها من غير تعديل أو تمحيص، ولهذا كثيرا ما نجد بين الرواة الكثير من الذين ينتسبون إلى هذه التيارات من جبرية وقدرية ومرجئة وغيرهم، وعلى سبيل المثال فرغم الهالة التي للبخاري وجامعه في نفوس آلاف العلماء والمحدثين، فقد تعرض للنقد وأبى الباحثون المنصفون إلا أن ينظروا إلى البخاري كمحدث اجتهد في جمع الحديث وتدوينه يخطئ ويصيب، وإلى كتابه كغيره من مجاميع الحديث التي جمعت الغث والسمين والصحيح والفاسد. والبخاري روى عن مروان بن الحكم، وأبا سفيان، ومعاوية وعمر بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن عمرو، والنعمان بن بشير. الذي لازم معاوية وولده يزيدا إلى اللحظة الأخيرة من حياته. واشترك معهما في جميع الجرائم والفتن. ولم يذكر البخاري الحسن والحسين في جملة من روى من الصحابة، مع العلم بأنهما يخضعان لقاعدة تعريف الصحابي. وأكثر ما روى عنه البخاري أبو هريرة، وعائشة، وعمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمر. وقد روي عن أبي هريرة أربعمائة وستة وأربعين حديثا، وعن عبد الله بن عمر مائتين وسبعين حديثا، وعن عائشة مائتين واثنين وأربعين حديثا. ولم يرو عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا حديثا واحدا. وروي عن علي بن أبي طالب تسعة وعشرين حديثا. وروي عن أبي موسى الأشعري سبعة وخمسين حديثا، وروي عن معاوية ثمانية أحاديث. وعن المغيرة بن شعبة أحد عشر حديثا، وعن النعمان بن بشير ستة أحاديث. ولم يرو عن المقداد بن الأسود إلا حديثا واحدا. ولا عن عمار بن ياسر إلا أربعة أحاديث ولا عن سليمان الفارسي إلا أربعة. وروي عن عبد الله بن عباس نحو من مائتين

وسبعة عشر حديثا (١). وقد صحت عنده أحاديث عبد الله لأن أكثرها جاء عن طريق عكرمة.. المتهم باعتناق فكرة الخوارج (٢).
وذكر في مقدمة فتح الباري أن أكثر من أربعمائة من رواة الصحيح تضاربت فيهم آراء المحدثين، من حيث وثاقتهم وجواز الاعتماد على مروياتهم، ونحن هنا سنلقي الضوء على البعض منهم من الذين لهم علاقة بالإفرازات الفكرية التي طفحت على الساحة.
منهم: (حصن بن نمير أبو محصن الواسطي)، قال ابن معين ليس بشئ (٣)، وقال فيه جماعة: أنه كان ناصبيا يشتم عليا (٤): (ومحمد بن زياد الالهاني الحمصي) قال الحاكم: وهو ممن اشتهر عنهم النصب (٥) (وعبد الله بن سالم الأشعري) قال أبو داود: كان يذم علي. يعني أنه ناصبي (٦).
ومنهم: (ثور بن زيد)، اتهمه محمد بن البرقي بالقدر (٧)، (وثور بن يزيد الكلاعي) قال ابن معين: ما رأيت أحد يشك أنه قدري. وقال أحمد بن حنبل: كان ثور يرى القدر (٨). وقد نهى ابن المبارك والأوزاعي عن كتابة حديثه والاعتماد عليه (٩). (ووهب بن منبه) صاحب القصص قال الذهبي: من أحبار علماء التابعين... كثير النقل من كتب الإسرائيليات. قال الجوزجاني: كتب كتابا في القدر. وقال أحمد بن حنبل: كان يتهم بشئ من القدر.

---

(١) ضحى الإسلام ١١١، ١١٢ / ٢، الباعث الحثيث ص ٢٥، مقدمة فتح الباري ٢٤٨، ٢٤٩ / ٣.
(٢) أنظر المعارف لابن قتيبة ص ٢٠١.
(٣) ميزان الاعتدال / الذهبي ص ٥٥٤ / ١.
(٤) دراسات في الحديث والمحدثون / هاشم معروف ص ١٧٨.
(٥) ميزان الاعتدال ٥٥١ / ٣، دراسات في الحديث ١٨٤.
(٦) ميزان الاعتدال ٤٢٦ / ٢، دراسات في الحديث ١٨٦.
(٧) ميزان الاعتدال ٣٧٣ / ١.
(٨) ميزان الاعتدال ٣٧٤ / ١.
(٩) ميزان الاعتدال ٢٧٤ / ١.

ثم رجع (١).
ومنهم: (سالم بن عجلان الأفطس) قال أبو حاتم: صدوق مرجئ. وقال الفسوي: مرجئ معاند، وقال ابن حبان: تغرر بالمعضلات عن الثقات. ويقلب الأخبار (٢) (وعبد الحميد بن عبد الرحمن أبو يحيى)، قال النسائي: ليس بالقوي. وضعفه أحمد وقال أبو داود: كان داعيا في الأرجاء (٣).
ومنهم: (داود بن الحصين أبو سليمان) قال ابن حبان كان يذهب مذهب الشراة - يعني الخوارج كعكرمة.. تجب مجانبة حديثهم (٤)، (والوليد بن كثير) قال أبو داود: كان أباضي (٥). وقيل: كان خارجيا (٦) (وعمران بن حطان السدوسي البصري الخارجي) قال العقيلي: كان خارجيا (٧). وعمران هذا هو الذي قال شعرا يشيد فيه بابن ملجم قاتل علي بن أبي طالب.
فهؤلاء رواة اعتمد عليهم البخاري في صحيحه. وغير هؤلاء كثير. وقد ذكر ابن حجر في مقدمة البخاري أكثر من أربعمائة من رواة الصحيح تضاربت فيهم آراء المحدثين. وهذا أمام الباحث المنصف ليس فيه ذم للبخاري. ولا لغيره من الذين جمعوا الحديث ودونوه. فهؤلاء قاموا بعمل لم يقم به الصحابة بعد وفاة الرسول. ولم يقل البخاري أو غيره عليكم بكتابي وقدسوه. ولم يفرضه على الذين جاؤوا من بعده. وهؤلاء المؤلفون كانوا يعتمدون على اجتهادهم حينا. وعلى غيرهم ممن يحسنون به الظن حينا آخر. فيخطئون ويصيبون ككل إنسان لم يعصمه الله من الخطأ والزلل. وعلى الرغم من أن مجاميع الحديث جمعت الغث والسمين والصحيح والفاسد. فإننا نعترف لأصحابها بالفضل

---

(١) ميزان الاعتدال ٣٥٣ / ٤.
(٢) ميزان الاعتدال ١١٢ / ٢.
(٣) ميزان الاعتدال ٥٤٢ / ٢.
(٤) ميزان الاعتدال ٦ / ٢.
(٥) ميزان الاعتدال ٣٤٥ / ٤.
(٦) دراسات في الحديث ١٩٠.
(٧) ميزان الاعتدال ٢٣٥ / ٣.

والعمل الطيب والجهد المثمر. لأنهم وضعوا أمام الباحثين عن الحقيقة مادة غنية يستطيعون بها أن يميزوا بين الغث والسمين وأن يحددوا الطريق إلى الصراط المستقيم. رحم الله البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وأبا داوود والحاكم وابن ماجة وابن عساكر وأبا نعيم والديلمي والبغوي ونعيم بن حماد والبيهقي وابن حبان وابن خزيمة والضياء والسيوطي وغيرهم من الذين جمعوا لنا الأحاديث كي ننظر فيها نظرة الدراية التي تقود إلى الحقيقة.

د – مرايا عالم الدراية:

لم يترك النبي صلى الله عليه وسلم أمته هملا. فالقرآن الذي بين يدي الناس في يومنا هذا هو القرآن الذي جمع في عهده صلى الله عليه وسلم.

وليس صحيحا أن القرآن تم جمعة وترتيبه بعد وفاة الرسول. وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يبين تفسير كل آية ويأمر بكتابة ما يراه من هذا التفسير. لقد فسر صلى الله عليه وآله وسلم المعارف الإلهية والأحكام التشريعية وأظهر الفضائل الخلقية والمبادئ الإنسانية. وبما أن الكتاب وحي من الله تعالى فإن السنة هي أيضا وحي من الله تعالى. قال صلى الله عليه وسلم: " أوتيت القرآن ومثله معه " فسنة النبي وتفسيره لآيات الكتاب تبين بحمل القرآن وتخصص عامة وتقييد مطلقه. والكتاب والسنة ينظمان كل نواحي الحياة. ففيهما العقائد والعبادات والفضائل والنظم الاجتماعية والاقتصادية والتربوية ونظام الحكم والسياسة.

فالسنة لم تترك شيئا إلا وبينته. ونصوص الكتاب والسنة جاءت منفصلة وموضحة كل المسائل التي لا تختلف باختلاف الزمان والمكان. فليس لأحد أن يزيد عليها أو ينقص منها (١). والكتاب والسنة لا يخاطبان جنسيا دون جنس ولا شعبا دون شعب. وإنما يخاطبان الناس جميعا في كل زمان ومكان. ومن الدليل أن القرآن جمع في عهد النبي وأنه تم تفسيره للصحابة لإقامة الحجة عليهم، قوله تعالى: (إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه) (٢)،

---

(١) سورة القيامة: الآية ١٧ / ١٩.

(٢) أي العسب.

فالجمع والبيان وحي من الله ينطق على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرى في حركته. ومن الثابت أن بعض الصحابة كانوا يكتبون الوحي للنبي. كعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبي بن كعب، يقول الشيخ سيد سابق: فكان كلما نزلت آية دعاهم وأمرهم بكتابتها وأرشدهم إلى موضعها من السورة التي يريد أن يلحقها بها. وكان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن من تلقاء أنفسهم... وكان الغرض من الكتابة تقوية ما علق بالذاكرة، وكانوا يكتبون في جريد النخل (١) وصفائح الحجارة (٢) والرقاع والأقتاب (٣) والأكتاف (٤). وكان النبي يأمرهم بحفظ آيات القرآن وما بينه لهم من أحكام وتفسير قال تعالى: (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) (٥)، قال سيد سابق: أي بيانا. وفي الاصطلاح. علم يفهم به معاني كلام الله ويستخرج به أحكامه (٦)، والبيان يقتضي أن يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خفي عليهم من ألفاظ القرآن ومعانيه. قال تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) (٧)، يقول سيد سابق: وقد امتثل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فبين للأمة ما هو في حاجة إلى بيان. روي عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال: حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن. أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا " (٨). مما سبق علمنا أن جمع القرآن وبيان ما خفي من ألفاظه كان بوحي

---

(١) أي اللخاف.
(٢) أي الخشب الذي يوضع على ظهر البعير.
(٣) أي عظم البعير أو الشاة.
(٤) سورة الفرقان: الآية ٣٣.
(٥) مصادر التشريع ٣٩.
(٦) سورة النحل: الآية ٤٤.
(٧) مصادر التشريع ٤٥.
(٨) سورة الحشر: الآية ٧.

من الله. وأن النبي صلى الله عليه وسلم بين للناس ما أنزل إليهم. وأمر بكتابة القرآن والعلم وأن الصحابة كانوا يتعلمون القرآن والسنة جنبا إلى جنب لأمر الله تعالى بأن يأخذوا بما أتى به الرسول وأن ينتهوا عما نهى عنه قال تعالى: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) (١)، وقال: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) (٢)، وقال: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر...) (٣).

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. تفرغ الإمام علي لجمع القرآن وتفسيره بعد أحداث السقيفة. وكان هناك من الصحابة من جمع القرآن كله ومنهم: علي، وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب (٤). ورأى عمر بن الخطاب في خلافة أبي بكر أن يجمع القرآن ليكون في خزينة الدولة. روى البخاري أن أبا بكر قال: أتاني عمر فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن. وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن. وإني أريد أن تأمر بجمع القرآن فقلت لعمر: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر: هو والله خير. قال أبو بكر. فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك " (٥).

وبدأت عملية الجمع. وأثناء هذه العملية سقط الكثير من تفسير الآيات التي تحذر من الفتن. بل وسقط تفسير بعض آيات الأحكام. ولذا وجدنا عمر بن الخطاب يقول أثناء خلافته فيما رواه البخاري: إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق وأنزل عليه الكتاب. فكان مما أنزل آية الرجم. فقرأناها وعقلناها ووعيناها. رجم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ورجمنا بعده

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٠.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢١.
(٣) مصادر التشريع الإسلامي / سيد سابق ص ٣٥ ط دار الفتح للإعلام.
(٤) مصادر التشريع ١٦.
(٥) البخاري باب جمع القرآن (الصحيح ٢٢٥ / ٣).

فأخشى إن طال الناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله. ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن.... (١)، وما ذكره عمر كان من التفسير وليس من القرآن. ولم يجده عمر لأن عملية الجمع سقط منها كثير من التفسير. وقول عمر هذا اشتهر على أنه يقصد به القرآن الكريم.

ولكن الحقيقة تخالف ذلك، فالآية من مقام البيان والتفسير. وهذا المقام كان قد استهدف بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. عندما نقل الصحابة ما كان في الرقاع والأكتاف والعسب وجمعوه في مصحف واحد. ويقول الشيخ سيد سابق عن هذا الجمع: كان الجمع مقتصرا على ما لم تنسخ تلاوته (٢)!!

وبينما كان الإمام علي متفرغا لجمع القرآن والتفسير. كان ابن عباس يعلم تفسير بعض الآيات في المصحف الذي جمعه الصحابة في عهد أبي بكر. بينما كان عمر يجهل هذا التفسير. روى البيهقي بسند صحيح أن عمر بن الخطاب سأل ابن عباس فقال: أرأيت قول الله تعالى لأزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى "، هل كانت جاهلية غير واحدة؟ فقال ابن عباس: ما سمعت بأولى إلا ولها آخره، قال عمر: فأتني من كتاب الله مما يصدق ذلك، فقال ابن عباس: قوله تعالى: (وجاهدوا في الله حق جهاده)، كما جاهدتم أول مرة. قال عمر: من أمرنا أن نجاهد؟ فقال ابن عباس: مخزوم وعبد شمس " (٣)، فالجهاد آية في القرآن ومخزوم وعبد شمس تفسير لهذه الآية.

وبعد أن استفسر عمر من ابن عباس عن الذين أمرهم الله بجهادهم. روي أن عمر قال لعبد الرحمن بن عوف: أما علمت أنا كنا نقرأ (وجاهدوا في الله حق جهاده)، في آخر الزمان كما جاهدتم في أوله. فقال عبد الرحمن: ومتى ذلك؟ قال عمر: إذا كان بنو أمية الأمراء وبنو المغيرة

---

(١) البخاري (الصحيح ١٧٩ / ٤).

(٢) مصادر التشريع الإسلامي ص ٢٠.

(٣) رواه البيهقي وذكره ابن كثير في البداية ٢١٥ / ٦. ورواه الخطيب كنز العمال ٢٧١ / ١١.

الوزراء " (١)، وما ذكره عمر ما هو إلا تفسير للآية المذكورة. وإذا كانت الآية في كتاب الله الذي تولى الله حفظه. وإذا كان التفسير قد سقط عند جمع المصحف بعد ذلك. فإن السنة الشريفة بينت هذا التفسير عند الحفاظ الذين احتفظوا بالتفسير داخل عقولهم وليس في صناديق بني أمية أو بني المغيرة. فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أهل بيتي سيلقون بعدي من أمتي قتلا وتشريدا وإن أشد قومنا لنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم " (٢)، فهذا تفسير جامع بابه طويل وعريض.

وروي أن المصحف الذي جمعه أبو بكر كان عنده حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته. ثم عند حفصة بنت عمر (٣)، وعندما جاء عهد عثمان سليل الأمويين. أرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك (٤). وروى البخاري أن حفصة أرسلت بها إلى عثمان. فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث. فنسخوها في المصاحف. ورد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا. وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق " (٥).

وقيل إن عثمان فعل ذلك عندما اختلف الناس في تلاوته نظرا لأن القرآن يشمل على الأحرف السبعة. ولقد اختلف العلماء فيما هو المقصود بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا (٦)، فمنهم من قال: الأحرف السبعة. سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد. واللغات السبع هي: لغات قريش

---

(١) رواه أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه (كنز العمال ٤٨٠ / ٢).
(٢) رواه نعيم بن حماد والحاكم (كنز العمال ١٦٩ / ١١).
(٣) البخاري باب مجمع القرآن (الصحيح ٢٢٥ / ٣).
(٤) البخاري (الصحيح ٢٢٥ / ٣).
(٥) البخاري باب جمع القرآن (الصحيح ٢٢٦ / ٣).
(٦) مصادر التشريع الإسلامي ٢٩.

وهذيل وثقيف هوزان وكنانة وتميم واليمن (١). ومنهم من قال: نزل بلغة قريش وهذيل وتيم والأزد وربيعة وهوازن وسعد (٢). فاختلاف التلاوة كان باعثا لعثمان لكي ينسخ من المصاحف مصحفه. ليقضي على أصول الخلاف. ولا ندري إذا كان الله قد أمر بنزول كتابه على الأحرف السبعة فهل يجوز أن يلغي أي مخلوق هذا الأمر؟ وإذا اختلف الناس فهل يكون العيب إلا في الناس. وهل يقتضي إزالة هذا العيب أن تمتد الأيدي إلى الأصول أم إلى تعليم الناس ووضعهم على طريق اللاخلاف.

إن ربط الأحرف السبعة بألسنة القبائل عنوان لا يهضمه عالم التدبر..

والذي يمكن قبوله ما روي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان الكتاب الأول ينزل على حرف واحد. وأنزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجر، وآمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه وأمثال، فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه. واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا " (٣).

أما ما قيل بأن الأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب. فإن القرآن يرده، قال تعالى في كتابه: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين له)، ومعنى هذا أن الرسل إنما تبعث بألسنة قومها لا بألسنة من سواها. ولقد بين القرآن الكريم أن اللسان الذي بعث به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، هو لسان قومه. أي لسان قريش لا من سواه من الألسنة العربية. وكان قومه المرادون بذلك هم قريشا لا من سواهم. ومن ذلك قوله تعالى: (وإنه لذكر لك ولقومك) يعني قريشا لا سواهم.

---

(١) مصادر التشريع الإسلامي ٢٩.

(٢) المصدر السابق ٢٩.

(٣) الطحاوي في مشكل الآثار ١٨٥ / ٤.

فالقرآن نزل بلغه قريش، ومن هذه اللغة خرج العلم وتمدد على صفحة الأرض. وعثمان نفسه قال للذين نسخوا المصاحف. " اكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم " (١)، ونحن لا ندري إذا كان قد نزل بلسان قريش فكيف يكتب بلسان قريش؟ ومن الثابت والمحفوظ أن عبد الله بن مسعود تصدى لقرار عثمان في هذا الشأن. يقول محب الدين الخطيب وهو من المتحمسين في الدفاع عن الدولة الأموية: أن ابن مسعود كان يكتب ما يوحى من القرآن في مصحفه كلما بلغه نزول آيات منه. وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على حسن تلاوة ابن مسعود للقرآن. وقد تسارع أبو بكر وعمر ليوصلا لابن مسعود هذا الثناء النبوي (٢). وكانت تغلب على ابن مسعود لهجة قومه. والنبي صلى الله عليه وسلم رخص له أن يقرأ بلهجاتهم (٣). وعندما صدر قرار عثمان بحرق المصاحف يقول أبو بكر بن العربي وهو أيضا من المتحمسين للدولة الأموية: كان في بقائها فساد. أو كان فيها ما ليس من القرآن. أو ما نسخ منه. أو على غير نظمه. إلا أنه روى عن ابن مسعود أنه خطب بالكوفة فقال: أما بعد فإن الله قال: (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة)، وإني غال مصحفي فمن استطاع منكم أن يغل مصحفه فليفعل. وأراد ابن مسعود أن يأخذ مصحفه فأكرهه عثمان على رفع مصحفه. ومحا رسومه فلم تثبت له قراءة أبدا. ونصر الله عثمان والحق يمحوها من الأرض (٤). وفي تعليق لمحب الدين الخطيب يقول: إن عثمان كان على حق في غسل المصاحف كلها ومنها مصحف ابن مسعود لأن توحيد كتابة المصحف على أكمل وجه ما كان في استطاعة البشر. وهو من أعظم أعمال عثمان (٥). ومن المعلوم أن عثمان ضرب ابن مسعود خلال هذه الأحداث. وعلى أي حال فقد تم تفريغ القرآن من التفسير. أما المصاحف التي كانت عند

---

(١) البخاري (الصحيح ٢٢٦ / ٣).
(٢) مسند أحمد ١ / ٢٥، ٢٦.
(٣) العواصم من القواصم / ابن العربي تحقيق محب الخطيب ٧١.
(٤) العواصم من القواصم / ابن العربي ص ٧١.
(٥) المصدر السابق ص ٦٤.

حفصة. فقد ظلت عندها حتى ماتت. ويقول الشيخ سيد سابق: ثم أخذت المصاحف بعد موتها وغسلت غسلا وقيل: إن مروان بن الحكم أخذها وأحرقها (١).

وهكذا أحرقت أحاديث عند المقدمة، ثم جاء مروان بن الحكم الذي لعنه الله على لسان رسوله وبدأ عملية حرق جديدة. والله غالب على أمره. يقول تعالى: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) (٢)، وقال جل شأنه (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) (٣).

وعندما جاء عهد الإمام علي كان يحتج على البغاة والمخالفين بالقرآن والسنة. وكان القوم قد تعمقوا في عالم التأويل وتوغلوا في عالم إطفاء السنة. وروي أنه قال لابن عباس حينما بعثه إلى الخوارج: لا تخاصمهم بالقرآن. فإنه حمال أوجه. ولكن حاججهم بالسنة. فإنهم لن يجدوا عنها محيصا " (٤)، ولكن عالم الحريق لم يفسح المجال الكافي لتلقي هذا الحوار. ولم ينصت لابن عباس إلا قليلا.

إن القرآن والسنة وحي من الله تعالى. فالقرآن محفوظ ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. والسنة ترجمان له وعلى طريقها يكون الامتحان ويترتب على الامتحان الثواب والعقاب كما نص القرآن وعلى طريق السنة يمكن أن تمتد الأيدي لتبدل أو تحرف ولكن الأيدي ليس لها أن تفعل ذلك مع القرآن. ولهذا ساق النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى القرآن فقال:

" يا أيها الناس أنزل الله كتابه على لسان نبيه وأحل حلاله. وحرم حرامه.

---

(١) مصادر التشريع ص ٢٥.
(٢) سورة النور: الآية ٦٣.
(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.
(٤) مصادر التشريع الإسلامي ٦٢.

فما أحل في كتابه على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة. وما حرم في كتابه على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة " (١)، وقال: " لا يمكن الناس علي شيئا، إني لا أحل إلا ما أحل الله في كتابه. ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه " (٢)، وقال: " ستكون عني رواة يروون الحديث فاعرضوه على القرآن. فإن وافق القرآن فخذوه وإلا فدعوه " (٣)، وقال: " سئلت اليهود عن موسى فأكثروا فيه وزادوا ونقصوا حتى كفروا - وفي رواية - وسئلت النصارى عن عيسى فأكثروا فيه وزادوا ونقصوا حتى كفروا - وإنه ستفشو عني أحاديث فما أتاكم من حديث فاقرأوا كتاب الله واعتبروه فما وافق كتاب الله فأنا قلته وما لم يوافق كتاب الله فلم أقله " (٤).

فالقرآن هو العمود الفقري لحركة السنة. والقرآن وحي يتحكم في وحي السنة المتحركة. والقرآن والسنة نور. والنور لا يرى ولكن ترى به الأشياء. فلو لم يك حولنا ذرات وأجسام في هذا الكون ما رأينا النور ولكننا نراه! إذا انعكست أشعة النور على هذه المواد. ولقد علمنا أن موسى عليه السلام سأل ربه الرؤية فكان الجواب (قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا...) (٥)، فنور الله له معالم تدل عليه. وكذلك نور السنة. ومن المعالم التي ينعكس عليها نور السنة دوائر الإيمان والعمل الصالح. فعلى هذه الدوائر فقط يمكن أن نرى نور السنة قال تعالى وهو يخاطب الذين آمنوا: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به) (٦)، وقال تعالى: (ومن

---

(١) أبو نصر السجزي في الإبانة وحسنة (كنز العمال ١٩٦ / ١).
(٢) رواه الشافعي وابن سعد والبيهقي (كنز العمال ١٩٥ / ١).
(٣) رواه ابن عساكر (كنز العمال ١٩٧ / ١).
(٤) رواه الطبراني (كنز العمال ١٩٦ / ١).
(٥) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.
(٦) سورة الحديد: الآية ٢٨.

لم يجعل الله له نورا فما له من نور) (١).
إن النور في دائرة العباد لن يتحقق إلا بتقوى الله والإيمان برسوله. فهنا فقط يعمل نور السنة ويكشف للعباد طريقهم الذي يمشون فيه. وكما أن الأنبياء والرسل عليهم السلام يهدون الناس إلى نور الله. فكذلك الأئمة والأوصياء الذين عينهم الله عليه لسان رسله يهدون الناس إلى نور سنة الأنبياء. وهكذا كان لكل نور طريق يقود الناس إلى صراط العزيز الحميد.
والذي حدث في عهد الرسالة. أن الرسول اهتم بأهل بيته تربية وتثقيفا وتأهيلا وتفضيلا. ولم يكن هذا الاهتمام عاطفيا أو خاضعا لآصرة الدم أو العرق. وإنما كان تنفيذا لأمر إلهي أوحي به إليه. وما على الرسول إلا البلاغ المبين. وكان من المتوقع أن يعرف الرعيل الأول لتلك الصفوة قدرها. وأن يضع تلك الأوامر الإلهية الواردة بحقهم نصب عينيه. غير أنه من المؤسف أن يذهل عنها ويضرب بها عرض الجدار، وقد رأينا من التاريخ أن آل محمد صلى الله عليه وسلم قد لاقوا الكثير من البطش والاضطهاد وتجرعوا الكثير من المحن والويلات وفي خضم ذلك كله كانوا صابرين محتسبين مقدرين للدور الرسالي المنوط بهم، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر بهذا كله وهو يخبر بالغيب عن ربه جل وعلا. وعلى إثر المذابح التي أقيمت لأهل البيت، رفعت رايات الأنظمة السياسية الفاسدة المستبدة التي تمثلت في الدولة الأموية وتحت هذه الرايات ظهرت الفرق والمذاهب والتشرذم والتحزب. كل حزب بما لديهم فرحون. وكان الحكام يقومون بتغذية تلك النعرة داخل الأمة وإذكاء نيرانها. وفي هذه الموجات ظهر الغلاة والمتصوفة وأصحاب الشطحات.
واجتاحت الأمة ثقافات غريبة دخيلة وفلسفات يونانية وهندية وفارسية قديمة. وذلك بعد أن تم ترجمة العديد منها إلى اللغة العربية مما أدى إلى تهيئة المناخ لظهور الدهريين والجدليين والملحدين والمشككين. فصار هناك من يتكلمون في الذات الإلهية والأسماء والصفات والجوهر والعرض. وهل القرآن مخلوق أم غير

---

(١) سورة النور: الآية ٤٠.

مخلوق إلى غير ذلك من قضايا منطقة الصفر.
وعلى امتداد الثورات والانقلابات كان الغالب الأعم يتجه إلى العلماء ولم يجرؤ عالم على نقد معالم الشذوذ لأن هناك قاعدة تربطه تقول: القاتل والمقتول في الجنة والمجتهد إن أخطأ له حسنة وإن أصاب فله عشرة، وإن العدالة ليست شرطا لقبول الحاكم المتغلب لأن الأصل: أطيعوا البر والفاجر. ولا شئ في ركوب قطار الإمام الفاسق لأن كل القطارات تصل إلى أهداف الله. وفي داخل منطقة الصفر غرس في نفوس العامة الكثير من الآراء والمقالات وصرف الناس عن الاجتماع حول كلمة واحدة ورأي واحد وعندما جاء القرن الرابع. تصدى للإفتاء فقهاء قادوا المسيرة نحو إغلاق باب الاجتهاد. نظرا لحالة الفوضى التي سادت القضاء والإفتاء في ذلك الحين. وعلى هذا نرى أنهم عالجوا الفوضى والاستغلال والفساد. بالجمود لا بالتنظيم القويم. فكان الدواء شرا من الداء.
ويقول الشيخ خلاف عن هذه الفترة: إن العلماء فشت فيهم أمراض خلقية. جالت بينهم وبين السمو إلى مرتبة الاجتهاد. فقد ظهر بينهم التحاسد والأنانية. فكانوا إذا طرق أحدهم باب الاجتهاد فتح على نفسه أبوابا من التشهير به وحط أقرانه من قدره، وإذا أفتى في واقعة برأيه. تصدوا إلى تسفيه؟ رأيه وتفنيد ما أفتى به بالحق وبالباطل (١).
وكان من آثار الجمود لدى بعض العلماء أنهم تعصبوا لأئمتهم وأنزلوا أقوال إمامهم مكانا فوق ما للقرآن والسنة من مقام... وانصرفوا عن الأساس التشريعي الأول وهو القرآن والسنة بحيث أصبحوا لا يرجعون إلى نص قرآني أو حديث إلا ليلتمسوا فيه ما يؤيد مذهبهم ولو بضرب من التعسف في الفهم والتأويل (٢)، والواقع أن الجمود يتعارض مع طبائع الأشياء ومع سنة التطور الذي يعد بمثابة قانون يخضع له كل ما في الوجود حتى الصخور كما يقرر علماء

---

(١) علم أصول الفقه وتاريخ التشريع الإسلامي / عبد الوهاب خلاف ص ٣٢٧.
(٢) أزمة الفكر السياسي الإسلامي / د. عبد الحميد متولي ١٢٩.

الجيولوجيا (١)، والجمود يؤدي دائما إلى الالتجاء للحيل التي توصف بالحيل الشرعية. للتخلص من اتباع أحكام الشريعة. بل وتعاليم الإسلام بوجه عام. بل والإقدام على ارتكاب بعض المحرمات وأنواع الفساد. وفي ذلك يقول ابن القيم: إن إقفال باب الاجتهاد أدى إلى التحايل. حتى وضعت الكتب في الحيل والمخارج للهروب من كل التزام. حتى تحايل بعضهم في إسقاط حد السرقة. وبعضهم لأخذ أموال الناس وظلمهم في نفوسهم وسفك دمائهم وإبطال حقوقهم وإفساد ذات بينهم " (٢).

ومع الجمود الذي جاء نتيجة لجفاف نهر العلم في مدرسة رفعت للرأي والأهواء أعلاما. ومع الحيل التي تزين كل شذوذ في عالم الفقيه الفاسق والإمام الجائر وقف الجميع تحت مظلة العذاب وهذه المظلة تجمع من ضربهم الخسف فلا يستطيعون مضيا ولا يرجعون. والخسف لا يضرب إلا الذين استقالوا من حركة الحياة وجلسوا في منطقة الصفر يهتفون للسلطان أمام كل مصلوب ويضربون بالدف حول كل قرد يأتيهم الدجال وهم على هذا الحال. يقول أبو حامد الغزالي: إن المعصية إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها. فإذا أعلنت ولم تغير أضرت بالعامة " (٣) وفي هذا الوقت في دولة بني العباس كانت الكلمة قد تمزقت. وانقسمت ممالك الأرض. وحكم الناس بالعسف والظلم والجور (٤)، وكان هذا كله مقدمة لمجئ التتار والسبب الرئيسي لهجوم التتار هو التعصب المذهبي بين الشافعية والحنفية (٥). وعندما جاء التتار أحاطوا بدار الخلافة ورشقوها بالنبال من كل جانب وقتل هولاكو الخليفة العباسي رفسا بالأقدام (٦)

---

(١) المصدر السابق ١٣٠.
(٢) أعلام الموقعين / ابن القيم ٢٥٤ / ٢.
(٣) إحياء علوم الدين ١١٩٥ / ٨.
(٤) تاريخ الخلفاء ٢٤٠.
(٥) مجلة المنار عدد السنة ١٣١٨ ه، ١٣١٩ ه، بحثا بعنوان: القول الصحيح في الرد على الشبهات ص ٢٠٥ وما بعدها، أزمة الفكر السياسي الإسلامي ص ١٢٧.
(٦) تاريخ الخلفاء ٤٣٤.

وبدولة بني العباس تفرقت الجماعة (١).
والنبي صلى الله عليه وآله وسلم كان قد أخبر بالغيب عن ربه وذكر هذا الهجوم التتاري الذي يسلطه الله على الظالمين. فقال: " يوشك خيل الترك مخرمة أن تربط بسعف نخل نجد " (٢)، وقال: " لتنزل طائفة من أمتي أرضا يقال لها البصرة، يكثر بها عددهم ويكثر بها نخلهم ثم يجئ بنو قنطوراء عراض الوجوه صغار العيون حتى ينزلوا على جسر لهم يقال لها دجلة (٣)، وفي رواية: كأن وجوههم المجان المطرقة. ينتعلون الشعر ويتخذون الدرق حتى يربطوا خيولهم بالنخل " (٤).
ومن الطريف أن يقال إن الجماعة تفرقت بدولة بني العباس. ووجه الطرافة أن الذين ضيعوا الصلاة واتبعوا الشهوات قد تفرقوا من زمن طويل حتى قبل مجئ دولة بني العباس. وكيف تكون هناك جماعة تحت رايات الجبرية والمرجئة. وسلاطين الاستبداد والظلم! إن الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم رفض شريحة زمنية على امتداد تاريخ الأمة. فلقد قيل له: يا رسول الله: أي الناس خير؟ قال: أنا ومن معي. فقيل له: ثم من؟ قال: الذي على الأثر فقيل له: ثم من؟ فرفضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم " (٥)، فهل معاوية وعمرو بن العاص والوليد بن عقبة وعبد الله بن أبي السرح ومروان بن الحكم كانوا معه؟ وهل بسر بن أرطأة وسمرة بن جندب ويزيد بن معاوية وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وعبد الملك بن مروان. كانوا على الأثر؟ هل الناكثون والقاسطون والمارقون كانوا معه أو كانوا على الأثر؟ كيف أمر بقتالهم إذن؟ هل أبناء عام ستين وما بعدها الذين ضيعوا لصلاة وأمر النبي بالاستعاذة بالله منهم

---

(١) المصدر السابق ٢٤٠.
(٢) رواه ابن قانع (كنز العمال ٢٣٩ / ١٤).
(٣) رواه أحمد (كنز ٢٣٩ / ١٤).
(٤) رواه أحمد وابن حبان وابن ماجة (كنز العمال ٢٠٦ / ١٤).
(٥) رواه أحمد ومسلم (الفتح الرباني ٢١٩ / ٢٣).

كانوا على الأثر؟ كيف أمر بالاستعاذة إذن؟
إن الجماعة لم يرفع أعلامها البغاة، ومن الطريف أيضا أن الإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب سأل ابن المبارك. من الجماعة؟ فقال ابن المبارك: أبو بكر وعمر. قال علي بن الحسين: قد مات أبو بكر وعمر. فقال ابن المبارك: فلان وفلان، فقال له: قد مات فلان وفلان. فقال ابن المبارك: أبو حمزة السكري جماعة! قال الترمذي: وأبو حمزة هو محمد بن ميمون وكان شيخا صالحا. وإنما قال هذا في حياته " (١).
إن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " يد الله مع الجماعة " (٢)، فبيد من قتل عمار وحجر بن عدي والحسين ومن معه وعلى يد من تم اجتياح المدينة وحوصرت مكة ورمي البيت بالحجارة؟ إن الذين كانوا مع النبي هو الذين لم يرفعوا السلاح في وجه حبل النبي وسبيله وساروا من بعده على الأثر وظهروا تحت شعاع نور السنة، فالنور لا يرى ولكن ترى به الأشياء.
إن الأمة بجميع فرقها ومذاهبها متفقة على الكتاب والسنة. ورغم ذلك اختلفت الأمة ضروبا من الاختلاف في الأصول والفروع. وتنازعوا فيها فنونا من التنازع في الواضح والمشكل من الأحكام والحلال والحرام والتفسير والتأويل والعيان والخبر والعادة الاصطلاح. والعمود الفقري لهذا الاختلاف ينحصر في: ممن تأخذ السنة؟ فهناك مدرسة نأخذ السنة من الصحابة. والصحابة عند هذه المدرسة ثقات عدول. والقرآن يرد على هذه المدرسة قولها. قال تعالى في نفر من الصحابة: (إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) (٣)، فالصحابة الذين رموا فراش رسول الله هل يستبعد عليهم أن يكذبوا على رسول الله؟ كيف يدخل دائرة العدول من أدخله الله في دائرة الإثم

---

(١) رواه الترمذي (الجامع ٤٦٧ / ٤).
(٢) رواه الترمذي (الجامع ٤٦٦ / ٤).
(٣) سورة النور: الآية ١١.

وأوعد من تولى كبره منهم عذابا عظيما؟ ويقول تعالى في طائفة أخرى منهم: (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) (١)، فهل يدخل دائرة العدول من ترك الصلاة وراء رسول الله يوم الجمعة وتركه قائما وانطلق إلى الطبل والتجارة؟ وروى البخاري حديث الارتداد وقد ذكرناه فيما سبق وفيه: " فأقول يا رب أصحابي أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك " (٢)، وروى أيضا: " إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك. إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى " (٣)، فهل المرتد ثقة؟ هل المرتد في دائرة العدول؟ وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) (٤)، فهل يجوز للذي لم يأتمنه الله على نبأ. أن تأتمنه الأمة على قيادتها؟ هل الفاسق يمكن أن يقود الناس إلى صراط الله؟ هل يجوز للفاسق أن يعلم الناس تأويل القرآن؟

وهناك مدرسة لا ترفع إلا أعلام النبي صلى الله عليه وسلم وتأخذ بسنته من الذين عينهم الله على لسان نبيه، وترى على طرف هذه المدرسة دموع أبي بن كعب وأبي ذر الغفاري والمقداد وسلمان الفارسي وترى عليها أيضا دماء عمار وحجر بن عدي، وترى أعلام الحسين ومن معه، وإذا كان هؤلاء جميعا حججا على الجيل الأول. وإذا كانت حركتهم دعوة للنجاة لينظر الله تعالى إلى عباده في القرن الأول كيف يعملون. فإنهم أيضا حجج على الحاضر وعلى المستقبل. لأن التاريخ وحدة واحدة تنقسم إلى ماض وحاضر ومستقبل فإذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها. ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها (٥)، فالحاضر يشارك الماضي في الإثم وإن بعدت المسافة بينهما. ولهذا كان حجج الجيل الأول كمفتاح في يد الحاضر يفتح به

---

(١) سورة الجمعة: الآية ١١.
(٢) البخاري (الصحيح ١٤١ / ٤) ومسلم (الصحيح ٥٩ / ١٧).
(٣) البخاري (الصحيح ١٤٢ / ٤).
(٤) سورة الحجرات: الآية ٦.
(٥) رواه أبو داوود حديث ٤٣٤٥.

خزانة الماضي ليبحث فيها عن الحقيقة، والحقيقة في يديه، وهذا من فضل الله عليه.
وهناك مدرسة ولدت في عالم الجمود وسهر عليها أساتذة التبشير والصهيونية. وهذه المدرسة تكتفي بإطلاق الأسماء الإسلامية على أبنائها في أغلب الأحيان. الإسلام عندهم اسم والقرآن رسم إذا رتلوا القرآن فانظر حولهم. حتما ستجد أما قبرا أو سرادق عزاء أو حفلة من حفلات النفاق التي يلبسون بها على شعوبهم. وتلاميذ هذه المدرسة عندهم جواب لكل سؤال. وكل جواب لبنة في صرحهم العتيق الذي أقاموه للصد عن سبيل الله. ولا يطلقون إجاباتهم إلا إذا اعتمدت من أساتذة التعتيم اليهود والنصارى وإذا كان أساتذة التعتيم قديما اعتمدوا مذهب الجبرية والمرجئة. فهم اليوم يتحركون بملابس نظيفة ويحملون حقائب أنيقة فيها جميع الأسئلة والأجوبة التي هدفها الصد عن سبيل الله ولكن تحت شعار حقوق الإنسان وتقديم الخدمات الاجتماعية. ونحن نطلق على أتباع هذه المدرسة اسم " الرويبضة " لأن مجال عملهم هو ساحة الذين لا يعلمون. الذين قتلوا العلم فأصابهم الجمود. والذين تركوا الطهر فوقعوا في الرجس ليلتقطهم النجس ثم ليقودهم النجس بعد ذلك إلى المسيح الدجال الذي ما صنعت فتنة منذ خلقت الدنيا إلا ستصب في إنائه آخر الزمان يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " إن أمام الدجال سنين خداعة يكذب فيها الصادق ويصدق فيها الكاذب. ويخون فيها الأمين ويؤتمن فيها الخائن. ويتكلم فيها الرويبضة "، قالوا: وما الرويبضة يا رسول الله؟ قال: التافه يتكلم في شؤون العامة " (١)، وفي رواية: الفاسق يتكلم في شؤون العامة (٢)، وفي رواية: السفيه يتكلم في شؤون العامة " (٣).

---

(١) رواه الحاكم دائرة الذهبي (المستدرك ٤٦١ / ٤).
(٢) رواه أحمد (كنز العمال ٢٢٩ / ١٤).
(٣) رواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرك ٥١٢ / ٤).

ثانيا – آراء وشهود

على امتداد هذا الكتاب علمنا أن تاريخ الإسلام هو تاريخ الدفاع عن الفطرة. ولم يترك النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلا وقد بين لهم حركة الأمم الماضية ليتدبروا فيها وليعلموا أن الإسلام منصور منصور منصور، فإذا أرادوا أن يقفوا تحت رايات هذا النصر فما عليهم إلا أن يتحركوا الحركة التي تستقيم معه، أما إذا أرادوا غير ذلك فما قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة منهم ببعيد، والدجال على الطريق، وعلمنا أيضا أن تاريخ المسلمين كان كغيره من تاريخ بني الإنسان فيه ضعف الإنسان وخوفه وفيه أيضا أصحاب النفس اللوامة الذين يتذكرون حركتهم فيلومون أنفسهم ويودون أنهم تحركوا الحركة التي يحبون أن ينظر الله إليهم وهم على طريقها.

ويخطئ من يظن أن حركة المسلمين على صفحة التاريخ لم تقدم جديدا للبشرية، فلقد رأينا حركة الذين دافعوا عن الفطرة وهذا في حد ذاته دفاع عن البشرية، وعلمنا حركة الذين نشروا الإسلام في ربوع العالم بوسائلهم البسيطة، فبعملهم هذا أقاموا ينابيع الماء الطاهر الذي يوفر الارتواء ويدعو إلى البحث، وعالم البحث لا يكون في دائرة مغلقة على الإيجابيات والمناقب، وإنما وجد البحث ليفتش بين الإيجابيات وبين السلبيات، وهذا في حد ذاته حركة بين الماضي والحاضر والمستقبل حركة تقرأ في أصول الإسلام وتنظر في حركة المسلمين، وليس هذا من أجل محاكمة التاريخ وإنما من أجل ضرب الباطل.

حتى يخرج الحق من جنبه، لأن الإسلام لا يجامل أحدا وطريقه إما إلى جنة وإما إلى نار.
وهناك فرق بين حركة المسلمين عبر تاريخهم وبين حركة أهل الكتاب على امتداد تاريخهم. روي أن بعض اليهود قال للإمام علي بن أبي طالب: ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه. فقال له الإمام: إنما اختلفنا عنه لا فيه، ولكنكم ما جفت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم " اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. قال: إنكم قوم تجهلون " (١)، إن الفرق يكمن في دائرة (عنه) وليس في دائرة (فيه) وهذا فرق جوهري عند المقارنة بين تاريخ المسلمين وبين تاريخ اليهود والنصارى. ونحن في هذا الباب سنقدم بعض آراء علماء المسلمين حول الأحداث التي ذكرناها على امتداد هذا الكتاب. ومنها نعلم كيف كانوا ينظرون إلى التاريخ. هل كانوا ينظرون إليه بعيون السلطان وفقهائه؟ أم كانوا ينظرون إليه من ثقوب الخوف أم نظروا إليه من خلال تاريخ الإسلام وخفقات الفطرة؟ ثم نقدم بعد ذلك أقوال الشهود الذين عاصروا هذه الأحداث.

١ - آراء....

* نلقي الضوء هنا على رأي شيخ المسلمين أحمد بن تيمية في الأحداث التي عصفت بالأمة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. ولقد بينا رأي الشيخ أبي زهرة في ابن تيمية حامل لواء مذهب السلفية. وكذا رأي ابن حجر الهيثمي (٩٠٩ - ٩٧٤ ه) الذي ذكر أن ابن تيمية قال: إن عليا أخطأ في أكثر من ثلاثمائة مكان " (٢)، وقبل أن نقدم رأي ابن تيمية في الأحداث نرى من الضروري أن نلقي بعض الضوء على حركته في عصره. ذكر ابن كثير في البداية والنهاية: أن العلماء كان منهم من يحسده لتقدمه عند الدولة ومنهم من كان يبغضه لآرائه، وذكر أنه خلال اجتياح التتار لدمشق اجتمع ابن تيمية مع أعيان البلد واتفقوا على

---

(١) الكشاف / للزمخشري ١٥٠ / ٢، نهج البلاغة خطبة ٣١٧ / ٤.
(٢) الفتاوى الحديثية ١١٦.

المسير إلى القائد التتاري وأخذ الأمان منه لأهل دمشق، وأعطاه القائد الأمان، ونزلت خيول التتار إلى المدينة وطلبوا السلاح والأموال المخبأة عند الناس من جهة الدولة، وعندما قام التتار بالتخريب في المدينة وما حولها ذهب ابن تيمية إلى ملك التتر وعاد بعد يومين، وفي هذه الفترة كان التتار قد قتلوا الكثير من الفقهاء والمشايخ وعلى وجه الخصوص في دير الحنابلة (١). ويقول ابن كثير: وفي جمادى الأولى وقع بيد نائب سلطان المسلمين كتاب فيه: إن الشيخ تقي الدين بن تيمية والقاضي شمس الدين بن الحريري. وجماعة من الأمراء والخواص الذين بباب السلطنة يناصحون التتر ويكاتبونهم، ويريدون تولية قبجق على الشام. وأن الشيخ كمال الدين الزملكاني يعلمهم بأحوال الأمير. ثم ذكر ابن كثير أن هذا الكتاب مزور (٢). فزيارات ابن تيمية كلها للتتار كانت في صالح الإسلام والمسلمين. وذكر ابن كثير: عندما حضر ابن تيمية إلى القاهرة، اشتكى منه الصوفية وردوا الأمر في ذلك إلى القاضي الشافعي. فعقد له مجلسا. وفي أثناء ذلك قال ابن تيمية: لا يستغاث إلا بالله ولا يستغاث بالنبي. فرأى القاضي الشافعي أن هذا فيه قلة أدب، وحضرت رسالة إلى القاضي أن يعمل معه ما تقتضيه الشريعة. فقال القاضي: " قد قلت له ما يقال لمثله " (٣).

ورأى ابن تيمية في الأحداث نبدأه من عقيدته في أهل البيت. يقول: آية التطهير ليس فيها إخبار بطهارة أهل البيت وذهاب الرجس عنهم (٤)، وقال في حديث الكساء: إن مضمون هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لهم بأن يذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيرا. وغاية ذلك أن يكون دعا لهم بأن يكونوا من المتقين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. واجتناب الرجس واجب على المؤمنين والطهارة مأمور بها كل مؤمن (٥)، والسابقون

---

(١) البداية والنهاية ٧، ٨، ٩، ٢٢، ٤٥ / ١٤.
(٢) وهذه التهمة ظلت لصيقة بابن تيمية وعالقة في أذهان شيوخ عصره.
(٣) المصدر السابق ٤٩ / ١٤.
(٤) منهاج السنة ١١٧ / ٢.
(٥) المصدر السابق ٤ / ٣.

الأولون لا بد وأن يكونوا قد فعلوا المأمور وتركوا المحظور. وحينئذ فيكون ذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم من الذنوب بعض صفاتهم (١)، ثم يقول في آية المودة: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) (٢)، قال: إيجاب المودة غلط (٣) ثم بدأ يفسر حتى استقر عند قوله: ثبت أن الصديق كان أتقى الأمة بالكتاب والسنة وتواتر عن النبي أنه قال: لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، وقال في آية المباهلة: (قل تعالوا ندع أبناءنا) لا يقتضي أن يكون من باهل بهم الرسول أفضل من جميع الصحابة (٤).

ثم يقول في الأحداث مبررا لاقتحام أبي بكر لبيت فاطمة بعد أحداث السقيفة: غاية ما يقال: إنه كبس البيت لينظر هل فيه شئ من مال الله الذي يقسمه لكي يعطيه لمستحقه، ثم رأى أنه لو تركه لهم لجاز فإنه يجوز أن يعطيهم من مال الفئ (٥). لاحظ أن ابن تيمية لا يقول إلا رأيا ولا يستند في ذلك على حديث أو أثر وهذا من شأنه في رؤيته للتاريخ. ثم يقول عن عهد عمر: كان عمر يسوغ التفضيل من الصحابة في العطاء للمصلحة. فهو الذي ضرب الله الحق على لسانه وقبله (٦)، ثم يقول في قتل عمر: وما فعله أبو لؤلؤة كرامة في حق عمر. وهو أعظم مما فعله ابن ملجم بعلي وما فعله قتلة الحسين به. فإن أبا لؤلؤة كافر قتل عمر. وهذه الشهادة أعظم من شهادة من يقتله مسلم (٧). وقال: إن عمر لما فتح الأمصار بعث علماء الصحابة إليهم لبث العلم. واتصل العلم من أولئك إلى سائر المسلمين. ولم يكن ما بلغه علي بن أبي طالب للمسلمين أعظم مما بلغه ابن مسعود ومعاذ وأمثالهما. ولو لم يحفظ الدين إلا بالنقل عن

---

(١) المصدر السابق ٤ / ٣.
(٢) سورة الشورى: الآية ٢٣.
(٣) منهاج السنة ٨ / ١.
(٤) منهاج السنة ٣٥ / ٤.
(٥) المصدر السابق ٢٢٠ / ٤.
(٦) المصدر السابق ١٥٣ / ٣.
(٧) المصدر السابق ١٣٧ / ٣.

علي بن أبي طالب لبطل عامة الدين لأنه لم ينقل عن علي إلا أمر قليل لا يحصل به المقصود (١).

وإذا كان ابن تيمية يعتقد بأن الله أذهب الرجس من الصحابة وطهرهم تطهيرا على الرغم من قول الله تعالى للذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) (٢)، وقوله في أئمة الكفر: (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم) (٣)، وعلى الرغم من أن بعض الصحابة رموا فراش رسول الله بحديث الإفك وعلى الرغم من حديث البخاري الذي يصرح بارتداد بعضهم بعد وفاة الرسول، فإن ابن تيمية فتح أبواب الجنة واعتبر أن جميع الجرائم التي حدثت بعد وفاة الرسول. كانت نابعة من الاجتهاد ولا عقاب على الذين ارتكبوها يوم القيامة، وهذا تطرف في الرأي يفوق تطرف المرجئة في رأينا على الأقل، يقول ابن تيمية: إن أهل السنة عندهم أن أهل بدر كلهم في الجنة... وأهل السنة يقولون: إن أهل الجنة ليس من شرطهم سلامتهم عن الخطأ بل ولا عن الذنب. بل يجوز أن يذنب الرجل منهم ذنبا صغيرا أو كبيرا ويتوب منه، ولو لم يتب فالصغائر تمحى باجتناب الكبائر. بل أن الكبائر تحمى بالحسنات التي هي أعظم منها (٤)، وقال: الواجب على كل مسلم أن يعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء الصحابة (٥). فإن الهدى يدور مع الرسول حيث دار ويدور مع الصحابة حيث داروا فإذا اجتمعوا لم يجتمعوا على خطأ قط (٦).

ويقول على عهد عثمان: أما رد عثمان للحكم بن أبي العاص فغاية ذلك

---

(١) منهاج السنة ٢٧٢ / ٣.
(٢) سورة الفتح: الآية ١٠.
(٣) سورة التوبة: الآية ١٢.
(٤) منهاج السنة ١٨٤ / ٢.
(٥) المصدر السابق ٦٦ / ٣.
(٦) المصدر السابق ٦٦ / ٣.

أن يكون اجتهادا اجتهده عثمان، وفي رده لصاحبه أجر مغفور له، أو ذنب له أسباب كثيرة توجب غفرانه (١). ويقول: عثمان ولى من يعلم أن غيره أصلح منه، وهذا من الاجتهاد، أو يقال إن محبته لأقاربه ميلته إليهم حتى صار يظنهم أحق من غيرهم. وإن ما فعله كان ذنبا وإن ذنبه لا يعاقب عليه في الآخرة!! (٢).
ويقول: في خلافة عثمان توسع الأغنياء حتى زاد كثير منهم على قدر المباح في المقدار والنوع. وتوسع أبو ذر في الانكار (٣). واحتج أبو ذر بما لا حجة فيه من الكتاب والسنة (٤). وكان أبو ذر يريد أن يوجب على الناس ما لم يوجب الله عليهم. ويذمهم على ما لم يذمهم الله عليه (٥). وليس معنى أن أبا ذر أصدق الناس أنه أفضل من غيره... فأهل الشورى مؤمنون أقوياء وأبو ذر وأمثاله مؤمنون ضعفاء (٦). ثم يقول عن جريمة مروان بن الحكم التي أدت إلى قتل عثمان: غاية ما قيل: إن مروان كتب كتابا بغير علم عثمان، وإن أهل مصر طالبوا عثمان أن يسلم إليهم مروان فامتنع، فإن كان قتل مروان لا يجوز فقد فعل عثمان الواجب، وإن كان يجوز ولا يجب فقد فعل عثمان الجائز، وإن كان قتله واجبا فعدم تسليمه من موارد الاجتهاد (٧). وغاية الأمر أن يكون مروان قد أذنب في إرادته قتلهم، ولكن لم يتم غرضه، ومن سعى في قتل إنسان ولم يقتله لم يجب قتله، فما كان يجب قتل مروان بمثل هذا (٨).
ثم يقول عن دور عائشة في الأحداث: هب أن عائشة قالت: اقتلوا نعثلا، فإن هذا القول لا نكارة فيه، فليس القول قدحا فلا إيمان القائل ولا المقول له،

---

(١) المصدر السابق ٢٣٦ / ٣.
(٢) المصدر السابق ١٨٧ / ٣.
(٣) منهاج السنة ١٩٩ / ٣.
(٤) المصدر السابق ١٩٨ / ٣.
(٥) المصدر السابق ١٩٩ / ٣.
(٦) المصدر السابق ١٩٩ / ٣.
(٧) المصدر السابق ١٨٨ / ٣.
(٨) المصدر السابق ١٩٠ / ٣.

بل كلاهما ولي الله من أهل الجنة (١). وقال: إذا ثبت أن عائشة أو عمارا أو غيرهما كفرا آخر من الصحابة عثمان أو غيره. أو أباح قتله على وجه التأويل. لم يقدح ذلك فلا إيمان واحد منهم ولا في كونه من أهل الجنة (٢).

ويقول ابن تيمية في علي بن أبي طالب: لم يكن لعلي في الإسلام أثر حسن إلا ولغيره مثله ولبعضهم آثار أعظم من آثاره (٣). وقال: كثير من الصحابة أشجع من علي وأبو بكر وعمر كانا أكثر جهادا منه (٤). وعلي تعلم من أبي بكر السنة ولم يتعلم أبو بكر من علي شيئا (٥). وأبو بكر وعمر لا يضاهيهما أحد في الزهد وكانوا فوق علي في ذلك (٦). وقال: إن الله أخبر أنه سيجعل للذين آمنوا وعملوا الصالحات ودا وهذا وعد منه صادق ومعلوم. والله قد جعل للصحابة مودة في قلب كل مسلم لا سيما الخلفاء أبو بكر وعمر فإن عامة الصحابة والتابعين كانوا يودونهم وكانوا خير القرون، ولم يكن ذلك علي بن أبي طالب فإن كثيرا من الصحابة والتابعين كانوا يبغضونه ويسبونه ويقاتلونه (٧)، وقال عن ثقافة السب: فهذا كله سواء كان ذنبا أو اجتهادا أو مخطئا أو عاصيا، فإن مغفرة الله ورحمته تتناول ذلك بالتوبة والحسنات الماضية (٨). وقال: كان علي صغيرا ليلة المعراج لم يحصل له هجرة ولا جهاد، والأنبياء السابقون لم يذكروا عليا في كتبهم، بل ذكر أن المقوقس كان عنده تابوت به صور الأنبياء وصورة أبي بكر وعمر مع صورة النبي!! (٩).

---

(١) المصدر السابق ١٨٨ / ٢.
(٢) المصدر السابق ١٨٩ / ٢.
(٣) المصدر السابق ٥٤ / ٤.
(٤) المصدر السابق ١٦٦ / ٤.
(٥) المصدر السابق ١٣٧ / ٤.
(٦) المصدر السابق ١٣٠ / ٤.
(٧) المصدر السابق ٣٨ / ٤.
(٨) المصدر السابق ٢٢٤ / ٢.
(٩) المصدر السابق ٤٦ / ٤.

وقال عن يوم الجمل: لم يكن قتال علي يوم الجمل وصفين بأمر النبي (١) وإنما كان رأيا رآه (٢). وعندما خرجت عائشة يوم الجمل لم تتبرج تبرج الجاهلية. والأمر بالاستقرار في البيوت لا ينافي الخروج لمصلحة مأمور بها (٣).
ثم وصف القتال فقال: لم يكن يوم الجمل لهؤلاء قصد في القتال، ولكن وقع الاقتتال بغير اختيارهم، لقد خشي القتلة أن يتفق علي مع عائشة، فحملوا على معسكر طلحة والزبير، فظن طلحة أن عليا حمل عليهم، فحملوا دفعا عن أنفسهم، فظن علي أنهم حملوا عليه، فحمل دفعا عن نفسه، فوقعت الفتنة بغير اختيارهم وعائشة راكبة!! (٤)، ثم يقول شيخ المسلمين: يوم الجمل إذا كان قد وقع خطأ أو ذنب من أحد الفريقين أو كليهما، فقد عرفنا أن هذا لا يمنع ما دل عليه الكتاب والسنة من أنهم خيار أولياء الله المتقين وعباده الصالحين وأنهم من أهل الجنة (٥).
ثم يقول عن صفين: كان علي عاجزا عن الحق والعدل، وليس لأهل الشام أن يبايعوا عاجزا عن العدل (٦). لقد بادر علي بعزل معاوية ولم يكن يستحق العزل (٧). إن أهل الشام خير الناس للإسلام. ومعاوية كان خيرا من كثير: فلم يكن يستحق أن يعزل ويولى من هو دونه (٨). وقال شيخ المسلمين: من قاتل عليا إن كان باغيا فليس ذلك بمخرجه من الإيمان ولا موجبا له النيران ولا مانعا له من

---

(١) أخرج أحمد والحاكم بسند صحيح قول النبي لعلي: " إنك تقاتل على القرآن كما قاتلت على تنزيله ".
(٢) المصدر السابق ٢٣١ / ٢.
(٣) المصدر السابق ١٨٦ / ٢.
(٤) المصدر السابق ١٨٥ / ٢.
(٥) المصدر السابق ٢٤١ / ٣.
(٦) المصدر السابق ٢٠٣ / ٢.
(٧) المصدر السابق ٢٢٢ / ٢.
(٨) المصدر السابق ٢٢٣ / ٢.

الجنان (١)، وقال: القول بأن أول من يدخل النار مبغض علي وأن أول من يدخل الجنة محبه..، هل تعلق السعادة والشقاوة بمجرد حب علي دون حب الله ورسوله إلا كتعلقها بحب أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية رضي الله عنهم (٢). وقال: إن عليا ليس قائدا لكل البررة ولا هو أيضا قاتلا لكل الكفرة، وكذلك القول: منصور من نصره فهو خلاف الواقع... فمن المعلوم أن الأمة كانت منصورة في عصور الخلفاء الثلاثة... فلما قتل عثمان... لم يكن الذين قاتلوا مع علي منصورين.. بل أولئك الذين انتصروا عليه عندما صار الأمر إليهم لما تولى معاوية انتصروا على الكفار وفتحوا البلاد (٣) والعسكر الذين قاتلوا مع معاوية ما خذلوه قط في قتال علي. فكيف يكون النبي قال له: اللهم اخذل من خذله؟ (٤)، ولو كان حرب علي حربا للرسول ولله تعالى لوجب أن يغلب محارب رسول الله، ولم يكن الأمر كذلك، فقد طالب علي مسالمة معاوية ومهادنته وأن يكف عنه (٥). إن عليا قاتل على الخلافة حتى غلب وسفك الدماء بسبب المنازعة التي بينه وبين منازعه، ولم يحصل بالقتال لا مصلحة الدين ولا مصلحة الدنيا (٦). واجتهاد علي في سفك دماء المسلمين بعضهم بعضا ذل المؤمنين (٧). إن الخلفاء الثلاثة اتفق المسلمون عليهم، وكان السيف في زمانهم مسلولا على الكفار أما علي بن أبي طالب فلم يتفق المسلمون عليه وكان السيف في مدته مكفوفا عن الكفار مسلولا على أهل الإسلام (٨). إن الله أظهر الدين على أيدي الخلفاء الثلاثة وعلي لم يظهر الدين في خلافته (٩). ولم يكن في

---

(١) المصدر السابق ٢٠٥ / ٢.
(٢) المصدر السابق ١٠٧ / ٤.
(٣) المصدر السابق ٦ / ٤.
(٤) المصدر السابق ١٧ / ٤.
(٥) السابق ٢٣٤ / ٢.
(٦) المصدر السابق ١٢١ / ٤.
(٧) المصدر السابق ٢٢٣ / ٢.
(٨) المصدر السابق ١٤٨ / ٢.
(٩) المصدر السابق ١٣٨ / ٢.

خلافة علي للمؤمنين الرحمة التي كانت في زمن عمر وعثمان، بل كانوا يقتتلون ولم يكن لهم على الكفار سيف، فكيف يظن مع هذا تقدم علي في هذا الوصف على أبي بكر وعمر وعثمان (١). ثم قال: وبعد علي لم يعرف أحد إلا أهل السنة الذين نصروا دين الله (٢).

ثم يقول شيخ المسلمين عن قتل معاوية للحسن: إن كان معاوية دس السم للحسن فهو من باب قتال بعضهم بعضا، وقتال المسلمين بعضهم بعضا بتأويل باب عظيم – أي لا يمنعهم من دخول الجنة (٣). ثم يقول عن استخلاف يزيد: أهل السنة يعتقدون أن يزيد ملك جمهور المسلمين وكان خليفتهم في زمانهم (٤). ولقد كان كل واحد من الخلفاء إماما وخليفة وسلطانا (٥). وأهل السنة إذا اعتقدوا إمامة واحد من هؤلاء يزيد أو عبد الملك أو المنصور كان بهذا الاعتبار، ومن نازع في هذا فهو شبيه بمن نازع في ولاية أبي بكر وعمر وعثمان (٦). وقال: إن يزيد رغم ما فيه من ظلم وقتل وفعل ما فعل يوم الحرة، فإنه لا يخرج عليه لأن من لم يكن مطيعا لولاة الأمور مات ميتة جاهلية (٧).

وقال شيخ المسلمين في قتل الحسين: قالوا للحسين: لا تخرج. وهم بذلك قاصدون نصيحته ومصلحة المسلمين والله ورسوله يأمر بالصلاح لا بالفساد، فتبين أن الأمر على ما قاله هؤلاء، إذ لم يكن في خروج الحسين مصلحة لا في دين ولا في دنيا (٨)، وقال عن جهاد الحسن والحسين: جهاد

---

(١) المصدر السابق ٢٢٨ / ٢.
(٢) المصدر السابق ١٣٨ / ٢.
(٣) المصدر السابق ٢٢٥ / ٢.
(٤) المصدر السابق ٢٣٩ / ٢.
(٥) المصدر السابق ٢٣٩ / ٢.
(٦) المصدر السابق ٢٤ / ٢.
(٧) المصدر السابق ٣٧ / ١.
(٨) المصدر السابق ٢٤١ / ٢.

الحسنين في سبيل الله كذب عليهما (١). وقال عن قتل الحسين: قتل الحسين لم يجلب فسادا على الأمة (٢). وقال: لم يعظم إنكار الأمة لقتل الحسين كما عظم لقتل عثمان، ولا انتصر له جيوش كالجيوش التي انتصرت لعثمان، ولا انتقم أعوانه من أعدائه كما انتقم أعوان عثمان من أعدائه، ولا حصل بقتله من الفتن والشرور والفساد ما حصل بقتل عثمان ولا كان قتله أعظم إنكارا عند الله ورسوله وعند المؤمنين من قتل عثمان (٣). وقال: " إن عثمان أعظم أجرا. وقتلته أعظم إثما ممن لم يكن متوليا فخرج يطلب الولاية ولم يتمكن حتى قتل، ولا ريب أن قتال الدافع عن نفسه وولايته أقرب من قتال الطالب لأن يأخذ الأمر من غيره، وعثمان ترك القتال دفعا عن نفسه وولايته أقرب من الحسين (٤).

ثم يقول: من قال إن عثمان كان مباح الدم، لم يمكنه أن يجعل عليا معصوم الدم ولا الحسين، فإن عصمة دم عثمان أظهر من عصمة دم الحسين، وعثمان أبعد من موجبات القتل من علي والحسين، وشبهة قتل عثمان أضعف بكثير من شبهة قتل علي والحسين فإن عثمان لم يقتل مسلما ولا قاتل أحدا على ولايته (٥). ثم يقول: كان المنتصرون لعثمان معاوية وأهل الشام، والمنتصرون من قتلة الحسين المختار، ولا يشك عاقل أن معاوية خير من المختار (٦).

وعمر بن سعد قائد السرية التي قتلت الحسين لم يصل في الجرم إلى ما وصل إليه المختار الذي تتبع قتلة الحسين (٧). وفي الختام يقول: إن عثمان تاب توبة ظاهرة من الأمور التي صاروا يذكرونها ويظهر له أنها منكرة. وكذلك عائشة ندمت على مسيرها إلى البصرة وكانت إذا ذكرته تبكي حتى تبل خمارها، وطلحة

---

(١) المصدر السابق ١١٨ / ٢.
(٢) المصدر السابق ١٦٤ / ١.
(٣) المصدر السابق ١٨٨ / ٢.
(٤) المصدر السابق ١٨٨ / ٢.
(٥) المصدر السابق ١٢٩ / ٣.
(٦) المصدر السابق ١٨٨ / ٢.
(٧) المصدر السابق ١٦٥ / ١.

والزبير ندما على مسير يوم الجمل (١). ولم يقل لنا الشيخ لماذا كان الندم؟ هل لأنهم كانوا على حق أم أن خصمهم هو صاحب الحق؟

كان هذا مجمل رأي ابن تيمية وفي إمكاننا أن نعارضه بالأدلة التي لا تدفع ولا ترد، ولقد ذكرنا على امتداد هذا الكتاب ما فيه كفاية للرد على هذا الكلام وغيره، ولقد حرصت على أن أعرض وجهة نظر الشيخ حتى يعلم الحاضر حقيقة الأمور من حوله وهو يأخذ بخيوط البحث عن الحقيقة، ولقد تبين لنا أن ابن تيمية يصادر الأصول ولا يقيم لها وزنا إذا تعارضت مع آرائه. وقد وصفه الشيخ ناصر الدين الألباني بأنه " متسرع في تضعيف الأحاديث قبل أن يجمع طرقها ويدقق النظر فيها " (٢)، وقال في حديث استنكره ابن تيمية: " استنكره شيخ الإسلام ولو صحت عن رسول الله لم نعبأ باستنكاره " (٣)، ويقول الشيخ محمد الكوثري قاضي الدولة العثماني عن تضعيف ابن تيمية للأحاديث وعن آرائه التي تخالف النصوص: فمثل هذا الشيخ الحراني لا يمكن أن يوزن في كفة وأئمة علوم شتى المذاهب في كفة أخرى، إن ما ألفه ابن تيمية في أواخر عمره متوغل في الفساد " (٤).

ولقد أخذ ابن تيمية على عاتقه التشكيك في كل حديث يتعلق بأهل البيت حتى ولو كان هذا الحديث في الصحاح، وعلى سبيل المثال قال في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن علي " إنه لعهد النبي الأمي إلي أنه لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق "، قال: في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق (بغض الأنصار. وقال: لا يبغض الأنصار رجل مؤمن بالله واليوم الآخر. فإن هذه الأحاديث أصح مما يروى عن علي أنه قال: لعهد النبي الأمي إلي... "، فإن هذا الحديث رواه مسلم.

---

(١) المصدر السابق ١٨١ / ٣.
(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣٤٤ / ٤ ط المكتب الإسلامي.
(٣) المصدر السابق ٤٠٠ / ٤.
(٤) صفات البرهان / الكوثري ص ٣٠.

والبخاري أعرض عنه بخلاف أحاديث الأنصار... وأهل العلم شكوا في حديث علي (١). ولم يذكر الشيخ من هم أهل العلم الذين شكوا في أحاديث الإمام مسلم؟ ولو صح هذا لانهدم جانب كبير من السنة، وقال الشيخ أيضا في حديث الثقلين كتاب الله فذكر كتاب الله وحض عليه ثم قال: وعترتي أهل بيتي أذكركم الله – ثلاثا. قال الشيخ: هذا مما انفرد به مسلم ولم يروه البخاري، والحديث الذي رواه مسلم إذا كان النبي قد قاله، فليس فيه إلا الوصية باتباع كتاب الله، وهذا أمر قد تقدمت الوصية به في حجة الوداع قبل ذلك، وهو لم يأمر باتباع العترة!! (٢).

وإذا كان ابن تيمية يرد كل شئ إلى البخاري ويشكك في الحديث الذي يرويه مسلم ولم يروه البخاري، فإننا نجده يشكك في البخاري نفسه عندما روى حديثا لم يصادف هوى ابن تيمية. روى البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ويح عمار. تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار "، فقال الشيخ: حديث عمار " تقتلك الفئة الباغية "، رواه مسلم ورواه البخاري، ولكن البخاري في كثير من النسخ لم يذكره تاما (٣). وعندما لم يجد مفرا قال: ولكن لا يختلف أهل العلم بالحديث أن هذه الزيادة " يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار " هي في الحديث (٤). لقد وضع الشك أولا ليتأرجح الباحث بين الحقيقة والخيال. وشكك أيضا في أقوال أحمد بن حنبل فقال: وأحمد بن حنبل لم يقل إنه صح لعلي من الفضائل ما لم يصح لغيره، بل أحمد أجل من أن يقول مثل هذا الكذب (٥). وشكك في حديث " وأنذر عشيرتك الأقربين " الذي رواه أحمد وغيره بسند صحيح كما ذكرنا من قبل، وطعن في الترمذي والنسائي وقال: رويا أحاديث ضعيفة في فضل

---

(١) منهاج السنة ص ٤٠ / ٤.
(٢) منهاج السنة ٨٥ / ٤.
(٣) منهاج السنة ٢١٠ / ٢.
(٤) المصدر السابق ٢١١ / ٢.
(٥) المصدر السابق ٩٩ / ٤.

علي (١)، وطعن في تفسير ابن جرير وابن أبي حاتم والثعلبي والبغوي (٢). والواحدي وابن حميد وعبد الرزاق (٣)، وأبي نعيم (٤) والكلبي (٥) والديلمي (٦) والحاكم وابن عبد ربه وابن عقدة (٧) وابن خلويه (٨) وابن عساكر (٩) وابن إسحاق (١٠) وجريمة هؤلاء جميعا في نظر ابن تيمية أنهم رووا أحاديث في فضل أهل البيت. حتى أنه قال في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بسند صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيد حسن وحسين وقال: من أحبني وأحب هذين وآباهما وأمهما فهو معي في درجتي يوم القيامة "، قال الشيخ: وبتقدير أن يكون أحمد روى الحديث فمجرد رواية أحمد لا توجب أن يكون صحيحا يجب العمل به، بل الإمام أحمد روى أحاديث كثيرة ليعرف ويبين للناس ضعفها!! (١١)

مما سبق نعلم أن الشيخ لجم العقل ولم يجعل فيه نافذة مفتوحة إلا لاستقبال رأيه فقط، ونحن فيما سبق دعونا الله أن يرحم العلماء الذين جمعوا لنا الحديث لأنهم بهذا العمل وضعوا أمام العقل في كل مستقبل المادة الغزيرة التي من خلالها يتم البحث عن الحقيقة، ولكن الأمر مختلف عن ابن تيمية. لقد جاهد من أجل أن يري الناس ما يراه مبينا لهم أن أي حديث لا يعرفه هو فليس بحديث، وعلى أي حال إذا كانت هذه المحاولة قد حققت نجاحا في فترة من

---

(١) المصدر السابق ٤٨ / ٤.
(٢) المصدر السابق ٨٠ / ٤.
(٣) المصدر السابق ٤ / ٤.
(٤) المصدر السابق ١٠ / ٤.
(٥) المصدر السابق ١٨ / ٤.
(٦) المصدر السابق ٣٨ / ٤.
(٧) المصدر السابق ٩٩ / ٤.
(٨) المصدر السابق ١٠٦ / ٤.
(٩) المصدر السابق ١١١ / ٤.
(١٠) المصدر السابق ٤٨ / ٤.
(١١) المصدر السابق ١٠٦ / ٤.

الزمان، ألا أنه بالتأكيد لن يكتب له الخلود.
* ويقتضي الأمر أن نبين رأي المعتزلة في الأحداث كما بينا الرأي السلفي الذي يمثله ابن تيمية. يقول ابن أبي الحديد المعتزلي.
فأما علي كرم الله وجهه فإنه عندنا بمنزلة الرسول في تصويب قوله والاحتجاج بفعله ووجوب طاعته، ومتى صح عنه أنه قد برئ من أحد من الناس برئنا منه كائنا من كان، ولكن الشأن في تصحيح ما يروى عنه فقد كثر الكذب عليه... وأما براءته كرم الله وجهه من المغيرة وعمرو بن العاص ومعاوية فهو عندنا معلوم جار مجرى الأخبار المتواترة، فلذلك لا يتولاهم أصحابنا، ولا يثنون عليهم، وهم عند المعتزلة في مقام غير محمود (١)، وقال ابن أبي الحديد:
فأما الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين ولوا الإمامة قبله فلو أنه أنكر إمامتهم وغضب عليهم وسخط فعلهم فضلا عن أن يشهر عليهم السيف أو يدعو إلى نفسه لقلنا: إنهم من الهالكين كما لو غضب عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه قد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: " حربك حربي وسلمك سلمي " وقال: " اللهم والي من والاه وعادي من عاداه "، وقال: " لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق "، ولكنا رأيناه رضي إمامتهم فلم يكن لنا أن نتعدى فعله ولا نتجاوز ما اشتهر عنه، إلا ترى أنه لما برئ من معاوية برئنا منه ولما لعنه لعناه، ولما حكم بضلال أهل الشام ومن كان فيهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص وعبد الله ابنه وغيرهما حكمنا أيضا بضلالهم، والحاصل: أنا لم نجعل بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم إلا رتبة النبوة. وأعطيناه كل ما عدا ذلك من الفضل والمشترك "، ولم نطعن في أكابر الصحابة الذين لم يصح عندنا أنه طعن فيهم، وعاملناهم بما عاملهم به (٢).
قال ابن أبي الحديد: لو نازع عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وسل سيفه لحكمنا بهلاك كل من خالفه وتقدم عليه، كما حكمنا بهلاك

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد ٧٦٤ / ٥.
(٢) المصدر السابق ٨٨١ / ٥.

من نازعه حين أظهر نفسه، ولكنه مالك الأمر وصاحب الخلافة، إذا طلبها وجب علينا القول تنسيق من ينازعه فيها، وإذا أمسك عنها وجب القول بعدالة من أغضى له عليها، وحكمه في ذلك حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه قد ثبت عنه في الأخبار الصحيحة أنه قال: " علي مع الحق والحق مع علي يدور حيثما دار " وقال له غير مرة: " حربك حربي وسلمك سلمي " وهذا المذهب هو أعدل المذاهب عندي وبه أقول (١).

وقال: ومذهب أصحابنا من البغداديين أنه الأفضل والأحق بالإمامة وأنه لولا ما يعلمه الله ورسوله من أن الأصلح للمكلفين من تقديم المفضول عليه لكان من تقدم عليه هالكا، فرسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره أن الإمامة حقه، وأنه أولى بها من الناس أجمعين، وأعلمه أنه في تقديم غيره وصبره على التأخر عنها مصلحة راجعة إلى المكلفين، وأنه يجب عليه أن يمسك عن طلبها ويغض عنها لمن هو دون مرتبته، فامتثل ما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يخرجه تقدم من تقدم عليه من كونه الأفضل والأولى والأحق (٢).

ومعنى هذا أن قول النبي صلى الله عليه وسلم: " من كنت مولاه فعلي مولاه " فيه إشارة إلى مخاطبة دائرة الاختيار والإرادة عند الصحابة. بمعنى إذا أردتم سلوك طريقي والنجاة من الفتن التي حدثتكم عنها فهذا هو طريق ولا إجبار في دين الله، وهذا أصل في حكمة الوجود وخلافة الوجود وخلافة الإنسان في الأرض، فحركة الإنسان تدور في فلك عظيم لينظر الله كيف يعملون ويترتب على هذا العمل إما الثواب وإما العقاب وليس معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: " من كنت مولاه فعلي مولاه " أنه اكتفى بمخاطبة دائرة الاختيار عن الصحابة، لا فلقد روى في أحاديث صحيحة قوله: " فإنه مني وأنا منه وهو وليكم بعدي " فهناك خاطب ملكة الاختيار وهنا ثبت الأمر في هذه الملكة.

وقال ابن أبي الحديد في حروب الإمام: كان لا يستعمل في حربه إلا ما

---

(١) المصدر السابق ٤٨٠ / ١.

(٢) المصدر السابق ٤٨٠ / ١.

وافق الكتاب والسنة، وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنة ويستعمل جميع المكايد حلالها وحرامها ويسير في الحرب بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى، وعلي يقول: لا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم ولا تتبعوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تفتحوا بابا مغلقا.. فعلي كان ملجما بالورع من جميع القول إلا ما هو لله عز وجل رضا، وممنوع اليدين من كل بطش إلا ما هو لله رضا، ولا يرى الرضا إلا فيما يرضاه الله ويحبه، ولا يرى الرضا إلا فيما دل عليه الكتاب والسنة (١).

وبعد أن ألقينا شعاعا من الضوء على رأي المعتزلة في الخطوط العريضة للأحداث نقدم هنا رأي الأستاذ سيد قطب صاحب " في ظلال القرآن " ورأيه الذي سنقدمه جاء في كتاب " كتب وشخصيات " (٢)، وفي هذا الكتاب يعلق سيد قطب على بعض الكتب المختارة فيقول: حلقة من سلسلة (اقرأ) استعرض فيها الأستاذ شفيق جبري بعض الواقف والمواقع من تاريخ صدر الإسلام وتاريخ بني أمية مبرزا فيها العنصر النفسي الذي قامت عليه ليكشف عن دراية صاحب الموقف أو الموقعة بذلك العنصر النفسي أو عدم درايته وعن أثر العلم بهذا العنصر أو الجهل به في هذا الموقف أو الموقعة، ويقول سيد قطب عن إحدى ملاحظات الكاتب:

" أما الملاحظة الثانية فتبدو على أتمها في الحكم على موقف عمر بن الخطاب من العهد بالخلافة، وندع المؤلف يبين رأيه في هذه السطور: " مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه الذي قبض فيه، فأمر أبا بكر أن يصلي، بالناس... ثم كان أمر السقيفة ما كان... ثم مرض أبو بكر المرض الذي مات فيه، فاستخلف على المسلمين عمر بن الخطاب، ثم طعن عمر، فدخلوا عليه وهو في البيت وسألوه أن يستخلف عليهم، فجعل الخلافة شورى بين هؤلاء الستة من المهاجرين الأولين... وكل هذا يدل على الارتباك، ولقد كانت هذه

---

(١) المصدر السابق ٥٢٩ / ٣.

(٢) كتب وشخصيات / سيد قطب ط دار الشروق.

الطريقة سبيلا إلى المخاصمة، فقد تشاح أصحاب الشورى على الخلافة، وأخروا إبرام الأمر، ورجا كل واحد منهم أن يكون خليفة... وكاد يؤدي هذا الأمر إلى الفتنة، فقد تطلع الناس إلى معرفة خليفتهم وإمامهم، واحتاج من أقام لانتظار ذلك من أهل البلدان إلى الرجوع إلى أوطانهم، ولسنا ندري ما الذي حمل سيدنا عمر على الوقوع في هذا الارتباك، وقد كان قادرا على أن يستخلف أصلح القوم، وهو يعرفهم واحدا واحدا، ويعرف عيوبهم وفضائلهم، ولكنه عدل عن ذلك، وإذا لجأت إلى الحرية في الكلام قلت: خاف التبعة ففر منها، فإنه جعل الأمر شورى بين جماعة كل واحد منهم يريد الخلافة لنفسه مخالفا للقواعد النفسية في السياسة، ولقد أنقذ الله المسلمين من فتنة الشورى، وكانوا في غنى عنها لو حزم عمر... ففكرة عمر في أن يجعل أمر المسلمين شورى بين ستة يتزاحمون على الخلافة غلطة نفسية، وقد أدرك معاوية هذه الغلطة، ومثله لا يكاد يفوته شئ من أسرار السياسة النفسية، فقد ذكروا أن زيادا أوفد ابن حصين إلى معاوية، فأقام عنده ما أقام، ثم إن معاوية بعث إليه ليلا فخلا به، فقال له: يا ابن حصين قد بلغني أن عندك ذهنا وعقلا فأخبرنا عن أي شئ أسألك عنه؟ قال: سلني عما بدا لك، قال: أخبرني ما الذي شتت أمر المسلمين وملأهم وخالف بينهم؟ قال ابن حصين: نعم، قتل الناس عثمان، فقال معاوية: ما صنعت شيئا. قال: فمسير علي إليك وقتاله إياك. فقال: ما صنعت شيئا، قال ابن حصين: فمسير طلحة والزبير وعائشة وقتال علي إياهم، فقال: ما صنعت شيئا. قال: ما عندي غير هذا يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: فأنا أخبرك، إنه لم يشتت بين المسلمين، ولا فرق أهواءهم إلا الشورى التي جعلها عمر إلى ستة نفر.... فلم يكن رجل منهم إلا رجاها لنفسه وجاها له قومه وتطلعت إلى ذلك نفسه، ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك خلاف... وعلى هذا فالشورى غلطة نفسية رحم الله من غلطها.

ويعلق سيد قطب على هذا الكلام فيقول:... إن الشخصية التي يصدر عليها مثل هذا الحكم السريع شخصية جليلة ضخمة فذة في تاريخ الإسلام... على أنني لست من أنصار القداسة المطلقة للشخصيات الإسلامية، ولست أعني

مما تقدم أن أحرم المعاصرين حق الحكم على هذه الشخصيات، ولكني أريد أن تتوافر أسباب الحكم كاملة... وليس ما نقله الأستاذ من أقوال معاوية حجة، فمعاوية كان يريد بهذا القول التمهيد لاستخلاف ابنه يزيد، وهنا عنصر نفسي فات الأستاذ جبري ملاحظته، ولست أجزم الجزم القاطع برأيي هذا، كما فعل الأستاذ في تخطئة عمر، ولكني أريد فقط ألا نسارع إلى الحكم القاطع وبين أيدينا كفتا الميزان على الأقل تتأرجحان (١).

ثم يتطرق الكاتب إلى معركة صفين، فوصف الإمام بأنه كان يجهل العناصر النفسية في صراعه مع معاوية فقال: لم تكن معرفته بالأمور النفسية على قدر صراحته، فإذا لم تنجح سياسته النجاح كله، فهذا سببه أنه لم يخطر على باله أن طلب الحقوق يستلزم كثيرا من حسن الموارد والمصادر... ولم يدر الإمام أن الناس عامة إنما همهم حطام هذه الدنيا، فكان يعز عليه أن يعتقد أن الناس يدورون كيف دارت مصالحهم ومنافعهم، فلم يعاملهم كنا يجب أن يعاملهم رجل السياسة، وإنما عاملهم كما يعاملهم رجل الأخلاق، فكان من عواقب هذه المعاملة شكوه منهم في كل كلام وفي كل خطبة.

ويعلق سيد قطب فيقول: وهكذا يحكم على علي كرم الله وجهه بأنه كان يجهل النفس البشرية لمجرد أنه لم يستخدم الوسائل السياسية التي استخدمها خصماه معاوية وعمرو بن العاص، وأبسط نظرة تكشف أن هناك فرقا كبيرا بين معرفة السلاح واستخدام هذا السلاح، فلم يكن الفرق بين علي وبين خصميه أنه يجهل النفس البشرية وأنهما يعرفانها، إنما كان الفرق في حقيقته هو الرضى باستخدام كل سلاح يرضاه الخلق العالي أو يأباه، فعلي لم تكن تنقصه الخبرة بوسائل الغلبة ولا بنوازع النفوس البشرية وأهوائها، ولكنه لم يكن يتدنى لاستخدام الأسلحة القذرة جميعا، وفي رده على من أشاروا عليه بتوزيع المال لرشوة الضمائر ما يكفي " أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه من الإسلام. فوالله لا أفعل ذلك ما لاح في السماء نجم "

---

(١) أي كفة الغلطة النفسية لعمر. وكفة الغلطة النفسية لمعاوية.

فحين قالها لم يكن جاهلا أن الناس عامة همهم حطام هذه الدنيا، ولكنه كان مترفعا عن استخدام سلاح تستقذره نفسه الكريمة ويستخدمه خصمه بلا تحرج وكذلك رده على ابن عباس. حينما استصوب إشارة المغيرة بن شعبة على علي بأن يولي الزبير البصرة ويولي طلحة الكوفة يدل على هذا، فلقد قال: ولو كنت مستعملا أحدا لضره ونفعه لاستعملت معاوية على الشام "، فهو إذن لم يكن بجهل ما يضر وما ينفع، ولكنه كان يأبى ويترفع. ثم يقول سيد قطب رحمه الله: إن معاوية وزميله عمرو لم يغلبا عليا لأنهما أعرف منه بدخائل النفوس وأخبر منه بالتصرف النافع في الظرف المناسب، ولكن لأنهما طليقان في استخدام كل سلاح، وهو مقيد بأخلاقه في اختيار وسائل الصراع، وحين يركن معاوية وزميله إلى الكذب والغش والخديعة والنفاق والرشوة وشراء الذمم. لا يملك علي أن يتدنى إلى هذا الدرك الأسفل. فلا عجب ينجحان ويفشل، وإنه لفشل أشرف من كل نجاح، على أن غلبة معاوية على علي كانت لأسباب أكبر من الرجلين، كانت غلبة جيل على جيل، وعصر على عصر، واتجاه على اتجاه، كان مد الروح الإسلامي العالي قد أخذ ينحسر، وارتد الكثيرون من العرب إلى المنحدر الذي رفعهم منه الإسلام، بينما بقي علي بن أبي طالب في القمة لا يتبع هذا الانحسار، ولا يرضى بأن يجرفه التيار، من هنا كانت هزيمته، وهي هزيمة أشرف من كل انتصار ثم يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله.

لقد كان انتصار معاوية هو أكبر كارثة دهمت روح الإسلام التي لم تتمكن بعد من النفوس، ولو قد قدر لعلي أن ينتصر، لكان انتصاره فوزا لروح الإسلام الحقيقية، الروح الخلقية العادلة المترفعة التي لا تستخدم الأسلحة القذرة في النضال، ولكن انهزام هذه الروح ولما يمض عليها نصف قرن كامل، وقد قضى عليها فلم تقم لها قائمة بعد – إلا سنوات على يد عمر بن عبد العزيز – ثم انطفأ ذلك السراج، وبقيت الشكليات الظاهرية من روح الإسلام الحقيقية. قد تكون رقعة الإسلام قد امتدت على يدي معاوية ومن جاء بعده، ولكن روح الإسلام قد تقلصت، وهزمت، بل انطفأت، فإن يهش إنسان لهزيمة الروح الإسلامية الحقيقية في مهدها وانطفاء شعلتها بقيام ذلك الملك العضوض، فتلك غلطة نفسية

وخلقية لا شك فيها.
ثم يقول رحمه الله: على أننا لسنا في حاجة يوما من الأيام أن ندعو الناس إلى خطة معاوية، فهي جزء من طبائع الناس عامة، إنما نحن في حاجة لأن ندعوهم إلى خطة علي بن أبي طالب، فهي التي تحتاج إلى ارتفاع نفسي يجهد الكثيرون أن ينالوه، وإذا احتاج جيل لأن يرعى إلى خطة معاوية، فلن يكون هو الجيل الحاضر على وجه العموم، فروح " مكيافيلي " التي سيطرت على معاوية قبل مكيافيلي بقرون هي التي تسيطر على أهل هذا الجيل، وهم أخبر بها من أن يدعوهم أحد إليها، لأنها روح " النفعية " التي تظلل الأفراد والجماعات والأمم والمحكومات.
ثم يقول رحمه الله: وبعد، فلست " شيعيا " لأقرر هذا الذي أقول، إنما أنا أنظر إلى المسألة من جانبها الروحي الخلقي، ولن يحتاج الإنسان أن يكون شيعيا لينتصر للخلق الفاضل المترفع عن الوصولية الهابطة المتدنية، ولينتصر لعلي بن أبي طالب على معاوية وعمرو، إنما ذلك انتصار للترفع والنظافة والاستقامة..... (١).
٢ - الشهود:
بعد أن قدمنا الآراء حول الأحداث، نقدم الشهود على هذه الأحداث بمعنى أن كل مساحة تاريخية بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم سنقدم شاهدا منها، وفي النهاية يمكن أن نحكم على المسيرة بوجه عام، وهؤلاء الشهود اعتبرهم من الموازين التي يوزن بها الأحداث التي رصدتها في هذا الكتاب، فشهادة الشهود هنا تلتقي مع النتيجة التي انتهى إليها هذا البحث.
وشهود الفترة من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى مقتل عثمان هم

---

(١) كتب وشخصيات / سيد قطب ص ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣.

أبي بن كعب وحذيفة بن اليمان، فأما شهادة أبي بن كعب فلقد سجلت حب الناس للدنيا في عهد عمر. روى مسلم عن عبد الله بن الحارث قال: كنت واقفا مع أبي بن كعب فقال: لا يزال الناس مختلفة أعناقهم في طلب الدنيا " (١)، وأما شهادة حذيفة فلقد سجلت ظهور النفاق، روى البخاري عنه أنه قال: " إنما كان النفاق على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان " (٢)، وقال فيما رواه البخاري أيضا: " إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون " (٣)
وروى البزار بسند صحيح عن أبي وائل قال: قلت لحذيفة النفاق اليوم شر أم على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فضرب على جبهته وقال: أوه، هو اليوم ظاهر إنهم كانوا يستخفون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم " (٤).
أما الحلقة الثانية من الشهود فتمتد حتى عهد الوليد بن عبد الملك. فأبو برزة الأسلمي سجلت شهادته القتال على الملك خلال هذه الفترة. عن أبي المنهال قال: لما كان ابن زياد ومروان بالشام ووثب ابن الزبير بمكة ووثب القراء بالبصرة، انطلقت مع أبي إلى أبي برزة الأسلمي فقال أبي: يا أبا برزة ألا ترى ما وقع فيه الناس؟ فقال: إني احتسبت عند الله أني أصبحت ساخطا على أحياء قريش، إنكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذي علمتم من الذلة والقلة والضلالة، وإن الله أنقذكم بالإسلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم حتى بلغ ما ترون، وهذه الدنيا أفسدت بينكم، إن ذاك الذي بالشام والله إن يقاتل إلا على الدنيا، وإن هؤلاء الذين بين أظهركم والله إن يقاتلون إلا على الدنيا، وإن ذاك الذي بمكة والله إن يقاتل إلا على الدنيا " (٥).

---

(١) رواه مسلم ك الفتن (الصحيح ١٩ / ١٨).
(٢) البخاري ك الفتن (الصحيح ٢٣١ / ٤).
(٣) البخاري ك الفتن (الصحيح ٢٣٠ / ٤).
(٤) رواه البزار (فتح الباري ٧٤ / ١٣).
(٥) رواه البخاري (الصحيح ٢٣٠ / ٤).

وبعد شهادة القتال على الدنيا تأتي شهادة جابر بن عبد الله التي سجل فيها خروج الناس من دين الله أفواجا بعد أن دخلوه أفواجا، فعن أبي عمار قال: حدثني جار لجابر بن عبد الله قال: قدمت من سفر فجاءني جابر يسلم علي، فجعلت أحدثه عن افتراق الناس وما أحدثوا، فجعل جابر يبكي ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا (١)، ومات جابر بن عبد الله في عهد عبد الملك، وبعد شهادة جابر تأتي شهادة أنس بن مالك التي سجل فيها ضياع كل شئ، روى البخاري عن الزهري أنه دخل على أنس فوجده يبكي فقال: ما يبكيك؟ قال: لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة. وهذه الصلاة قد ضيعت "، وعن ابن عمران الجوفي قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ما أعرف شيئا اليوم مما كنا عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلنا: فأين الصلاة قال: أولم تصنعون في الصلاة ما قد علمتم " (٢).

وقد يقول قائل: ما معنى ضياع الصلاة على الرغم من أن الناس يصلون؟

فنقول: إن معنى الضياع هو تفريغ الصلاة من الخشوع كما فرغ القرآن. من التفسير، والخشوع يبهت إذا ابتعد الإنسان عن المصدر الذي يعله الكتاب والحكمة، ومعنى الضياع أيضا أن يتقرب الإنسان بها إلى الله وهو يعتقد أن الإله يمكن أن يرى وأن له أعضاء ويضحك ويبكي إلى غير ذلك. فالصلاة هنا مصدرها الوحيد عالم الضياع الذي ينتهي إلى هباء ضائع في خلاء، ومن معاني الضياع إدخال ما ليس من الصلاة في الصلاة أو سرقتها، وأول من وضع وتد السرقة من الصلاة معاوية بن أبي سفيان وما زالت سرقته جارية إلى يومنا هذا، يقول الإمام فخر الدين الرازي في تصنيف له في سورة الفاتحة:

روى الشافعي بإسناده أن معاوية قدم المدينة فصلى بهم ولم يقرأ " بسم الله الرحمن الرحيم " ولم يكبر عند الخفض إلى الركوع والسجود، فلما سلم ناداه

---

(١) رواه أحمد والسيوطي في الجامع ورمز له بالحسن (الفتح الرباني ٧ / ٢٤).

(٢) رواه أحمد والترمذي من غير وجه عن أنس (الفتح الرباني ٩٩ / ١).

المهاجرين والأنصار: يا معاوية سرقت الصلاة. أين بسم الله الرحمن الرحيم؟ أين التكبير عند الركوع والسجود؟ فأعاد الصلاة مع للتسمية والتكبير. قال الإمام الشافعي لولا أمر الجهر بالبسملة كان كالأمر المتقرر عند الصحابة من المهاجرين والأنصار لما قدروا على إظهار الانكار عليه بسبب تركه، وهو حديث حسن أخرجه الحاكم والدار قطني وقال: إن رجاله ثقات. وقد بينا أن هذا يدل على أن الجهر بهذه الكلمة كالأمر المتواتر فيما بينهم " (١).

وإذا كان معاوية قد أعاد الصلاة في المدينة، إلا أنه بالشام كان يقودهم إلى عالم ضياع الصلاة، وما فعله معاوية كان خطوة أكمل مسيرتها يزيد وعبيد الله بن زياد، وعبد الملك والحجاج بن يوسف، وأصول خطوات الضياع نجدها في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد. عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لينقض الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها. فأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة " (٢).

فبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بفترة قصيرة كان صحابته الأوفياء يصلون سرا. روى البخاري عن حذيفة أنه قال: ابتلينا حتى أن الرجل ليصلي وحده وهو خائف " (٣)، وفي رواية عند أحمد ومسلم " فابتلينا حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سرا " (٤)، وعندما جاء عصر الوليد لم يكن الأمر يحتاج إلى أي سر لأن كل شئ قد ضاع وأصبح كل إنسان خائف، ولله الأمر والحكم، إنه الطريق الذي ضاعت عليه الصلاة هو نفس الطريق الذي تم فيه.

عزل الراسخون في العلم عن القرآن، ثم تفريغ القرآن نفسه بعد ذلك من تفسير النبي صلى الله عليه وسلم، والطريق الذي ضاعت فيه الصلاة تم تفريغ القرآن فيه هو نفس الطريق الذي رفعت على أعلام اللارواية عن

---

(١) تبسيط علوم الحديث / نجيب المطيعي ص ٦٨.
(٢) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والحاكم (كنز العمال ٢٣٨ / ١).
(٣) رواه البخاري (الصحيح ١٨٠ / ٢) ك الجهاد والسير.
(٤) رواه أحمد (الفتح الرباني ٤٠ / ٢٣) مسلم (الصحيح ١٧٩ / ٢).

رسول الله، فبعد كل هذا لا عجب إذا رأيت النتيجة بعد ستين سنة من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم: " يكون خلف بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيا. ثم يكون خلف يقرأون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر " (١).

أنظر إلى قوله: " يكون خلف " ثم تدبر القول، وعندئذ سترى طابورا طويلا يعرف بعضهم بعضا وإن لم يلتقوا، ثم انظر إلى قوله: " يقرأون القرآن لا يعدو تراقيهم " ثم إرجع وتدبر عملية العزل والتفريغ، وعندئذ ستعلم أن هؤلاء نتيجة لا غبار عليها لمقدمة لا غبار عليها، ثم انظر إلى قوله: " ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر "، ثم ارجع وتدبر المعارك من أجل إقامة الدين والمعارك من أجل طلب الدنيا. أنظر! إن الجميع هنا وهناك يقرأون القرآن، ولكن لكل قراءة قبله، فالمنافق كافر به، والفاجر يتأكل منه، والمؤمن يؤمن به. الجميع يقفون على أرض واحدة وتحت أعلام الإسلام، ولكن الأهداف تحت الأعلام ليست واحدة. نعم. إن الجميع يقرأون القرآن، ولكن هل القرآن شفاء للجميع؟ عليك أن تتدبر قوله تعالى: (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) (٢)، هل تدبرت؟ إن كل حركة في هذا الكون تخضع لرواية، وكل ساكن في هذا الكون منظور، وما تسقط من ورقة إلا ويعلمها الذي خلقها، وكذلك الذين تفرقوا لن يجدي عنهم قراءة القرآن الذي لا يجاوز تراقيهم، فهم تحت الرقابة ينظر الله كيف يعملون. وسبحانه يعلم من قبل أن يتفرقوا أنهم سيتفرقون وأن طريق الافتراق سيقودهم إلى سنن الذين من قبلهم، وهناك تراهم على منحدرات الأودية كالغثاء العفن قال النبي صلى الله عليه

---

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٢٣١ / ٦) وقال ابن كثير تفرد به أحمد وإسناده جيد قوي (البداية ٢٢٨ / ٦) ولم يتفرد به أحمد كما زعم ابن كثير. ورواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرك ٥٠٧ / ٤) ورواه البيهقي (الخصائص الكبرى ٢٣٦ / ٢) ورواه ابن حبان في صحيحه (كنز ١٩٥ / ١١).

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

وسلم: " إن بني إسرائيل تفرقت إحدى وسبعين فرقة، فهلك سبعون فرقة خلصت فرقة واحدة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة تهلك إحدى وسبعون وتخلص فرقة. قيل يا رسول الله من تلك الفرقة؟ قال: الجماعة الجماعة " (١).

أنظر إلى قوله: " الجماعة الجماعة " ثم انظر إلى الساحة التي يقرأ القرآن فيها ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر، ثم تدبر الأحداث والدوائر هل رأيت الجماعة؟ دعنا نكرر النظر ونعيد البحث، وهيا ننظر من جديد.

والقرآن وتفسير النبي أخبرا بأن بعد الاختلاف والافتراق يكون الطريق مفتوحا إلى سنن الأمم السابقة. قال تعالى: (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم * كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) (٢)، إن المنافقين والكفار في صدر الآية، فافهم ذلك، أما تفسير النبي لهذه الآيات رواه ابن جرير عن الربيع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية:

حذركم الله أن تحدثوا في الإسلام حدثا، وقد علم أنه سيفعل ذلك أقوام من هذه الأمة، إنما حسبوا أن لا يقع بهم من الفتنة ما وقع ببني إسرائيل قبلهم، وأن الفتن عائدة كما بدأت. وروى ابن جرير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لتأخذن كما أخذ الأمم من قبلكم ذراعا بذراع وشبرا بشبر وباعا بباع. حتى لو أن أحد من أولئك دخل حجر ضب لدخلتموه " (٣)، وروى ابن كثير عن ابن عباس أنه قال: ما أشبه الليلة بالبارحة " كالذين من قبلكم " هؤلاء بنو إسرائيل

---

(١) رواه أحمد (الفتح الرباني ٦ / ٢٤) والترمذي وصححه (الجامع ٤٥ / ٤) وابن أبي عاصم وقال الألباني صحيح وله ست طرق عن أنس وشواهد من جميع الصحابة (كتاب السنة ٣٢ / ١).

(٢) سورة التوبة: الآية ٦٨ - ٦٩.

(٣) ابن جرير في تفسيره ١٢٢ / ١٠.

شبهنا بهم، والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه " (١) لقد شهد ابن عباس " ما أشبه الليلة بالبارحة " ويا لها من شهادة!. وإذا أردنا أن نرصد شهادة على المساحة الزمنية الممتدة حتى عام ١٦١ ه فلن نجد أفضل من شهادة سفيان الثوري، فلقد جاء في زمن لا يدري فيه القاتل في أي شئ قتل ولا يدري المقتول في أي شئ قتل (٢). يقول ابن كثير: سفيان الثوري أحد أئمة الإسلام وعبادهم والمقتدى به، وقال يحيى بن معين وغير واحد: هو أمير المؤمنين في الحديث وقال شعبة: ساد الناس بالورع في زمانه وقال أحمد: لا يتقدمه في قلبي أحد (٣). وكان سفيان كثير الحط على المنصور لظلمه وأراد المنصور قتله مما أمهله الله (٤). وحاول المهدي إغراؤه بالمال والمنصب وكتب له على قضاء الكوفة، فرمى سفيان الكتاب في دجلة وهرب (٥). وكان يقول: من لاق لهم دواة أو برى لهم قلما فهو شريكهم في كل دم (٦). وعندما قرأ حديث " هلاك أمتي على أيدي غلمة من قريش سفهاء " قال: ما أشبه طعامهم إلا بطعام الدجال (٧). وكان يقول ليوسف بن أسباط: يا يوسف لا تكن من قراء الملوك، ولا تكن فقيه السوق، وما أقبح قراءة ليس معها زهد، وأن دعاك الملوك على أن تقرأ عليهم (قل هو الله أحد) فلا تفعل (٨). وقال له: ما رأينا الزهد في شئ أقل منه في الرآسة، ترى الرجل يزهد في المال والثياب والمطعم، فإذا نوزع في الرياسة، جابى عليها وعادى (٩).

---

(١) ابن جرير في تفسيره ٣٦٨ / ٢.
(٢) الحديث رواه مسلم (الصحيح ٣٤ / ١٨).
(٣) البداية والنهاية ١٣٤ / ١٠، شذرات الذهب / ابن العماد ٢٥٠ / ١.
(٤) شذرات الذهب ٢٥٠ / ١.
(٥) شذرات الذهب ٢٥٠ / ١.
(٦) كتاب الورع / أحمد بن حنبل ص ٩٣.
(٧) المصدر السابق ص ٩٤.
(٨) المصدر السابق ٩٥.
(٩) المصدر السابق ٩٦.

كانت هذه حركة سفيان حتى وفاته عام ١٦١ ه وإذا أردنا أن نقدم شهادة سفيان فإننا في الوقت نفسه نقدم حركته. وفي شهادته على عصره سألوه معاملة الأمراء أحب إليك أم غيرهم؟ فقال: معاملة اليهود والنصارى أحب إلي من معاملة هؤلاء الأمراء (١). وقال: القبول مما في أيديهم من استحلال المحارم، والتبسم في وجوههم علامة الرضا بفعالهم، وإدمان النظر إليهم يميت القلب (٢). وقال: لا تنظروا إلى الأئمة المضلين إلا بإنكار قلوبكم عليهم لئلا تحبط أعمالكم (٣).

هذا هو سفيان الثوري الذي وصف بأنه أمير المؤمنين في الحديث، ولكن أين ذهب فقه هذا الشيخ؟ وقد قال عنه ابن العماد: ومات سفيان بالبصرة متواريا، وكان صاحب مذهب، وقال ابن رجب: وجد في آخر القرن الرابع سفيانيون ومناقبه تحتمل مجلدات " (٤)، في الحقيقة ما كان لفقه الباحث عن الحقيقة أن يبقى في عالم طعامه أشبه بطعام الدجال. لقد رفسوا فقهه بعد مماته بعد أن رفسوه في حياته، ولقد تتبعت رحلة البحث لهذا الشيخ فما وجدت عليها إلا التعتيم الشديد، الأمر الذي دعاني للبحث عنه في مصادر عديدة كي أقف على ما وصل إليه، وفي بحار الأنوار قرأت أن سفيان الثوري سمع حديثا يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: نعيت إلى نفسي.... نصر الله امرءا سمع مقالتي فوعاها وبلغها من لم يسمعها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهم قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمة المسلمين واللزوم لجماعتهم، فإن دعوتهم محيطة من ورائهم، أيها الناس إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا ولن تزلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا علي

---

(١) المصدر السابق ٩٦.
(٢) المصدر السابق ٩٦.
(٣) المصدر السابق ٩٦.
(٤) شذرات الذهب ٢٥١ / ١.

الحوض " (١)، وعندما سمع سفيان الثوري هذا الحديث الذي جاءه عن طريق أهل البيت قال لصاحبه: كما أنت حتى أنظر في هذا الحديث. فقال صاحب سفيان: ثلاث لا يغل عليهم قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل قد عرفناه والنصيحة لأئمة المسلمين، من هؤلاء الأئمة الذين يجب علينا نصيحتهم؟ معاوية بن أبي سفيان ويزيد معاوية ومروان بن الحكم وكل من لا تجوز شهادته عندنا ولا تجوز الصلاة خلفهم. وقوله: واللزوم لجماعتهم، فأي جماعة؟ مرجئ يقول: من لم يصل ولم يصم ولم يغتسل من جنابة وهدم الكعبة ونكح أمه فهو على إيمان جبريل وميكائيل، أو قدري يقول: لا يكون ما شاء الله عز وجل ويكون ما شاء إبليس، أو حروري يبرأ من علي بن أبي طالب وشهد عليه بالكفر، أو جهمي يقول: إنما هي معرفة الله وحده ليس الإيمان شئ غيرها (٢). فقال له سفيان: ويحك وأي شئ يقولون قال: يقولون: إن عليا والله الإمام الذي يجب علينا نصيحته ولزوم جماعة أهل بيته " (٣).

وسمع سفيان حديث " من قاتلنا آخر الزمان فكأنما قاتلنا مع الدجال " (٤). عندئذ علم سفيان أن الأمراء ما أشبه طعامهم إلا بطعام الدجال (٥). وبدأ يمسك بخيط البحث عن الحقيقة. روى أبو الفرج الأصفهاني عن أبي عوانة قال: فارقني سفيان على أنه زيدي (٦). وانطلق الشيخ في رحلة البحث، واندثر فقهه ومذهبه، وما عند الله خير وأبقى.

وفي دائرة الشهود أمامنا العديد من الرجال والكثير من الأحاديث، وكل دائرة فيها شهادة وكل شهادة حجة بذاتها، وإليك حديثا جاء على لسان أمراء

---

(١) الرسول تحدث بهذا الحديث في غدير خم. ثم حدث به في مسجد الخيف قبل أن يلقى الرفيق الأعلى (بحار الأنوار ٦٩ - ٢٧).
(٢) أي إيمان بلا عمل.
(٣) بحار الأنوار ٧٠ / ٢٧.
(٤) بحار الأنوار ٢٠٥ / ٢٧.
(٥) الورع / أحمد بن حنبل ص ٩٤.
(٦) مقاتل الطالبين ص ١٤١.

المؤمنين ليكون شاهدا عليهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. عن إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: حدثني أمير المؤمنين المأمون حدثني أمير المؤمنين الرشيد حدثني أمير المؤمنين المهدي قال: دخل علي سفيان الثوري، فقلت: حدثني بأحسن فضيلة عندك لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فقال سفيان: حدثني سلمة بن كهيل عن حجية عن علي بن أبي طالب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: أنت مني بمنزلة هارون من موسى (١). وعن موسى الجهني قال: دخلت على فاطمة بنت علي، فقال لها رفيقي أبو سهل: كم لك؟ قالت: ست وثمانون سنة. قال: ما سمعت من أبيك شيئا؟ قالت: حدثتني أسماء بنت عميس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس بعدي نبي " (٢).

فهذا الحديث في هذه الأزمنة حجة على الخاص والعام، وبين أيدينا أيضا حديث رواه أبناء الصحابي الجليل عمار بن ياسر، ونقدمه هنا في دائرة الشهود فعن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه عن جده قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: أوصي من آمن بي وصدقني بولاية علي بن أبي طالب، فمن تولاه فقد تولاني، ومن تولاني فقد تولى الله، ومن أحبه. فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله عز وجل " (٣)، وعنه أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم من آمن بي وصدقتي فليتول علي بن أبي طالب، فإن ولايته ولايتي وولايتي ولاية الله " (٤).

وبين أيدينا حديث رواه أبناء الصحابي أبي رافع، نقدمه أيضا في دائرة الشهود، عن محمد بن عبد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله

---

(١) رواه ابن النجار (كنز العمال ١٥١ / ١٣).
(٢) رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات (الفتح الرباني ١٢٩ / ٢٧).
(٣) رواه الطبراني في الكبير وابن عساكر (كنز العمال ٦١٠ / ١١).
(٤) رواه الطبراني في الكبير (كنز ٦١١ / ١١).

صلى الله عليه وسلم: " من أحب عليا فقد أحبني. ومن أحبني فقد أحب الله. ومن أبغضه فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله " (١).
وهكذا التقي البدء مع الختام وكل نتيجة سقطت على مقدمتها، وعلى امتداد الرحلة كانت النتائج تنطق بلسان فصيح وكانت المقدمات تشع لتراها العصور البعيدة، وعلى امتداد الزمان كان هناك رجال يتكلمون من كلامهم تنكشف حقائق أمام الباحثين الذي يبحثون عن المقدمات أو الذين يتأملون في النتائج، ومن هذه الأقوال قول الحسن البصري: أفسد أمر الناس اثنان عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف فحملت... فلا يزال هذا التحكيم إلى يوم القيامة، والمغيرة بن شعبة الذي بث في معاوية البيعة ليزيد من بعده، ثم خرج يقول: وضعت رجل معاوية في غرز نحس لا يزال فيه إلى يوم القيامة. ثم قال الحسن: فمن أجل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم " (٢)، وروي أن الحسن كان ينقم على معاوية أربعة أشياء: قتاله عليا، وقتله حجر بن عدي واستلحاقه زياد بن أبيه ومبايعته ليزيد ابنه " (٣)، فهذه شهادة الحسن البصري على بعض أحداث عصره ويمكن بتتبعها أن يصل الباحث إلى مقدماتها، وهناك أيضا شهادة عروة بن بلحة قال: أول ذل دخل على العرب قتل الحسين بن علي وادعاء زياد (٤). وفي رواية عن أبي إسحاق بزيادة: وقتل حجر بن عدي (٥). وهذه كلها مقدمات لفحص معاوية وفتح خزانته، أما التصنم أمام قول ابن كثير: " إن معاوية هو ستر الصحابة، فإذا كشف الستر اجترأ على ما وراءه " (٦)، فإنه لن يقيد باحثا، فالصحابة أجل من أن يندثروا برداء وستر معاوية وأتباعه.
وفي دائرة الشهود نستمع إلى قول الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام،

---

(١) رواه الطبراني عن ابن أبي رافع وعن أم سلمة (كنز ٦٢٢ / ١١).
(٢) تاريخ الخلفاء ١٩٢.
(٣) البداية والنهاية ١٣٠ / ٨، الطبري ١٥٧ / ٦.
(٤) رواه الطبراني ورجاله ثقات (الزوائد ١٩٦ / ٩).
(٥) مقاتل الطالبين ٨٣، ابن أبي الحديد ١٨ / ٤.
(٦) البداية والنهاية ١٣٩ / ٨.

حيث يقرر أن علماء الجرح والتعديل ابتعدوا عن أي قول من الأمراء وأبناء الأمراء خوفا من السيف، وعلى هذا يمكن القول إن كلمة الحق كانت ترتعش على السطور في تلك الأزمنة، ولم تفسح السطور إلا لما يريده النظام، فبينما لا تكتب كلمة واحدة في الأمراء وأبنائهم، نجدهم يجرحون علماء الدراية الذين لا ينامون أمام خزائن السلطان، على سبيل المثال جاء في ترجمة جعفر بن سليمان كما ذكر صاحب كتاب التقريب: جعفر بن سليمان الضبعي أبو سلمان البصري صدوق زاهد لكنه كان يتشيع. وقال في التهذيب: كان جعفر إذا ذكر معاوية شتمه وإذا ذكر عليا قعد يبكي (١). وكان هذا البكاء كافيا لرفسه كما رفس سفيان الثوري من قبل.

وفي الختام أقول: هيا نتفق على أن الجميع خلفاء بما فيهم خلفاء الدولة الأموية والدولة العباسية ومن جاء بعدهم. الجميع بلا استثناء خلفاء ونحن نقر هنا بذلك، ولكن الأهم من هذا كله ممن نأخذ السنة؟ فهنا كما يقولون مربط الفرس. إن العمل بالسنة صفحته القرآن فأي حبل نأخذ به شرط أن يكون قرينا للقرآن؟ إننا هنا لانتصر للقبائل والأحزاب، ولكننا نريد دثار الإسلام وحده، نريد أن نسير في ظلاله، وإذا كانت هناك كلمة، فإني أوجهها للباحثين فأقول: أقدموا على الإسلام وهو ليس غائبا عنكم، هو فيكم ومعكم حجة عليكم، ولكي تنصهروا فيه فلا بد أن تنتقلوا من دائرة الشعار إلى دائرة الشعور، فدائرة الشعور هي نفسها دائرة الغرباء، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء " (٢)، قال النووي: أي أن الإسلام بدأ في آحاد من الناس وقلة ثم انتشر وظهر، ثم سيلحقه النقص والإخلال حتى لا يبقي إلا في آحاد وقلة أيضا كما بدأ (٣). وقيل: ظهر في الغربة وسيعود من بلاد الغربة...

---

(١) تحفة الأحوذي ٢١٤ / ١٠.
(٢) رواه مسلم وابن ماجة والطبراني (كنز العمال ١٧٧ / ٢).
(٣) مسلم بشرح النووي ١٧٧ / ٢.

كونوا في دائرة الغرباء. والغربي هو الذي يفر من مدينة إلى مدينة ومن قلة إلى قلة ومن بلد إلى بلد ومن بر إلى بحر ومن بحر إلى بر، ومن أوراق إلى أوراق حتى يسلم وأني له بالسلامة مع هذه النيران التي طافت بالشرق والغرب وأتت على الحرث والنسل، فكممت الأفواه وأسكتت كل ناطق وحيرت كل لبيب!! ومع هذا كله فالغريب يسير وهو قابض على الجمر، كونوا في دائرة الغرباء لأن هذه الدائرة فيها إخوان النبي صلى الله عليه وسلم. قال السيد المصطفى عليه الصلاة والسلام: " متى ألقى إخواني. قالوا: ألسنا إخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابي، وإخواني الذين آمنوا بي ولم يروني، أنا إليهم بالأشواق " (١).

وفي الختام أقدم الشاهد الأخير. قال النبي صلى الله عليه وسلم:

يجئ يوم القيامة المصحف والمسجد والعترة، فيقول المصحف: يا رب حرقوني ومزقوني، ويقول المسجد: يا رب خربوني وعطلوني وضيعوني، وتقول العترة: يا رب طردونا وقتلونا وشردونا. قال النبي: وأجثو بركبتي للخصومة، فيقول الله: ذلك إلي وأنا أولى بذلك " (٢).

وأصلي وأسلم على خاتم النبيين محمد النبي الأمي العربي القرشي الهاشمي المكي المدني صلى الله عليه وسلم الطيبين الطاهرين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

القاهرة ١٩ صفر ١٤١٤ ه

٨ أغسطس ١٩٩٣ م

---

(١) رواه أبو يعلى عن أنس وابن عساكر عن البراء (كنز العمال ١٨٤ / ١٢) ورواه أحمد بلفظ: وددت أني لقيت إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني (كنز العمال ١٦٤ / ١٢).

(٢) رواه الديلمي عن جابر. وأحمد والطبراني عن أبي أمامة (كنز العمال ١٩٣ / ١١).

المراجع

١ – جامع البيان في تفسير القرآن – لابن جرير الطبري، ط دار الريان ١٩٨٧.
٢ – التفسير الكبير – فخر الدين الرازي، ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠.
٣ – تفسير الكشاف – الزمخشري، ط بولاق ١٢٨١.
٤ – تفسير القرآن العظيم – ابن كثير، ط دار التراث بحلب ١٩٥٠، المنار القاهرة ١٩٤٧.
٥ – صحيح البخاري – محمد بن إسماعيل البخاري، ط الحلبي القاهرة بتفسير السندي.
٦ – صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج ط إحياء التراث بيروت ١٩٧٢، ط استانبول ١٣٢٩.
٧ – الجامع الصحيح – أبو عيسى الترمذي ط الحلبي ١٩٧٥ القاهرة.
٨ – سنن أبي داوود – أبو داوود السجستاني، ط دار الفكر بيروت.
٩ – سنن ابن ماجة – أبو عبد الله محمد القزويني ط، دار إحياء التراث بيروت.
١٠ – الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد – أحمد البنا، ط دار التراث العربي بيروت ط ثانية.
١١ – المستدرك – أبو عبد الله الحاكم، ط دار الفكر ١٩٧٨ بيروت.
١٢ – كتاب السنة – أبو بكر بن أبي عاصم، ط المكتب الإسلامي ١٩٨٠ بيروت.
١٣ – التاج الجامع للأصول – منصور ناصف ط، دار الفكر بيروت ١٩٨١. ١٤ –
١٤ – كنز العمال – علاء الدين المتقي، ط مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٩.
١٥ – مجمع الزوائد – علي بن أبي بكر الهيثمي ط مكتبة القدس القاهرة.
١٦ – كشف الخفاء – إسماعيل بن محمد العجلوني ط مؤسسة الرسالة بيروت.
١٧ – سلسلة الأحاديث الصحيحة – ناصر الدين الألباني ط، المكتب الإسلامي.

١٨ – سلسلة الأحاديث الضعيفة – ناصر الدين الألباني ط، المكتب الإسلامي ١٣٩٩.
١٩ – الخصائص الكبرى / جلال الدين السيوطي، ط المكتبة السلفية بالمدينة ١٩٦٤.
٢٠ – تحفة الأحوازي / محمد المباركفوري، ط المكتبة السلفية بالمدينة ١٩٦٤.
٢١ – فتح الباري / ابن حجر، ط الحلبي ١٩٧٨، ط الريان القاهرة.
٢٢ – الورع / أحمد بن حنبل، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٣.
٢٣ – نظم المتناثر من الحديث المتواتر – محمد بن جعفر الكتاني، ط دار الكتب السلفية مصر.
٢٤ – موضوعات الصغاني – الحسن بن محمد الصغاني، دار نافع مصر ١٤٠١.
٢٥ – كتاب الموضوعات – أبو الفرج بن الجوزي، ط مكتبة ابن تيمية القاهرة.
٢٦ – المنار المنيف في الصحيح والضعيف / ابن القيم، ط دار المسلم مصر ١٩٨٣.
٢٧ – تدريب الراوي – جلال الدين السيوطي، ط دار الفكر بيروت.
٢٨ – المجروحين – محمد بن حبان، ط دار الوعي بحلب ١٤٠٢.
٢٩ – ميزان الاعتدال – أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، ط دار المعرفة بيروت.
٣٠ – الجرح والتعديل – ابن أبي حاتم الرازي، ط دار إحياء التراث بيروت ١٩٥٢.
٣١ – تبسيط علوم الحديث / محمد نجيب المطيعي، ط دار حسان القاهرة توزيع الاعتصام.
٣٢ – كتاب الموطأ – مالك بن أنس، ط دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٥.
٣٣ – المغني – عبد الله بن أحمد بن قدامة، ط مكتبة الجمهورية العربية القاهرة.
٣٤ – الاعتبار في الناسخ والمنسوخ – أبو بكر بن موسى الهمداني، ط دار النعي حلب ١٩٨٣.
٣٥ – مشكل الآثار – أبو جعفر الطحاوي، ط دار صادر بيروت ط ١٣٣٣.
٣٦ – منهاج السنة / أحمد بن تيمية، ط دار الفكر بيروت ١٩٨٠.

٣٧ – الفتاوى الحديثية / ابن حجر الهيثمي، ط الحلبي ١٩٧٠.
٣٨ – مصادر التشريع الإسلامي – سيد سابق، ط دار الفتح للإعلام العربي مصر.
٣٩ – خلاصة تاريخ التشريع الإسلامي / عبد الوهاب خلاف، ط دار الأنصار القاهرة.
٤٠ – الإصابة في تمييز الصحابة / ابن حجر العسقلاني، ط دار العلوم الحديثة ١٣٢٨، ط دار الكتب العلمية.
٤١ – الإستيعاب / أبو عمر يوسف بن عبد البر. هامش الإصابة، ط دار العلوم الحديثة ١٣٢٨.
٤٢ – الإستبصار في نسب الأنصار – ابن قدامة المقدسي، ط دار الفكر بيروت.
٤٣ – شذرات الذهب في أخبار من ذهب – ابن العماد الحنبلي، ط دار الفكر بيروت ١٩٧٩.
٤٤ – تاريخ الأمم والملوك – بن جرير الطبري، ط دار الفكر بيروت ١٩٧٩.
٤٥ – الطبقات الكبرى – محمد بن سعد، ط دار صادر بيروت.
٤٦ – مروج الذهب – علي بن الحسين بن علي المعودي، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٦، مكتبة الرياض ١٩٨١.
٤٧ – التنبيه والإشراف – علي بن الحسين المسعودي، ط مكتبة الهلال بيروت ١٩٨١.
٤٨ – البداية والنهاية – الحافظ بن كثير، ط دار المعارف ١٩٨١.
٤٩ – الموافقيات – الزبير بن بكار برواية ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ط مكتبة الحياة ١٩٨٣.
٥٠ – شرح نهج البلاغة – ابن أبي الحديد، ط دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٨٣.
٥١ – فتوح البلدان – أبو جعفر أحمد البلاذري، ط القاهرة ١٣١٩.
٥٢ – أنساب الأشراف – أبو جعفر البلاذري، ط القدس ١٩٣٦.
٥٣ – الأخبار الطوال – لأبي حنيفة أحمد بن الدينوري، ط وزارة الثقافة مصر.
٥٤ – الأغاني – لأبي الفرج الأصفهاني، ط مصر ١٣٢٣.

٥٥ – مقاتل الطالبين – لأبي الفرج الأصفهاني، ط مؤسسة الأعلمي ١٩٨٧.
٥٦ – العقد الفريد – أحمد بن محمد بن عبد ربه، ط لجنة التأليف والنشر مصر ١٩٥٠.
٥٧ – تاريخ دمشق – ابن عساكر أبي القاسم علي بن الحسن، ط المجمع العلمي العربي دمشق ط.
٥٨ – الكامل في التاريخ – لابن الأثير عز الدين علي بن محمد، ط دار صادر بيروت ١٩٦٦.
٥٩ – دول الإسلام – أبو عبد الله الذهبي، ط مؤسسة الأعلمي بيروت ١٩٨٥.
٦٠ – تاريخ الخلفاء – جلال الدين السيوطي، ط دار الفكر بيروت.
٦١ – رسائل بن حزم – تحقيق إحسان عباس، ط المؤسسة العربية للدراسات بيروت ١٩٨١.
٦٢ – أسد الغابة في معرفة الصحابة – ابن الأثير، ط القاهرة ١٢٨٠ ه.
٦٣ – العواصم من القواصم – أبو بكر بن العربي، تحقيق محب الدين الخطيب، ط المكتبة السلفية ١٣٩٩.
٦٤ – أزمة الفكر السياسي الإسلامي – وعبد الحميد متولي، ط الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٥.
٦٥ – نهاية الفلسفة الإسلامية – السيد الزنجاني، ط مؤسسة البلاغ بيروت ١٩٨٧.
٦٦ – تاريخ المذاهب الإسلامية – محمد أبو زهرة، ط دار الفكر العربي القاهرة.
٦٧ – تاريخ الفرق الإسلامية – محمد خليل، ط مؤسسة الأعلمي ١٩٨٥. ٦٨ – تاريخ الشعر في الكوفة – د. يوسف خليف، دار الكتاب مصر ١٩٦٨.
٦٩ – العصر العباسي الأول – د. شوقي صنيف، دار المعارف مصر.
٧٠ – طبقات سلاطين الإسلام – استانلي بول، ط الدار العالمية بيروت ١٩٨٦.
٧١ – كتب وشخصيات – سيد قطب، ط دار الشروق.
٧٢ – عبقرية الإمام علي – عباس العقاد، ط المكتبة العصرية بيروت.